

مركز دراسات الوحدة العربية

داعش إلى أين؟

جهاديو ما بعد القاعدة

الدكتور فوّاز جرجس

داعش إلى أين؟

جهاديو ما بعد القاعدة



مركز دراسات الوحدة العربية

داعش إلى أين؟

جهاديو ما بعد القاعدة

الدكتور فواز جرجس

ترجمة: د. محمد شيا

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

جرجس، فواز

داعش إلى أين؟: جهاديو ما بعد القاعدة/فواز جرجس، ترجمة محمد شيّا.

٣٠٢ ص.

ببليوغرافية: ٢٦٣ - ٢٩٤.

يشتمل على فهرس.

ISBN 978-9953-82-762-9

١. الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش). ٢. الربيع العربي.

٣. البلدان العربية - الظروف السياسية. أ. العنوان. ب. شيّا، محمد (مترجم).

324.2382

العنوان الأصلي بالإنكليزية

ISIS: A History

By Fawaz A. Gerges

(Princepton, NJ: Princeton University Press, 2016)

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣

الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

email: info@caus.org.lb

يمكنكم شراء كتب المركز عبر موقعنا الإلكتروني

http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى

بيروت، أيار/مايو ٢٠١٦

إهداء

إلى النساء الأيزيديات

اللاتي عانين وحشية «تنظيم الدولة الإسلامية»

وصمدن في وجه ثقافته بكثير من الإصرار.

إن شجاعتهن، وسط بحر من البربرية،

لهي سموٌّ بالروح الإنسانية.

المحتويات

عرفان

من السهل وصف السلفيين الجهاديين في ما يسمّى بـ «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، (داعش) بالوحوش والهمجيين والقتلة. كذلك، من المغري تعرية تعصُّبهم الديني أو رساليتهم باعتبارهم «غير إسلاميين». إلا أن هذا النوع من الإدانة المعنوية والأخلاقية يتجاهل حقيقة مُرّة؛ وهي أن شريحة سنّية مهمّة تؤمن حقاً بالرؤية المثالية والرومانسية للجماعة في بناء دولة إسلامية، رغم أن معظم هؤلاء لا يوافقون على أساليب الجماعة العنفية المتطرفة. كذلك فإن سنّة كثيرين قدّموا فعلاً يد العون إلى تنظيم «الدولة الإسلامية» لأنهم نظروا إليه باعتباره الردّ الموازي الفعّال لـ «الهيمنة» الشيعية والعلوية السلطوية في بغداد ودمشق، على التوالي، ومن خلفهما الراعي الإيراني. تمكن تنظيم «الدولة الإسلامية» في صعوده السريع بُعيد الاضطراب الأهلي الذي ساد الشرق الأوسط منذ ٢٠١١ من الاستفادة بذكاء في أزمة الهوية للعرب السنّة في العراق وسورية وخارجهما.

لم يكن مخططو «الدولة الإسلامية» أناساً متوحشين، مجانين، هبطوا فجأة ومن دون مقدمات في العراق وسورية. فللتنظيم شرف التحدّر من عائلة سلفية جهادية أوسع كانت قد شهدت في العقود الثلاثة الماضية ولادة أشقاء له من قبل، من بينهم تنظيم «الجهاد الإسلامي» المصري، والقاعدة المركزية، و«القاعدة في العراق»، و«القاعدة في شبه الجزيرة العربية». وعليه، لا يختلف تنظيم «الدولة الإسلامية» عن سابقيه أو معاصريه من التنظيمات الجهادية المنافسة له، خلا العنف الأقصى الذي أظهره، ذلك المشهد الذي قُصد منه ردع أعدائه وإلهاب مشاعر منتسبيه من الشباب. وسيكون من المفيد الانتباه إلى أن سلف تنظيم «الدولة الإسلامية» الأقرب زمناً له، تنظيم «القاعدة في العراق»، كان قد مارس بالفعل أشكالاً صارخة من العنف، بما فيها قطع الرؤوس.

ربما لا تكون السلفية الجهادية حركة كبيرة جداً عددياً، إلا أنها بالتأكيد حركة مجتمعية مع شبكات لها عابرة للحدود وذات قاعدة اجتماعية منتشرة، وبخاصة بين الشباب؛ فالشباب، ومن بين سائر الفئات العمرية، هم الأكثر تأثراً برسالة تنظيم «الدولة الإسلامية» في الخلاص، والنصر العسكري، وقهر أعداء الإسلام الذين جرى تحديدهم بالكفرة والزنادقة؛ والأقلية الشيعية من بينهم

على وجه الخصوص. وبمعزل عمّا سيحدث لتنظيم «الدولة الإسلامية»، فقد وُجِدت أيديولوجية التنظيم لتبقى ولتستمر على الأرجح في جذب الأتباع، وبخاصة بعد تبخّر وعود انتفاضات الربيع العربي في التحرر وانسداد أبواب التغيير السياسي السلمي من جديد. ويعود جزء كبير من جاذبية خطاب تنظيم «الدولة الإسلامية» إلى غياب أي بدائل موثوق بها.

تستدعي الحقيقة هذه تفكيراً وتمحيصاً نقديين في القوى التي تقف خلف هذه الظاهرة الحديثة المعقدة كما في درجة مرونتها وديمومتها. وهو ما يفعله هذا الكتاب بالضبط من خلال تركيزه على العاملَين السياسي والاجتماعي اللذين كانا خلف ولادة التنظيم من جديد، وخلف نقاط قوته وضعفه أيضاً. يتفحّص الكتاب تنظيم «الدولة الإسلامية» من منظار مقارن، وذلك بمقابلة التنظيم بتنظيمات سلفية جهادية ذات تفكير مشابه في مروحة تشكيلات «القاعدة». ويتناول الكتاب أيديولوجية التنظيم السلفية الجهادية بالكثير من الجدية وأسباب جاذبيتها للمنتسبين إليها المحليين والأجانب؛ كما لمدلول طقوس العنف في خطابها العلني. كما يحتوي أيضاً على سجلٍ لمسيرة أبي بكر البغدادي، قائد تنظيم «الدولة الإسلامية»، من خلال تجميع شهادات شهود عيان معاصرين لجلاء حقيقة ذلك الرجل «الغامض»، وأهم من ذلك لتقييم حقيقة دوره ونفوذه داخل التنظيم.

إن قصة تنظيم «الدولة الإسلامية» معقدة، ولا يمكن اشتقاقها من السردية الدعائية المتداولة؛ سردية ما انفك بعض الباحثين يسلّمون بها تسليماً ومن دون أي تمحيص. يعتمد الكتاب، بخلاف ذلك - وإلى حد كبير - على المصادر العربية الأصلية، ويتفحّص في ذلك بيانات التنظيم وأدبياته، كما كتابات مرجعياته داخل الحركة الإسلامية والسلفية الجهادية الأوسع، مرجعيات تتعدد مواقفها، فتهاجم حيناً أو تدعم حيناً آخر، هذه القضية الجزئية أو تلك من أهداف التنظيم وسلوكياته. وعليه، فالكتاب هو، بمعنى ما، حوار في السياسة الإسلامية، وهو يضيء بالتالي على الاشتغال الداخلي لدى الحركة الجهادية العالمية والتحوّل في الولاءات والتحالفات بين زعمائها وقادتها. وهو أخيراً، امتداد لبحث ميداني كنت أجريته طوال العقدين الماضيين على الناشطين المتدينين المتشددين.

ومع استحالة إجراء مقابلات الآن مع عناصر من التنظيم (وأي زعم آخر هراء)، فقد استندتُ إلى مئات من المقالات والتقارير الأصلية لصحافيين وناشطين ومراقبين عرب من داخل العراق وسورية وأمكنة أخرى. وقد اغتنت سرديتي بتفاصيل من تغطيتهم للتنظيم وللصراعات الجارية في المنطقة العربية. ولن يتسع المجال لذكر جميع إسهامات الذين كتبوا أو أرسلوا تقارير من الميدان أو من المنطقة. وعليه، فأنا مدين قبل أي شيء لتقارير وائل عصام، ورائد الحامد، وعمر الجبوري وبسام البدارين في القدس العربي؛ وعلي السباعي، وعلاء يوسف، وأحمد الأنباري، وياسر الزعاترة، وهشام الهاشمي من شبكة «الجزيرة»؛ ومحمد أبو ريحانة، متخصص في الحركات السلفية والجهادية في صحيفة الغد الأردنية؛ وعبد الله سليمان علي، من صحيفة السفير؛ وكميل الطويل وحازم الأمين، من صحيفة الحياة؛ صهيب عنجريني وفراس الهكار من صحيفة الأخبار اللبنانية. وقد أفدت أيضاً من أعمال الصحافي والكاتب الفلسطيني عبد الباري عطوان، والباحث الأردني

حسن أبو هنية، وكلاهما متخصصان في الحركات السلفية الجهادية. وإلى ذلك، فقد عدتُ بتوسع إلى مقالات ودراسات لصحافيين وكتّاب غربيين، كما إلى «المرصد السوري لحقوق الإنسان»، وجمعية الصليب الأحمر الدولي، ومنظمة العفو الدولية، وهيومان رايتس واتش.

كما كنت محظوظاً إلى الحد الأقصى لمتابعتي مجموعة من الطلاب الذين كانوا ينجزون أطروحات دكتوراه في «مدرسة لندن للاقتصاد» الذين ساعدوني في أبحاثي وإنجازي للكتاب. وأنا أقدّر ـ على وجه الخصوص ـ الكفاءات العالية والجهد الاستثنائي لمساعدتي الباحثة الآنسة أنيسة حدّادي، التي راجعت العمل من خطواته الأولى إلى خاتمته. وأدين بشكر خاص للسيد أندرو ديلاتولا، الذي حرّر وركّب ونظّم معظم الفصول. ويذهب شكري أيضاً إلى السيد رانج علاء الدين لمراجعة الفصلين الثالث والخامس حول العراق. كذلك تلطفت الآنسة ماجدالينا سي. دلغادو بتحرير الفصل الثالث.

كذلك، نقّب مصطفى منشاوي (طالب الدكتوراه في جامعة وستمينيستر)، والآنسة شريفة عبد الرازق (طالبة ماجستير في مدرسة لندن للاقتصاد)، المواقع السلفية الجهادية الإلكترونية وقدّموا مواد ذات قيمة عالية. ويذهب شكري أيضاً إلى الآنسة نور البزاز (مستشارة وباحثة في شؤون سورية والعراق وباحثة شابة واعدة)، التي حررت وراجعت ونظّمت الفصول الثالث والسادس والسابع والخاتمة.

وبين الباحثين الأساتذة الذين أفادتني ملاحظاتهم، أذكر بالشكر البروفسور نادر هاشمي، مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة دنفر. فقد قرأ متفحصاً وناقداً كل فصل في الكتاب وقدّم ملاحظات رئيسية قيّمة. كما أشكر إميل نخلة (أستاذ باحث في جامعة نيو مكسيكو)، الذي قرأ الفصول الأول والثاني والثامن والخاتمة. وساعدَت مراجعته على تصويب كثير من آرائي.

وتعززت الفصول حول العراق إلى حد كبير بنتيجة محادثات عدة مع البروفسور كامل مهدي (اقتصادي ـ سياسي)، وسعد جواد (عالم اجتماع)؛ كلاهما ناقشا الخطاب السائد في موضوع العراق، ولفتا نظري إلى ثغرات رئيسية في الأدبيات السائدة حول البلد الذي مزّقته الحرب. وفي الفصل المتعلق بسورية أفدت كلياً من ملاحظات البروفسور دايفيد و. ولش (من جامعة ترينيتي)، والبروفسورة ياسمين غني (من جامعة سانت أندروز)، ود. ليلى مطر، وهي باحثة زميلة في جامعة سنغافورة الوطنية، وكرمان بوخاري (مؤلف ومتخصص في الإسلاميات والجيوبوليتيك الإسلامي)؛ وكلاهما قدَّم مراجعة مهمة للفصل الثامن والخاتمة. وأنا ممتن جداً لجهود الباحثين أولئك والوقت الذي منحوني إياه.

كما أني لا يمكن أن أحظى بمحرر أكثر استنارة ولطفاً من أريك غراهان في منشورات جامعة برينستون. إذ كان أريك ـ كمؤرخ ـ معيناً لي في محاولته الدفع بعيداً من الجانب الصحافي والأمني نحو سردية أكثر تجريبية وتحليلاً وتدقيقاً. كما أدين لجنيفر ليونز، الصديقة وكيلة كتابي، ومن دون إلحاحها علي لكتابة عملي فما كان له أن يظهر.

أخيراً وليس آخراً، ما كان بالإمكان كتابة هذا العمل من دون دعم عائلتي وتضحياتها. فقد عملت لسنة ونصف السنة على إنجاز المخطوطة واستكمالها، وغالباً ما كان العمل المتعب ذاك على حساب نورا وأبنائي. وجمال كتابة الكتب وتحديها أنها تصبح شأناً عائلياً. فنورا، الناقدة المحبة والملهمة دائماً لي، منحتني الوقت والفضاء الضروريين للكتابة. وفي مواجهة كل صعوبة كنت أتصل بنجلي الأكبر بسّام الذي ينهي شهادته في القانون في جامعة يال، فيستبشر فيّ الأفكار الجديدة. كما كانت ابنتي، آنّي ماري، التي تنهي إجازتها في دراسات الشرق الأوسط في جامعة مانشستر، حاضرة باستمرار للإشارة إلى الصلات والروابط الناقصة في سرديتي. وكانت هنا، ابنة السابعة عشرة، تسألني مراراً: كيف يمكن لتنظيم متطرف، مثل «الدولة الإسلامية»، أن يوجد في القرن الحادي والعشرين؟ ولماذا لا يفعل العالم المزيد لمواجهته؟ ولا يتردد ليث، ابن الرابعة عشرة، في الدخول بانتظام في حوارات ساخنة مع حنّة حول الانقسامات العميقة في عالمنا، وضرورة فهم التربة التي نبتت منها «داعش» أو تنظيم «الدولة الإسلامية».

فوّاز أ. جرجس

مدرسة لندن للاقتصاد

٧ كانون الثاني/يناير ٢٠١٦

مقدمة

بعد صعود «داعش» السريع والمكاسب الكبيرة التي حققها على الأرض، يتولى هذا التنظيم الآن، وبحكم الواقع، القيادة العملاتية للحركة الجهادية العالمية، يخلف في ذلك «القاعدة» التي كانت هاجمت أراضي الولايات المتحدة الأمريكية في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وفي زمن كتابة هذه الكلمات، يسيطر «داعش» على مساحات كبيرة من أراضي العراق وسورية، تعادل مساحة المملكة المتحدة، ويقطن فيها ما بين ستة ملايين وتسعة ملايين ساكن. وهو يدير، إلى ذلك، جيشاً يضم أكثر من ثلاثين ألف مقاتل، يتكون في جزء منه من جنود محليين سابقين ومن متسبين أجانب.

أدى صعود «داعش» في سورية والعراق سنتي ٢٠١٣ و٢٠١٤ إلى حراك مباشر عنيف للقوى الإقليمية والدولية. فبالرغم من تدريب قوات الأمن العراقية على يد الولايات المتحدة وتكلفة تجهيزها التي بلغت ما بين ٨ مليارات و١٢ مليار دولار أمريكي[1]، فإنها تهشّمت كلوح من زجاج أمام إعصار «داعش» في صيف ٢٠١٤ مع أن مقاتليه كانوا بالمئات فقط، أو بضعة آلاف في الحد الأقصى، قاضماً بسرعة المحافظات المجاورة وتاركاً القوى الكبرى في دهشة تامة. وبحسب النيويورك تايمز، فإن الجيش الذي ضم يوماً ٢٨٠٠٠٠ جندي في الخدمة الفعلية، وكان الأضخم في الشرق الأوسط، لا يضم الآن وفق بعض التقديرات أكثر من ٥٠٠٠٠ رجل[2]. وكان الرئيس باراك أوباما في حزيران/يونيو ٢٠١٤، قبل أسابيع فقط من احتلال «داعش» الموصل، ثانية كبرى مدن العراق ويسكنها نحو مليوني شخص، قد قلل كثيراً من أهمية التنظيم معتبراً أنه لا يمثّل تهديداً حقيقياً لحلفاء الولايات المتحدة الإقليميين أو لمصالحها في المنطقة، قائلاً: «إن التشبيه الذي

---

(١) الجداول الدقيقة غير معروفة، إذ إن المبلغ الإجمالي الذي أنفق على تدريب قوات الأمن العراقية وتجهيزها ارتفع على نحو جنوني في سنوات قليلة. انظر: Eric Schmitt and Michael R. Gordon «Iraqi Army Was Crumbling Long before Collapse, U.S. Officials Say,» *New York Times*, 12/6/2014. <http://www.nytimes.com/2014/06/13/world/middleeast/american-intelligence-officials-said-iraqi-military-had-been-in-decline.html?_r=0>, and Joshua Keating, «The Fall of Mosul,» *Slate* (10 June 2014), <http://www.slate.com/blogs/the_world_/2014/06/10/the_fall_of_mosul_the_u_s_spent_20_billion_on_iraqi_security_forces_who.html>.

(٢) Rod Nordland, «U.S. Soldiers, Back in Iraq, Find Security Forces in Disrepair,» *New York Times*, 14/4/2015.

نلجأ إليه أحياناً ليس دقيقاً، فأن يرتدي أفراد فريق ما ثياب اللايكرز، مثلاً، لا يجعل منهم كوبي براينت... أعتقد أن هناك فارقاً بين قدرات بن لادن وما بلغه وشبكته التي خططت لعمليات إرهابية كبرى في بلادنا وبين جهاديين طائفيين في الغالب متورطين في نزاعات سياسية ومعارك محلية»[٣]. ومع أن أوباما محق في القول إن «داعش» لا يمثل خطراً داهماً أو استراتيجياً على أراضي الولايات المتحدة، إلا أن النقّاد اعتبروا ملاحظاته تلك دليلاً على سوء تقدير الإدارة لقوة التنظيم.

هَزم «داعش»، منذ عام ٢٠١٣ وحتى صيف ٢٠١٤، القوات العراقية والسورية وقوات الأمن الكردية والفصائل الإسلامية المنافسة له معاً. وتجلّت ذروة قوة التنظيم في احتلاله محافظتي الرقة ودير الزور في سورية سنة ٢٠١٤ وفي الانهيار الملحمي لأربع فرق عراقية كانت تدافع عن الموصل ومناطق أخرى في شمال العراق أمام مقاتلين مصممين أقل منهم عدداً كثيراً[٤]. وقد أثار اجتياح «داعش» لما يسمى «المثلث السنّي» (المنطقة الممتدة من وسط العراق إلى شمال العاصمة بغداد وغربها ومعظم سكّانها من السُّنّة) ثم تهديده أربيل عاصمة إقليم كردستان، انتباه حكومات منطقة الشرق الأوسط كما القوى الغربية. وقد خشي المسؤولون الأمريكيون أن تكون العربية السعودية والأردن الهدفين التاليين لـ «داعش»[٥].

عند نهاية عام ٢٠١٤، كان «داعش» قد احتلّ ما يقارب ثلث الأراضي السورية والعراقية، وغدا بمحاذاة الحدود الأردنية ـ السعودية، مع شبكة واسعة من المريدين له في كل من الأردن والعربية السعودية. في لبنان، يقدّر أن التنظيم امتلك بضع مئات من المقاتلين اللبنانيين على الحدود اللبنانية ـ السورية الشرقية والشمالية. كذلك نفّذ التنظيم والشبكات التابعة أو الموالية له داخل الأراضي اللبنانية تفجيرات انتحارية داوية وشنّ عدة اختراقات برية داخل الأراضي اللبنانية، مختطفاً العشرات من رجال الأمن اللبنانيين ودافعاً المجتمع بقوة إلى المزيد من الانقسام وفق خطوط اجتماعية ومذهبية. وإلى ذلك، تسلل مقاتلو التنظيم إلى مصر، وليبيا، واليمن، وشمال أفريقيا، وأفغانستان، ونيجيريا، وأبعد من ذلك، معرّضاً للخطر نظام الدولة العربية الهشّ وكاشفاً علانية وبقوة حجم الانقسامات الأيديولوجية والمجتمعية داخل مجتمعات الشرق الأوسط والبلدان الإسلامية[٦]. واليوم، تقود الولايات المتحدة وروسيا، للحفاظ على مصالحهما ولمنع سقوط

---

(٣) David Remnick, «Going the Distance: On and Off the Road with Barack Obama,» *New Yorker* (27 January 2014), <http://www.newyorker.com/magazine/2014/01/27/going-the-distance-david-remnick>.

(٤) انظر ملخص تقرير مستقل رفعته اللجنة البرلمانية للأمن والدفاع وأجازه البرلمان ووزارة العدل في آب/أغسطس ٢٠١٥، الذي حمّل رئيس وزراء العراق السابق نوري المالكي، ومسؤولين سياسيين وعسكريين آخرين رفيعي المستوى، مسؤولية سقوط المدينة الشمالية: «The Report by the Parliamentary Committee Regarding the Fall of Mosul,» <http://integrityuk.org/wp-content/uploads/2015/08/Arabic-Mosul-Report.pdf>, and Nordland, Ibid.

(٥) Joseph Rago, «Inside the War against Islamic State: The Weekend Interview: John Allen,» *Wall Street Journal*, 26/12/2014, <http://www.wsj.com/articles/joe-rago-inside-the-war-against-islamic-state-1419636790>.

(٦) Eric Schmitt and David D. Kirkpatrick, «Islamic State Sprouting Limbs beyond Its Base,» *New York Times*, 14/2/2015, <http://www.nytimes.com/2015/02/15/world/middleeast/islamic-state-sprouting-limbs-beyond-mideast.html>, and Yezid Sayigh, «Are the Sykes- Picot Borders Being Redrawn?,» Carnegies-mec.org, 26 June 2014, <http://carnegie-mec.org/2014/06/26/are-sykes-picot-borders-being-redrawn>.

النظامين العراقي والسوري، تحالفين مختلفين وتشنّان ـ ومن دون انقطاع ـ ضربات جوية ضد «داعش» والتنظيمات القريبة منه في البلدين. وحتى وقت كتابة هذه الكلمات (أواخر ٢٠١٥) فإن فاعلية تحالفَي الولايات المتحدة وروسيا تبدو محدودة تبعاً للتنافس الشرس بين القوى الإقليمية والدولية. لكن ذلك عرضة للتغيير، إذ أقدم التنظيم في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥ على استغلال ثغرة في أمن مطار شرم الشيخ المصري ودسّ قنبلة يدوية الصنع في طائرة روسية ما أدى إلى مقتل جميع ركابها المئتين والأربعة والعشرين. ونفّذ التنظيم أيضاً ومن خلال سبعة انتحاريين عملية دموية كبرى في باريس قتلت أو جرحت المئات من المدنيين وذلك في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥. وقبل ذلك بأيام، ضرب «داعش» حيّاً سكنياً مكتظاً في الضاحية الجنوبية لبيروت بواسطة انتحاريين تاركين خلفهما سيلاً من الدماء والدمار. وفي ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، هاجم مؤيدان للتنظيم (الزوج سيّد رضوان فاروق في الثامنة والعشرين من العمر وزوجته تاشفين مالك ذات التسع والعشرين سنة)، مركزاً للخدمات الاجتماعية في سان برناردينو، كاليفورنيا، في الولايات المتحدة، فقتلا ما لا يقل عن ١٤ شخصاً وجرحا ٢١ آخرين. وفي إثر ذلك، بدأت روسيا والقوى الغربية، وبخاصة فرنسا، بالتنسيق في ما بينها وإن على نحو غير مباشر وذلك من خلال الهجمات على المناطق التي يحتلها «داعش» في سورية، رغم أن التنسيق هذا لا يزال في بدايته. ولم يتأخر الرئيس أوباما في إعلانه انفتاحه على التعاون مع روسيا في الحملة ضد «داعش» فيما لو كان الرئيس فلاديمير بوتين يستهدف التنظيم حقاً، مع أن للقوتين الكبريين مصالح متعارضة في سورية(٧).

يمثّل «داعش» خطوة جديدة، وموجة جديدة، في الحركة الجهادية. وعلى نقيض بروز «داعش» القوي الساطع، بدت القاعدة المركزية، الجماعة القائدة السابقة لحركة الجهاد العالمي أو للسلفية الجهادية (والمصطلحان يستخدمان بالتبادل للإشارة إلى ناشطي القاعدة المتدينين المقاتلين على أنواعهم)، وعلى سبيل المقارنة، مجرد تنظيم صغير. فهو يضم أقل من ثلاثة آلاف مقاتل ولا يملك أراضي تخصّه، وهو من دون حدود، بلا دولة، ومجرد حركة اجتماعية عابرة للحدود بلغت ذروة قوتها أواخر تسعينيات القرن الماضي. فقد كان بن لادن أمير القاعدة، تحت حماية طالبان في أفغانستان، يؤدي يمين الولاء لقائدها «الملّا عمر» (أعلن موته لأسباب طبيعية سنة ٢٠١٥). وفي تناقض تام مع وضع القاعدة، أعلن زعيم «داعش»، إبراهيم بن عوّاد إبراهيم علي البدري السامرّائي، والمعروف أكثر باسمه الميداني (أبو بكر البغدادي)، خليفة جديداً، أو الحاكم الأعلى لبلاد المسلمين، ويتحدى بذلك ادعاء «الملّا عُمر» الاسم نفسه. ويظهر تحدي «داعش» الصريح لقيادة القاعدة وطموحها التوسعي تنظيماً مصمماً على فرض إرادته كلاعب رئيسي جديد في المنطقة وكدولة أمر واقع أيضاً.

وقد نشرت المقالة في الأصل في صحيفة الحياة باللغة العربية.

(٧) Neil MacFarquharov, «Russia Allies with France against ISIS Saying Jet that Crashed in Sinai Was Bombed,» *New York Times*, 17/11/2015.

ويمثّل «داعش» خطراً جديداً على الأمن الإقليمي في لحظة اشتداد الصراع الاجتماعي والسياسي الشرس داخل المجتمعات العربية وصعود التشدد الطائفي يغذيه بشكل رئيسي التنافس الجيوستراتيجي بين محور تقوده إيران ومحور تقوده العربية السعودية. و«داعش» لا يهدد فقط بقاء الدولة السورية المنهكة بالحرب الأهلية والدولة العراقية التي قامت بعد الغزو والاحتلال الأمريكيين سنة ٢٠٠٣، وإنما يهدد استقرار البلدان العربية المجاورة أيضاً. وقدرة التنظيم على فعل ذلك ناتجة بالدرجة الأولى من هشاشة نظام الدولة العربية أكثر مما هي نتاج قوته كفاعل استراتيجي. وقد كرس البغدادي ومخططوه حديثاً المزيد من الموارد والجهد للانقسامات المحلية التي يأملون أن تنتهي إلى إعلان الولاء لـ «داعش». على سبيل المثال، فقد أعلن الفرع المصري لـ «داعش» ـ ولاية سيناء، الناشط في منطقة شمال سيناء، حرباً اقتصادية على الدولة. فهو، ومن خلال عملياته القاتلة ضد قوات الأمن المصرية، واستهدافه الأجانب في العاصمة وسواها، إنما يهدد على نحو خطير قطاع السياحة، شريان الحياة للاقتصاد المصري. ويفتتح الدور الذي برز لـ «داعش» في تفجير طائرة الركاب الروسية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥ ومقتل ركابها المئتين والأربعة والعشرين، فصلاً جديداً زاخراً بالقدرات التنظيمية والإمكانات الكامنة. ويقول مسؤولو الأمم المتحدة والرسميون الغربيون الذين لهم صلة بالملفات الاستخبارية، إن من بين ثمانية فروع تابعة أو قريبة لـ «داعش» تبدو الذراع الليبية للتنظيم الأكثر خطورة، فقاعدته في مدينة سرت على المتوسط لا تبعد أكثر من أربعمئة ميل عن جزيرة صقلية. وبحسب تقرير لمنظمة مراقبة تابعة للأمم المتحدة تتابع الجماعات الإرهابية في ليبيا ويعود لتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥، فإن الفرع ذاك هو الفرع الوحيد الذي يعمل الآن تحت سيطرة مركزية كاملة من «داعش»، ويتبعه ثلاثة آلاف مقاتل نصفهم في سرت، والعديد منهم ينتشر شرقاً حول النوفلية. فمع اشتداد الضغط العسكري على «داعش» في سورية والعراق، أرسل البغدادي مجموعات صغيرة من ضباطه إلى سرت للعمل عليها كقاعدة احتياطية يتراجع إليها التنظيم في حال إجباره على الخروج من سورية[٨].

مع ذلك، فالدول العربية مسؤولة جزئياً عن صعود فاعلين أهليين يحملون السلاح خارج الدولة، من مثل «داعش». وإذا كانت الفوضى في كل من العراق وسورية قد منحت «داعش» الأرض الخصبة للنشأة والتمدد وامتلاك القوة، فإن فشل الدول العربية في تمثيل مصالح مواطنيها وفي بناء هوية وطنية جامعة، وقوية بما يكفي لخلق الوحدة المجتمعية، أسهم في نشأة داعش أيضاً. فميل الأنظمة العربية إلى الاعتماد على الاستبداد والفساد المستشري والقيود الكثيرة أدّت كلها إلى انهيار علاقة المجتمع بالدولة. واستغلت جماعات مثل «داعش» الاستبداد السياسي ذاك والظروف

(٨) انظر: David D. Kirkpatrick, Ben Hubbard, and Eric Schmitt, «ISIS' Grip on Libyan City Gives it a Fallback Option,» *New York Times*, 28/11/2015; Paul Cruickshank, «United Nations Warns of ISIS Expansion in Libya,» CNN.com, 2 December 2015, <http://edition.cnn.com/2015/12/01/politics/isis-united-nations-libya-expansion>, and <http://i2.cdn.turner.com/cnn/2015/images/12/01/mt.report.on.libya-.eng.pdf>.

الاجتماعية والاقتصادية المزرية السائدة بتحدي أيديولوجية الدولة، وتقديم بديل عملي، مدمّر، من خلال إعادة تأسيس الخلافة أو «الدولة الإسلامية».

وأحد الوجوه المميزة لاستراتيجية «داعش» على نقيض القاعدة المركزية هو أنه، وكامتداد لسلفه (القاعدة في العراق) ذهب بعيداً في التركيز على الشيعة و«العدو القريب» أي النظامين العراقي والسوري وحليفهما الإيراني، لا على «العدو البعيد»، الولايات المتحدة وإسرائيل والفاعلين الدوليين الآخرين. وللبغدادي ـ كما للزرقاوي قبله ـ إقبال على فكرة القتل الجماعي أو الإبادة، وبعض أهدافها الشيعة منظوراً إليهم ككفار، تطبيقاً في زعمهم للركن الخامس من الإسلام حيث الكافر أمام خيار قبول الدعوة أو القتل. نظرت «القاعدة في العراق» و«داعش» إلى القتال ضد أمريكا وأوروبا وحتى إسرائيل كهدف ثانوي بعيد يجب تأجيله إلى حين قيام الدولة الإسلامية السنية في قلب الجزيرة العربية وإلى أن تستقر سيطرة «داعش» على الأراضي العراقية والسورية التي يحتلها. مع ذلك، وفي إثر التعرض لنكسات عسكرية في سورية والعراق سنة ٢٠١٥، بدأ التنظيم باستهداف العدو البعيد اعتماداً على الجماعات القريبة منه في مصر، وليبيا، وشبكات محدودة من الأتباع والخلايا النائمة في أوروبا وأمريكا الشمالية. حوّلت الهجمات على العدو البعيد الأنظار عن هزائم «داعش» العسكرية في سورية والعراق كما هدفت إلى تعزيز خطاب التنظيم في النصر القريب. ورغم هذا التحول التكتيكي في هدف هجمات «داعش»، تبقى الرياض، وبغداد، ودمشق، وليس روما وباريس ولندن وواشنطن، أهداف «داعش» الاستراتيجية المباشرة[9].

هذا الاهتمام النافر للإعلام بالهجمات الجماعية في باريس وكاليفورنيا وبروكسيل التي تغذيها «داعش»، بعث بلبلة واسعة حيال استراتيجية التنظيم في اختيار عمليات بشعة لا تتضمن غير نسب بسيطة من الضحايا. ومع حقيقة أن «داعش» أكثر اهتماماً بالعدو القريب فإن العمليات تلك تؤكد فرضية الصلات القائمة بين التنظيم وأفراد من الشبكة الجهادية العالمية، بما فيها القاعدة المركزية[10].

ومع أن «داعش» هو امتداد للحركة الجهادية الدولية من حيث أيديولوجيته وأفكاره، إلا أن أصوله الاجتماعية متجذرة في سياق عراقي معيّن، وإلى درجة أقل في الحرب السورية التي اندلعت سنة ٢٠١١. وقد أفاد التنظيم كثيراً من استخدامه الاستراتيجي للصدامات الطائفية بين المسلمين السنّة والمسلمين الشيعة في العراق وسورية وطبع عملياته بطابعه. وبينما يتعزز معظم السلفيين الجهاديين بالخطاب المعادي للشيعة، والمعادي لإيران، يبقى الأولوية للقاعدة المركزية العدو البعيد، وخصوصاً أمريكا وحلفاءها الأوروبيين. شنّت القاعدة المركزية منذ أواسط تسعينيات القرن الماضي حتى الآن موجة جهاد عالمية ضد الولايات المتحدة محاولةً

(٩) أبو محمد المقدسي، مقابلة مع القدس العربي، ٢٠١٤/١٠/٢١.

(١٠) محمد أبو رمانة، مقابلة مع الجزيرة، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠١٤، وياسر الزعاترة، «من «العدو البعيد» إلى العدو القريب»،» الجزيرة.نت، ٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤.

جرّها إلى حرب شاملة مع العالم الإسلامي[١١]. ولم يتبدّل الأمر إلا لاحقاً حين أعاد بن لادن ثم أيمن الظواهري (القائد الحالي للقاعدة المركزية) الاعتبار للساحات المحلية مكاناً لمقاتلة العدو القريب (الحكام المحليون) والاستيلاء على السلطة فيها، لكن استراتيجيتهم باءت بالفشل الذريع[١٢].

على نقيض ذلك، قامت استراتيجية «داعش» الأساسية على تعزيز وتوسعة رقعة الأرض والسلطة اللتين تمتلكهما «الدولة الإسلامية» في العراق وسورية والبلدان الإسلامية المجاورة. فـ «داعش» يريد تحطيم الحدود الاستعمارية للهلال الخصيب، أو المشرق، التي رسمتها القوى الأوروبية في نهاية الحرب العالمية الأولى. ويسعى التنظيم من خلال ذلك إلى إحلال الدولة الإسلامية، أي الخلافة، مكان الأنظمة «المرتدة». وقد وظّف البغدادي، الذي أعلن نفسه الخليفة الجديد، الكثير من طموحاته السياسية المحلية في الرمزية واليوطوبيا العابرتين للدول. لكن الدخول الرسمي للولايات المتحدة في الحرب ضد «داعش» في آب/أغسطس ٢٠١٤، ثم الدخول الروسي مع القوى الأوروبية نهاية ٢٠١٥، ألغيا إلى حد كبير الفروق التي كانت قائمة بين العدو القريب والعدو البعيد. لقد قلب «داعش» بمعنى ما الطاولة على القاعدة المركزية آخذاً لنفسه شرف قيادة حركة الجهاد العالمي. لكنه سيبقى من الجنون إهمال استراتيجية «داعش» الأصلية ضد الدول في المشرق، الأمر الذي يستمر في التأثير في أنشطة التنظيم وأفعاله كافة.

يُظهر صعود «داعش» السريع الحاجة الماسة إلى فهم ما حدث داخل المجتمعات العربية وكذلك العلاقات الدولية للشرق الأوسط. و«داعش» مجرد عيّنة لسياسات الشرق الأوسط المتدهورة، ولهزال مؤسسات الدولة العربية وتهرُّئها في المنطقة، كما لانتشار الحروب الأهلية في العراق وسورية وسواهما. تكمن أسباب صعود التنظيم وتنامي قوته، واقعاً، في الظروف الاجتماعية والسياسية المريعة التي تسود المجتمعات العربية كما في الصراعات والمنافسات الإقليمية والدولية في المنطقة. فأزمتا الحكم والاقتصاد السياسي، المستمرتان منذ عقود، هما العامل الأساسي في الصعود ذاك. وعليه يأخذ الباحث على عاتقه استعادة مسيرة هذا التنظيم «التكفيري»[١٣] منذ بداية تأسيسه وامتلاكه القوة وصولاً إلى انتفاضته العسكرية التي سمحت له أن يستقر ويتمدد في العراق أولاً، ثم في سورية وسواهما لاحقاً. يركّز النص على أربعة مفاتيح أساسية في ظهور «داعش» من جديد:

الأول، في أنه يمكن النظر إلى «داعش» كامتداد لتنظيم «القاعدة في العراق» الذي كان هو نفسه من نتائج الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق سنة ٢٠٠٣ وتداعياته. فالغزو الأمريكي

---

(١١) انظر: «مذكرات أيمن الظواهري: فرسان تحت راية النبي،» الشرق الأوسط (كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١).

(١٢) فواز جرجس، القاعدة: الصعود والأفول: تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب، ترجمة محمد شيّا (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٥)، الفصل الأول.

(١٣) «التكفير» لغوياً «إعلان شخص ما باعتباره غير مؤمن»، أما «التكفيري»، هو من يتهم أو يعلن شخصاً ما أو جماعة ما بالكفر، أي عدم الإيمان، أو غير المسلم.

للعراق ثم احتلاله، من خلال تحطيمه الدولة ومؤسساتها، شجّع الانقسامات التقليدية بين الناس وفق خطوط إثنية وعرقية، لاوطنية، خالقاً بالتالي بيئة مثالية لظهور جماعات وتمددها، مثل «القاعدة في العراق» و«داعش».

المفتاح الثاني، تشظي المؤسسة السياسية ما بعد الرئيس صدّام حسين وعجزها عن تبنّي سياسات ترسّخ الوحدة الوطنية للبلاد، ودفعها الناس، أكثر من ذلك، نحو الإحباط الجماعي، ما عمّق ووسّع من الانقسام السنّي ـ الشيعي.

الثالث، تحطّم مؤسسات الدولة في سورية وسقوط البلاد في حرب أهلية شاملة ما ساعد على بث الحياة في عروق التنظيم.

الرابع والأخير، وهو أن «داعش» ما كان ليستطيع تعزيز المكاسب التي حققها مع الحرب الأهلية السورية لولا اندلاع انتفاضات الربيع العربي والنيران التي تسبب بتمددها إلى البلدان العربية المجاورة.

أولاً: الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله: التداعيات

قاد غزو العراق واحتلاله بقيادة الولايات المتحدة عام ٢٠٠٣، مع الفوضى الطويلة الأمد اللاحقة والمقاومة المسلحة المكلفة، إلى انحلال مؤسسات الدولة وتأسيس نظام سياسي قائم على المحاصصة، أو توزيع مرافق السلطة وفق خطوط طائفية وعرقية وعشائرية[١٤]. اختلط أمر الهوية الوطنية العراقية وتحوّلت تدريجاً نحو هويات طائفية وعرقية بعدما تراجعت الهوية الوطنية المجتمعية التي أرساها حزب البعث الحاكم القائمة على العروبة والقومية. ومع انكشاف فشل دولة ما بعد الاستقلال وما بعد الاستعمار في بناء هوية وطنية جامعة، جاء الغزو والاحتلال ليمزّقا النسيج الاجتماعي للعراق. والنظام السياسي الحالي القائم على الطائفية والقوى المهيمنة داخله هما إلى حد كبير نتاج الاحتلال الأمريكي والتدمير الذي أصاب الدولة. ولا تستطيع الهويات الطائفية المنفصلة أن تكون البديل الذي يبني عراقاً جديداً. لقد نجح «داعش» حقاً في استثمار فشل النظام السياسي، ولكن ذلك لا يجعل منه قبلة التطلعات السنّية. مع ذلك، فغزو العراق واحتلاله اللذان قادتهما الولايات المتحدة، إلى جانب الحرب الأهلية السورية، كانتا اللحظة المناسبة لصعود شعور بهوية سنّية شاملة في البلدين والمنطقة عموماً. ورغم أنه ما كان بوسع «داعش» أن يفعل ما فعله من دون شعور سنّي شامل متعاطف، إلا أنه من المشكوك فيه اعتبار الشعور السنّي الشامل هذا هويّة دائمة للسنّة العراقيين والسوريين.

(١٤) Benjamin Isakhan, ed., *The Legacy of Iraq: From the 2003 War to the Islamic State* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2015); Muhammad Idrees Ahmad, *The Road to Iraq: The Making of a Neoconservative War* (Edinburgh: Edinburgh University Press, 2014), and Ali A. Allawi, *The Occupation of Iraq: Winning the War, Losing the Peace* (New Haven, CT: Yale University Press, 2007).

لا نعرف إلا القليل عن العلاقة المعقدة بين «داعش» وسكان المناطق الخاضعة لسيطرته، فمعظم التقارير جزئية وتعطي مشاهد متناقضة للحياة في «الخلافة». في موازاة ذلك، ولأسباب منفصلة، شعر الشيعة والكرد أن الهوية الفوقية التي كانت للدولة منحت الأفضلية للعرب السنّة على حسابهما. وبهذا المعنى، فانحلال مؤسسات الدولة سنة ٢٠٠٣ وإقامة نظام بديل مبني على قاعدة طائفية زادا صراع الهويات حدةً، الصراع الذي دمّر ـ على الأرجح ـ العراق الحديث[١٥].

يعكس عنف «داعش» الزائد التركة الموروثة المُرّة لعقود من الحكم البعثي الذي مزّق النسيج الاجتماعي للعراق وترك جراحاً عميقة ما زالت نازفة إلى اليوم. ما فعله «داعش» هو أنه، بمعنى ما، استعار في حربه الداخلية التكتيكات الخشنة للنظام البعثي التي طبعت بطابعها الدموي تاريخ العراق الحديث. ومع أن كلاً من البغدادي وصدّام حسين جاءا من قطبين أيديولوجيين متناقضين، فقد سعى كلاهما إلى بناء نظام استبدادي لا يحتمل أي معارضة بل يلجأ إلى كل أشكال العنف لإسكاتها. فالبغدادي يحيط نفسه بضباط جيش صدّام وشرطته من الرتب الدنيا والعليا، وكان بعضهم مسؤولاً مباشراً عن شراسة أساليب النظام البعثي. لكن هذا لا يعني أن «داعش» السلفي الجهادي، كما يحلو لبعض المراقبين أن يزعموا، مرادف للبعث، صاحب الأيديولوجية القومية العلمانية. لم يقم البعثيون السابقون باختطاف «داعش»، بل إن الأخير ـ بالأحرى ـ هو من جلب أولئك إلى قضيته. من المهم التمييز بين تكتيكات «داعش» العنيفة، التي تشبه تكتيكات نظام حكم حزب البعث، وبين الأيديولوجيا الإسلامية الثورية والأيديولوجيا البعثية القومية. وكانت تلك نقطة نزاع أخرى بين «داعش» و«جبهة النصرة» (جماعة سلفية جهادية مسلحة أخرى في سورية والذراع الرسمية للقاعدة المركزية هناك التي تأسست بعد اندلاع الحرب في سورية عام ٢٠١٢)، إذ يتهم كل منهما منافسيه بأنهم بعثيون سابقون، محاولاً نزع شرعيتهم بالتالي وعلى أساس من الشرع الإسلامي. على سبيل المثال، يشرح أبو محمد المقدسي، أحد العلماء البارزين الذي يدعم النصرة ضد «داعش»، الأساليب الوحشية للبغدادي ومعاونيه بالتأكيد أنهم «دخلوا الإسلام الآن، وكانوا حتى الأمس بعثيين يذبحون المسلمين»[١٦]. ولا يخفى أن اتهام المقدسي للبعثيين هو محاولة لتبرئة السلفيين الجهاديين، أصحابه، من مسؤولية المذابح الجماعية التي ترتكب بحق المدنيين.

تكمن أسباب عنف «داعش» الزائد في: ١ ـ انتسابه الأصلي إلى «القاعدة في العراق» ومُوجدها أبو مصعب الزرقاوي، الذي مثّل جيل ما بعد القاعدة من السلفية الجهادية الذي ركّز على مسألتي

---

(١٥) انظر: ميثم الجنابي، فلسفة الهوية الوطنية (العراقية) (بغداد: دار ميزوبوتاميا، ٢٠١١)، وKhalil F. Osman, Sectarianism *in Iraq: The Making of State and Nation since 1920* (Abingdon, UK: Routledge, 2015).

إن الانقسام إلى شيعة وسنة وكرد يبدو في الأساس، ويجري التعامل مع الشيعة والكرد خصوصاً بالطريقة نفسها. كان المشروع الوطني الكردي ـ باستمرار ـ عامل انفصال، على خلاف أي مضمون لهوية شيعية أو لتطلعاتهم، في الماضي والحاضر (مقابلة المؤلف مع الاقتصادي ـ السياسي العراقي كامل مهدي في ٨ آب/أغسطس ٢٠١٥).

(١٦) انظر: القدس العربي: ٢٠١٥/٢/٦، و٢٠١٥/٢/٨.

الهوية والسياسة المحلية؛ ٢ ـ عراقيته الغالبة واستعارته الأدوات البعثية في القمع إضافة إلى إرث البلاد المرّ من العنف؛ ٣ ـ ريفية ضباط التنظيم وأفراده[١٧].

وبينما ضمّت موجتا الجهاديين بين السبعينيات والتسعينيات من القرن الماضي قيادات من النخب الاجتماعية وقاعدتها خليط من خريجي جامعات من أصول طبقية وسطى أو دنيا ـ وسطى، تتكون الأطر القيادية لـ «داعش» من ريفيين ومزارعين، ينقصهم الإعداد الديني والفكري معاً. وبينما ترجح كفة الفقراء وسط مقاتلي «داعش»، تنتسب القيادة إلى الطبقة الوسطى أو الدنيا ـ الوسطى؛ وهو ما يفسّر اضطراب الجماعة حين تبدأ حظوظها العسكرية بالتراجع، إذ لا يلتزم، أو حتى ينتسب، جنود التنظيم إلى الأيديولوجيا السلفية الجهادية بخلاف قياداتهم. وفي وسع الجنود الفقراء هؤلاء إدارة ظهورهم في أي لحظة للتنظيم والعودة إلى الاندماج في جماعاتهم الأصلية[١٨].

تغلِبُ على الموجة الحالية من السلفيين الجهاديين الأصول الريفية والعشائرية، ما يعطي زخماً عميقاً لفكرة الضحية ولحتمية النصر كما لِحسِّ الاستعلاء حيال المسلمين الشيعة، الذين شكلوا تاريخياً جماعة مهمّشة في العراق والبلدان العربية المجاورة الأخرى. في مقابل ذلك، ينحدر ضباط «داعش» وكذلك «النصرة»، منافسه، من أصول تتصل بالعمل اليدوي، والوظائف الدنيا، كالميكانيكيين، وباعة الفواكه والخضار، والمزارعين، وعمال البناء، وأصحاب الحوانيت الصغيرة، والعمل المتدني الرتبة في المطاعم. ويعمل «داعش» بين الفقراء والجماعات السنية غير المقتدرة، بما فيها مناطق الفلوجة وتكريت والأنبار في العراق؛ والرقة ودير الزور في سورية؛ وعكار وطرابلس والبقاع في لبنان؛ ومعان والزرقا في الأردن. ويفسّر تدني الأصول الطبقية لمقاتلي «داعش» أسباب تبرير التنظيم لعملياته بأنها دفاع عن الفقراء والأقل حظوة، واستهدافه أيضاً المنطقة الغنية بالثروات والمواد الخام[١٩]. وعلى نقيض المنتسبين إلى التنظيم القادمين من الشرق الأوسط، فإن عدداً من المقاتلين الأجانب الذين قدموا إلى التنظيم من حول العالم، وبخاصة من أوروبا وأمريكا الشمالية، هم متعلمون وينتمون إلى الطبقة الوسطى، وهذا تناقضٌ يستدعي بحثاً إضافياً.

في حدود ٢٠١٠، كان تنظيم «القاعدة في العراق»، السابق لـ «داعش»، قد عانى الهزيمة عسكرياً وجرت محاصرته اجتماعياً. مع ذلك، وفي أقل من أربع سنوات، استعاد التنظيم خلاياه وتوسّع بعيداً خارج المثلث السنّي العراقي، مهدداً نظام الدولة في الهلال الخصيب. ورغم أن للظروف المادية

---

(١٧) هشام الهاشمي، «تنظيم الدولة (داعش) بين احتمالية البقاء والتفكك،» مركز الجزيرة للدراسات، ١٠ آب/غسطس ٢٠١٥، <http://studies.aljazeera.net/ar/issues/2015/08/201581085853684278.html>.

انظر أيضاً: «بين الفقراء والمسلمين: المغالطات الأربع الشائعة حول ظاهرة الإرهاب في العالم،» مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥، <http://rawabetcenter.com/archives/289>.

انظر أيضاً: الياس فرحات، «التكتيك العسكري لـ «داعش»،» النهار، ٢٠١٤/١١/٢٥، <http://newspaper.annahar.com/article/192432-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%83%D8%AA%D9%8A%D9%83-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B3%D9%83%D8%B1%D9%8A-%D9%84%D8%AF%D8%A7%D8%B9%D8%B4>.

(١٨) الهاشمي، المصدر نفسه.

(١٩) المصدر نفسه.

الموضوعية في العراق وسورية دوراً في نهوض «داعش»، فإن أيديولوجيته كانت جاذبة وعملت على دفع الناشطين الدينيين وشرائح صغيرة من الشبان والنساء حول العالم نحو التطرف؛ فقد أراد المتطوعون والمنتسبون أولئك أن يسهموا في بعث الخلافة ـ السردية الميتافيزيقية، الرومانسية، والطوباوية، التي تلعب بالأخيلة في شرق أوسط مهشّم تسيطر عليه أنظمة حكم قمعية، غير شرعية، وذات قواعد أقلوية.

ثانياً: النظام السياسي العراقي المهشّم

أحدث الاضطراب الناتج من غزو العراق واحتلاله بقيادة الولايات المتحدة، وبخاصة تدمير مؤسسات الدولة، شرخاً عميقاً بين المسلمين السنّة والمسلمين الشيعة، وسهّل بالتالي صعود «داعش» وتحوّله من مجرد فاعل هامشي خارج الدولة إلى «دولة إسلامية». ويملء «داعش» الفراغ الفكري والمؤسسي القائم، قفز إلى الواجهة مانحاً الجماعة السنّية المقهورة إمكان امتلاك هوية سنيّة شاملة (طائفية ـ إسلامية) عابرة للقوميات والإثنيات والحدود. حاول البغدادي وجماعته إعادة بناء هوية سنّية مستعلية (عروبية وقومية) وفق خطوط طائفية (سنية شاملة)، متحدّياً طبيعة الدولة ـ الأمة القائمة على القوانين والقواعد التي يفرضها المجتمع الدولي. الطائفية هي الوقود الذي يتغذّى منه «داعش»، وهي تتغذى من «داعش» في المقابل، وهو أمر يجب التوقف عنده والتفكير فيه بإمعان وما اتصل منه ببناء الهوية العربية السنّية وإعادة تعريفها. فقد سقط العراق منذ سنة ٢٠٠٣ في أزمة طائفية ممتدة، يغذيها قلق السكان السنّة بعد تجريدهم من القوة مع تحول السلطة في النظام الجديد نحو الشيعة وتحت النفوذ الإيراني. ورغم مقاومة السنّة التميز الذي جرى ضدهم لسنوات، فإن ذلك لم يلقَ غير آذان صمّاء في بغداد وواشنطن. وأحدث تمزّق النسيج الاجتماعي على هذا النحو ممراً لـ «داعش» ليقفز إلى الواجهة مواجهاً الأغلاط التي يشعر بها السنّي العراقي ومنصِّباً نفسه مدافعاً عنهم و«حامياً» لهم. بالإضافة إلى تلاعب «داعش» الاستراتيجي، كما سابقوه («القاعدة في العراق» و«الدولة الإسلامية في العراق»)، حظي التنظيم بالمزيد من الدعم بسبب من خطابه المعادي للولايات المتحدة، الذي أغرى الشباب السنّي الذين شعروا بمدى الإهانة والاذلال اللذين تسببت بهما الولايات المتحدة للبلاد. وعليه، فقد قدّم هذا التهشيم المريع للنظام السياسي في العراق، مع تعطيل وظائفه وسقوطه في مذهبية متزايدة، الغذاء الأيديولوجي الذي كان يحتاج «داعش» إليه.

كان البعثيون، النخبة السياسة الجديدة الحاكمة في العراق، قد فشلوا، كسابقيهم، في بناء هوية وطنية جامعة وفي إعادة بناء مؤسسات الدولة على قواعد شرعية أكثر متانة. أما النخب الحاكمة التي تلت مرحلة صدّام فهي مسؤولة عن الأخطاء الجسيمة التي سقط فيها العراق بعد عام ٢٠٠٣. ومع مسؤولية الغزو الذي قادته الولايات المتحدة ضد العراق عن تمزيق الدولة والمجتمع، إلا أن القادة الجدد يتحملون المسؤولية لتقاعسهم في تحسين الظروف الاجتماعية وتعزيز الوحدة

الوطنية. فقد شعر السنّة طوال السنوات الثماني التي قضاها نوري المالكي في رئاسة الوزراء (٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٦ ـ ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠١٤) بالتهميش من خلال ما شهدوه من سياسات ذات قاعدة طائفية جعلتهم يصممون على تنظيم أنفسهم كجماعة. وقد عمّق تردد المالكي في دعم قوات «الصحوة»، المجالس السنّية العشائرية التي نظّمتها وموّلتها سلطات الاحتلال الأمريكية، من الشقاق مع الجماعة السنية، وقاد تعزيز صراع الهويات إلى حلقة مفرغة من الاستقطاب بين السنّة والشيعة. كما أن علاقته الاصطدامية مع بعض الشخصيات الشيعية الرفيعة المكانة، مضافاً إليها عدم فاعلية الحكومة، والفساد المستشري في داخلها، تركت الجماعة الشيعية نفسها في حالة انقسام. فمنذ سنة ٢٠١٠ وما بعدها لم ينفع وضع المالكي يده على جهاز الحكومة ومؤسساتها في بعث الثقة في حكومته، كما أثار قمعه العنيف لتظاهرات الربيع العربي الغضب والاعتراض. ومع تغلغل الجماعات المسلحة، كان من الصعب التميز بين المحتجين السلميين وبين الميليشيا المسلحة. وهكذا أضعفت الثغر الاجتماعية والأيديولوجية العراق الضعيف في الأصل، ما مكّن البغدادي ومخططوه من النفاذ إلى سياسات البلاد الهشّة.

صوّر البغدادي «داعش» باعتبارها المدافع الوحيد عن أهل السنّة، وصوت السنّة العرب الذين يشعرون بالاستبعاد والقهر على يدي نظام بغداد الذي يهيمن عليه الشيعة أو نظام دمشق الذي يقوده العلويون[٢٠]. وبخلاف سلفه الذائع الصيت، ومؤسس «القاعدة في العراق» (أبو مصعب الزرقاوي)، طوّر البغدادي قاعدة اجتماعية قوية وفّرت لـ «داعش» باستمرار مقاتلين أكفاء وكذلك ملاذاً آمناً في الأراضي التي سيطر عليها. والنقطة هذه بحاجة إلى بحث إضافي: فآلاف من السنّة العراقيين والسوريين الناقمين يقاتلون تحت راية «داعش»، مع أن الكثير منهم لا ينتسب إلى أيديولوجيتها الإسلامية المتطرفة. وقد نجحت الجماعة في إقحام نفسها بنجاح في الحرب الأهلية المندلعة في العراق وبربط نفسها بالجماعة السنية المحلية. إلا أنه ما من سرّ في ذلك أو في الصعود المشهدي الصارخ لـ «داعش». لذلك، يمكن التأكيد أنه ما من دليل موثوق يؤيد أن أيديولوجية «داعش» في إسلام سنّي شامل هي الهوية الخالصة للمناطق السنية في العراق وسورية، مع الملاحظة أن الكتّاب الذين اقترحوا الفرضية تلك لا يملكون في الواقع أدلة ميدانية كافية لتأييدها. فبحسب عراقيين سنّة من الموصل وتكريت ومدن عراقية أخرى تحدثت معهم، أدى الثوّار السنّة والعشائر السنّية دور الدليل في تسهيل احتلال «داعش» للمثلث السنّي وقبل أن يتحول التنظيم ضدهم بعد سقوط المدن تلك. إلى ذلك، فمن خلال محادثتي مع زعماء عشائر سنية عراقية، اعترف البعض أن أولادهم انضموا لمسيرة «داعش» في البدء لا بسبب من أيديولوجيتها الإسلامية بل كأداة مقاومة ضد السلطة المركزية الطائفية في بغداد وراعيها الإيراني. وهناك الآن أدلة متزايدة تُظهر أن السنّة العراقيين منقسمون بين من يدعم «داعش» كسلاح فعّال ضد الشيعة، وآخرين يظهرون الندم لدعمهم التنظيم وقد تحوّلوا ضده بسبب أساليبه الوحشية وحكمه الاستبدادي.

---

(٢٠) العلويون، فرع من الشيعة، ولكن ليسوا شيعة تماماً، إلا أن الفارق غير موجود لـ «داعش»، فكلاهما مرتدّان.

ووفق تقارير واردة من المثلث السنّي، فإن المزيد من العشائر هناك بدأت تنأى بنفسها بعيداً من «داعش» نافية أي دور لها في جرائمه الجماعية[٢١]، رغم أن الموجة لم تتحوّل بعد ضد التنظيم. فإلى الآن، لا يزال «داعش» يتمتع بحاضنة شعبية سمحت له بتحمل الضربات العقابية التي يوجهها له التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة والجيشان العراقي والسوري والميليشيات الكردية والعراقية. فقد أفاد التنظيم إلى الحد الأقصى من الإساءات والتعديات التي تعرّض لها السنّة، كما أفاد من الرأي السائد لدى السنّة من أن الغارات الجوية للولايات المتحدة وحلفائها تقصد على نحو غير عادل إخوانهم في المعتقد بينما هي تغض الطرف عن المتطرفين الشيعة في الجانب الآخر. في المقابل، لم ينجح التنظيم في أن يقدّم إلى السنّة العراقيين والسوريين رؤية سياسية واجتماعية ـ اقتصادية إيجابية تتصدى بفاعلية للتحديات القاسية التي تتعرض لها الجماعة. وفي الحقيقة، ما كان ينقص الجهاديين من كل الألوان والمشارب، قديماً وحديثاً، هو الخيال السياسي، وذلك نتيجة لخلل بنيوي في عملية صنع القرار، كما يقول منظّر القاعدة المعروف، عبد الله بن محمّد، في ورقة نشرت حديثاً، بعنوان «المشكلة في عملية صنع القرار الجهادي». ينتهي بن محمّد إلى أنه ما دام العلماء والدعاة يسيطرون على الحركة الجهادية فسيبقى الجهاديون عاجزين عن ترجمة مكاسبهم العسكرية في الميدان إلى رصيد سياسي[٢٢].

ثالثاً: الحرب الأهلية السورية

عامل رئيسي آخر كان خلف صعود «داعش» السريع هو انهيار مؤسسات الدولة في سورية وسقوط البلاد في حرب شاملة منذ عام ٢٠١١. فغير بعيد ممّا حدث في تونس ومصر وليبيا والبحرين واليمن، اندفع ألوف السوريين يحتجون على الاستبداد والتهميش. كانت الصرخات في الميادين السورية تطالب بالخبز والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة، وكانت تعكس مطالب سياسية واقتصادية غير طائفية أو فئوية. لم تتعسكر الانتفاضة إلا لاحقاً، ولتأخذ بعد ذلك وجهاً طائفياً. ولأن العلاقات المدنية ـ العسكرية في سورية مغايرة كلياً لما هي عليه في تونس أو مصر، وفي مواقع أخرى من انتفاضات الربيع العربي؛ فقد كانت أجهزة الأمن السورية على بيّنة تامة من

---

(٢١) انظر: مصطفى العبيدي، «عشائر «تكريت» تعلن البراءة من جريمة قتل جنود «سبايكر»،» القدس العربي، ٢٠١٥/٢/٢٠. انظر أيضاً: «أبو قتادة: لم أخرج بصفقة وتنظيم الدولة زائل،» حاوره محمد النجار، الجزيرة نت، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/11/12/%d8%a3%d8%a8%d9%88-%d9%82%d8%aa%d8%a7%d8%af%d8%a9-%d9%84%d9%85-%d8%a3%d8%ae%d8%b1%d8%ac-%d8%a8%d8%b5%d9%81%d9%82%d8%a9-%d9%88%d8%aa%d9%86%d8%b8%d9%8a%d9%85-%d8%a7%d9%84%d8%af%d9%88%d9%84%d8%a9-%d8%b2%d8%a7%d8%a6%d9%84>.

انظر أيضاً: أحمد حقي، «تكتيكات الدولة الإسلامية تسرّع من الصراع بين العشائر السنّية،» الجزيرة.نت، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠١٤، و«داعش... المولود اللاشرعي للقاعدة ترتكب الانتحار السريع،» القدس العربي، ٢٠١٤/٨/١٨.

(٢٢) انظر: عبد الله بن محمد، «صناعة القرار الجهادي،» <http://justpaste.it/kl2s>.

انظر أيضاً: نور أيوب، ««القاعدة»: فلنكن كمشايخ آل سعود،» الأخبار، ٢٠١٥/٤/٢١.

أن وجودها على ما هي عليه يعتمد إلى أقصى حد على بقاء نظام الأسد. ومع التصدي العنيف من أجهزة الأمن للمتظاهرين السلميين ودفعها الحراك الاجتماعي المعادي للنظام نحو زوايا طائفية، عنُفت الانتفاضة وتعسكرت ونَحَت أخيراً نحو التطرف. وسرعان ما ارتدت التظاهرات الوطنية والمطلبية في الأصل اللبوس الطائفي والديني، ولتظهر بعد ذلك في القرى والبلدات النائية جماعات إسلامية مسلحة تسلمت زمام الحراك لتدفع به من ثم نحو أيديولوجيا سلفية وأجندة محافظة جداً.

وعليه، فقد تحوّل ما بدأ صرخة تقدمية للإصلاح الاجتماعي والسياسي إلى حرب طائفية اشترك فيها الكل ضد الكل. وفي تكرار للسيناريو العراقي، تعززت بنتيجة ذلك الجماعات الإسلامية المسلحة والخطاب الإسلامي الجهادي، وباتا شرعيين إلى حد كبير في نظر شرائح واسعة من السوريين تبعاً لعنف النظام الزائد ضد المدنيين. قدّمت الجماعات الإسلامية في سورية نفسها بوصفها المدافعة عن حقوق الجماعة السنّية، كما جرى النظر إليها من هذا المنظار. وكما في حال العراق أيضاً حيث قاد دعم الجمهورية الإسلامية في إيران للجماعة الشيعية إلى توتر طائفي، كذلك في سورية حيث عزز الدعم غير المحدود من إيران لآل الأسد من حدة الصراع الأهلي ومنحه من ثم طابعه الطائفي. وقد كان للبغدادي وقادته الرؤية الكافية أواخر سنة ٢٠١١ بإرساله إلى سورية ثلة من رجاله بقيادة رجلين محل ثقة لديه هما أبو محمد الجولاني والملّا فوزي الدليمي لبدء معركة التنظيم مع النظام السوري وتأسيس قاعدة عملانية له في البلاد[٢٣].

وفي أقل من عام واحد، تمكنت جبهة «النصرة» بقيادة الجولاني (فرع من «الدولة الإسلامية في العراق»)، من بناء شبكة قوية في سورية ضمّت آلاف المقاتلين المحليين والأجانب الذين كان لهم السبق في قتال قوات النظام. ووفق شهادات مسؤولين جهاديين رفيعي المراكز، فقد تقرر منذ البدء إبقاء هوية جبهة النصرة سرّاً لتسهيل اندماجها بالسكان المحليين وتجنّب لفت نظر الأمريكيين إلى وجود «القاعدة» في سورية[٢٤].

سمح هذا التكتيك للنصرة بالتمدد وبناء تحالف مع فصائل إسلامية متعددة. ومع الوقت قلل البغدادي علناً في نيسان/أبريل ٢٠١٣ من أهمية المسافة الفاصلة بين «الدولة الإسلامية في العراق» والنصرة قائلاً إن الهدف الاستراتيجي للنصرة هو إقامة دولة إسلامية في سورية[٢٥]، ومعتبراً أنه ربح

---

(٢٣) شكت شخصيات المعارضة السورية أنه في الأشهر الأولى من القتال في سورية، وجّهت داعش غالب نيرانها لا ضد قوات نظام الأسد بل ضد الجيش السوري الحر ومعاقله. وبحسب وجهة النظر هذه، كان داعش وقوات نظام الأسد يتجاهلان بعضهما بعضاً في تلك الفترة، وكان كلاهما يهاجمان قوات الجيش الحر. في بيان إذاعي، كشف البغدادي أن النصرة هي امتداد لـ «الدولة الإسلامية في العراق»، معلناً إعادة دمجهما تحت اسم «الدولة الإسلامية في العراق والشام». انظر: <http://www.youtube.com/watch?v=K3U23JbBplw>.

(٢٤) Ayman Az-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in as-Sham [Greater Syria],» Pietervanostaeyen (blog), May 2014, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/05/03/dr-ayman-az-zawahiri-testimonial-to-preserve-the-blood-of-mujahideen-in-as-sham>.

(٢٥) Raqqa U.M.C, YouTube, 10 April 2013, <http://www.youtube.com/watch?v=6FdTjm4-6Lo>.

بالفعل عمقاً استراتيجياً في سورية عمّده مقاتلوه بالدم والنار... وفي خطوة من جانب واحد، أعلن البغدادي دمج «الدولة الإسلامية في العراق» مع «النصرة» في تنظيم جديد أسماه «الدولة الإسلامية في العراق والشام ـ «داعش»»[٢٦]، الخطوة التي رفضها الجولاني بلطف ما أشعل حرباً داخلية بين التنظيمين الجهاديين[٢٧]. ورغم مكاسب «النصرة» الأولية في تلك المواجهة، بالتعاون مع فصائل إسلامية أخرى، إلا أن الغلبة كتبت في النهاية لـ «داعش» الذي طرد النصرة وحلفاءها من معظم المناطق واستولى على المدن المهمة، بما فيها الرقة، التي غدت عاصمة لتنظيمه وخلافته.

ومن خلال تبادل التأثر والتأثير، كان العراق وسورية محطة حاسمة في انطلاق «داعش»، الذي أعطى المعركة فيهما تعريفاً في إطار المعركة على الهوية. فقد أبرز هوية سنّية طائفية شاملة منفصلة، في تناقض محسوب مع الهوية الشيعية الشاملة التي يمثلها النظامان العراقي والسوري، في نظره، ذَوَا الهوية الطائفية والمدعومان من إيران. ومن بين كل العوامل التي يحتمل أنها قوّت «داعش»، يأتي عامل العداء للشيعة والعداء لإيران في رأس اللائحة. فقد عمل «داعش» على خطاب ـ جذره هوية سنّية شاملة مضاد لما جرى تصويره من أيديولوجيا شيعية عدوانية توسعية شاملة ـ أريد له أن ينتشر في العالم الإسلامي ويمسك به. كان العداء للشيعة والعداء لإيران البطاقة الرابحة التي لعبها «داعش» في العراق وسورية، وأثبت ذلك فاعلية عالية في جذب الأنصار.

كذلك أفاد التنظيم إلى أقصى حد من الثغرة التي فتحها الغزو الذي قادته الولايات المتحدة ضد العراق سنة ٢٠٠٣. وقد خرج الجدل عن السيطرة بعدما انحرف الربيع العربي عن مساره الأولي وغرقت سورية والعراق في الحرب والفوضى. الصراع الإسلامي التحتي على الهوية، والحرب الإسلامية الداخلية شبه الشاملة، هما اللذان دفعا بالتنظيم إلى الواجهة على نحو مثير. وبعد سقوط الموصل في حزيران/يونيو ٢٠١٤ وإعلان «الدولة الإسلامية»، أثبت الزمن، وكذلك بيانات القائمين على التنظيم، تصديه لمهمة قيادة «الأمة» وأهل السنّة وتفوقه على منافسيه وأخصامه في نيل هذا الشرف.

ورغم أن العراق هو الموطن الأصلي للتنظيم، إلا أن تمدده إلى سورية المجاورة منحه عمقاً استراتيجياً ووفر له موارد اقتصادية مهمة. فسورية الآن هي مكان عاصمة «داعش»، الرقّة، ومصدر دخله الرئيسي، بما فيه النفط والتجارة والضرائب والقمح والأراضي الزراعية الخصبة، فضلاً عن كونها مرتع أنشطته الإجرامية كذلك. وبحسب مسؤولي استخبارات الولايات المتحدة فإن أكثر من ثلثي مقاتلي التنظيم ينتشرون في هذا البلد (رغم أن هذه النسبة قد تتغير مؤقتاً وتبعاً للضغط العسكري الذي يتعرض له التنظيم في سورية).

أضف إلى ذلك، أن تهشّم النسيج الاجتماعي والنظام السياسي للبلاد وتحولها إلى ساحة حروب بالواسطة وفّرتا الدافع والإلهام لمنضوين محتملين عديدين لـ «داعش» والتنظيمات

---

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) المصدر نفسه. انظر أيضاً: رابط التسجيل أبو محمد الجولاني، معلناً انصياعه لقائد القاعدة المركزية، أيمن الظواهري، المؤرخ في ١٠ نيسان/أبريل ٢٠١٣، <http://www.youtube.com/watch?v=6FdTjm4-6Lo>.

المشابهة مثل «النصرة». وما دامت الحرب السورية مستعرة، فسيستمر «داعش» في التموضع في قلب تلك الفوضى، التي باتت عليها تلك البلاد التي تمزّقها الحرب الآن. مع ذلك، وحتى كتابة هذه الكلمات، نجحت الفصائل السورية الكردية، مدعومة من الولايات المتحدة، ومن الفصائل المعارضة الأخرى وبتوجيه من رعاتها الإقليميين، في الضغط على «داعش» وإضعاف حظوظ انتصاره في سورية جوهرياً. وقبضة «داعش» في سورية ليست في قوة ما هي عليه في العراق.

ومع ذلك، فصعود التنظيم القوي الناجح مرة أخرى في العراق مدين للقوة التي اكتسبها في سورية. فنجاحه في احتلال مدن سورية كبرى سنة ٢٠١٤ سمح له بتدمير الحدود الدولية التي تفصل بين البلدين. وقاده ذلك ومن دون منازع إلى تأكيد تفوقه في تسنّم قيادة شبكة الجهاد الدولي مثبتاً أن تكتيكه في «كسر الحدود» قد نجح فعلاً. وقد استخدم «داعش» إنجازاته في سورية والعراق لتهديد البلدان المجاورة الأخرى، الأمر الذي ضاعف بدوره من شعبيته في المنطقة.

رابعاً: الربيع العربي

أخيراً، ما كان لـ «داعش» أن يبدأ ويتقدم لولا انهيار انتفاضات «الربيع العربي» وتلاشي أحلام ملايين المواطنين الذين خرجوا مطالبين بعقد اجتماعي عادل وبلائحة حقوق أخرى. لم ينشأ الربيع العربي من فراغ. فملايين العرب كانوا قد بلغوا بعد عقود طويلة من فشل التنمية والحكم الاستبدادي مرحلة الانكسار واليأس. كانت تلك نقطة حاسمة في وسعها إحداث التغيير التقدمي في الوطن العربي لو لم تقع ضحية تحالفات مشبوهة بين قوى خارجية ومحلية مضادة للثورة. ومن بين هؤلاء فاعلون كُثُر من مثل الحكام المستبدّين المدعومين من دول إقليمية حليفة، وأجهزة أمنية وعسكرية، والفلول أو عناصر النظام القديم القوية، و«داعش»، التقت مصالحهم جميعاً على مواجهة فرصة التغيير السياسي السلمي التي كانت سنحت لفترة قصيرة.

كذلك، ما كان «داعش» ليتصدر المشهد في المنطقة من دون التحالف الكبير بين الحكام السلطويين ورعاتهم الإقليميين والدوليين وعنوانه إبقاء الأمور في المنطقة كما هي وبأي ثمن. ورغم المنافسة الجارية بين العربية السعودية وإيران، إلا أن كلتيهما أدتا دوراً حاسماً مضاداً للثورة، وعملتا بكل الوسائل على إبعاد موجة التغيير السياسي التي هبّت في المنطقة عن الداخل في بلديهما وذلك بتغذية أوارها لدى الجيران وبهدف تعزيز نفوذهما.

حين امتلك الربيع العربي الزخم الكافي لينطلق أكثر سارعت العربية السعودية إلى إنفاق أكثر من مئة مليار دولار أمريكي في الداخل بهدف الحفاظ على الاستقرار وشراء ولاء مواطنيها. كذلك، استثمرت المملكة مليارات الدولارات في البحرين ومصر وعُمان واليمن والمغرب والأردن للحؤول دون نجاح التغيير الثوري الجاري والإبقاء على حلفائها التقليديين تحت السيطرة، بل لجأت، معها

دولة الإمارات العربية[٢٨]، أكثر من ذلك، إلى إرسال ٢٠٠٠ جندي إلى البحرين لمساعدة حليفها الخليجي على التصدي للمعارضة في بلده. ورغم أن الولايات المتحدة لم تتقبل في البدء المزاعم السعودية والبحرانية الرسمية من أن إيران هي التي تحرّك المتظاهرين في المشيخة الصغيرة، فهي عادت لاحقاً فقبلت ضمناً بالتدخل العسكري السعودي مبررة ذلك بأن عناصر مؤيدة لإيران ربما كانت تختطف إرادة السكان. وغدت البحرين بالتالي نقطة خلاف رئيسية في الخلاف الأمريكي - الإيراني في سياق المصالح الاقتصادية والاستراتيجية الأمريكية مع بلدان الخليج العربي[٢٩]. وبينما دعم صنّاع السياسة الأمريكيون التغيير الجاري في تونس وليبيا واليمن وسورية، إلا أنهم كانوا مترددين جداً في فعل الشيء نفسه في الخليج لأن المنطقة تحتوي على مصالح أكثر أهمية للمصالح الوطنية الأمريكية.

كذلك، حاربت إيران، وهي التي ما انفكت تصف نفسها بالدولة الثورية، وبكل ما تملك للإبقاء على نظام الأسد. كما دعمت المالكي في العراق، الذي جلبت سياساته الطائفية الخراب للبلاد، ولم تنأَ بنفسها عنه إلا بعد أن سحبت المؤسسة الدينية الشيعية القوية ثقتها منه. مع العلم أن القادة الإيرانيين حاولوا مع بدء الانتفاضات العربية في شباط/فبراير ٢٠١١، وقبل أن تصل العاصفة إلى سورية، استثمار ما يجري لصالحهم. فقد تباهى المرجع الأعلى للجمهورية الإسلامية الإيرانية آية الله خامنئي أن الربيع العربي هو «امتداد طبيعي لأفكار الثورة الإسلامية الإيرانية سنة ١٩٧٩»، واعتبرها «المحفّز للصحوة الإسلامية الحالية»[٣٠].

لكن حين وصلت «الصحوة الإسلامية» إلى سورية والعراق، تغيّرت بوصلة التأييد الإيراني في الوقت الذي كان حليفاها الأكثر قرباً، المالكي والأسد، يخوضان حرباً شرسة للحفاظ على وجودهما السياسي. عند ذلك، رمت إيران سترة النجاة للرجلين اللذين كانا على حافة الغرق، فصبّت بذلك المزيد من الزيت على النار الطائفية المستعرة في العراق وسورية وسواهما. وفي سياق جهودها لمنع انهيار نظام الأسد، وجدت إيران في روسيا حليفاً طبيعياً لها. وهكذا تدخل الرئيس بوتين بدءاً من أيلول/سبتمبر ٢٠١٥ مباشرة في الحرب الدائرة وذلك بشنّه غارات جوية مكثفة على المعارضة دعماً للنظام. وغدت سورية من ثم ساحة لحرب عالمية بالواسطة بين القوى الغربية وروسيا التي استخدمت كل رصيدها العسكري والدبلوماسي لتحول دون التدخل العسكري الغربي في البلاد التي مزّقتها الحرب.

---

(٢٨) Michael Slackman, «Bullets Stall Youthful Push for Arab Spring,» *New York Times*, 17/3/2011.

(٢٩) Fawaz A. Gerges, *Obama and the Middle East: The End of America's Moment?* (New York: Palgrave Macmillan, 2012), pp. 189-190.

انظر أيضاً الكتاب بنسخته العربية: فواز جرجس، أوباما والشرق الأوسط: نهاية العصر الأمريكي؟ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٤).

(٣٠) Henner Furtig, «Iran and the Arab Spring: Between Expectations and Disillusion,» *GIGA Research Programme: Violence and Security*, no. 241 (2013), p. 3, <http://www.giga-hamburg.de/en/system/files/publications/wp241_fuertig.pdf>.

وسط ذلك كله، كانت حرب باردة جديدة بين زعيمة الإسلام السنّي العربي، السعودية، وزعيمة الإسلام الشيعي، إيران، تدور في شوارع بلدان عربية عدة فقيرة ومضطربة، مثل العراق وسورية واليمن، وحوّلت تلك الحربُ الصراعَ من أجل المطالب الاجتماعية والسياسية في البلدان العربية إلى شكل من أشكال التنافس الجيواستراتيجي والطائفي بين البلدين. وغدت سورية والعراق، وبلدان أخرى، ساحات لحرب إقليمية بالواسطة بين العربية السعودية وإيران، مع قطر وتركيا وغيرهما، من خلال تسليح وتمويل الأطراف المتقاتلة سعياً إلى النفوذ والهيمنة. وفي النهاية كانت هذه الحرب بالواسطة، والصراعات على السلطة، وسياسات الهوّية (السنية ضد الشيعية وعلى العكس)، والصراع بين الهويات القومية المتنافسة (العربية ضد إيران وعلى العكس)، الهدية الإلهية التي قُدّمت إلى «داعش» وفصائل «القاعدة» المختلفة في المنطقة. فقد أمكن «داعش» و«النصرة» مع بداية الاضطرابات في سورية الحصول من البلدان السنّية المجاورة على التمويل، والسلاح، والغطاء الديني، وكان ذلك عاملاً حاسماً في امتلاك التنظيم القوة التي ظهرت لاحقاً. وعليه فقد يسّر التنافس الجيواستراتيجي والجيوطائفي بين البلدان التي يهيمن عليها السنّة وإيران، التي يهيمن عليها الشيعة، نشوء «داعش» من جديد وصعوده. وهكذا سمحت هشاشة نظام الدولة العربية بقيام معركة مجّانية بين القوى الإقليمية سعياً إلى الهيمنة والسيطرة. وأمكن «داعش» من ثم أن يتسلق كلاعب من خارج الدولة أكتاف الدول الإقليمية الأساسية التي كانت تتقاتل على النفوذ في قلب المنطقة العربية. وليس بعيداً من القاعدة المركزية التي نشأت من رحم الصراع الأمريكي ـ السوفياتي الشرس على أفغانستان في ثمانينيات القرن الماضي، بدا «داعش» وليد الصراع الجيواستراتيجي والجيوطائفي، كما للتدخلات الخارجية في الوطن العربي.

خامساً: «داعش» وقصة البغدادي

في سياق بحثنا في تاريخ «داعش»، من خلال إطار الهوية والسياسات الطائفية، نقدّم رسماً للبغدادي بإعادة تركيب مسيرته من التخفي إلى بقائه في الظل. جرى التقاط أجزاء قصته من إعادة تجميع شهادات معاصرة لشهود عيان عرفوه قبل انضمامه إلى تنظيم «القاعدة في العراق»، كما من آخرين كانوا قد أمضوا وقتاً معه قبل ـ وبعد ـ احتجاز الأمريكيين له في معسكر «بوكا» قرب أم قصر في جنوب العراق وذلك في شباط/فبراير ٢٠٠٤ باعتباره «مقاتلاً سنّياً بسيطاً»[٣١].

وحين تسلّم البغدادي قيادة «القاعدة في العراق» عام ٢٠١٠، كان التنظيم على شفا الانهيار، بفعل خسارته آنذاك لقاعدته الاجتماعية والمادية في المثلث السنّي. وكان ذلك نتيجة حرب محلية داخلية بين «القاعدة في العراق» والجماعة السنية في العراق التي كانت وفّرت في البدء

---

(٣١) يقول البنتاغون إن البغدادي وبعد توقيفه في الفلوجة سنة ٢٠٠٤، أطلق سراحه في كانون الأول/ديسمبر مع عدد كبير من السجناء ممن اعتبروا ذوي تهديد بسيط. تقدر مصادر أخرى أن البغدادي قضى في سجن بوكا بين سنة وخمس سنوات. انظر: Tim Arango and Eric Schmitt, «U.S. Actions in Iraq Fuelled Rise of a Rebell,» *New York Times*, 10/8/2014, and Martin Chulov, «ISIS: The Inside Story,» *Guardian*, 11/12/2014.

الملاذ للتنظيم. عمل البغدادي والحلقة الصغيرة إلى جانبه بصبر ومنهجية على إعادة بناء شبكتهم الاجتماعية ووسّعوا من استقطابها للسنّة الريفيين الفقراء في العراق ثم في سورية بعدما تحولت الانتفاضة السياسية فيها إلى حرب أهلية مفتوحة. كان البغدادي، في ذلك الوقت، يعيد وبذكاء تنظيم جهاز «القاعدة في العراق» العسكري معتمداً على خبرات جنود ورجال شرطة سابقين في الجيش العراقي، كما على مدربين شيشان في سورية، ما حوّل التنظيم إلى قوة مقاتلة محترفة قادرة على خوض حرب مدن تقليدية.

ومن خلال خبرتهم القتالية والتدريبية الطويلة وقتالهم الفعلي لسنوات طويلة بما فيها الحرب الإيرانية ـ العراقية في ثمانينيات القرن الماضي، وغزو الكويت (١٩٩٠ ـ ١٩٩١)، وقمع الانتفاضات في الثمانينيات والتسعينيات، ومقاومة الأمريكيين منذ ٢٠٠٣ إلى ٢٠١٠، حوّل الضباط السنّة العراقيون المحترفون من أفراد الجيش العراقي المنحل عصابات تنظيم البغدادي وشبكاته المجمّعة من هنا أو هناك إلى قوة حرب عصابات حقيقية، كفؤة، وأقرب إلى جيش مذهبي صغير محترف، أمكنها في النهاية شن هجمات من عيار كبير وتشتيت فرق عسكرية عراقية وسورية عدة.

مع ذلك، فإن أسئلة عدة حول البغدادي لا تزال بحاجة إلى أجوبة لتفسير صعود «داعش» السريع. ومنها، على وجه الخصوص، كيف أمكن لرجل من دون خلفية عسكرية سابقة، ولم يكن يوماً منظّراً سياسياً ولا داعية دينية، تحويل «داعش» إلى أهم تنظيم سلفي جهادي دولي، يسيطر على «أمة» مفترضة تمتد عبر الحدود السورية ـ العراقية وعلى رأس جيش يضم أكثر من ثلاثين ألف مقاتل؟ كيف أمكنه أن يؤمن حاجات القوة تلك التي تبلغ ما لا يقل عن ملياري دولار أمريكي سنوياً (تناقصت ميزانية «داعش» السنوية سنة ٢٠١٥ إلى نحو مليار دولار) وليحوّلها إلى أحد أغنى التنظيمات غير الرسمية في العالم، مع التطلع إلى أن تشبه دولة، وكله في أثناء اقتصاد حرب؟ إلى أي حد قامت مؤسسات الدولتين العراقية والسورية المتهالكة، وكذلك القوى الإقليمية المتنافسة على النفوذ والاستقطاب المذهبيين، بمساعدة البغدادي؟ لا يمكن الركون في تفسير ذلك إلى ما نعرفه من خبرات البغدادي الشخصية، ولا إلى دراسة مركّزة له في القيادة، ولا إلى خصال خارقة للرجل نفسه. وفي الحقيقة، فإن الصعود القوي للبغدادي قد تزامن مع الاضطرابات السياسية والمجتمعية المتزايدة التي شهدها العراق، حيث جرى النظر على نطاق واسع إلى الكثير من سياسات الحكومة المركزية باعتبارها تهميشاً وحطّاً من وزن الجماعة السنية. لقد كانت الفوضى التي سادت العراق ثم سورية هي الرافعة التي دفعت بقوة مسيرة البغدادية الجهادية إلى أمام.

يتصل صعود «داعش» بقوة بالنيران المذهبية المستعرة في العراق وسورية، وبصراع الهويات الذي شق المجتمعات العربية، وإذا ما حدث وهُزمت «داعش» فهناك باستمرار احتمال أن تتقدم جماعة أخرى تشبه «داعش»، كالنصرة مثلاً، لتحاول ملء فراغ السلطة في المنطقة. وإذا صحّ أن «داعش» هو مظهر لإفلاس مؤسسات الدولة، يتوجب إذاً أن يعاد بناء نظام الدولة السلطوية الهش على قاعدة من الشرعية مختلفة وأقوى كثيراً. ويتطلب ذلك حكومة شفافة، استيعابية، وممثلة، توفر

الخير العام بما فيه فرص العمل، وأن تعطي لملايين الرجال والنساء الذين يشعرون بالاستبعاد أملاً بالمشاركة في مستقبل بلدانهم. والتحدي المعقد الآخر هو مواجهة أيديولوجيا «داعش» السلفية الجهادية بالمعنى الواسع. و«داعش» في محاولته تصوير نفسه البديل الوحيد للنظام السياسي المهشّم والفاسد إنما يحاول اختطاف توكيل الناس، ثم يعود لاحقاً ليستخدم التكتيكات نفسها للأنظمة القمعية التي يسعى إلى الحلول محلها. وعليه فالتحدي الحقيقي هو توفير الأمل لملايين الرجال والنساء الذين نادوا بالعدالة والحرية والحياة بكرامة، كما شهدنا في انتفاضات الربيع العربي، وإقناعهم في الوقت عينه أن هناك بالفعل خيارات تغيير غير عنفية في وسعها إحداث تغيير سياسي حقيقي وذي معنى. وإلى أن نفعل ذلك، سيستمر كابوس «الدولة الإسلامية» والجماعات السلفية المجاهدة المشابهة مشكلة كبرى للوطن العربي والعالم الإسلامي كما للمجتمع الدولي في آن معاً.

الفصل الأول

العالم من منظار داعش

رغم أن الصعود الصارخ لـ «داعش» يجب أن يوضع في سياق ظروفه وشروطه الاجتماعية والمادية القائمة في العراق وسورية وغيرهما، فإن مواقفه المعلنة وأيديولوجيته يجب أن تؤخذ بجدية أيضاً. فالأيديولوجيا هي المرهم اللاصق المثالي الذي يجمع معاً الناشطين والمقاتلين السلفيين الجهاديين، ويسمح للحركة بتجديد نفسها والوقوف على قدميها من جديد بعد التراجعات المؤلمة. فقد نجحت السلفية الجهادية، كأيديولوجيا منتشرة ومتوسعة، في اكتساب منضوين جدد وفي الإمساك بخيال جماعات سنّية صغيرة حول العالم؛ وقد طوّر التنظيم طقوسه ومرجعياته وأنتج أبطاله ومنظّريه الأيقونيين الذين قدموا الإرشاد الفكري والزاد الديني.

وهكذا، نافست حركة اجتماعية هامشية، السلفية الجهادية، والإسلام التقليدي، والإسلام الراديكالي معاً على النفوذ الشعبي وقدمت للجمهور خطاباً بديلاً من خطابهم. وقد صدح دعائيو التنظيم ومبشّروه عالياً أن اتجاه التاريخ بات إلى جانبهم. وكائناً ما كان مصير الأيديولوجية تلك، نصراً أم لا، فهي هنا لتبقى، وتستمر على الأرجح، وبات التحدي كيفية الإضاءة على هذه الأيديولوجية واكتشاف معناها. فغالباً ما أهمل الباحثون السلفية الجهادية أو قللوا من قيمتها وأهميتها.

و«داعش» أولاً وأخيراً هو امتداد للحركة الأيديولوجية السلفية الجهادية العالمية. إلا أن البغدادي ومعاونيه يمثلون موجة جديدة من الحركة تلك وجيلاً جديداً من المجاهدين السلفيين الجهاديين أو الناشطين الدينيين الثوريين. (سيتفحّص الفصلان الثاني والثامن في العمق مرجعيات «داعش» الأيديولوجية وتركيبه العقلي كما نقاط التشابه والاختلاف مع الجماعات السلفية الجهادية الأخرى). وقد نجح «داعش» اليوم ـ كأيديولوجيا وكحالة أمنية وعامة ـ في فرض أجندته في صراع هويات شرس بين المسلمين السنّة والمسلمين الشيعة في الشرق الأوسط وسواه. ورغم أن «داعش» تنظيم سلفي ـ جهادي إلا أن له توجهه الخاص والمغالي في حملته الشاملة ضد الشيعة وتحت عنوان رومانسي طوباوي هو: إحياء الخلافة.

إذا قارنا بين نشأة تنظيم القاعدة المركزية ونشأة تنظيم «داعش»، أمكننا تمييز الخيوط الأيديولوجية التي أدّت دوراً في أرجحية «داعش». فقد نشأ تنظيم القاعدة المركزية من تحالف بين السلفية السعودية المحافظة إلى أقصى حد (أو الوهّابية) والإسلام الراديكالي المصري المعروف بالسلفية الجهادية. أما «داعش» فقد وُلد من زواج بين تنظيم «القاعدة في العراق» (السلفي الجهادي) وتشكيلة من سياسات الهوية. يشكّل النسب الأيديولوجي للتنظيم، أي انتسابه إلى السلفية الجهادية، جزءاً فقط من العدّة الأيديولوجية عنده، بينما الجزء الآخر من طبيعته الأيديولوجية هو هويته السنّية المغالية؛ تقودها أيديولوجية داخلية معادية بل قاتلة للشيعة. لقد تسبب غزو العراق واحتلاله الذي قادته الولايات المتحدة بتهشيم إضافي في نسيج المجتمع العراقي الممزّق أصلاً؛ فتدمير أمريكا مؤسسات العراق، وخصوصاً تسريح الجيش وحلّ حزب البعث الحاكم، فتح الباب لصراع شرس على السلطة، وفق خطوط مذهبية بشكل رئيسي، خالقاً شقوقاً واضحة في المجتمع. وشكّلت هذه التمزقات المكان المناسب لفاعلين من خارج الدولة ولميليشيات متمردة، بما فيها «القاعدة»، للتسلل والعبث بسياسات الجسم المريض في عراق ما بعد ٢٠٠٣. وكانت استراتيجية «داعش» وفق تصميم مخططيه هي استغلال أزمة الهوية في الدولة العربية بالزعم أنهم يسعون إلى خلق إطار اجتماعي ـ اقتصادي في وسعه منافسة الحداثة الغربية. وبالرغم من إصرار «داعش» على أنه يعمل من خلال نظام قيم مختلف عن ذاك الذي تروّجه الليبرالية الغربية، إلا أن خطاب التنظيم لا يتضمن أي تجديد خلا في سياسات الهوية وقطبها الصارخ ديني بامتياز. يستطيع الدين التأثير كإطار ضمني للهوية الاجتماعية، وبخاصة في بيئات الحرب حيث يغدو الخطر عالياً، ويدفع باتجاه ولاء جمعي من خلال تقديم الإطار ذاك باعتباره الحقيقة والطريق يجري اتباعه[1].

وبتقديم «داعش» بنية صافية من خلال مجموعات محددة من القواعد والاعتقادات ونظرة عامة تجمع الحياة على الأرض والحياة اللاحقة، يوفّر التنظيم لأفراده الوعد بانتماء أبدي للجماعة، أثبت على وجه الخصوص أنه جاذب للناس الذين يشكون قلقاً وجودياً. أكثر من ذلك، يشير الباحثون الأكاديميون إلى عناصر عدة في نظرة التنظيم تنحدر في الحقيقة من الأيديولوجية «الإبراهيمية» الأصولية، ومن ضمنها الثنائية (الخير المطلق في مواجهة الشر المطلق)؛ السلطة (كتاب أو زعيم قائد)؛ الانتقائية (انتقاء معتقدات أو ممارسات معينة وترك سواها)؛ والأخروية الحتمية (الثقة في آخرة وفق إرادة الله). بين العناصر تلك كافة، هناك وجه يبدو ظاهراً بقوة فيها: هو رجعيتها[2]. وتأخذ الرجعية تلك شكل العداء تجاه الحداثة العلمانية؛ عداء ليس موجهاً فقط ضد أناس من

---

(١) انظر على سبيل المثال: Catarina Kinnvall, «Globalization and Religious Nationalism: Self, Identity, and the Search for Ontological Security,» *Political Psychology*, vol. 25, no. 5 (October 2004), pp. 741–767; James K. Wellman, Jr., and Kyoko Tokuno, «Is Religious Violence Inevitable?,» *Journal for the Scientific Study of Religion*, vol. 43, no. 3 (September 2004), pp. 291–296, and Renate Ysseldyk, Kimberly Matheson, and Hymie Anisman, «Religiosity as Identity: Toward an Understanding of Religion From a Social Identity Perspective,» *Personality and Social Psychology Review*, vol. 14, no. 1 (February 2010), pp. 60–71.

(٢) Ysseldyk, Matheson, and Anisman, Ibid., p. 61.

خارج معتقدهم الأصولي بل حتى ضد أفراد من الجماعة الدينية نفسها لا تنطبق عليهم مواصفات «المؤمنين الحقيقيين».

يمكن النظر، في ضوء ذلك، إلى تطوير «داعش» أيديولوجية صافية كجزء من استراتيجية تعزيز أصولية أعضائها من خلال تأكيد خصوصيتهم، من دون أن يتناقض ذلك مع تزويدهم برؤية شاملة. على سبيل المثال، فإن استعمال الجماعات السلفية الجهادية الواسع، بما فيها «داعش»، الأفراد الانتحاريين يؤلف أسلوباً محدثاً في الإسلام لا علاقة له بالعودة إلى الجذور. وواحدة من الفرضيات المقنعة التي يمكن صوغها هي أن المسلمين يخوضون الآن حرب الذاتيات أو الخصوصيات الناتجة من سلسلة من التمزقات التي بدأت مع عصر النهضة وهي تتّخذ شكل حرب أهلية إسلامية ـ إسلامية حول الهوية الإسلامية نفسها[٣]. والعرب أنفسهم منغمسون أيضاً في نزاع فكري حول وجودهم في عالم يدور النقاش فيه حول كل ما تعلّق بالوطن العربي والعالم ككل. والصعود الحالي للسلفية الجهادية وللإرهاب ممثلين بتنظيمات كـ «داعش» لا يمكن اعتباره نتيجة للطائفية المتزايدة ولأزمة الدولة الحديثة فحسب، بل هو أيضاً نتيجة للعدمية المتزايدة التي لا تقيم اعتباراً للسلام والقيم التقدمية التي تؤمن بهما البشرية[٤].

مع ذلك، وبعيداً من أن يكونوا نوعاً جديداً تماماً، ينتمي «داعش» نسَباً وأيديولوجيا إلى العائلة السلفية الجهادية (الجهاد العالمي)، مع أنه يضع بصمته على مرحلة جديدة في التطور، أو التحوّل في البركة الأيديولوجية الواحدة. فلم يرث زعيمه، أبو بكر البغدادي، الإرث الدموي لسلفه أبو مصعب الزرقاوي، مؤسس «القاعدة في العراق»، فحسب، بل عمل وفق موديل بن لادن، «الشهيد» في أدبيات السلفيين الجهاديين وزعيمهم الجاذب المستمر من دون منازع لحركة الجهاد العالمي. كان لحركة الجهاد العالمي في خمسين سنة من عمرها مخزون من الأفكار، وإطار مرجعي، ومنظرون، وآلاف الأتباع، و«شهداء» كانوا دائماً الملهمين للمتطوعين الجدد الذين يؤمّنون بقاءها. وعليه، كان في مقدور «داعش» أن تبني على هذا المخزون، فتكرر المفاهيم القديمة وتقدمها في صيغة جديدة أو ثورية. يستخدم «داعش» خطاب الأيديولوجيا الدينية ليقارب سياسات الهوية. وكان الدين بالنسبة إلى السلفيين الجهاديين، في الحقيقة، وعند الحاجة، المرهم اللاصق الذي يوفّر التجانس، وليس بالضرورة الوحدة، بين مختلف الفصائل والفِرق، والحجة لممارسة العنف الزائد. وما انفك هؤلاء يلجأون إلى الآيات القرآنية ليختاروا منها، على نحو انتقائي، التبرير لهجماتهم الجهادية ولوصفها بـ «المباركة».

تجمّد العالم، عند «داعش»، في الزمان والمكان، عند القواعد والقوانين التي كان معمولاً بها في الجزيرة العربية في القرن السابع، وهي التي يجب أن تطبّق في القرن الحادي والعشرين. ويصوّر

(٣) Fethi Benslama, *La Guerre des subjectivities en Islam* (Paris: Nouvelles Editions Lignes, 2014).

(٤) «الفيلسوف والمفكر والشاعر التونسي فتحي المسكيني لـ «القدس العربي»: وعد الدولة القومية بالحداثة لم يعد كافياً وثمة حاجة إلى انتماء جديد،» أجرى الحوار روعة قاسم، القدس العربي، ٢٠١٥/٨/٢٢، <http://www.alquds.co.uk/?p=391704>.

البغدادي ومساعدوه أنفسهم بأنهم يقاتلون «المُعادين للمسيح» ويفتحون الطريق أمام الانتصار الأخير لـ «المهدي» في الإسلام، الذي سيملأ الأرض يوم ظهوره عدلاً وقسطاً. هذا التفكير الآخروي هو في قلب أيديولوجيا خلافة «داعش» والأيديولوجية الجهادية العالمية عموماً.

ليس السؤال، إذاً، إن كان «داعش» إسلامياً أم لا ـ وهو كذلك، مع أن المسلمين حول العالم ينأون بأنفسهم عنه ويتبرأون من أفعاله ـ بل هو فهم كيفيّة أَخْذِ التنظيم بكثافة، ولكن بانتقائية، من الشرع الإسلامي، ثم بفرضه الماضي على الحاضر ومن دون تمييز. يقفز البغدادي ومساعدوه الدعائيون فوق قرون من التفاسير والتفاسير المضادة الإسلامية فيحصرون أنفسهم في قراءة شكلية، حرفية، ضيقة، بائدة، للعقيدة الإسلامية، في خطوة غامضة، مربكة، تتعارض مع مبادئ الإسلام الشعبي العادي المعيش. لذلك، وبالرغم من صوته العالي، يبقى خطاب «داعش» ظاهرة هامشية بعيدة جداً من الرأي العام الإسلامي، إلا أنه مع ذلك يرنّ بقوة في أذني قاعدته الاجتماعية. وتستمر تلك القاعدة في مدّ «داعش» بمنتسبين مُريدين في درجاتهم كافة، وبمقاتلين وقنابل بشرية انتحارية. ومن جديد، يُصدَم السياسيون والمراقبون الذين يضعون حركة الجهاد العالمي في عداد الأموات بمرونتها وبقدرتها على تجديد نفسها. والأيديولوجيا عامل حاسم في هذه العملية، وهي التي توفر الشرعية لعمليات «داعش». وإذا عدنا إلى الأصول الاجتماعية والأيديولوجية لـ «داعش» وقارناها بالموجتين الجهاديتين للسبعينيات والتسعينيات من القرن الماضي، لاستطعنا قياس مظاهر الاستمرار والتغيير في سجل عمليات الجماعة الوحشية السيئ الصيت.

لا وقت أو مكان لدى «داعش»، المأخوذ بالطريق السلفي الجهادي لحراك اجتماعي أو لتنظيم سياسي. فخطابه شمولي، آخروي، يلغي التعددية السياسية، والتنافس، والتنوع في الفكر. والبغدادي، وأركانه، وهم يجرّمون بل يجتثون كل فكر حرّ، وفكرة «آخر» غريبة على أيديولوجيتهم الرسالية. إن أي مسلم ـ أو حتى جهادي ـ لا يقبل تفسير «داعش» للعقيدة الإسلامية فهو مرتد ويستحق الموت. وبالمثل، فكل مسلم أو جهادي يرفض الخضوع لسلطة الخليفة الجديد مصيره إما النفي من أرضه وإمّا الموت. ويحتاج المراقب هنا إلى أن يستذكر بيان مسؤول الدعاية الأول في «داعش» والناطق باسمه لدى تأسيسه أبو محمد العدناني، واسمه الحقيقي طه صبحي فلاحة، إذ يطالب كل الجهاديين، أفراداً وفصائل، وفي كل مكان، بإعلان البيعة للخليفة الجديد البغدادي. وعليه فشرعية جميع الأمراء والجماعات والدول والمنظمات باتت فارغة ومن دون أساس، يقول «الأرض الآن من حلب إلى ديالا خاضعة لسلطته»[٥]، أوضح العدناني بجلاء أن هناك الآن دولة إسلامية واحدة وخليفة إسلامياً واحداً ولا مكان للمعارضين، يقول «في الحقيقة إنها الدولة، الخلافة. حان الوقت لإنهاء الخلاف والتشتت والانقسام، فهذا ليس ما نص عليه شرع الله أبداً. أما

---

(٥) انظر تسجيل الرسالة الصوتية لأبو محمد العدناني، «هذا وعد الله،» مؤسسة الفرقان، ٢٩ حزيران/يونيو ٢٠١٤، <http://jihadology.net/2014/06/29/al-furqan-media-presents-a-new-audio-message-from-the-islamic-states-shaykh-abu-mu%E1%B8%A5ammad-al-adnani-al-shami-this-is-the-promise-of-god>.

إذا تمرّدتم على الدولة أو أعلنتم الحرب عليها، فأنتم لن تؤذوها بل ستؤذون أنفسكم»[٦]. هو تحذير واضح أن على المسلمين كافة طاعة الخليفة الجديد، «قائد المؤمنين» بمن فيهم الآخرون الذين يحملون ألقاباً مشابهة، ومن لا يفعل فدونه «فصل الرأس» أو «ضرب العنق»[٧].

في رأي «داعش» الخلافة ليست، إذاً، كياناً سياسياً فقط، بل هي إلزام شرعي جماعي (واجب كفائي)، طريق للخلاص: فالمسلمون ارتكبوا حين تركوا الخلافة من الآثام ما يكفي، ولم تذق الأمة بعده طعم «الشرف» أو «النصر». وعليه فرسالة «داعش» إلى المسلمين هي تكراراً تأدية الطاعة للخليفة الصحيح، «البغدادي»، وأن يحيوا حياة إسلامية صحيحة.

ومن جديد، يتضح أن خلف هذه الفكرة الرومانسية للخلافة تكمن سياسات الهوية، وهي جوهر الإطار الأيديولوجي لـ «داعش» المتضمن تأكيد هوية الإسلام السنّي وإعادة تعريف الإسلام الصحيح. ربما يوهم خطاب العدناني أن إعادة إحياء «الدولة الإسلامية» يعني القطع مع نظام الدولة الحالي. لكن الأمر ليس كذلك في حقيقته، فكما كان الأمر بقيادة صدّام هو كذلك الآن بقيادة البغدادي، حيث الدولة الإسلامية في العراق دولة شمولية، يحكمها زعيم مطلق، لا يتسامح مع أي معارضة. وفي الحقيقة، لا يختلف تصور «داعش» للحكم من النمط الاستبدادي الذي يسود بعض البلدان العربية منذ عقود.

استخدم «داعش» أيديولوجيته الرسالية لتبرير قمعه الوحشي للإسلاميين والقوميين (البعثيين) معاً في المناطق الخاضعة لسيطرته. وحجته إجبار كل فرد على التحوّل إلى قضيته، بمن فيهم الجهاديون المنافسون الذين لا يختلفون منه كثيراً. وعلى سبيل المثال، ينتقد العدناني ويتوعد أيمن الظواهري، زعيم القاعدة المركزية، وأعلى الجهاديين كعباً، لتجرُّئه وأخذ جانب زعيم جبهة النصرة، أبو محمد الجولاني، ضد البغدادي في الصراع على السلطة الجاري بينهما في سورية. ويذكّر العدناني الظواهري بشدّة أنها أراضي الدولة الإسلامية وأن على الجولاني إعلان البيعة للبغدادي والخدمة كجندي في جيشه. ومنذ انتماء البغدادي إلى القاعدة سنة ٢٠١٠ فتلك أقسى إهانة يتوجه بها للظواهري[٨].

أدّت مواقف «داعش» المتشددة إلى اضطراب في حركة الجهاد العالمي، وقادت من ثم إلى انشقاق واسع بين «داعش» و«النصرة»، والتي كانت تأسست بأوامر من البغدادي. والسبب الرئيس للنزاع بين الطرفين هو رفض الجولاني سنة ٢٠١٣ أمر البغدادي بإعادة دمج النصرة في «داعش». فاعتبر البغدادي رد الجولاني خيانة وأعلن عليه وعلى حلفائه من الفصائل السورية القومية حرباً شاملة. وقد قُتل في الحرب الداخلية بين الجهاديين أنفسهم الآلاف من المقاتلين المحترفين من

---

(٦) المصدر نفسه.

(٧) المصدر نفسه.

(٨) انظر تسجيل صوتي لـ: أبو محمد العدناني الشامي، «عذراً أمير القاعدة،» يعلن فيه من جديد الولاء للقاعدة طالباً فيها رفض ولاء الجولاني، منشور على موقع اليوتيوب بتاريخ ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٤، <http://www.youtube.com/watch?v=CAB> .

الطرفين، وتخللها مختلف أنواع الكراهية وأشكال العنف وقطع الرؤوس والصَّلب. كانت الحرب بين الجهاديين أنفسهم وحشية تماماً كتلك التي تشن على الأعداء الخارجيين. وأتباع كل من الدولة الإسلامية والقاعدة المركزية يكفّر بعضهم بعضاً ويستحضرون الخطاب الديني نفسه باعتبارهم الجهاديين الحقيقيين لإبادة أخصامهم باعتبارهم مرتدّين. وفي سورية لا يتعايش «داعش» مع النصرة أو أي فصيل إسلامي آخر لأن في ذلك من وجهة نظره انتقاصاً من شرعيته كما لاحتكاره مشروع الجهاد العالمي. لكنه محكوم على «داعش»، في النهاية، كحركة شمولية ـ دينية، أن تدمّر نفسها بنفسها، ليس فقط لارتكابها كل الأفعال الشريرة فحسب، بل لأنه ينقصها أيضاً الخيال السياسي ولتَعارُض أيديولوجيتها مع طرائق عيش المواطنين العاديين والجماعات المحلية (وهو أمر نعود إليه في الخاتمة). وبالإضافة إلى اتقان «داعش» صنع الأعداء المحليين والدوليين فهو يشطب السياسة من قاموسه أيضاً، وجهده موقوف لبناء مجتمع معاصر وفق خطوط طوباوية خالصة من الجزيرة العربية في القرن السابع، نظرة تفرض الماضي البعيد بالقوة على الحاضر.

وعليه؛ فلا عجب أن يتورط «داعش» في حملات تطهير ديني وثقافي للأرض التي يسيطر عليها من كل تأثير غريب أو كافر، بما فيها الممارسات السنية التقليدية التي تتعارض مع تفسيره الأصولي والخارج عن الزمن للعقيدة الإسلامية. ومع أن فكرة تطهير بلاد المسلمين متجذرة بقوة في خيال الجهاديين الإسلاميين، إلا أن «داعش» هو أول حركة مجتمعية تحاول ترجمة الأيديولوجيا إلى واقع. فمع تمدُّد مقاتلي الدولة الإسلامية في العراق وسورية دمّروا أو خرّبوا أو لوّثوا مواقع ومجسمات ثقافية عديدة معتبرينها مجرَّد أصنام. أكثر من ذلك، يحتفل «داعش» بممارساته الوحشية على نحو مشهدي، باعتبارها مظاهر إخلاص مقاتلي الدولة الإسلامية بالأفعال لا بالكلمات في تطهير أراضي الدولة واستعادة الخلافة. ولكن في الوقت الذي يبدو الخطاب الدعائي لـ «داعش» مكروهاً خارجه، فإن قاعدته الاجتماعية تتفاعل معه بالترحاب. وبعض غاية «داعش» من إنتاجه أفلاماً تظهر التطهير الثقافي ذاك، ليس فقط التذكير والتعزيز للحمة الداخلية في التنظيم، وباستراتيجية الانتصار لديها، وإنما أيضاً لحَرف الانتباه بعيداً من تراجعاته العسكرية في الميدان[٩].

وفي سبيل استعادة الدولة الإسلامية الأصلية، يعتقد مقاتلو «داعش» أنه يجب تطهير الأراضي الإسلامية من المرتدِّين والهراطقة، بمعزل عن الثمن الإنساني أو الحضاري لذلك. ما يعنيهم أكثر من ذلك هو إظهار التزامهم بأيديولوجيا متشددة وصافية. وفي محاولتهم تنظيف المجتمع السنّي من المؤثرات الثقافية الغريبة، لا يتردد مقاتلو «داعش» في تدمير كل ما أنتجه أفراد سنّة وشيعة وكرد وأيزيديون ومسيحيون من إرث ثقافي وحضاري في آلاف السنين وجرى حفظه على الدوام باعتباره حضارة بلاد ما بين النهرين القديمة والتي تخص العالم أجمع. إلا أن انتقامهم يبدو أكثر شدة تجاه الأقليات التي يُنظر إلى أفرادها باعتبارهم كفَرة ويجب ألّا يتمتعوا بأي حقوق. ولعل بطشه

(٩) Anne Barnard and Hwaida Saad, «ISIS Fighters Seize Control of Syrian City of Palmyra, and Ancient Ruins,» *New York Times*, 20/5/2015, and Anne Barnard, «ISIS Conquest of Palmyra Expands Militants' Hold on Syria,» *New York Times*, 21/5/2015.

الوحشي بالأقلية الأيزيدية خير مثال يوضح أيديولوجية «داعش» في التطهير. فالأقلية التي تشكل أقل من ١,٥ بالمئة من سكان العراق البالغين ٣٤ مليوناً وفق التقديرات، والتي لم تكن عائقاً أمام أي مشروع في العراق، أصبحت هدفاً لأساليب «داعش» في التطهير، وبتهمة أنهم هراطقة. فبعد احتلاله الموصل والمدن القريبة منها صيف ٢٠١٤، بما فيها سنجار قرب الحدود السورية، لجأ «داعش» إلى التطهير الثقافي، طارداً عشرات الألوف من أبناء الأقليات من منازلهم، بل واستخدم الاعتداءات الجنسية ضد الفتيات والنساء الأيزيديات وسيلة شائعة لإرهابهن والتعجيل في التطهير الثقافي للأقلية تلك. هاجم «داعش» الأيزيديين بعنف بالغ، قتل الرجال والأولاد الذين يحتمل أنهم في سن القتال. ووفق منظمات حقوق الإنسان، ومسؤولين في الأمم المتحدة، وقادة محليين، فقد اغتصب مقاتلو «داعش» ما لا يقل عن ٥٢٧٠ فتاة وامرأة أيزيدية (ثلثاهن لا يزلنَ هناك لحظة هذه الكتابة) وأخضعوهن بالقوة لاستعباد جنسي. بل أكثر من ذلك، أدخلت الفتيات والنساء أولئك جزءاً من التجارة الجنسية، حيث كانت الفتيات والنساء يُبعن ويُشترين وفق إرادة «قسم الغنائم الحربية» في التنظيم، وبتوقيع محاكم «إسلامية»، حسب وثائق عثر عليها بعد غارة للقوات الأمريكية الخاصة على قاعدة لـ «داعش» قتل فيها مسؤوله المالي، أبو سيّاف[١٠]. واستخدم التنظيم الاغتصاب الممنهج وسيلة لجذب الرجال إلى التنظيم في بيئة إسلامية تقليدية محافظة وإلحاقهم بصفوف «داعش»[١١].

ويحسب هيومان رايتس ووتش، ومنظمة العفو الدولية، وتقارير من المنطقة، فقد دمّر «داعش» ومن دون شفقة حياة مئات النساء الأيزيديات[١٢]. وقد تحدثت مستشارة الأزمات في منظمة العفو الدولية، دوناتيلا روفيرا، إلى أربعين امرأة أيزيدية أمكنهن الفرار من أسْر «داعش»، وخلصت إلى أن ما فعله «داعش» بهن يرقى إلى مستوى جرائم الحرب. تقول «لقد دمّرت أهوال العنف الجنسي والاستعباد الجنسي حياة مئات النساء والفتيات الأيزيديات»[١٣]. وتؤكد زينب بنجورا، مبعوثة الأمم المتحدة التي حققت في حالات العنف الجنسي والاستعباد الجنسي في النزاع ذاك، أن هناك فعلاً «لائحة أسعار» حدد «داعش» فيها أسعار بيع النساء «كما لو كنّ براميل بترول». وذكرت بنجورا أن سعر طفل أو طفلة ما بين سنة واحدة و٩ سنوات قد حدد بـ ١٦٥ دولاراً أمريكياً، والفتيات تحت العشرين بـ ١٢٤ دولاراً، وأقل من ذلك لمن هن فوق العشرين من العمر. ووفق تصريح لـ «بلومبرغ

---

(١٠) Jonathan Landay, Warren Strobel, and Phil Stewart, «Exclusive: Seized Documents Reveal Islamic State's Department of «War Spoils»,» Reuters, 28 December 2015.

(١١) Rukmini Callimachi, «ISIS Enshrines a Theology of Rape,» *New York Times*, 13/8/2015, and Judit Neurink, «The ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi Viewed Women Held Captive at a Syrian House as His Private Property, and Raped a Number of Them, Including the US Hostage Kayla Mueller,» *Independent*, 14/8/2015.

(١٢) Amnesty International, *Escape from Hell: Torture and Sexual Slavery in Islamic State Captivity in Iraq* (London: Amnesty International, 2014), <http://www.amnesty.org.uk/sites/default/files/escape_from_hell_-_torture_and_sexual_slavery_in_islamic_state_captivity_in_iraq_-_english_2.pdf>; Rothna Begum and Samer Muscati, «Interview: These Yezidi Girls Escaped ISIS. Now What?,» *Human Rights Watch* (15 April 2015), and Samer Muscati, «Raped by ISIS and Trying to Face the Future,» *Human Rights Watch* (14 April 2015).

(١٣) Amnesty International, Ibid.

نيوز» (Bloomberg News) تقول، «لديهم ماكينة، وبرنامج، ولديهم مدوَّنة في كيفية معاملة النساء اللواتي يُشتَرَين»[١٤].

الأيزيديون ـ بحسب أيديولوجية «داعش» ـ «لا يؤمنون بإله واحد، وأسوأ من ذلك، هم عبدة للشيطان». ولذلك، وفي زعم «داعش»، هم لا يستحقون أن يعاملوا كما يُعامَل «أهل الكتاب»، من المسيحيين واليهود، الذين في وسعهم الاستغفار عن آثامهم وتركهم أحراراً من ثم بدفعهم «الجزية». على نقيض ذلك، يُقتل «الأيزيديون» أو يحوّلون بالقوة عن دينهم وتستعبد نساؤهم، عقوبة يفرضها، وفق ادعاء التنظيم، خبراء في القضاء الإسلامي. إلا أن تورط «داعش» في تجارة الجنس، واستعباده الفتيات والنساء من الجماعة الأيزيدية الصغيرة، ليست بدافع ممارسة السلطة أو الهيمنة الذكورية فحسب، وإنما بادّعاء الحميّة الدينية أيضاً. فالبغدادي ومجلس الشورى لديه، أي حكومته، يريد نيل سبق التمايز عن منافسيه من الجماعات الجهادية الأخرى بمحاولته إحياء التقاليد والطقوس والممارسات التي كانت سائدة قبل ألف سنة في التاريخ الإسلامي. وهم يزعمون أنهم بذلك يطبّقون تكليفاً شرعياً في محاولة لإظهار نقائهم الديني وأصوليتهم[١٥]. وكيما يُظهروا «شرعية» أفعالهم فقد لجأوا إلى تعميم مدوّنة حملت عنوان «قواعد الخالق حول أسر السجناء والاستعباد»، يدعون فيها إلى معاملة السجناء والمستعبدين باللين والحزم معاً. ومن بين تلك القواعد؛ عدم فصل النساء عن أطفالهن. لكن المدوّنة تسمح أيضاً لمقاتلي التنظيم بممارسة الجنس مع الإناث المستعبَدات[١٦].

ويتطرق «داعش» إلى استعباده النساء في مقالات تظهر في مجلته دابق كما في أفلامه الدعائية. يجهد «داعش» إلى تبرير أفعاله وفق نصوص شرعية يزعم أنها موجودة في آيات القرآن الكريم أو في السنّة. لكنه يفعل ذلك بطريقة انتقائية استنسابية، فيختار عامداً ما يناسب غاياته الإجرامية ويغض الطرف في المقابل عن أخرى تنهاه عن فعل ما يرتكبه. ففي مقالة بعنوان «إحياء الاستعباد قبل قيام الساعة»، يزعم التنظيم أنه «يمكن استعباد النساء الأيزيديات، بخلاف نساء المرتدين [الشيعة] حيث يفتي غالب العلماء أنه بالإمكان منحهم فرصة التوبة فإذا أبوا فدونهم السيف»، ويكمل مزاعمه بالقول، «بعد الأسر تُقسّم النساء والأطفال الأيزيديين وفق الشرع بين

---

(١٤) سرّبت «لائحة الأسعار» أولاً من ناشطين يقطنون في مناطق يسيطر عليها داعش في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، إلا أنه تعذر التحقق من صدقيتها ويبقى مطلوب التأكد من صحتها. انظر: Cormac Fitzgerald, «ISIS Executes 19 Female Prisoners for Refusing to Practice «Sexual Jihad»- Kurdish Official,» *Irish Independent*, 6/8/2015.

(١٥) «تنظيم «الدولة الإسلامية»: أسباب الصعود والأيديولوجيا، (٢/١) و(٢/٢)،» مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث، ١٨ تموز/يوليو ٢٠١٥ و٢٢ تموز/يوليو ٢٠١٥، وملخصة في موقع: AlSouria.net.

(١٦) Landay, Strobel, and Stewart, «Exclusive: Seized Documents Reveal Islamic State's Department of «War Spoils»».

مقاتلي الدولة الإسلامية الذين شاركوا في عمليات سنجار، ويرسل خُمس العبيد إلى سلطات الدولة الإسلامية...»[١٧].

بالنسبة إلى المسيحيين فحالهم ليست أفضل كثيراً. فبعد احتلال الموصل ومدن أخرى في العراق وسورية، وضع «داعش» المسيحيين أمام خيارات: التحوّل إلى الإسلام؛ دفع الجزية؛ أو المغادرة فوراً مع تجريدهم مما يملكون أو يرثون. وتظهر تقارير واردة، أنه رغم دفع الجزية، فقد تعرضت نساء وفتيات مسيحيات لاغتصاب ممنهج من قبل عناصر «داعش». وفي ضوء ذلك، تعرّض المسيحيون لموجة جديدة من النفي. وكانت موجة سابقة قد حدثت على أيدي تنظيم «القاعدة في بلاد ما بين النهرين» ما أجبر مليون مسيحي، من بين مليون ونصف المليون من أهالي العراق، على مغادرة بلادهم بين ٢٠٠٣ و٢٠١٠.

وهناك خطر حقيقي في أن يكمل البغدادي ما بدأه سلفه، الزرقاوي ـ الذي قُتل سنة ٢٠٠٦ على أيدي الأمريكيين ـ من ممارسات ستفضي إلى إخلاء العراق من جماعة آشورية قديمة عمرها ما يقرب من ٢٠٠٠ سنة. لكن أيديولوجية «داعش» لا تستهدف الأيزيديين والمسيحيين وحدهم، بل المسلمين كذلك، وعلانية. ففي محاولته تمييز نفسه بالمزيد من التطرف الديني من سابقيه من المتطرفين الإسلاميين، مثل القاعدة المركزية، لا يتردد البغدادي في قتل المسلمين أيضاً، إذ يعتبر «داعش» أن المسلمين الشيعة مرتدّون، وعقابهم استباحة دمهم، إسوة بالسنّة الذين يعارضون مواقفه أو ممارساته.

في الحقيقة، كان «داعش» المستفيد الأكبر من السياسات التقسيمية في العراق وسورية، ومن تدمير مؤسسات الدولة في المنطقة العربية عموماً. ومنذ البدء قدّم البغدادي وأركانه أنفسهم باعتبارهم المدافعين وحدهم عن الجماعات السنية المستبعدة والمقهورة من الأنظمة التي يهيمن عليها الشيعة، أولاً في بغداد، ثم في دمشق. وكما أوضحنا في المقدمة، فـ«داعش» حركة ثورية تتناول العدو القريب، وتركز على العالم العربي ـ الإسلامي، رغم أنها بدأت حديثاً بتوفير موارد أكثر لشن هجمات على العدو البعيد، بما فيها روسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية، وجنوب شرق آسيا. هو تنظيم طوباوي؛ حركة سنية مغالية تمتلك أيديولوجية قتل ضد أخصامها، ومنهم الشيعة، ما يعني أن الشيعة المئة والعشرين مليوناً تقريباً هم مشروع قتل. تمدد «داعش»، بعد انطلاقه من «موطنه الأصلي» (العراق)، إلى سورية في ٢٠١٢، مع طموح إضافي بالتمدد إلى دول مجاورة أخرى. ولم يخفِ البغدادي، في ثاني خطاب توجّه به إلى العالم في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، أن طموحاته التوسعية ليست محدودة بحدود العراق وسورية، وإنما أضاف إليها ليبيا والسعودية ومصر واليمن والجزائر وتونس والمغرب وسواها[١٨].

(١٧) ISIS, «The Revival of Slavery before the Hour,» *Dabiq*, no. 4 (October 2014).

(١٨) للاطلاع على نص التسجيل الصوتي للبغدادي في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/11/14/audio-message-by-abu-bakr-al-baghdadi-even-if-the-disbelievers-despise-such>.

أولاً: مُنظّر «داعش»

رغم أن «داعش» لا يضم في صفوفه علماء أو منظرين معروفين، غير أنه كان في وسعه أن يسند آراءه وأعماله إلى مخزون من أفكار واجتهادات لعلماء سلفيين جهاديين آخرين. وقد اتُّهم التنظيم دائماً بأن نظريته هي تجميع لأفكار عدد من المُنظرين المتطرفين ـ ممن كانوا أحياناً ـ ضد التنظيم. من هؤلاء أبو محمد المقدسي، الذي اتهم البغدادي ومعاونيه بسرقة كتاباته وادعاء ملكيتها. مع ذلك، لا يمثّل المقدسي المرجعية الأولى للتنظيم، وبخاصة في تبرير أجندته الدموية. بل هو يعتمد في ذلك ثلاثة أعمال سلفية جهادية ـ على وجه الخصوص ـ لتسويغ وتبرير ما يقوم به[19]. والعمل الأكثر شهرة هو إدارة التوحش. يقدّم الكتيب المتداول في صيغة (PDF) منذ العقد الأول لهذا القرن، لمؤلف مجهول اسمه الحركي «أبو بكر الناجي»، خريطة طريق لكيفية خلق خلافة إسلامية، ويختلف جذرياً ممّا كان متداولاً من أعمال سلفية جهادية سابقة. الكتاب الثاني هو فقه الجهاد، لـ «أبي عبد الله المهاجر» الذي يدعو السلفيين الجهاديين إلى فعل كل ما يتوجب فعله من أجل تأسيس دولة إسلامية موحدة نقية. والكتاب الأخير هو أساسيات الاستعداد للجهاد لسيّد إمام الشريف، عبد القادر بن عبد العزيز، أو «دكتور فضل». ويركّز الكتاب الرئيسي الأخير على المعاني الدينية والعملية للجهاد في الإسلام، وبات المدوّنة الرئيسية في تدريب الجهاديين. واعترف دكتور فضل أنه كتب هذا العمل بين سنتي ١٩٨٧ و١٩٨٨ كمدوّنة تستخدم في تدريب عناصر معسكرات ما سيغدو معروفاً لاحقاً باسم «القاعدة»[20].

وفي حين تبقى الهوية الحقيقية لـ «الناجي» غير مؤكدة، فمن المعروف أن المهاجر ودكتور فضل كانا مساعدَين مقرَّبين من الظواهري. المهاجر مصري الجنسية حارب في أفغانستان إلى جانب أسامة بن لادن والظواهري. وبعد تخرجه في الجامعة الإسلامية في إسلام أباد والتدريس في معسكرات الجهاديين في كابول، أصبح المهاجر هو المشرف على المقاتلين في معسكر الظواهري في هرات، وقبل أن يغدو المرشح الأول لإدارة اللجنة العلمية والفقهية في القاعدة المركزية[21]. فرّ المهاجر بعد انهيار نظام طالبان سنة ٢٠٠١ إلى إيران واحتجزته السلطات هناك إلى أن سلّمته لمصر بعيد اندلاع ثورة كانون الثاني/يناير ٢٠١١ بقليل. أما دكتور فضل فكان مساعداً قديماً للظواهري، فقد التقى الرجلان في القاهرة أواخر الستينيات، حيث كان كلاهما يدرسان الطب في

---

(١٩) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة ([د. م.]: مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، [د. ت.])، <https://pietervanostaeyen.files.wordpress.com/2015/02/idarat_al-tawahhush_-_abu_bakr_naji.pdf>.
انظر أيضاً: أبو عبد الله المهاجر، مسائل من فقه الجهاد، <https://archive.org/details/msael-mn>
وإمام عبد القادر بن عبد العزيز الملقب بـ [الدكتور فضل]، «الأمة في إعداد العدة،» <http://www.m5zn.com/newuploads/2015/02/18/pdf/4f2fb076fd7d595.pdf>.

(٢٠) عبد القادر بن عبد العزيز الملقب بـ[الدكتور فضل]، «الأمة في إعداد العدة»، ص ٥.

(٢١) المصدر نفسه. انظر أيضاً: Moatez al-Khatib, «Daesh's Intellectual Origins: From Jurisprudence to Reality,» Aljazeera Center for Studies (January 2015), <http://studies.aljazeera.net/en/dossiers/decipheringdaeshoriginsimpactandfuture/2014/12/2014123981882756.htm#a20>.

جامعة القاهرة. ثم التقت أقدارهما مرة أخرى أواخر الثمانينيات في باكستان وأفغانستان، حيث عملا معاً على إعادة بناء «الجهاد الإسلامي المصري»، وهو تنظيم سلفي جهادي. افترق الرجلان بعد ٢٠٠١/٩/١١، بل دخلا علناً في مساجلات حول مسائل أيديولوجية كما حول مستقبل الحركة الجهادية العالمية. وفي أثناء تنفيذه حكماً قضائياً مؤبداً في سجن مصري، أجرى دكتور فضل مراجعة لأفكاره وانتهى إلى الدعوة إلى نزع العسكرة والتطرف عن المعسكر السلفي الجهادي.

تُظهر قصة ومسيرة المنظّرين الثلاثة استمرار التأثير الفكري القوي للروّاد أو الجيل الأول من السلفيين الجهاديين في الحركة عموماً. وهكذا كان لدى السلفية الجهادية، كحركة عابرة للحدود، أفكار رئيسية أمكن باستمرار إعادة نسجها لتلائم الموجة السائدة، فتوفّر ما هو مطلوب منها من تبرير وزاد ودافع للمنتسبين والأتباع الجدد.

تمثل الأعمال الثلاثة المذكورة نمط التفكير الأكثر تطرفاً داخل الحركة، وبخاصة في تحويل الأيديولوجية السلفية الجهادية إلى «فقه دم». ومع أن معظم المحللين يقفون عند إدارة التوحش فقط، إلا أن العملين الآخرين كانا مهمَّين جداً أيضاً في توفير الدافع والإلهام الفكري والأيديولوجي للبغدادي وأيديولوجيّيه. ورغم الخلافات القائمة بين الأعمال الثلاثة، إلا أن بينها جميعاً خيوطاً فكرية مشتركة وفّرت الدليل النظري لأفعال «داعش». فالأعمال الثلاثة تدعو، أولاً، إلى حرب شاملة تتضمن جهاداً هجومياً بدل الجهاد الدفاعي لاستنزاف أهل الكفر وأعداء الإسلام، وخلق الفوضى والخوف. وعلى السلفيين الجهاديين، وفق هذا المنطق، وقبل أي شيء آخر تحرير أنفسهم من وهم أنه بالإمكان تأسيس الدولة الإسلامية من خلال صناديق الاقتراع أو من خلال العملية السياسية. ويسخر المؤلفون الثلاثة من أصحاب المقاربة الإصلاحية، مدللين على أنه يستحيل بناء مؤسسات الدولة الإسلامية في نظام يهيمن عليه الكفّار. ثانياً، رغم أن على الحرب الشاملة أن تستهدف العدو القريب والعدو البعيد في آن، إلا أن الأولوية تبقى لمقاتلة الحكام المسلمين الطغاة الذين لا يطبّقون أحكام «الشريعة». وأخيراً، تدعو الأعمال الثلاثة مخططي الحركة وقادتها إلى القتل من دون شفقة وعدم الالتزام بأي حدود والاقتداء بصحابة النبي، الذين، وفق زعمهم، عاقبوا من دون شفقة المرتدِّين والأعداء. ولتعزيز مزاعمهم، فهم ينتقون حالات محددة من التاريخ الإسلامي ليثبتوا من خلالها أن العنف الزائد كفيل بتوليد النتيجة المطلوبة: الإذعان. ووفق زعمهم، فالوصفة السرية الناجعة للنجاح والنصر هي التوحش، بينما لا يقود اللين إلا إلى الفشل والهزيمة. وهم ينتهون إلى أن الغاية (استعادة عصر الإسلام الذهبي وتأسيس الدولة الإسلامية)، تبرر الوسيلة، أي العنف والتوحش.

ثانياً: الحرب الشاملة = النصر

رغم أن المُنظرين السلفيين الجهاديين الثلاثة ينصحون بالجهاد الهجومي بدلاً من الجهاد الدفاعي، لكن «الناجي» يذهب بالأمر إلى حد الحرب الشاملة. فهو يرى، أن السلفيين الجهاديين

السابقين افتقدوا استراتيجية واضحة، وعليه فما فعلوه هو تنفيذ أعمال عنف معزولة ولكن من دون «استراتيجية عسكرية» شاملة أو خطة متكاملة. وهو ينتقد رفاقه الإسلاميين لتضييع وقتهم وجهدهم في «الجهاد الوعظي» بدلاً من ممارسة الجهاد[٢٢].

يقترح الناجي خطة تفصيلية من مراحل ثلاث، يتدرج فيها العنف تصاعداً، نوعياً واستراتيجياً، بدلاً من الطريقة الفوضوية التي تجري بها أعمال العنف الآن. المرحلة الأولى، هي «النكاية والتمكين»، حيث يجري بموجبها كسر إرادة العدو من خلال توجيه هجمات ضد أهداف اقتصادية واستراتيجية حيوية لديه مثل منشآت النفط والبنية السياحية التحتية. وإذ تستنفر القوى الأمنية إمكاناتها وتنتشر لحماية المنشآت كافة، تغدو الدولة أكثر ضعفاً وانكشافاً، وهي لحظة مناسبة لـ «التوحش والفوضى». وهي اللحظة المناسبة ليبدأ السلفيون الجهاديون معركة مفتوحة مع القوى الأمنية المشتتة[٢٣]. وإذ يكسر الجهاديون القواعد السائدة، تبدأ المرحلة الثانية، التي يسميها ناجي «إدارة التوحش»، وبعدها المرحلة الثالثة (شوكة التمكين)، التي ستشهد تأسيس الدولة الإسلامية. ويجب أن يقود الدولة الإسلامية، حسب ناجي، زعيم واحد، فيوحّد جماعات ومناطق «التوحش» في خلافة[٢٤]، ويجب أن تتضمن المرحلة الثالثة ـ حسب ناجي ـ مزيجاً من الإقناع والعنف، بهدف كسب القلوب والعقول، وانتزاع الشرعية والاعتراف بالحكم الإسلامي.

ورغم عدم اعتراف ناجي صراحة بتأثير سيّد قطب، المنظّر الرئيس للإسلام الثوري المعاصر، إلا أنه يستعير في الواقع مصطلحات قطب ومراجعه الإسلامية مثل «القلة الممتازة»، و«ظلام الجاهلية»[٢٥]. رغم ذلك، فهو يعود إلى كتابات من القرن الرابع عشر للعالم والفقيه الإسلامي ابن تيمية، الذي قدّمت فتاويه الحافز لموجات متعاقبة من السلفيين الجهاديين، بمن فيهم «داعش». ويؤكد ناجي، كما هو متوقع، أهمية الإعلام والدعاية كأداة أيديولوجية لتعبئة واستقطاب الجماهير الإسلامية إلى جانب السلفيين الجهاديين في المرحلتين الأولى والثانية من الحرب الطويلة، ثم لتوجيههم والسيطرة عليهم خلال المرحلة الأخيرة تحت حكم إسلامي مركزي.

ثالثاً: استهداف العدوّين القريب والبعيد

يضع ناجي نصب عينيه في عمله إدارة التوحش، عدواً واحداً هو العدو القريب، العلماني، والحكام المسلمون المارقون. وهو يورد لائحة بعدد من البلدان حيث الأرض خصبة ومهيأة للعمل، وخصوصاً الأردن والسعودية واليمن وشمال أفريقيا ونيجيريا وباكستان. لكن ناجي يضيف أن اللائحة تلك هي عامة وأنه سيكون من الأفضل التركيز في البدء على بلدين أو ثلاثة لا أكثر

(٢٢) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، ص ٨٣.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٢٠.
(٢٤) المصدر نفسه، ص ٥٠.
(٢٥) المصدر نفسه، ص ٧٥ و٧٧.

كأهداف مباشرة[٢٦]. والأمر نفسه مع دكتور فضل في كتابه أساسيات الاستعداد للجهاد، حيث يرى أنه بالرغم من أن الجهاد يجب أن يستهدف العدو البعيد والعدو القريب سواء بسواء، إلا أن الأسبقية يجب أن تعطى لقتال العدو القريب. والعدو القريب، حسب دكتور فضل، هم «الحكام المرتدُّون» الذين «يطبقون قوانين كافرة وديمقراطية كافرة»[٢٧]، هو يقول إن مهاجمة الحكام هؤلاء، الذين يدعوهم «المرتدين»، يجب أن تكون له الأولوية على «الجهاد ضد اليهود»، لأنهم «أقرب إلينا وقد ارتدّوا عن المعتقدات الإسلامية»[٢٨]. وهو يصف أولئك الحكام المسلمين بأنهم أكثر خطراً من «الكفّار ـ المسيحيين» واليهود[٢٩]. يستند دكتور فضل ـ كما ناجي والمهاجر ـ إلى فتاوى ابن تيمية ليبرر الحرب ضد العدو القريب، زاعماً أن الجهاد ضد «الزعماء المرتدين» هو «فرض عين» (إلزام) على كل مسلم بلغ الخامسة عشرة من عمره[٣٠].

وهو، بالعودة إلى نصوص ابن تيمية، ويوحي من قُطب دون ذكره، يوسّع لائحة المارقين لتشمل «أي انسان يحكم بقوانين وضعية»[٣١]. وعلى المسلمين في هذه المرحلة، يضيف، «أن يظهروا العداوة والكراهية للكفرة أولئك... ومحاربة مبادئهم من مثل الشيوعية والديمقراطية... بل عليهم الهجرة من أرض الكفّار»[٣٢]. وينصح دكتور فضل بضرورة مهاجمة العدو في أرضه «مرة واحدة في العام على الأقل»، رغم أنه يورد آراء لعلماء مسلمين آخرين يذهبون إلى أن «لا حدود زمنية للجهاد ذاك»[٣٣]. و«على الأمة الإسلامية [يضيف] أن تعطي الأولوية للجهاد الهجومي هذا، وعلى سياساتها الداخلية والخارجية، بما فيها الزراعية والصناعية والتجارية والإسكانية أن تكون موقوفة لدعم هذه الرسالة المقدسة»[٣٤]. وهو ينبّه المسلمين إلى أن كل من يهمل «الجهاد في سبيل الله» إنما «يخون الله ورسوله والدين نفسه»[٣٥].

أما الهدف من كل ذلك ـ يقول دكتور فضل، فهو خلق حاكمية الله على الأرض؛ ويتحقق ذلك «حين يهزم المسلمون أعداءهم ويطبقون قواعد الإسلام في الأراضي التي يجري فتحها»[٣٦]. ومفهوم «الطليعة» حاسم في نجاح المشروع الجهادي عند دكتور فضل، وهو يدعو السلفيين الجهاديين قبل وبعد كل شيء إلى «تشكيل جماعة إسلامية،» مهمتها استقطاب الآخرين للانضمام الى المهمة

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٥.
(٢٧) عبد القادر بن عبد العزيز الملقب بـ[الدكتور فضل]، «الأمة في إعداد العدة»، ص ٣٤٠.
(٢٨) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٣١٣.
(٣٠) المصدر نفسه، ص ٣٠ و٣٤٤. «فرض عين» هو العمل المفروض فردياً كواجب على المسلمين. وكلٌّ سوف يكافأ على أدائه، أو يعاقب لعدم أدائه. الصلوات الخمس يومياً هي مثال على ذلك.
(٣١) المصدر نفسه، ص ٣١٥.
(٣٢) المصدر نفسه، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥.
(٣٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٣.
(٣٤) المصدر نفسه، ص ٣٠٤.
(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٤٥.
(٣٦) المصدر نفسه، ص ٣٠.

المطروحة في الكتيب[٣٧]. أهمية كتيب دكتور فضل هي أنه يقدّم التبرير العقيدي للحرب على العدو القريب، التي يجعلها «داعش» متقدمة على الحرب على العدو البعيد (القوى الغربية)[٣٨].

الأولوية عند المهاجر هي للحرب ضد العدو البعيد، وهو يدعو السلفيين الجهاديين إلى شنّ الحرب على «الكفّار». ففي عمله مدخل لفقه الجهاد، تراه يعارض الإجماع بين العلماء لقرون، ويؤكد أن «قتل الكفّار ومحاربتهم في عقر دارهم ضرورة حتى لو لم يكن يؤذون المسلمين»[٣٩]. وهو في ذلك لا يميّز في غير المسلمين «المدنيين» من «المقاتلين»، ويعترف بصراحة أن مبرر «قتلهم ومصادرة أملاكهم» هو أنهم «ليسوا مسلمين»[٤٠]. أكثر من ذلك، فالكاتب الذي اكتسب لقب «فقيه الدم» يوسّع من تعريف «دار الكفر» لتشمل حتى البلدان التي تسكنها أغلبية مسلمة لكنها لا تطبق «الشريعة»، وهي لذلك أهداف مشروعة لهجمات السلفيين الجهاديين[٤١].

رابعاً: التوحش: أداة نحو غاية

أكانت الأولوية لقتال العدو القريب، كما يرى ناجي، أو لقتال القريب والبعيد معاً، كما يرى دكتور فضل والمهاجر (بدرجة أقل)، فالثلاثة يجمعون ـ بل يصرّون ـ على أن الأنظمة الحالية هي أنظمة كفر، ويجب أن تزال، أياً تكن الكلفة أو التضحيات. والفكرة الأساس في أعمال المؤلفين الثلاثة هي أن على السلفيين الجهاديين إضعاف اللحمة الداخلية الاجتماعية والمؤسسية لنظام الدولة وإلحاق ما أمكن من الأذى بها وأن يكونوا مستعدين لذلك. والأداة هي قتل العدو وإرهابه، لا حبّاً بالقتل والإرهاب وإنما وسيلة لغاية أسمى: وهي التطهير الثقافي وفرض شرع الله على الكفّار. ففي إدارة التوحش، يشير ناجي، وعلى عكس التوجه الإسلامي المعروف، إلى أن «الوضع الفوضوي الأكثر سوءاً في نظام الكفر وهو أفضل بكثير من الاستقرار»[٤٢].

يصف ناجي السلفيين الجهاديين بأنهم الطليعة المجهزة أفضل تجهيز لإرهاب المرتدّين والكفرة، ولنهاية العالم إذا تمكنوا، من أجل بعث الدين من جديد. ويقول: «علينا جلب كل الناس إلى المعركة وإسقاط الهيكل على الجميع». و«حتى لو أبيدت الأمة»، ـ يضيف مبرراً موت ملايين المسلمين من أجل قضية مستحقة ـ «فيكونوا شهداء»[٤٣].

---

(٣٧) المصدر نفسه، ص ٥.

(٣٨) Fawaz Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*, 2nd ed. (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2010), p. 14.

(٣٩) أبو عبد الله المهاجر، مسائل من فقه الجهاد، ص ٢٥.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٣٢.

(٤١) المصدر نفسه، ص ١٨.

(٤٢) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، ص ٤.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٧٦.

ويرى المؤلفون الثلاثة أن من بين أدوات عنفهم المقترحة، فالأفضلية هي لقطع الرؤوس والحرق، لأنهما الأنجح في بث الرعب ومنع الآخرين من المقاومة. ويمكن استخدام الأساليب التدميرية نفسها ضد الأهداف الاقتصادية، وخصوصاً النفط. ومع معرفة ما يتطلبه ذلك من تضحية وتحمُّل ألم، إلا أن المواجهة ضرورية ويجب أن تتبع تكتيك الصدمة ـ و ـ الرعب لإرهاب العدو وجعله «يفكر ألف مرة قبل مهاجمتنا... وإبقائه دائماً في حالة الدفاع وفاقداً لتوازنه»[44]. وينصح ناجي بمهاجمة السكان والبنية التحتية لإرهاب العدو ومضاعفة مستوى التوحش[45]. كذلك ينصح المهاجر باستخدام أقصى الأدوات بشاعة، قطع الرأس، باعتبارها الأداة المفضلة لديه. ففي مدخل إلى فقه الجهاد، تراه يخصص فصلاً كاملاً لقطع الرأس، مبيّناً أن ذلك سيخلق صورة دموية مطلوبة ما «يقوي قلوب المسلمين ويرهب الكفّار والمرتدّين» ويردعهم بالتالي[46].

أكثر من ذلك، فإن المهاجر يقدم التبرير الشرعي لأقصى أشكال «العقاب» بشاعة، من مثل عرض رؤوس غير المسلمين القتلى في المعركة وإرسالها من بلد إلى آخر، لإظهار القوة التي يمتلكها السلفيون الجهاديون[47]. ويخصص المهاجر أيضاً فصلاً آخر للتفجيرات الانتحارية، زاعماً أن قتل المرء نفسه جائز شرعاً إذا كان القصد منه إعلاء شأن الدين. وينصح السلفيين المجاهدين أكثر من ذلك بالسعي إلى امتلاك أسلحة دمار شامل «الضرورية» برأيه في الحرب الشاملة[48]. ومع أنه يقول إن أسلحة الدمار الشامل يجب أن تستخدم فقط في حالات الدفاع عن النفس ضد غزو الكفّار، لكنه لا يتورع عن الإفتاء بجواز كل شكل من أشكال الرد إذا كان يفيد المسلمين[49].

هناك، بوضوح، دعوة جادة، عملية، إلى القتل بدم بارد، ينصح بها ناجي ومهاجر ودكتور فضل، وكنوع من العمل العادي؛ ما يشير إلى الطبيعة الشريرة الوحشية لتوجههم الأيديولوجي، وعلى نقيض ما يتضمنه الإسلام العادي المعروف. ورسالتهم الواضحة هي أن «الدولة الإسلامية» تتغذى بالدم ولا تشاد إلا «على جماجم وأشلاء» الكفّار؛ وهي الوسيلة لتحويل المجتمع بأكمله إلى مجتمع حرب جاهز لخوض معركة طويلة تستطيع أن تنتج في أثناء ذلك قادة تاريخيين. ومع أن على القادة أولئك أن يتوقعوا الجراح والآلام والخسائر، إلا أنها ضرورية لخلق جيل جهادي، معمّد لرسالته بالدم والنار[50]. إن ذلك، برأيهم، هو قتال على الوجود بين الإيمان والكفر، بين الإسلام والمرتدّين، ووحدها الحرب الشاملة ضد العدوّين القريب والبعيد في وسعها تحقيق المثال الإسلامي.

(٤٤) المصدر نفسه، ص ٣٢.
(٤٥) المصدر نفسه.
(٤٦) أبو عبد الله المهاجر، مسائل من فقه الجهاد، ص ٢٧٠ و٢٨٨.
(٤٧) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.
(٤٨) المصدر نفسه، ص ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٤٩) المصدر نفسه، ص ٤٦٩.
(٥٠) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة، ص ٧٦ ـ ٧٩.

خامساً: «داعش» خارج الأيديولوجيا: الدولة والحكم والقدرات العسكرية

بينما تشير استعراضات «داعش» الوحشية المتكررة لحركة يحكمها العنف والقوة، فهي كانت تبني في موازاة ذلك قدرة على الحكم من خلال توفير خدمات من مثل الشرطة، ونظام قضائي قائم على الشريعة، وبطاقات هوية لساكني أراضيها، ونظام مراقبة للاستهلاك، وجمع القمامة، ومراكز رعاية يومية[٥١]. ووفق رواية سكان من الرقة والموصل ومدن أخرى فإن «داعش» يتصرف كدولة مستقرة تؤدي وظائفها، توفّر الأمن، والحاجات الأكثر أولوية وعلى أفضل نحو متوقع في سورية والعراق اللتين يمزقهما هذا التنظيم. والناس يُتركون وشأنهم شرط طاعة أوامر «داعش» وقواعده وتفسيره الصارم للشريعة. وكما حال طالبان في أفغانستان تسعينيات القرن الماضي، فالمجتمعات السنية لا تملك إلا أن تستقبل «داعش» بالترحاب والخوف بعد عقود من القمع والطغيان والفساد والعنف. ولا يبدو البغدادي وجنوده في تلك المجتمعات وحشاً وشراً مطلقاً كما يبدوان من الخارج، في دليل إضافي على انهيار مؤسسات الدولة التي كانت سائدة وتهرّؤ النسيج الاجتماعي الداخلي في سورية والعراق. وكما طالبان، فحين يحتفظ «داعش» بالسيطرة على الأرض والسكان، ويوفر الخدمات، فهو سيعزز على الأرجح تجانسه الداخلي كما سيكسب القبول الضمني من محكوميه. وذلك ما يميّزه جذرياً من القاعدة المركزية ويجعله في آن أكثر خطورة منها أيضاً، إذ لم يسبق لها أن امتلكت أراضي وسكاناً أو وفرت خططاً لإدارة شؤونهما. أما «داعش»، وعلى عكس ذلك تماماً، فهو يبني في أراضي البلدين دولة رديفة ويقدّم رؤيةً مرجعيتها تجربة القرن السابع في الجزيرة العربية. وعليه، فإن «داعش» مرشح، في ظل ضعف نظام الدولة العربية، وانتشار الفوضى والحروب الأهلية، لأن يهدد أسس نظام الدولة العربية كما لم تفعل جماعة من قبل.

لقد بعث صعود «داعش» وسيطرته على أراض في البلدين الجدل العام القديم/الجديد حول مدى رسوخ الدولة العربية «الحديثة»، وجدلاً أكبر حول شرعية حدود سايكس ـ بيكو، الاتفاقية السرية التي وقّعت سنة ١٩١٦ بين الفرنسيين والإنكليز لاقتسام أراضي الإمبرطورية العثمانية في الشرق بينهما. فقد أرست الاتفاقية السرية تلك مجموعة من الحدود بين الإمارات العربية التي كانت تابعة للإمبرطورية والتي قدّر لها أن تستمر إلى اليوم. وكانت تلك الفرصة المناسبة للبغدادي وقادته ليعلنوا نيتهم تحطيم الحدود «الاستعمارية» التي تقسّم العالم العربي ـ الإسلامي إلى دول منفصلة، واستبدالها بخلافة، دولة عربية إسلامية شاملة. ومن أجل إظهار صوابية مشروعهم، فقد قام مقاتلو «داعش» بعد احتلال الموصل في حزيران/يونيو ٢٠١٤، واحتلالهم أراضي واسعة في سورية والعراق المتصلتين، بإلغاء الحدود الفاصلة بين البلدين، وهو عمل قصد منه إظهار تأكيد ثورية التنظيم واستمالته آراء شطرٍ واسعٍ من الجمهور المعادي لاتفاقية سايكس ـ بيكو باعتبارها

(٥١) Tim Arango, «ISIS Transforming into Functioning State That Uses Terror as Tool,» *New York Times*, 21/7/2015.

غير شرعية، ومؤامرة غربية لتقسيم الوطن العربي وإضعافه والسيطرة عليه. وهكذا، فإن «داعش»، وبخلاف جماعات رافضة فاعلة عدة في المنطقة، يبدو أكثر طموحاً وثورية، وساعياً إلى تقديم نفسه كبديل أصيل، أكثر تعبيراً عن الهوية، من نظام الدولة الحالي في الشرق الأوسط العربي. ويذهب مسؤولو الدعاية فيه أبعد من ذلك، بمقارنة دولتهم الوليدة بدولة الرسول في القرن السابع في الجزيرة العربية، وهم بفرضهم الماضي على الحاضر إنما يسعون إلى توفير الشرعية الدينية لمشروعهم. إن ما يميّز «داعش» بوضوح من التجارب المماثلة السابقة، بما فيها القاعدة المركزية، هو امتلاكه القدرة المادية، وقوة الإرادة، والرصيد الأيديولوجي، الأمر الذي يجعله قوة شرسة يُحسب لها الحساب. فالأيديولوجيا، والمرجعية الدينية المتطرفة، هما ما يوفران الشرعية والمبررات لأعماله العنفية، بينما البغدادي يذكّر المسلمين أن «الرسول... لجأ إلى السيف» ليُعلي كلمة الله وشرعه. وتنشأ خطورة «داعش» الدائمة من جمعه بين القدرة العسكرية القاتلة مع أيديولوجيا شمولية من دون حدود[٥٢]. وعلى ذلك، فقدرات البغدادي وأركانه ومواردهم مؤثرة جداً وأكثر من أي جماعة متمردة أخرى في الشرق الأوسط الكبير، رغم أن حسابات التنظيم المغلوطة وأفعاله الوحشية حوّلت العالم بأكمله ضده. والتنظيم، منذ أواخر ٢٠١٥، يخسر تدريجاً مزيداً من الأراضي في سورية والعراق ويتعرض للمزيد من النزف.

سادساً: المقاتلون الأجانب ومأزق الأمن

تظهر الحكومات الغربية القلق من أن انتصارات «داعش» السريعة في المنطقة، ذات الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية، تمثّل تهديداً حقيقياً لأمن حلفائها. وهي تخشى أيضاً من التداعيات المحتملة لتزايد قوة «داعش» على أمنها الوطني. كما تُقلق صور قطع «داعش» لرؤوس رهائنه الأمريكيين والبريطانيين واليابانيين والمصريين، وهجماته الدموية في شوارع بيروت وباريس وسان برناردينو، كاليفورنيا، والعواصم الغربية إلى أقصى حد. وما يثير القلق على وجه الخصوص، بحسب شهادة «نيك راسموسن»، مدير المركز الوطني لمكافحة الإرهاب، في جلسة استماع لجنة الأمن الوطني في مجلس النوّاب الأمريكي في شباط/فبراير ٢٠١٥، هو وجود ٢٠٠٠٠ مقاتل أجنبي من أكثر من ٩٠ جنسية سافروا إلى سورية، و٣٤٠٠ منهم قدموا من بلدان غربية[٥٣]. ويتزايد

---

(٥٢) انظر وثيقة البغدادي وتسجيلها: «March Forth Whether Light or Heavy,» *Carol Anne Grayson (Radical Sister) Blog*, 14 May 2015, <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/Islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-baghdadi>.

انظر أيضاً: «تنظيم «الدولة الإسلامية»: أسباب الصمود والأيديولوجيا، (٢/١) و(٢/٢)،» مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث.

(٥٣) Ken Dilanian, «US Intel: IS Militants Drawing Steady Stream of Recruits,» Associated Press, 11 February 2015, <http://midco.net/news/read/category/Politics/article/the associated press-ap exclusive is_militants_drawing_steady_stream_of-ap>, and «Foreign Fighters Still Flowing to Syria, U.S. Intelligence Says,» Reuters, 10 February 2015, <http://www.reuters.com/article/2015/02/11/us-mideast-crisis-fighters-idUSKBN0LE2YX20150211>.

عدد المقاتلين الأجانب على نحو مطرد ليصل، وفق تقدير موثوق به للأمم المتحدة، إلى ٢٥ ألفاً في ٢٩ أيار/مايو ٢٠١٥[٥٤]. ولم يسبق منذ الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال السوفياتي في ثمانينيات القرن الماضي أن سافر مثل هذا العدد من المقاتلين المتدينين للقتال في أماكن بعيدة. بل إن سورية والعراق يجذبان اليوم أعداداً من المتطوعين الغربيين تزيد على ما ذهب في الماضي إلى أفغانستان أو إلى العراق بعد الغزو الذي قادته الولايات المتحدة للبلاد سنة ٢٠٠٣، وهي ظاهرة لافتة للنظر وتستحق التحليل الدقيق. ويخلص التقرير حول الإرهاب الذي تصدره سنوياً وزارة الخارجية الأمريكية إلى أن «نسبة سفر الإرهابيين من المقاتلين الأجانب الذين يسافرون إلى سورية... زادت على نسب المقاتلين الأجانب الذين سافروا إلى أفغانستان أو باكستان والعراق واليمن والصومال في أي وقت في العشرين سنة الأخيرة»[٥٥].

وما يضاعف خشية القادة الأوروبيين والأمريكيين ـ على وجه الخصوص ـ هو أن المقاتلين الأجانب الذين تجعلهم الحرب في العراق وسورية أكثر تطرفاً وأفضل تدريباً يمكن أن يقوموا بهجمات إرهابية بعد عودتهم من هناك. إنه سيناريو كابوس يؤرق مسؤولي الأمن في تلك البلدان فلا يغمض لهم جفن. وعبد الحميد عبود أخيراً واحد من الحالات تلك. فعبود، البلجيكي ابن الثمانية والعشرين عاماً، الجندي العادي الذي غدا ضابطاً في تنظيم «داعش» في سورية، أعيد إرساله إلى بلجيكا حيث قام بتنظيم شبكة مقاتلين لداعش هناك مؤلفة من تسعة أفراد قامت في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥ بتنفيذ عمليات قتل جماعي ناتج من قنابل بشرية في باريس، مع حصيلة من الضحايا هي الأعلى في فرنسا منذ خمسين سنة[٥٦].

وقد تزايد قلق الحكومات الغربية بالتأكيد بعد هجمات باريس الإرهابية في كانون الثاني/يناير ٢٠١٥ ضد مجلة شارلي إيبيدو التي حصدت اثني عشر قتيلاً، ثم تلاها بعد يومين اعتداء آخر على سوبرماركت في شرق باريس مخلفاً أربعة قتلى. وضمَّت الخلية الإرهابية في باريس ثلاثة مشبوهين: شقيقان (سعيد كواشي، ٣٤ سنة، وشريف كواشي، ٣٢ سنة، الذي كان في صفوف القاعدة المركزية في اليمن، فرع من «القاعدة في شبه الجزيرة العربية»)؛ وحميدي كوليبالي، ٣٢ سنة، (مقاتل يزعم الانتماء إلى «داعش»). ولم تُثر المذبحة في باريس في كانون الثاني/يناير وتشرين الثاني/نوفمبر سنة ٢٠١٥ فزع الفرنسيين قاطبة فحسب، بل تدحرجت تداعياتها إلى كل شارع في أوروبا. وقادت خطورة الهجمات إلى إدراك متزايد من أن تطويع شبّان في الغرب سوف يخلق مشكلات أمنية في أوروبا وأمريكا الشمالية. وبدت المشكلة في البلدان الأوروبية حرجة مع

(٥٤) «At Debate, UN and Security Council Renew Pledge to Counter Foreign Terrorist Fighters,» UN News Centre, 29 May 2015, <http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=51005#.VciNb2MzI60>.

(٥٥) Shellie Nelson, «State Department Report: ISIS Breaking New Ground as New Ground as New Leader in Terror Groups,»CNN.com, 20 June 2015, <http://edition.cnn.com/2015/06/19/politics/isis-report-state-department-terrors>.

(٥٦) Rukmini Callimachi, Katrin Benhold, and Laure Fourquet, «How the Paris Attackers Honed Their Assault through Trial and Error,» *New York Times*, 30/11/2015.

تنفيذ هجوم طبق الأصل في كوبنهاغن (الدنمارك)، حيث قتل شخصان، ما جعل مناخاً من الخوف والفزع يتحكم بالمخيّلتين الأوروبية والأمريكية. على سبيل المثال، فرغم حقيقة التهديد الإرهابي القائم، إلا أنه لا يبلغ، واقعياً، الدرجة التي تجعل رئيس الوزراء البريطاني يقول إن «داعش» يفرض تهديداً «وجودياً» لبلاده، وهو خلط للفزع بالاستراتيجية[٥٧]. وكذلك في الولايات المتحدة، حيث لا يتردد المرشح الجمهوري للرئاسة دونالد ترامب، في مسعى منه إلى الحدّ من خطر الإرهاب في بلاده، من أن يدعو إلى منع المسلمين من دخول البلاد، وإلى قصف المدنيين في العراق وسورية، وهو وصفةٌ تصب في مصلحة السلفيين الجهاديين من مثل «داعش»[٥٨].

ومع أن ظواهر المقاتلين الأجانب، والجهاديين المشتبه بهم، والذئاب المنفردة، ليست جديدة، إلا أن سردية «داعش» المضادة تلقى قبولاً يفوق ما كان لرفاقهم الجهاديين سابقاً، بما فيها القاعدة المركزية. ففي تموز/يوليو ٢٠١٥، أخبر مدير الـ «أف بي آي»، جايمس ب كومي، منتدى «أسبن الأمني» في كولورادو، أن «داعش» يمثل داخل الولايات المتحدة خطراً يفوق خطر القاعدة المركزية. وهي أكثر نجاحاً من سواها من الجماعات المماثلة في استقطاب وجذب الأفراد سريعي التأثر أو من أصحاب «النفوس المضطربة» بواسطة أدوات التواصل الاجتماعي. ويضيف كومي، «إنه الآن الخطر الأكثر إقلاقاً لنا في الداخل»[٥٩]. وجاء تأكيد مماثل إضافي من البيت الأبيض على لسان ليزا موناكو، مستشارة أوباما لشؤون الأمن الداخلي ومكافحة الإرهاب، حيث وصفت «داعش» بـ «الخطر الوحيد» للولايات المتحدة. في مقابل ذلك، تبدو المؤسسة الأمنية الأمريكية، يقودها: البنتاغون والوكالات الاستخبارية ومركز مقاومة الإرهاب؛ أكثر قلقاً حول أنشطة القاعدة المركزية حول العالم. وتحذر تلك الوكالات من أن ناشطي القاعدة في اليمن وسورية إنما يستندون إلى الفوضى التي يمّر بها البلدان للتخطيط لهجمات توقع ضحايا «بالجملة»، بما فيها إسقاط طائرات تحمل مئات المسافرين[٦٠].

ووفق تحذير ضمني من نيويورك تايمز، فإن الجدل الدائر الآن داخل الوكالات الحكومية ليس أكاديمياً؛ بل يدور حول كيفية استطاعة إدارة أوباما جمع ١٥ مليار دولار لتمويل عمل أجهزة مكافحة الإرهاب، ولتعيين آلاف الضباط لمحاربة التورط في الأعمال الإرهابية وتهديدها للأمن القومي[٦١]. إلا أن الجدل حول الإرهاب في الولايات المتحدة ليس مفصولاً عن الجانب التجاري فيه، حيث «بيع» موضوع الإرهاب تجارة كبرى رابحة في واشنطن. وبحسب تقرير لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية» (CSIS)، فالولايات المتحدة تنفق ١٢٤,٩ مليار دولار سنوياً على الحرب

(٥٧) «David Cameron: ISIS Presents Existential Threat to UK- Audio,» *Guardian*, 29/6/2015.
(٥٨) Liam Stack, «Qaeda Affiliate Uses Video of Donald Trump for Recruiting,» *New York Times*, 1/1/2016.
(٥٩) Scott Condon, «FBI Director Reveals Hidden Threat of ISIS at Aspen Security Forum,» *Aspen Times* (22 July 2015).
(٦٠) Eric Schmitt, «ISIS or Al Qaeda?: American Officials Split over Biggest Threat,» *New York Times*, 4/8/2015.
(٦١) المصدر نفسه.

الشاملة التي تخوضها ضد الإرهاب، وهو مبلغ ضخم يعكس حجم الرعب، والانتهازية، وردود الفعل التحتية على مخاطره[٦٢].

تكمن أسباب نجاح «داعش» في جذب منتسبين شبان من حول العالم في الطرائق المتقدمة التي يستخدمها كما في استراتيجيته. فالتنظيم يخاطب الشباب السنّي حول العالم ممن يبدون اهتماماً بوضعهم وبهوياتهم. والتنظيم، وبنسبة أعلى مما كان لسابقيه من الجماعات السلفية الجهادية، تنظيم شاب. وبتقديم دعائيي التنظيم له، كحركة طليعية قوية قادرة على إحراز النصر والخلاص، فهم يصلون على قلوب الشبّان السنّة المغرّبين عن واقعهم ويقدمون لهم نظرة طوباوية ومشروعاً سياسياً: استعادة الخلافة الضائعة[٦٣]. ففكرة الخلافة، التي انتهت مطلع عشرينيات القرن الماضي بقيام الجمهورية التركية، لا تزال تمسك بأخيلة إسلاميين سنّة كثيرين ما انفكوا يرون فيها أداة الخلاص مما هم فيه والتي تستحق بالتالي الجهاد من أجلها. ولكن في قلب هذا التشوق الطوباوي للخلافة المتخيَّلة إنما يقيم في الواقع شعور مسلمين كثر من أن الدولة ـ الأمة الحديثة قد فشلت في بناء نظام عادل وجامع.

بالإضافة إلى استهداف الأفراد المغرّبين واللعب على الرغبة في نظام سياسي أحسن تمثيلاً، يراهن «داعش» أيضاً على ما يحققه من مكاسب في الميدان في العراق وسورية. فمع أخذه الموصل صيف ٢٠١٤ وتصاعد قوته العسكرية، بدا البغدادي آنذاك أقوى من أن يتمكن أحد من وقف تقدمه أو من هزمه، تشدّ من عزيمته «عقيدته الإيمانية». وعليه فقد مثّلت انتصاراته وتوسعه السريع الجاذب الأول للقادمين إليه، من كل الأمكنة قريبها وبعيدها. وغدا «داعش» بالتالي الطليعة المنتصرة القادرة على جذب السنّة المسيَّسين الذين لا يشعرون بالرضى على أنظمة يقودها الشيعة والذين يتوقون إلى استرجاع السلطة وتحقيق بعثهم الثقافي. وقد عمل دعائيو وعقائديو «داعش» على هذا العامل ليدبّوا الخوف والرعب في قلوب أعدائهم و«شجّ وعيهم» وفق تعبيرهم، ولإشعال الحماسة والشعور بحتمية النصر لدى الأتباع، ما ساعد التنظيم على هزيمة تشكيلات من الجيشين العراقي والسوري تفوقه قوة، وعلى استقطاب آلاف المقاتلين الأجانب. وقد بدت الحركة في لحظة ما كرة ثلج متدحرجة في العراق وسورية، ما جعل البلدان العربية المجاورة مثل الأردن ولبنان والعربية السعودية تشعر بالخطر من التداعيات الأمنية الممكنة لتوسع «داعش» الدراماتيكي. وهو ما وضع إدارة أوباما تحت الضغط في الداخل كما في المنطقة لتتدخل وتوقف توسع كرة الثلج المتدحرجة.

---

(٦٢) Anthony H. Cordesman, «New Year's Resolutions on Terrorism: Panic, Politics, and the Prospects for Honesty in 2016,» Center for Strategic and International Studies (CSIS), 28 December 2015, <http://csis.org/publication/new-years-resolutions-terrorism-panic-politics-and-prospects-honesty-2016>.

(٦٣) أبو محمد العدناني، «هذا وعد الله،» مؤسسة الفرقان، وأبو همام بكر بن عبد العزيز الأثري، «مد الأيادي لبيعة البغدادي،» منبر التوحيد والجهاد (تموز/يوليو ٢٠١٣)، <https://archive.org/details/baghdadi-001>

انظر أيضاً: أبو حسن الأزدي، «موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام،» مؤسسة المأسدة الإعلامية (آب/أغسطس ٢٠١٣)، <https://ia601904.us.archive.org/35/items/daolh1/daolh1.pdf>.

بعد تقدّم «داعش» السهل والسريع، أمر أوباما بضربات جوية «محدودة» قُصِد منها، كما قيل، حماية الأمريكيين في أربيل ومساعدة آلاف المدنيين، معظمهم أيزيديون، العالقين بعد هجوم «داعش» في جبل سنجار. توسّعت المهمة الأمريكية بعد ذلك بأيام مع قول أوباما إنها ستشمل الآن «توفير المساعدة والمشورة العسكريتين للحكومة العراقية والقوات الكردية في حربهما ضد الإرهابيين، وبما يمنع الإرهابيين من تأسيس قاعدة دائمة وملاذ لهم». ثم وسّع أوباما مرة أخرى من حدود الغارات الجوية لتستهدف بعد العراق أهدافاً في سورية في إثر قطع «داعش» رأسَي رهينتين أمريكيين في أيلول/سبتمبر ٢٠١٤. وكان لوحشية «داعش» في قتله المدنيين الأمريكيين، بالإضافة إلى انهيار القوات المسلحة العراقية، والأداء الضعيف للقوات الكردية، التأثير القوي في تشديد قبضة أوباما. فأمر بـ «إضعاف التنظيم وتدميره بالمطلق»، مدشّناً سياسة جديدة تجاه «داعش».

مع تصاعد خطر «داعش» ووصوله إلى العواصم الغربية، بما فيها الأراضي الأمريكية أواخر ٢٠١٥، أمر أوباما بنشر مفارز من وحدات «العمليات الخاصة» في العراق وسورية. ومن أجل تهدئة بلد متوتر، وحلفاء قلقين في الخارج، تعهد الرئيس الأمريكي بـ «تدمير داعش» من خلال ضربات جوية مدمرة وكذلك بناء قوات محلية لتكون رأس الحربة في المعركة ضد التنظيم. ورغم أن استراتيجية أوباما الأساسية في عدم الزج بقوات برية في الميدان لم تتغيّر، إلا أن مساعدين له أعربوا مطلع ٢٠١٦، وفي تحوّل رئيسي، عن استعداد الولايات المتحدة نشر «جنود على الأرض» لمساعدة القوات العراقية والسورية لتحرير الموصل والرقّة[٦٤].

كذلك، كان لإسقاط «داعش» طائرة [مدنية] روسية وهجماته في بيروت وباريس وكاليفورنيا، الأثر الفعّال في خلق تلاقٍ في المصالح بين القوتين العالميتين المتنافستين، الولايات المتحدة وروسيا. فقد أعربت كلتاهما عن الرغبة في التنسيق غير المباشر بينهما في الحرب ضد «الدولة الإسلامية» في سورية، رغم أنهما لا يزالان غير متوافقين حول مصير الأسد. واللافت أن الولايات المتحدة وجدت نفسها في موضوع «داعش» ملتقية مع إيران وبدأت التنسيق مع الميليشيات الشيعية في العراق المنضوية مباشرة تحت المظلة الإيرانية. وقد تزامن ذلك مع توقيع الصفقة النووية التاريخية بعد بضعة أشهر من المفاوضات المكثّفة، وهي صفقة انتقدتها إسرائيل بعنف وكذلك الحزب الجمهوري الأمريكي ولكن من دون القدرة على إيقافها. وعليه، فقد أسهم «داعش»، في هذا الوقت على الأقل، في تغيير البيئة الجيوستراتيجية في المنطقة، ما جعل مصالح إدارة أوباما أقرب إلى مصالح إيران[٦٥].

---

(٦٤) Helene Cooper, «Pentagon Officials Say They'll Bolster Special Operations Force in Iraq,» *New York Times*, 1/12/2015; Karen DeYoung, «Despite the Critics, the White House Insists It Has a Plan to Fight the Islamic State,» *Washington Post*, 6/12/2015, and Rukmini Callimachi, «U.S. Seeks to Avoid Ground War Welcomed by Islamic State,» *New York Times*, 7/12/2015.

(٦٥) Gardiner Harris, «Deeper Mideast Aspirations Seen in Nuclear Deal with Iran,» *New York Times*, 31/7/2015.

ومع أن الولايات المتحدة تقود الآن تحالفاً عالمياً واسعاً ضد «داعش» يضم ٦٢ دولة، من بينها السعودية والأردن والإمارات العربية المتحدة والبحرين؛ إلا أنه يبقى تحالفاً غير موحّد وتنقصه الخطة الفعّالة ليتمكن من هزيمة «داعش». وبينما تقدّم اثنتان وعشرون دولة الدعم الجوي والعسكري، فإن ثلاث عشرة منها فقط هي التي تقوم بالضربات الجوية. بل إن أربعاً من كل خمس غارات على الأراضي التي يسيطر عليها «داعش» إنما تقوم بها الولايات المتحدة. وعليه، وبعد عشرة آلاف غارة جوية ضد «داعش»، وقتل أكثر من ٢٢ ألفاً من مقاتليه وفق التقديرات، يعترف وزير الدفاع الفرنسي، بحسب مجموعة المراقبة المستقلة (Airwars)، أن التحالف الدولي قد حقق بعض المكاسب العسكرية وبعض أهدافه ضد «داعش»، لا جميعها[٦٦]. مع ذلك، ففي مطلع ٢٠١٦، كان التنظيم قد فقد ٤٠ بالمئة من الأراضي التي كان احتلها في العراق، و٢٠ بالمئة في سورية، قياساً على ما كان يحتله مع إعلان «الخلافة» في حزيران/يونيو ٢٠١٤[٦٧].

ويقول المسؤولون والاستراتيجيون الأمريكيون إن «داعش» قادر على التعويض ـ وبسرعة ـ من خسائره من المقاتلين في سورية والعراق بنتيجة الضربات الأمريكية والحليفة، وأنه يمتلك الآن جيشاً صغيراً مكوناً من واحد وثلاثين ألف مقاتل. أما «المرصد السوري لحقوق الإنسان» فيقول إن في وسع «داعش» تعبئة مئة ألف مقاتل[٦٨]. إلى ذلك، لا يزال تمويل «داعش» جيّداً، إذ يدخل خزائنه ـ وفق تقديرات وزارة الخزانة الأمريكية ـ نحو مليار دولار سنوياً من عائدات النفط، والضرائب، والأنشطة الإجرامية. كذلك، نجح التنظيم في التمدد إلى مناطق جديدة بما فيها ليبيا واليمن وأفغانستان وشبه جزيرة سيناء في مصر[٦٩].

يعترف مسؤولون أمريكيون وبريطانيون أن إخراج «داعش» من كل المدن والبلدات التي استولى عليها في العراق أمر يحتاج إلى سنوات، إلا أنهم أكثر تفاؤلاً حول القتال في سورية. إذ لا يبدو أن التنظيم يمتلك من التأييد الكبير في سورية مقارنة بما يمتلكه في العراق. ويشكك المراقبون في امتلاك الحكومات الغربية والشرق الأوسطية أيّ «استراتيجية» ناجحة في العراق وسورية، الأمر الذي عزز قوة «داعش». فبالرغم من إعلان الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين التزامهم إضعاف «داعش» وصولاً إلى تدميره لاحقاً، إلا أن تلك القوى تبدو حتى الآن غير مستعدة لنشر قوات على الأرض لأسباب عديدة، أحدها تجنّب تحمّل الخسائر المحتملة. وعليه، فالهوة بين الأهداف

---

(٦٦) Chris Woods, «First Year of Coalition Airstrikes Helped Stall Islamic State-but at a Cost,» *Airwars* (10 August 2015), and «Anti-IS Coalition Has Killed 22,000 Jihadists since mid-2014: France,» Agence France Presse (January 2014).

(٦٧) «Daesh Lost 30 Percent of Its Territory,» Associated Press (6 January 2016), and Columb Strack, «Islamic State Territory Shrinks by 9.4% in First Six Months of 2015,» IHS Janes (27 July 2015), <http://www.janes.com/article/53239/islamic-state-territory-shrinks-by-9-4-in-first-six-months-of-2015#.VbeipB_weRs.twitter>.

(٦٨) مقابلة المؤلف مع رامي عبد الرحمن، مدير المرصد السوري لحقوق الانسان، لندن، تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥.

(٦٩) Schmitt, «ISIS or Al Qaeda?: American Officials Split over Biggest Threat,» and Hermela Aregawi, «Operation Inherent Resolve: A Year of Fighting ISIL,» *Al Jazeera America* (14 August 2015).

الغربية ووسائلها هي ما يعزز سردية «داعش» حول التنظيم الذي لا يُقهر، ما يسمح له بالاستمرار في جذب آلاف من الأتباع، رغم أنه بات أقل جذباً للمتطوعين الجدد مذ تحوّل إلى الدفاع عن بقائه مع نهاية ٢٠١٥ (أقل بـ ٢٠ بالمئة وفق تقديرات نشرت مطلع ٢٠١٦).

إلى ذلك، استغل البغدادي ومخططوه، وإلى أقصى حد، المنافسات الإقليمية بين مجموعة الدول السنّية بقيادة السعودية من جهة، وإيران الشيعية من جهة ثانية؛ الشرخ الذي سمح بارتفاع قوة النغمة الطائفية واستنزاف نفوذ الطرفين، الأمر الذي يصبّ في مصلحة خطاب التنظيم[٧٠]. وبينما تمثّل هشاشة بنية الدولة في العراق وسورية السبب الأساس لتمرد «داعش» ونجاحاته السريعة، فإن المنافسات الإقليمية والدولية تطيل عمر التنظيم وديمومته. وخلاصة الأمر، هي أنه ما دامت الشروط والظروف تلك سائدة في المنطقة، أو حيالها، فربما سيكون من الصعب هزيمة «داعش» وإخراجه من العراق وسورية.

---

(٧٠) Yaroslav Trofimov and Philip Shishkin, «Regional Discord Fuels Islamic State's Rise in Mideast,» *Wall Street Journal*, 16/10/2015.

الفصل الثاني

من أين أتى «داعش»: من الزرقاوي إلى البغدادي

من الضروري قبل أي شيء آخر وضع «داعش»، كحركة اجتماعية، في سياقه التاريخي وذلك ببيان أصول التنظيم، ومسيرته منذ غزو الولايات المتحدةِ العراقَ واحتلاله سنة ٢٠٠٣، وصولاً إلى توسعه أواخر سنة ٢٠١١ خارج الحدود العراقية نحو سورية. يمكن، في هذا السياق، فهم القوى الدافعة لتمرّد «داعش». وفي وسعنا أن نلاحظ في هذا السياق أن عراق ما قبل الاحتلال الأمريكي، وبخلاف دول عربية عديدة، مثل مصر وليبيا والجزائر، لم يشهد انتفاضات جهادية، ولم يكن لصدّام حسين القومي العربي العلماني أي علاقة عملانية بـ القاعدة المركزية[1]. كان هناك قدر كبير من الشك المتبادل في العلاقة بين نظام صدّام حسين ومسؤولي القاعدة. لم يراهن صدّام أو يغامر بأي علاقة بالسلفيين الجهاديين، رغم أنه قضى العقد الأخير الصعب من حكمه تحت ضغط العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة والأمم المتحدة على العراق بعد حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩١[2].

وكان الرئيس أوباما، في آذار/مارس ٢٠١٥، قد أرجع أصول نشأة «داعش» إلى قرار سلفه جورج دبليو بوش بإرسال قوات أمريكية لاحتلال العراق. ففي مقابلة له مع القناة الإخبارية الدولية (Vice News)، صرّح أوباما أنّه يمكن ربط صعود «الدولة الإسلامية» مباشرة بغزو الولايات المتحدة

---

(١) انظر: «رجل مخابرات عراقي سابق يكشف لـ «روسيا اليوم» أسرار اختراق جهازه لوزارة الدفاع الأمريكية،» روسيا اليوم، ٢٠ آذار/مارس ٢٠١٣، <https://arabic.rt.com>.

انظر أيضاً: وليد عبد الملك الراوي، «حقيقة العلاقة بين تنظيم القاعدة ونظام الرئيس صدام حسين،» كتابات (٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣)، <http://kitabat.com/ar/page/23/12/2013/20917/%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A9-%D9%88%D9%86%D8%B8%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3-%D8%B5%D8%AF%D8%A7%D9%85-%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86.html>.

(٢) Jeffrey Record, «Threat, Confusion and Its Penalties,» *Survival: Global Politics and Strategy*, vol. 46, no. 2 (2001), pp. 51–71; «Sept. 11 Panel Deals Bush a Blow on Iraq: In Dismissing al Qaeda Link, Commission Undercuts President's Credibility on Going to War,» *Wall Street Journal*, 18/6/2004, and Christopher Marquis, «Powell Admits No Hard Proof Linking Iraq to Al- Qaeda,» *New York Times*, 9/1/2004, <http://www.nytimes.com/2004/01/09/politics/09POWE.html>.

للعراق: «داعش» خرج من «القاعدة في العراق» التي ظهرت بنتيجة غزونا، وهي مثال للنتائج غير المقصودة. وبرهان إضافي على ضرورة أن نصوّب قبل أن نرمي»[٣]. لاقت ملاحظات أوباما عاصفة احتجاجات من المعلّقين المحافظين، إذ إنها نقضت على نحو مباشر الكثير من عناصر الخطاب الذي كان قدّمه سلفه لتبرير غزو ٢٠٠٣.

وفي الحقيقة، فإن القضية التي بنت عليها الولايات المتحدة بين ٢٠٠١ و٢٠٠٣ مبررات غزوها للعراق ترتكز على مسألتين: تهمة امتلاك صدّام حسين أسلحة دمار شامل، ودعمه إسلاميي «القاعدة» المتطرفين. ومع عجز مفتشي الأسلحة الأمريكيين عن إيجاد أي دليل على ذلك في مخازن صدّام، نقلت إدارة بوش تركيزها نحو صلات مفترضة للنظام العراقي بشبكة جهاديي «القاعدة». فقد قال كولن باول، وزير خارجية الولايات المتحدة، من على منبر مجلس الأمن في الأمم المتحدة: «إن قلقنا لا يقف عند الأسلحة المخبأة تلك، بل هي للطريقة التي يمكن أن تصل بها الأسلحة تلك إلى إرهابيين وتنظيمات إرهابية لا يتورعون عن استخدامها ضد أناس أبرياء حول العالم ... ما أريد أن ألفت أنظاركم إليه اليوم هو أمر العلاقة الشريرة المحتملة بين العراق وشبكة القاعدة الإرهابية، صلة تجمع بين التنظيمات الإرهابية التقليدية والطرائق الحديثة في القتل. يقدّم العراق اليوم الملجأ لشبكة إرهابية قاتلة يقودها أبو مصعب الزرقاوي، مساعد مقرّب لبن لادن وقياداته»[٤]. وقد أثبتت التطورات اللاحقة أن الاتهامات تلك كانت بلا أي أساس.

وفي التقرير الأخير المعنون «اللجنة الوطنية حول الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة» (المعروفة أيضاً بتقرير لجنة ٩/١١)، ورد أنه «ما من دليل موثوق أن العراق والقاعدة تعاونا حول هجمات ضد الولايات المتحدة»[٥]. وبالإضافة إلى تقرير لجنة ٩/١١، فقد أكد قائد رفيع في القاعدة (سيف العدل)، أن ما من صلة بين تنظيمه وصدّام حسين واعتبره عدوّاً أكيداً. وبحسب شهادة العدل المباشرة، عشية الغزو الذي قادته الولايات المتحدة على العراق، فإن التحدي الذي واجه قادة «القاعدة» هو كيفية تجنّب أجهزة أمن صدّام للوصول إلى المناطق ذات الأغلبيّة السنية لإنشاء موطئ قدم هناك، وتخزين أسلحة، واستقطاب مقاتلين استعداداً للحرب القادمة[٦]. شهادتا لجنة ٩/١١ والعدل وضعتا الأمور في نصابها الصحيح بخصوص مزاعم مسؤولي إدارة جورج دبليو

---

(٣) «President Obama Speaks with Vice News,» (video), 15 March 2015, <https://news.vice.com/video/president-obama-speaks-with- vice-news>.

(٤) انظر نص خطاب: Collin L. Powell's Remarks to the United Nations Security Council on 5 February 2003, US Department of State Archive, <http://2002-2009.state.gov/secretary/former/powell/remarks/2003/17300.htm>.

(٥) Philip Shenon, «Final 9/11 Report Is Said to Dismiss Iraq- Qaeda Alliance,» *New York Times*, 12/7/2004, <http://nytimes.com/learning/students/pop/articles/12panel.html>.

انظر أيضاً تقرير ٩/١١ الكامل من قبل اللجنة الفيدرالية المكلفة بالتحقيق في الهجمات الإرهابية: <http://www.9-11-commission.gov/report>.

(٦) انظر: فؤاد حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة ـ شهادة سيف العدل» ج ٩، القدس العربي، ٢٣/٥/٢٠٠٥. انظر أيضاً: Fawaz A. Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*, 2nd ed. (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2009), chap. 6.

بوش حول تهم صلات نظام صدّام بالقاعدة. مع ذلك، فقد اتجهت الأنظار بعد خطاب باول سنة ٢٠٠٣، داخل الولايات المتحدة وفي العالم، كما في الصحافة العالمية، إلى اسم وعنوان قائد القاعدة في العراق موضع الاتهام: أبو مصعب الزرقاوي. كان الزرقاوي آنذاك، وبعد التحاقه ببن لادن وأيمن الظواهري وجهاً جديداً للحركة الجهادية العالمية، وأصبح لاحقاً الشخصية الأساس في تحولات الموجة الجديدة من الجهاديين، مثل «داعش»، جيل ما بعد «القاعدة».

أولاً: من هو الزرقاوي؟

ولد أحمد فاضل النزّال الخلايله سنة ١٩٦٦، وسيعرف لاحقاً باسم «أبو مصعب الزرقاوي»، في انتساب إلى البلدة التي ولد ونشأ فيها، الزرقا، في الأردن. تشكو الزرقا، التي لا تبعد من العاصمة عمّان شمالاً أكثر من سبعة عشر ميلاً، نسبةً بطالةٍ عالية بين الشباب، حيث يعيش عدد من الناس في بؤس مدقع، وهي مرتع بالتالي لاختلالات اجتماعية موازية. نشأ الزرقاوي على كثير من الظروف المتواضعة في عائلة بدوية من قبيلة بني حسن، وهي ائتلاف شبه بدوي يضم اثنتي عشرة عشيرة. لا يجمع هذه العشائر دائماً رابط الدم أو النسب الواحد؛ بل يحصل التلاقي أحياناً تعزيزاً لمصالحهم المتبادلة، مثل الدفاع والاستراتيجيا. هذه البيئة، الاجتماعية والمادية، التي ولد وترعرع فيها الزرقاوي، ستؤثر جوهرياً في مواقفه المستقبلية وفي عملية صنع القرار.

أول نقطة تحول في الزرقاوي الشاب كانت وفاة والده سنة ١٩٨٤. جرى وصف الزرقاوي في السنة نفسها بنصف المتعلم، وليس بالطالب الواعد، وطُرد من المدرسة. لم يكن الزرقاوي كما وصفه رفاق المدرسة بالولد المطواع، بل كان فتى شقياً، حاد المزاج، كثير الانخراط في صرعات الشارع ومن دون اهتمامات دينية. ويقال إنّ سلوك الزرقاوي ذاك بلغ الذروة بعد وفاة والده؛ حيث إنه بات يرتكب جرائم محدودة كما غرق في إدمان شرب الكحول. وانتهى به الأمر لاحقاً في السجن بعد اتهامه باعتداء جنسي وحيازة مخدرات[٧].

بعد خروجه من السجن، اكتشف الشاب الإسلام، وكانت تلك نقطة التحول الثانية في حياته. وفي سنة ١٩٨٩، أي بعد أربع سنوات من وفاة والده، غادر الزرقاوي إلى أفغانستان ليلتحق بالمسيرة الجهادية هناك، وأقام في خوست، المدينة الحدودية[٨]. ورغم حلم الزرقاوي بأن يصبح مجاهداً ضد الاحتلال السوفياتي، إلا أن حلمه لم يتحقق إذ كان الجيش الأحمر قد هُزم، فعاد إلى

(٧) Loretta Napoleoni, «Profile of a Killer, Foreign Policy,» *Foreign Policy* (November-December 2005), <http://foreignpolicy.com/2009/10/20/profile-of-a-killer>, and Joffe Laurence, «Abu Musab al-Zarqawi,» *Guardian*, 6/6/2006, <http://www.theguardian.com/news/2006/jun/09/guardian obituaries.alqaida>.

(٨) في مقالة في مجلة الـ *Atlantic*، تقول ماري آن ويفر أنه في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٩، ذهب حذيفة عزّام، ابن الشيخ عبد الله عزّام القائد التاريخي، وفي العقد الثاني من العمر، إلى مطار بيشاور وأن الزرقاوي كان بين الذين وفدوا على أفغانستان للجهاد. وفي المقالة تقابل ويفر ابن عزام. انظر: Marie Anne Weaver, «The Short, Violent Life of Abu Musab al-Zarqawi,» *Atlantic*, 1/7/2006, <http://www.theatlantic.com/magazine/archive/2006/07/the-short-violent-life-of-abu-musab-al-zarqawi/304983>.

الأردن سنة ١٩٩٣. بقي الزرقاوي في شمال أفغانستان حتى ١٩٩٢ أو ١٩٩٣، من دون أن يفعل الكثير، ثم عمل فجأة ليس كجندي بل كصحافي، ومن دون أن يملك مهارات أدبية عالية، لمجلة جهادية البيان المرصوص. أقام الزرقاوي، خلال وجوده في أفغانستان، صلات مع جهاديين عدة، مثل صالح الهامي، جهادي أردني - فلسطيني، ومراسل لـ **الجهاد** (مجلة تنشر أفكار عبد الله عزام، المنظّر الفلسطيني والداعية والقائد العسكري المعروف الذي اغتيل لاحقاً في بيشاور سنة ١٩٨٩). كان عزام مساعداً مقرباً لبن لادن إلى أن افترقا لخلاف حول مستقبل الحركة الجهادية العالمية وعلاقة بن لادن الوثيقة بالإسلامي المصري الظواهري. ويقول الهامي إنه غدا والزرقاوي أصدقاء مقربين بعدما تعرض الأول لانفجار لغم أرضي أدخله المستشفى وخسر فيها ساقه. وترسخت العلاقة حين تزوج الهامي واحدة من شقيقات الزرقاوي السبع. جرى العرس في بيشاور، وكان فيديو الاحتفال لا يُظهر الزرقاوي أكثر من كونه جندياً، حتى ٢٠٠٦ على الأقل[٩].

عاد الهامي وعروسه بعد العرس إلى الأردن، بينما بقي الزرقاوي في أفغانستان وحارب مع المجاهدين الأفغان. وكان تحت حماية أمير الحرب البشتوني قلب الدين حكمتيار، والذي غدا لاحقاً رئيساً للوزراء من آذار/مارس ١٩٩٣ إلى كانون الثاني/يناير ١٩٩٤، وكان يعارض طالبان والتحالف الشمالي للجنرال أحمد شاه مسعود في آن معاً. وسوف يكون حكمتيار، الذي سنعود إلى سيرته بعد قليل، عاملاً رئيسياً لشبكة صلات الزرقاوي.

عاد الزرقاوي إلى الأردن سنة ١٩٩٣، لكن لفترة قصيرة، ولم تدم حياته المدنية طويلاً إذ سرعان ما انخرط في الأجواء الإسلامية الثورية. غدا الزرقاوي في أثناء إقامته في الأردن عضواً في جماعة سلفية جهادية أردنية فلسطينية يقودها عالم إسلامي متطرف هو عصام محمد طاهر البرقاوي، المعروف أكثر باسمه الحركي، أبو محمد المقدسي. قضى الرجلان معاً فترة من الوقت في الدعوة والتبشير وانتقاد الحكومة الأردنية كذلك لتقاربها مع إسرائيل الذي انتهى باتفاقية سلام بين البلدين وقّعت في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤. في هذا الوقت كان المقدسي قد غدا المرشد الأول للزرقاوي، ثم عمل الرجلان لاحقاً (أواخر ١٩٩٣) على تأسيس خلية جهادية سرية، «التوحيد»، تحولت لاحقاً إلى «بيت الإيمان». وبحسب محمد الوصفي الجهادي السابق الذي التقى الزرقاوي في صيف ١٩٩٣، فقد حوّل الزرقاوي غضبه باتجاه العدو القريب (أنظمة الحكم العربية العلمانية الاستبدادية): «كان مسلماً بسيطاً يريد خدمة الإسلام. لم يبق كثيراً، وفي اليوم التالي عاد ومعه شاب آخر. جلسنا، تحدثنا عن آمالنا وأحلامنا وطموحاتنا لتأسيس خلافة ورفع علم الجهاد ضد أعداء الإسلام في كل مكان. لم اتفق معه في بعض القضايا الاستراتيجية من مثل رأيه بإسرائيل

---

(٩) للاطلاع على كامل العلاقة بين الهامي والزرقاوي، انظر: المصدر نفسه. انظر أيضاً: Loretta Napoleoni, *Insurgent Iraq: Al-Zarqawi and the New Generation* (London: Constable, 2005), pp. 44–45, and Michael Weiss and Hassan Hassan, *ISIS: Inside the Army of Terror* (New York: Regan Arts, 2015), p. 16.

وفلسطين. لم يكن يفكر بجهاد ضد اليهود وإسرائيل. كان يريد تغيير الأنظمة العربية»[١٠]. قبل أن يتمكن الزرقاوي والمقدسي من تنفيذ أجندتهما جرى اعتقالهما في آذار/مارس ١٩٩٤ واتُّهما بحيازة أسلحة ومتفجرات. وفي سنة ١٩٩٥، وبعد محاكمة اتُّهم فيها الرجلان بالتعرض للقضاء وللملك لمخالفته، وفق زعمهما، تعاليم القرآن، حكما بالسجن خمسة عشر عاماً لتأسيسهما خلية جهادية غير شرعية. وسجنا كلاهما في سجن «السويقة»، حيث تعرّض الزرقاوي للتعذيب والسجن الانفرادي في زنزانة.

يمثل سجن الزرقاوي في السويقة نقطة التحول الثالثة في حياته، التي جلبت معها تغييرات فكرية وجسدية له. ولأن هناك ما يكفي من الأدلة لإظهار أن السجون العربية هي الحاضنة لإرهابيي المستقبل، فقد كان ذلك هو حصاد سنوات سجن الزرقاوي أيضاً، إسوة بجهاديين آخرين. تركت تجربة السجن، حسب رفاق له في المعتقل، جراحاً عميقة في شخصيته. وحسب ما روى فؤاد حسين (صحافي قضى فترة من الزمن مع الزرقاوي في السجن)، فإن تجربة السجن: «كانت الأكثر أهمية في تطور شخصية الزرقاوي»، أكثر أهمية من اشتراكه في الجهاد الأفغاني أواخر الثمانينيات ومطلع التسعينيات. وحسب ما يروي بعض من عرفوه قبل سنوات سجنه وبعدها، فإن تجربة سجن السويقة هي التي حوّلته إلى قاتل شرس ومضطرب نفسياً. يقول حسين: «ترك السجنُ علامة واضحة في شخصية الزرقاوي، التي غدت أكثر صلابة. وكان يرى أن رجال الشرطة والقضاة وأفراد الحكومة من كل الدرجات هم في خدمة الأنظمة لا أكثر، التي يعتقد أنها «طواغيت» تجب محاربتهم». ويروي حسين أن في واحدة من تجارب التعذيب التي تعرض لها الزرقاوي في السجن إبقاؤه في زنزانته ثمانية أشهر ونصف الشهر. وحين رآه حسين بعد ذلك كان الزرقاوي قد فقد أظافره بنتيجة التعذيب الشديد[١١].

وبحسب شاهد آخر كان مع الزرقاوي في السجن، فسنوات سجنه في الأردن هي التي أعادت صياغة شخصيته، إذ جعلت منه قاتلاً عديم الشفقة، فتجاوز مرشده، المقدسي، ليغدو أحد أكثر الشخصيات احتراماً ومهابة بين السجناء[١٢]. بالإضافة إلى تحولات الزرقاوي العقلية، في الفترة التي يعتقد أنه تحوّل فيها من تابع إلى قائد مخيف، فقد كان يعزز بثبات من وضعه الجسدي صارفاً الكثير من وقته على التدرُّب البدني. وبحسب شهادة رفيق للزرقاوي (أبو منتصر بلال محمد)، شاركه تأسيسه خليته الجهادية الأولى «التوحيد»، فإن الزرقاوي كان دائماً ملحاحاً ومسرعاً: «السرعة لدى الأخ أبو مصعب كانت مشكلة لي. لقد أراد أن يُنجز كل شيء وبأقصى سرعة. أراد تحقيق طموحاته في خلال أشهر، إن لم يكن في ساعات. كانت سرعته أحد التهديدات الأكثر خطراً التي أحاقت

---

(١٠) Nir Rosen, «Iraq's Jordanian Jihadis,» *New York Times*, 19/2/2006, <http://www.nytimes.com/2006/02/19/magazine/iraq.html?pagewanted=all &_r=0>.

(١١) فؤاد حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة ـ شهادة سيف العدل،» ج ١، القدس العربي، ١٣/٥/٢٠٠٥.

(١٢) *Zarqaoui: La Question terroriste* [documentary], directed by Patrice Barrat, Najat Rizk, and Ranwa Stephan (France: HR Prod., 2007).

بدعوتنا. كان أبو مصعب يتخذ قراراته على نحو فردي في الزمن الخطأ والمكان الخطأ. والأكثر مأسوية هو أن أكثرية الإخوان كانت توافقه الرأي»[١٣]. تسبب مزاجه الحاد في مشكلات وشجارات كثيرة له مع الحرّاس، لكن ذلك أعطاه بالمقابل صيتاً بين السجناء. كان ينظر إلى الحرّاس باعتبارهم يحمون نظاماً غير شرعي، عميلاً للولايات المتحدة، ولم يرَ ضيراً في تحدي سلطته. وبحسب زميل آخر له في السجن، فقد رأى سجناء كثر أن أفكار الزرقاوي وتحديه للحراس، وكذلك معارضته للدولة الأردنية، علامات لمدى صلابته وتصميمه[١٤].

وعليه يمكن القول إن تجربته وظروفه الاجتماعية كانت تتعاظم، وساعده ذلك على تجاوز صعوبات السجن وعلى تصليب موقفه من الدولة الأردنية والسلطة عموماً. وإلى ذلك، فإن ريفيته وفقره كانا عاملين جعلاه للناشطين الإسلاميين شخصاً يسهل العمل معه. وانتهت العوامل المتداخلة تلك بأن أكسبت الزرقاوي شعبية واضحة، فأقبل عليه المقاتلون الجهاديون السجناء، وتحوّل بالتالي من شخص من دون خبرة سابقة إلى قائد لجماعة من الجهاديين المحترفين والجهاديين الحالمين[١٥]، ومحتفظين بعلاقة دائمة معه.

وبينما كان الزرقاوي يتحوّل تلقائياً إلى قائد داخل بيئة السجن، فقد كان يزداد من الثقافة الدينية، رغم معرفته القليلة باللغة العربية. وساعده في ذلك فايق الشويخ، وكان رفيق خليته، ومما قاله: «لقد ساعدته، اعتاد أن يحفظ عشر آيات في اليوم ويُسمعها لي. كان الزرقاوي شديد البأس في الجهاد كما في التلقي»[١٦]. وبالرغم من كونه شديد البأس في التلقي، فإن معرفته الابتدائية بالعربية جعلته بالتأكيد أسير تفسير من الدرجة الثانية للقرآن، وهو مأزق يواجه اليوم الشبّان الفقراء والضعيفي الثقافة في الوطن العربي. ربما لا يعني ذلك شيئاً في الظروف العادية، إلا أن لذلك في حالة الزرقاوي تفسيراً آخر. فحين لا يلقى الزرقاوي، وآخرون يشبهونه، إلا التفسير الضعيف ومن الدرجة الثانية فمن غير المستبعد أن يجعله ذلك أسيراً لتفسيرات أيديولوجية منحرفة للشرع على أيدي سلفيين جهاديين متشددين ومتطرفين.

يمكن ردّ العنف الذي اتسم به جيل الزرقاوي - إلى حد كبير - إلى وضعيته الاجتماعية في هرمية حركة الجهاد العالمي. كان الزرقاوي يمثل، بمعنى ما، موجة جديدة من الجهاديين الذي وفدوا من خلفيات اجتماعية شديدة الفقر والتهميش. فعلى نقيض جيل بن لادن والظواهري، كان ينقص جيل الزرقاوي التعليم الفقهي والديني العميق اللذين كانا لموجتي السبعينيات والتسعينيات من القرن الماضي. وكان إلى ذلك شديد التأثر بعوامل وسيطة أخرى. بعض العوامل تلك بيئية واجتماعية

---

(١٣) فؤاد حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة ـ شهادة سيف العدل،» ج ٥، القدس العربي، ١٨/٥/٢٠٠٥.

(١٤) فؤاد حسين، «أبو مصعب الزرقاوي، من هرات إلى بغداد،» (وثائقي) بيروت، تلفزيون LBC، ٢٧ و٢٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٤.

(١٥) *Zarqaoui: La Question terroriste.*

(١٦) حسين، «أبو مصعب الزرقاوي، من هرات إلى بغداد».

وبدت في نشأته وتعليمه وخلفيته الطبقية. كما كانت هناك عوامل أخرى مؤسساتية، تطورت من مواجهته العنيفة للسلطة والنظام القضائي.

مع ذلك، يجب عدم المبالغة في المسألة. فما نورده من سيرة الزرقاوي لا يعني ضمنياً بأن دوره في خلق تيار «الدولة الإسلامية» والخلافة كان حاسماً أو رئيسياً. كان دور الزرقاوي، بخلاف ذلك، إجرائياً لجهة بناء مرتكز للقاعدة في العراق ووضعه الأساس بالتالي لظهور «داعش» لاحقاً. ولا تتصل سيرته فقط، وعلى نحو وثيق، بالأساس المادي الذي استندت إليه القاعدة في صعودها في العراق، وإنما أيضاً ببداية التمرّد على الآباء المؤسسين لحركة الجهاد العالمي، وفي مقدمهم بن لادن والظواهري.

ثانياً: رحلة الزرقاوي الثانية إلى أفغانستان

في أيار/مايو ١٩٩٩، أعلن ملك الأردن الجديد، عبد الله الثاني، عفواً عاماً عن الآلاف من السجناء السياسيين، بمن فيهم الزرقاوي والمقدسي. غادر الزرقاوي بعيد خروجه من السجن الأردن إلى أفغانستان؛ البلد الذي تمزقه الحرب والذي غدا نقطة استقطاب لحركة الجهاديين العابرة للحدود، وبخاصة للقاعدة المركزية. حمل الزرقاوي معه إلى أفغانستان المرارة التي كان يشعر بها ضد العالم أجمع، وليس فقط الدولة الأردنية التي أذاقته مختلف صنوف التعذيب. وبدلاً من الالتحاق بقافلة بن لادن، حافظ الزرقاوي على استقلاليته، فأنشأ زاويته الجهادية الخاصة في هرات، المدينة المحاذية للحدود الإيرانية التي تفتح ممراً أيضاً إلى العراق وتركيا. ويرسم المقدسي بعض ملامح صورة مريده السابق واصفاً إياه بصاحب رأس عنيد قاسٍ، مع «أنا» مضخّمة فلا يقبل من أتباعه بأدنى من «الولاء المطلق»، رجل «يجذب الجهلة غير المهيّئين لمهام كثيرة وكان نقصهم ذاك يصدمنا»، وهي إشارة ضمنية إلى القرارات الجهادية الكارثية التي سيقدم عليها الزرقاوي لاحقاً في العراق[١٧]. بل يشير المقدسي إلى أكثر من ذلك، بقوله إن الزرقاوي بعد مغادرته أفغانستان عاد ليتصرف على سجيّته السابقة ولم يتعلم شيئاً من أخطائه الماضية: «لم يكن ناجحاً في انتقاء الأشخاص الصحيحين ذوي الخبرة التنظيمية، رغم امتلاكه الموارد المالية»[١٨].

لم يكن هناك من تلاقٍ في التفكير في مرحلة أفغانستان بين الزرقاوي وبين بن لادن والظواهري، حيث كان الأول مستعجلاً لخوض المعركة ضد القوى العالمية الإمبريالية والظالمة. وبحسب شهادة من العدل، فحين عاد الزرقاوي إلى أفغانستان سنة ١٩٩٩، لم يلتق به قادة القاعدة الكبار وحافظوا على مسافة تفصلهم عن الشاب الصاعد؛ رغم أن مصادر أخرى تقول إن بن لادن التقى

(١٧) حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة»» ج ٦ و٧، القدس العربي، ٢٠٠٥/٥/١٩، و٢٠٠٥/٥/٢٠ على التوالي.

(١٨) المصدر نفسه.

الزرقاوي في أفغانستان[١٩]. ويضيف العدل، في شهادة من الدرجة الأولى، إلى أنه توسط شخصياً لمساعدة الزرقاوي على الحصول على موافقة بن لادن والظواهري ليقيم مخيماً تدريبياً صغيراً في هرات. وبحسب معاصرين له، كان الزرقاوي ناقداً علنياً للقاعدة المركزية في عدم ذهابها للهجوم ضد الولايات المتحدة وإسرائيل، كما الأنظمة العربية «المرتدة» (ما يعني وبوضوح أنه لم يكن على بيّنة من خطط بن لادن لمهاجمة الأراضي الأمريكية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١).

لم يكن الزرقاوي عضواً رسمياً في القاعدة المركزية، إلا أنه كان يشارك القاعدة موقفها السلفي الجهادي، رغم الخلافات الأيديولوجية مع قيادة التنظيم. وفي النهاية كان للزرقاوي مخيّمه التدريبي في هرات بمساعدة من العدل والقاعدة المركزية. ووفق شهود عيان معاصرين للخطوة، كان المعسكر في البدء صغيراً ومركزياً، فيما تقصّد الزرقاوي أن يعيش عيشة بسيطة تشبهاً بالحياة التي كانت للنبي محمد (ﷺ)[٢٠]. ولأن الانتساب كان يجري شفاهياً أو من خلال صلات شخصية، تقاطر متطوعون كثر إلى المعسكر من فلسطين والأردن والعراق وسورية ولبنان. وبسببِ غلبة العنصر العربي في المخيّم سرعان ما أخذت الجماعة بالتالي اسم «جند الشام». وبعد القصف الأمريكي لهرات في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، قرر الزرقاوي وأتباعه المغادرة إلى قندهار، رحلة استغرقت أربعة أيام. ويستذكر أياد طبيسي، الذي تدرّب في المخيّم، أن الأمر تطلّب أربعمئة سيارة تقريباً لنقل أفراد الجماعة ونسائهم وأطفالهم[٢١]، وما فاجأ أفراد القافلة، أن القافلة لم يجرِ توقيفها أو قصفها. بعد وصول القافلة إلى مقصدها، طُلب من النساء والأطفال أن يغادروا إلى تركيا عبر باكستان في حين استقر الرجال في المدينة. وبحسب فؤاد حسين في تحقيق أجراه تلفزيون LBC في لبنان، توجّه الزرقاوي ورجاله بعد ذلك إلى «طورا بورا»، معقل طالبان والقاعدة، حيث يقولون إنهم اشتركوا في معركة طورا بورا في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١[٢٢].

رغم رفض الزرقاوي الانضمام رسمياً إلى القاعدة المركزية في أفغانستان، إلا أن الطريق الجهادي سيقوده بعد حوالى السنتين إلى ميادين القتال في العراق، وليجد نفسه يقسم يمين الولاء لبن لادن بينما استمر يعمل على نحو مستقل بل ضد رغبات أميره الجديد. وفّر العراق للزرقاوي خشبة المسرح والحاضنة الاجتماعية الداعمة، ما سمح له بتحقيق خططه، وسيشهد هذا الطريق من جديد مشهداً متطرفاً آخر في مسيرة الحركة الجهادية العالمية، إذ سرعان سيطوي جيل الزرقاوي وإلى أقصى حد ظل القاعدة المركزية فيتمرد على سلطتها في خطوة خطرة آخذاً الحركة في اتجاه مغاير.

---

(١٩) انظر على سبيل المثال: Napoleoni, *Insurgent Iraq: Al-Zarqawi and the New Generation*, p. 95.
وبحسب نابليوني، فقد التقى بن لادن والزرقاوي في أفغانستان، رغم أنهما لم يتفقا آنذاك على التحالف الرسمي. لمعلومات أكثر عن اللقاء، انظر: Weiss and Hassan, *ISIS: Inside the Army of Terror*, p. 16, and Jessica Stern and J. M. Berger, *ISIS: The State of Terror* (London: HarperCollins, 2015), pp. 27–28.

(٢٠) *Zarqaoui: La Question terroriste.*

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) حسين، «أبو مصعب الزرقاوي، من هرات إلى بغداد،» (وثائقي) بيروت، تلفزيون LBC.

ثالثاً: استخدام صدّام حسين لعامل الدين

لم يشهد العراق في عهد صدّام تمرداً إسلامياً واسع النطاق، وبخلاف ما واجهته بلدان عربية أخرى مثل الجزائر ومصر. ومع أنه، كقومي عربي علماني متشدد، لم يتسامح أو يثق البتة بالأحزاب الإسلامية، السنية والشيعية معاً، فهو لم يكن ليرفض الاستخدام الأدواتي للرموز والمرجعيات الدينية بهدف حشد الرأي العام العراقي ضد التهديدات الخارجية لحكمه. ففي خطاب له في أثناء أزمة ١٩٩٠ ـ ١٩٩١، على سبيل المثال، أعلن صدّام حرباً مقدسة ضد «الأنظمة الكافرة» في الكويت والعربية السعودية وحلفائهما الغربيين: «أيها العرب، أيها المسلمون، والمؤمنون في كل مكان، هذا يومكم للنهوض والدفاع عن مكة، التي يحتلها حلفاء الأمريكيين والصهاينة. ثوروا ضد القمع، والفساد، والخيانة والغدر... إخوانكم في العراق مصممون لمتابعة الجهاد بلا تردد أو تراجع ومن دون خوف من القوى الأجنبية»[٢٣].

وفي خطوة أخرى بهدف تعزيز صدقيته الدينية، أضاف الرئيس العراقي كلمة «الله أكبر» على العلم العراقي. وفي محاولة منه للحصول على دعم أوسع بين العرب عموماً من خلال تبني القضية الفلسطينية، ذهب إلى حد توجيه صواريخ سكود إلى إسرائيل في ٢٩ كانون الثاني/يناير ١٩٩١. ومن أجل ذاك الهدف، استضاف العراق في الشهر نفسه «مؤتمر الإسلام الشعبي»، قبل أيام من الموعد الأخير الذي حددته الولايات المتحدة وحلفاؤها لانسحابه من الكويت. ومع أن المؤتمر كان في البدء فكرة سعودية ـ عراقية مشتركة، إلا أن السعودية عادت فعقدت مؤتمرها في مكة، في الموعد نفسه لمؤتمر صدّام في العراق. وقاد الانقسام بين السعودية والعراق إلى انقسام موازٍ في الدوائر الإسلامية. كان الانقسام عميقاً، فبينما أدانت المؤسسات الدينية لمصر وسورية والعربية السعودية العراق لغزوه الكويت، كان صدّام يخاطب مسلمي الأنظمة تلك بـ «المقموعين».

مع التصاعد المتسارع للتضخم في العراق يومذاك، ونسبة بطالة بلغت الخمسين بالمئة، كانت الثقة بصدّام تتآكل بسرعة. فالظروف الاجتماعية الاقتصادية للعراق التي تلت أزمة الخليج في التسعينيات وقمع النظام المتزايد لمعارضيه، مع العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة، أضعفت كلها نظام صدّام إلى الحد الأقصى. وكانت تلك فرصة للحركات الدينية السنية والشيعية أن تكسب المزيد من الأنصار. وكان خطاب صدّام الجديد واتّباعه أساليب جديدة لتوسعة قاعدة الدعم المحلية له بمحاولته استقطاب المؤسسات الدينية في البلاد إلى جانبه. وكان ذلك تغييراً جوهرياً في المجتمع العراقي، الذي سرعان ما غدا أكثر محافظة وأخذاً بالتقليد الديني بنتيجة الظروف العامة التي أمسكت بالمجتمع آنذاك. أكثر من ذلك، فقد شنّ صدّام أواسط التسعينيات ما أسماه «الحملة الإيمانية» بتعزيز التعليم الديني، في المساجد أولاً، ثم في المدارس، بل إطلاق السجناء الذين يحفظون القرآن، معيداً «الأذان» إلى وسائل الإعلام، مقلّصاً ساعات العمل للمؤسسات التي

---

(٢٣) Reuters, «Confrontation with the Gulf; Excerpts from Hussein's Statement Declaring a Holy War,» *New York Times*, 11/8/1990.

تقدّم الشراب، ومانعاً الاستهلاك العلني للمشروبات الروحية. وبدأ الإعلام العراقي بتغطية أنشطة حزب الله اللبناني، بوصفه حركة مقاومة وطنية. لكن الخطوات تلك التي أقدم عليها صدّام أواسط تسعينيات القرن الماضي إنما كانت في حقيقتها تكتيكية ونفعية لا استراتيجية أو جدية. فقد استمر قومياً خالصاً ولم يتخلَّ عن الأساس الأيديولوجي لعقيدة البعث، الحزب الحاكم في العراق. وكمثال ملموس، فقد أقال صدّام في وقت ما وزير الأوقاف، عبد المنعم أحمد صالح، لذهابه بعيداً في اتصالاته مع الشخصيات والجماعات الإسلامية لاعتقاده بجدية الرئيس في حملته «الإيمانية»[٢٤]. لم يكن الرئيس يريد لأعضاء حكومته، كما فعل وزير الأوقاف، أن يتوهموا في خطابه الديني أكثر مما يريده منه.

أراد صدّام ببساطة، ولمعرفته أن الناس تتوجه إلى المساجد في أوقات الشدّة، أن يقدّم صورته كرئيس متديّن. ومن أجل ذلك، أنفق صدّام سنة ١٩٩٨ مبلغ ٧,٥ مليون دولار لبناء مسجد «أم المعارك» في بغداد (اسمه اليوم مسجد «أم القرى»). وافتتح النظام في العام نفسه «جامعة صدّام للعلوم الإسلامية» في بغداد، التي، وللمفارقة، سيتابع البغدادي بعض دروسها لاحقاً. كان استخدام النظام المكثّف للرموز والمرجعيات الدينية في العقد الأخير من حكم صدّام محاولة يائسة منه للتقرّب من الجمهور الذي كان مشغولاً بمشاكله الاجتماعية الضاغطة. وكان ذلك استخداماً أداتياً إضافياً من صدّام لعامل الدين في خدمة غاياته السياسية[٢٥]، وتكرّس أكثر في الموضوع الفلسطيني بالانفتاح على حماس (حركة المقاومة الإسلامية). فقد قدّم النظام العراقي بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٣ مساعدات مالية لأسر الفلسطينيين الانتحاريين، بمن فيهم أفراد من «حماس»، بقيمة ٢٥٠٠٠ دولار لأسرة الشهيد الانتحاري، مقابل ١٠٠٠٠ دولار لأسرة الشهيد الذي يسقط في أثناء عمليات إسرائيل العسكرية.

مع ذلك، فإن تشكيلات «القاعدة» السلفية الجهادية لم تتفق مع السنّة العراقيين، الذين احتفظوا، مقارنة بالقاعدة، بمواقف عامة منفتحة وبعقائد إسلامية متسامحة[٢٦]. وحالت كراهية المشروع الجهادي لصدّام، مع طبيعة التعايش السنّي ـ الشيعي القديم في المجتمع العراقي (رغم بعض التوتر)، دون نجاح القاعدة في التسرّب إلى البلاد. ورغم تزايد أعداد العراقيين، بمن فيهم أفراد

---

(٢٤) مجدي أحمد حسين، «تزايد المد الديني في العراق مع صمود فريد في مواجهة الحصار،» العرب نيوز، ٢٠٠١/٧/٢٠، <http://alarabnews.com/alshaab/GIF/20-07-2001/MagdiHussien.htm>.

(٢٥) Adeed Daweesha, ««Identity» and Political Survival in Saddam's Iraq,» *Middle East Journal*, vol. 53, no. 4 (1999), pp. 553–567, and Abdelwahab El-Affendi, «The Napoleonic-Saddam Syndrome and the Crisis of Arab Democracy: Beyond Political Culture and the Politics of Culture,» in: Ibrahim Elbadawi and Samir A. Makdisi, eds., *Democracy and Development in the Arab World*, International Development Research Centre, Canada (London: Routledge, 2011).

(٢٦) Fanar Haddad, «Sectarian Relations in Arab Iraq: Contextualizing the Civil War of 2006-2007,» *British Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 40, no. 2 (2013), pp. 115–138; *More than Shi'ites and Sunnis* (Report by Iraqi Academics and Professionals and the Norwegian Institute of International Affairs (NUPI), 2009), pp. 1–32, <http://www.historiae.org/documents/Post-sectarian.pdf>, and Jean- Pierre Luizard, «Islam as a Point of Reference for Political and Social Groups in Iraq,» *International Review of the Red Cross*, vol. 89, no. 868 (2007), pp. 843–855, esp. p. 853.

القوات المسلحة، الذين أقبلوا على ممارسة الشعائر الدينية، بسبب حملة صدّام الإيمانية وظروف البلد الواقع تحت عقوبات دولية ثقيلة، فإن ذلك لم يجعلهم يستبدلون الراية البعثية برايات الحركات الإسلامية. لم تظهر في تلك الأثناء إشارات قوية على أي انقسام طائفي قوي في العراق[٢٧]. وعليه، لم يكن العراق والعراقيون في تسعينيات القرن الماضي أرضاً خصبة للدعوة الإسلامية الجهادية. فقد ظلت البلاد تحت حكم صدّام البعثي مكاناً معادياً للناشطين الدينيين المتطرفين، وكان على الزرقاوي وجماعته أن ينتظروا فرصتهم بعد حين مع إقدام الولايات المتحدة على تفكيك جهاز الدولة وتسريح الجيش العراقي. كان تدمير الولايات المتحدة للدولة العراقية سنة ٢٠٠٣ المتغيّر الأكثر أهمية في ظهور القاعدة في العراق، ومولودها اللاحق، تنظيم «الدولة الإسلامية» (داعش).

رابعاً: بناء الزرقاوي لشبكته في العراق

يكشف العدل في شهادته حول الزرقاوي، أنه حين غزت الولايات المتحدة أفغانستان في تشرين الأول/أكتوبر سنة ٢٠٠١، وزّعت القاعدة ضباطها ومقاتليها نحو البلدان المجاورة، بما فيها إيران، لتجنب تدمير شبكة بن لادن ولمتابعة القتال. ويضيف العدل أن الزرقاوي أصبح رجل القاعدة المكلّف بالعراق، وهو «خيار مدروس جداً». وفي السيرة شبه الرسمية للزرقاوي، بحسب فؤاد حسين، فقد أمكن للزرقاوي الفرار من طورا بورا، من دون أن يصاب، إلى باكستان أولاً ثم إلى إيران مشياً على الأقدام[٢٨]. وفي إيران، صرف الزرقاوي وجماعته ـ ومن بينهم طيبسي ـ بعض الوقت في زهدان، بحماية مجموعة من السنّة الإيرانيين قبل أن ينتقل إلى طهران[٢٩].

وفي تفحص حسين لهذه المرحلة، تبيّن أن قلب الدين حكمتيار، أمير الحرب الأفغاني الذي جعل الزرقاوي تحت حمايته في أول زيارة له إلى أفغانستان أوائل التسعينيات، قدّم له المساعدة هذه المرة أيضاً وهو يشق طريقه عبر إيران. ويقول حسين إن الحكومة الإيرانية كانت على علم بوجود الزرقاوي في أراضيها وأنها بدأت تحت ضغط من الولايات المتحدة بالتضييق على الزرقاوي وجماعته، ومنها اعتقال عدد من أتباعه. بعد الاعتقالات، انقسمت جماعة الزرقاوي قسمين، واحدة اتجهت إلى تركيا، وأخرى، من ضمنها الزرقاوي نفسه، جعلت طريقها نحو شمال العراق. تتقاطع رواية حسين مع شهادة العدل، الذي يلحظ أن الزرقاوي توجه من إيران إلى شمال العراق مع عدد محدود من الأتباع الذين تبقوا معه. وفي الحقيقة، فإن عدداً من الناشطين التابعين للقاعدة وكذلك حوالى ٨٠ بالمئة من رجاله كانوا قد اعتُقلوا وجرى ترحيلهم إلى بلدانهم الأصلية تحت ضغط الولايات المتحدة على إيران. ويعلّق العدل، أنه «بسبب من إطباق السلطات الإيرانية على ناشطي

(٢٧) حوار خاص مع السوسيولوجي العراقي سعد جواد، في ٢٠١٥/٨/٤ و٢٠١٥/٨/٥ و٢٠١٥/٨/٧، وكذلك مع الاقتصادي السياسي كامل مهدي، في ٢٠١٥/٧/٣١ و٢٠١٥/٨/٣ و٢٠١٥/٨/٥.

(٢٨) حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة،» ج ٦ و٧.

(٢٩) *Zarqaoui: La Question terroriste.*

القاعدة، فقد اختل توازننا ودمّر أكثر من ٧٥ بالمئة من خططنا». لهذه الأسباب أسرع الزرقاوي والقلة القليلة الباقية معه بمغادرة إيران إلى العراق، وتمكّن بمساعدة «أنصار الإسلام» (الجماعة التي سيصير اسمها أنصار السنّة)، الجماعة الجهادية الصغيرة ومنها جند الإسلام، من الوصول إلى المثلث السنّي.

تتوافق رواية العدل، شاهد العيان المعاصر للزرقاوي في جزء منها، مع شهادات شخصية من رفاق سابقين للزرقاوي تواصل معهم بعدما ترك إيران إلى العراق. تجمع الشهادات تلك، أن الزرقاوي لم يكن لديه، بعد وصوله إلى العراق مع مجموعته الصغيرة، أية نقطة قوة يبدأ منها، ولا مبالغ كافية من المال لتمويل شبكته الجهادية. جرى تصويره في هذه المرحلة، كرجل متشدد وصاحب إرادة قوية، ومصمم على الانخراط في حمل السلاح ضد القوات الأمريكية في العراق وبناء جماعة سلفية جهادية في البلاد. ويبدو أن الزرقاوي قد تكيّف جيداً مع وضعه الجديد في العراق، نظراً إلى أصوله المتحدرة من قبيلة بدوية محترمة. وبسبب التشابه في اللهجة والخصال والمواصفات الجسدية والمزاجية للعراقيين وللعرب المشرقيين، كان الزرقاوي وجماعته قادرين على الاندماج بين السكان المحليين، وتمكن تبعاً لذلك من البدء سريعاً ببناء جماعته والبنية التحتية التي يحتاجها، وذلك في المثلث السنّي.

ويقال إنه جرى تدريب معظم رجال الزرقاوي في مخيّم في خورمال بمحاذاة الحدود الإيرانية. وبحسب أحد المصادر، فقد تأمن هذا الأمر بنتيجة لقاء جرى سنة ٢٠٠٢ بين الزرقاوي و«أنصار الإسلام»، الجماعة الإسلامية الصغيرة التي تعمل من كردستان العراق. وعليه، نجح الزرقاوي بعد هذا الاجتماع في توفير التجهيزات والقاعدة العسكرية التي يحتاجها لرجاله[٣٠]. قدّم المعسكر الملجأ لوافدين جدد، من بينهم مقاتلون عرب قادمون من أفغانستان ومتطوعون جدد من المشرق. مع ذلك، وبعد الغزو الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣، تعرضت مواقع الإسلاميين، بما فيها مراكز أنصار الإسلام في كردستان العراق، لقصف عنيف من قوات «التحالف»، ففر معظم عناصرهم إلى إيران، أو إلى المثلث السنّي، شمال غرب بغداد. إلا أن «أنصار الإسلام» تمكن في أيلول/سبتمبر من السنة نفسها، ورغم خسارته للكثير من أعضائه، من إعادة بناء نفسه في العراق، وفي آذار/مارس ٢٠٠٣ غدا اسم الجماعة «أنصار السنّة». فقد ألزمت الظروف التي استجدت بعد الغزو الأمريكي أنصار السنّة على حصر عملهم على نحو رئيسي في المثلث السنّي، وقدّموا من جديد، ورغم الصعوبات العملانية والجغرافية، ممراً للزرقاوي ورجاله. ومع الفرصة التي قدّمها «أنصار السنّة» للزرقاوي لتوسيع الجماعة التي في إمرته، فقد اختار في البدء، سنة ٢٠٠٤، «التوحيد والجهاد» اسماً جديداً للجماعة، وكان التنظيم عبارة عن عصبة من المقاتلين بين عصب أخرى من الثوّار المحليين.

(٣٠) Jean-Charles Brisard and Damien Martinez, *Zarqawi: The New Face of al-Qaeda* (Cambridge, UK: Polity Press, 2005), pp. 130-135.

قدّم شارلز بريزارد ودامیان مارتينيز في كتابهما الزرقاوي: الوجه الجديد للقاعدة، لائحة بأفراد من دائرة الزرقاوي الداخلية، وضمّت كما وضعاها أبو أنس الشامي، ويعرف أيضاً بعمر يوسف جمعة، عالم دين أردني من تلامذة المقدسي كالزرقاوي نفسه؛ خالد مصطفى خليفة العاروري، الملقب بأبي القاسم وأبي أشرف، وهو قومي أردني وصهر الزرقاوي؛ عبد الهادي أحمد محمود دغلس، ومعروف أيضاً باسم أبي عبيدة، وأبو محمد الشام، الذي ساعد في إدارة مخيّم هرات؛ نضال محمد العربي، واسمه الحركي أبو حمزة محمد، المعروف بتنسيقه للهجمات التي تبنّاها التنظيم؛ أبو محمد اللبناني، جندي لبناني سابق متخصص في المتفجرات؛ أبو علي العراقي، عراقي متخصص في المتفجرات؛ وحسن إبراهيم، الذي كان أحد ثلاثة مسؤولين عن جهاز الدعاية في التنظيم. وإلى هؤلاء، كان هناك عناصر قيادية للتنظيم يعتقد أنها ضمّت عشرة أردنيين وكانوا كما يُعتقد في حدود الثلاثين من العمر[٣١].

ويلحظ الكتاب أيضاً، أن أنشطة «التوحيد والجهاد» في المثلث السنّي كانت موزّعة على تسع قواعد، تعمل كل منها بإمرة قائدها الخاص. كانت القيادة العليا للتنظيم تتركز في الفلوجة وضمّت قوة من ٥٠٠ مقاتل. ضمّ قطاع بغداد ٥٠ مقاتلاً، وقطاع الأنبار ٦٠ مقاتلاً. وكان للتنظيم قوة تقدر بـ ٤٠٠ رجل، مقيمين في الموصل، و٥٠ في سامراء، و٨٠ في ديالا، والباقون في المنطقة الشمالية. وكان لهم أيضاً ١٥٠ رجلاً في «القائم» قريباً من الحدود السورية[٣٢].

يظهر بوضوح، من خلال المشاهد التي قدّمها بريسارد ومارتينيز، أن قوة الزرقاوي كانت تتنامى بسرعة، واهتم رجاله باستقطاب متطوعين جدد من بلاد الشام، والمناطق المجاورة، بما فيها سورية والأردن وفلسطين ولبنان والعراق والسعودية وشمال أفريقيا. وفيما اتجه التطويع نحو سورية، ازداد اعتماد الزرقاوي على الجهاديين السوريين. وكان توجه التنظيم نحو السوريين أو الناشطين فيها نتيجة مباشرة لخسارته قادة أردنيين عدة كانوا موضع ثقة الزرقاوي. كان معظم السوريين الذين قدّر لهم أن يترقّوا في التنظيم ممن تدربوا في معسكر هرات، والذي كان مدعوماً مالياً من رجال أعمال سوريين مقيمين في أوروبا. وأحد الأشخاص الأساسيين في الصلة العراقية ـ السورية، الذي يعتقد أنه كان ممولاً مهماً لشبكة الزرقاوي، هو سليمان خالد درويش، المعروف بأبي الغادية، سوري سافر إلى أفغانستان في التسعينيات بعد تخرجه كطبيب أسنان في العاصمة السورية. ويعتقد أن الزرقاوي وأبا الغادية التقيا في أفغانستان في الفترة التي قضاها أبو الغادية في مخيم هرات، حيث دربه الزرقاوي على استعمال المتفجرات[٣٣]. وبعد اجتماعهما ثانية في العراق في أعقاب الغزو الأمريكي، تولى أبو الغادية مسؤولية إرسال المقاتلين من سورية إلى العراق، حيث الحدود الضائعة

(٣١) المصدر نفسه.

(٣٢) المصدر نفسه، ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣٣) Sami Moubayed, «Abu al- Ghadia to Build on al-Zarqawi's Legacy in Iraq,» *Terrorism Focus*, vol. 3, no. 26 (July 2006), <http://www.jamestown.org/single/?tx ttnews%5Btt news%5D=827&no cache=1#.Vm8h Ezb Vvzl>.

بين البلدين تجعل المهمة سهلة. ويقال إنَّ البغدادي، وبعد مقتل الزرقاوي سنة ٢٠٠٦، عمل أيضاً من قرب مع غادية في سورية[٣٤].

بالإضافة إلى استقطاب المقاتلين السوريين وجمع الأموال من المغتربين السوريين في أوروبا، كان هناك تركيز خاص على تجنيد انتحاريين. وقد عمل الملّا فؤاد (كردي عراقي وعضو مفترض في أنصار الإسلام)، كمفتاح بين المتطوعين الأوروبيين لعمليات انتحارية وشبكة الزرقاوي في العراق. ورغم اعتقاله في حزيران/يونيو ٢٠٠٥ في سورية، فقد لعبت الشبكة العملانية التي أسسها دوراً مهماً في تجنيد الانتحاريين ـ العنصر الرئيسي في عدّة الزرقاوي. وقد وفد المتطوعون ليكونوا انتحاريين من سورية وبلدان مجاورة، بما فيها الكويت والسعودية وليبيا وتونس وفلسطين والأردن، كما من أوروبا.

ومع أن الزرقاوي، بحسب فؤاد حسين، قد بدأ بأقل من ثلاثين رجلاً في بداية الغزو الأمريكي للعراق، فقد أمكنه أن يبني بسرعة جيشاً وصل تعداده في وقت ما إلى خمسة آلاف رجل متفرغ، مدعومين دعماً ظرفياً من عشرين ألف نصير محلي[٣٥]. وهذا دليل على السرعة التي كان يتعسكر ويتطرف بها المجتمع العراقي وقدرة القاعدة على النفاذ إلى النسيج الهش للبلاد. ورغم أنه ليس من السهل معرفة ـ بشكل دقيق ـ عدد المتطوعين الأجانب الذين انضموا إلى قافلة الزرقاوي الجهادية، (تقدّر السلطات الأمريكية والعراقية عدد المقاتلين العرب تحت إمرة الزرقاوي بحوالى ألف مقاتل)، فإن المجنّدين المتطرفين من العراق باتوا تدريجاً الأغلبية بين مقاتلي القاعدة وصاغوا بالتالي هويّتها وطرائق عملها. على سبيل المثال، فمن أجل الرد على تهمة أن معظم الانتحاريين في العراق هم من غير العراقيين، وضعت «القاعدة في العراق» إعلاناً على موقع جهادي معروف بنقل رسائلها، تقول فيه إنها شكلت وحدة من الانتحاريين العراقيين حصراً[٣٦]. وبمعزل عن قوة الزرقاوي الحقيقية، فقد كان رأس حربة «القاعدة» في العراق فجعل منه قاعدة لها رغم ظروفه المعقدة، والتي سيكتب لها الاستمرار حتى بعد مقتل الزرقاوي على يد القوات الأمريكية سنة ٢٠٠٦.

رغم ذلك النجاح الأولي، فقد استمر التشكيل «الثوري» الإسلامي الذي ضمّه تنظيم الزرقاوي مجرد أقلية صغيرة بين العدد الكبير من الجماعات المحلية «الثورية» في العراق، والتي لم يكن بينها أي تجانس أو تنسيق. كانت الخلافات بين الجماعات المسلحة تلك ناشئة عن تباين الأجندات الأيديولوجية في ما بينها. فقد كان هناك مقاومون للاحتلال الأمريكي، كما سنرى لاحقاً، من مشارب عدة متناقضة، أهمها: المتدينون القوميون، والبعثيون العلمانيون، والسلفيون الجهاديون.

كانوا جميعاً في البدء ضد السلفيين الجهاديين، ولكن حين جعلت الولايات المتحدة قتال هؤلاء في رأس أولوياتها، خلق ذلك مع تطورات أخرى لاحقة بيئة محلية أكثر تعاطفاً مع الجهاديين

(٣٤) Ali Hashem, «The Many Names of Abu Bakr al-Baghdadi,» *Al Monitor* (23 March 2015), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2015/03/isis-baghdadi-islamic-state-caliph-many-names-al-qaeda.html#>.

(٣٥) فؤاد حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة،» ج ٣، القدس العربي، ٢٠٠٥/٥/١٦.

(٣٦) Maamoun Youssef, «Al- Qaida Announces Iraqi Suicide Squad,» Associated Press (21 June 2005).

الإسلاميين. وعليه، استخدم تنظيمٌ مثل «أنصار السنّة» الاحتلال الأمريكي ذريعة لتجنيد المقاتلين، وزيادة حجم عملياته ونفوذه، وليتموضع في المثلث السنّي، قلب المعارضة السنية لحكم التحالف، بل ليعلن الدعوة إلى الجهاد ضد القوات الأمريكية.

ميّز الشعور المعادي للولايات المتحدة خطاب تلك المرحلة، وكان يتعزز بصور القتلى الأمريكيين. لم يكن أنصار السنة استثناء، فقد نشرت الجماعة سنة ٢٠٠٤ شريطاً مصوراً على موقع «منتدى الأنصار» يظهر عملية قتلها رجلاً أمريكياً (نيكولاس برغ) يبلغ من العمر ستاً وعشرين سنة. وكان للشريط الذي صوّر غرب بغداد في ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٤ صدى واسع، كما كان منطلقاً لزيادة التوحش الذي سيمزّق العراق بعد ذلك. يُظهر الشريط خمسة رجال ملثمين يقفون خلف رهينة مقيّد على الأرض. قرأ أحدهم قبل قتل برغ رسالة تحذر الولايات المتحدة من سوء معاملة سجناء «أبي غريب» وتدعو من ثم إلى الجهاد. ويُظن أن القاتل كان الزرقاوي نفسه، وقد شكّل ذلك الإعدام نقطة البداية لسلسلة طويلة من الجرائم الوحشية المماثلة. مع نشر الشريط على شبكة الإنترنت، غدا اسم الزرقاوي أكثر شهرة. فقد جعلته التغطية الإعلامية أكثر شعبية في دوائر المقاتلين الإسلاميين في العالمين العربي والغربي، ما سهّل بدوره من عملية تجنيد الجهاديين من حول العالم.

خامساً: المقاومة المسلحة وقتال الزرقاوي للهيمنة

أدى التدمير الذي أنجزه غزو العراق سنة ٢٠٠٣، والذي قادته الولايات المتحدة، ثم إقامة نظام سياسي طائفي بعد ذلك، إلى خلق استقطاب طائفي سنّي ـ شيعي في البلاد وأرسى خشبة المسرح لمرحلة جديدة من الصراع الشرس الطويل تقوده سياسات الهوية. وزاد في كراهية الولايات المتحدة تسريحها المهين للجيش العراقي وصدور قانون اجتثاث البعث، الذي بدأ كقانون ثم تحوّل إلى مادة ثابتة في الدستور. وزاد على ذلك لجوء القوات الأمريكية والبريطانية إلى أساليب التعذيب، والإعدامات السريعة وجرائم الحرب التي كشفها موقع ويكيليكس، ما ضاعف الكراهية لقوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. ومع أن الكثير من السنّة العراقيين لم يشاركوا صدّام حملاته المكلفة ضد إيران والكويت، والتي تركت العراق بلداً مفلساً، إلا أنهم شعروا بالمهانة مع تسريح الولايات المتحدة لجيشهم الوطني. وفي النهاية ترك تسريح الجيش، الذي ضمّ يوماً ٣٠٠ ألف جندي، ناهيك بقانون اجتثاث البعث، الذي شرّد الناس بحسب الانتماء، لا السلوك، والذي نُظر إليه كنوع من التمييز المقصود والعقاب المتعمّد من حكام البلاد الجدد، الشيعة، شعوراً واسعاً بالظلم والمرارة في أوساط الجماعة السنية في البلاد. وعلى ذلك، لجأ عراقيون كثر إلى حمل السلاح تحت عنوان مقاومة الاحتلال الأمريكي لبلادهم.

استمرت الحكومتان الأمريكية والبريطانية في النظر إلى العراق كبلاد مقسّمة إلى شيعة وسنّة وكرد وتركمان وأشوريين، وغيرهم من الجماعات الإثنو ـ دينية، مؤكدتين طائفية البلاد لا هويتها

العراقية. ففي سنة ٢٠٠٤، على سبيل المثال، أمعن مجلس الحكم في العراق الذي عيّنته الولايات المتحدة في إحلال الطائفية لا الانتماء الوطني في قلب النظام السياسي الجديد. وأفادت «القاعدة» أيّما إفادة ويسرعة من الشعور الطائفي المتعاظم، وكانت فرصتها للتحرك والاندماج بالسنّة المحليين، الذين كانوا يشعرون أن الحكم الجديد الذي خلقه الأمريكيون يعزز وضع الشيعة على حسابهم ويتوّج إيران سيّداً على العراق. حاولت الولايات المتحدة، في رد مضاد، دقّ إسفين بين الجماعتين السنية والشيعية، وكلاهما جزءان في المقاومة العراقية ضد الولايات المتحدة، بينما كانت القاعدة تستثمر ويسرعة في المشاعر المتصاعدة ضد الولايات المتحدة. وهكذا، وبنتيجة المرارة المتزايدة ضد «قوات التحالف» والحكومة العراقية، قدّم العراق، لبن لادن والظواهري «فرصة ذهبية وفريدة» لتوسعة الجهاد العالمي إلى منطقة نزاع هي في قلب الوطن العربي، العراق، وإلى ساحات عربية أخرى وسورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين. لقد كانت الحرب في العراق، ووفق كلامهما، التطور الثاني الأكثر أهمية بعد ٢٠٠١/٩/١١، و«فرصة تاريخية» للدولة الإسلامية المنتظرة منذ وقت طويل في المنطقة، والتي كانت قبل سنوات قليلة إمكانية مستحيلة[٣٧].

بالرغم من أن الانتباه يتجه غالباً إلى الجانب السنّي من المقاومة، فإن الانتفاضة العراقية ضد قوات التحالف والحكومة العراقية إنما انطلقت أولاً من «مدينة الصدر». والدعوات إلى المقاومة إنما كان يحض عليها مقتدى الصدر، الذي دعا الأكثرية الشيعية إلى المطالبة بحقوقها على خلاف البعض الذي توهّم في الحكومة الانتقالية والاضطراب والنهب والظروف البائسة كما لو كانت نهاية المطاف[٣٨].

مقتدى الصدر، عالم ديني شاب، والابن الوحيد الذي ظل حياً من أبناء الزعيم الشيعي العراقي المعروف آية الله محمد صادق الصدر، والذي قتل في شباط/فبراير ١٩٩٩ واتُّهم النظام البعثي بذلك. كان الهدف الأول لمقتدى الصدر تعزيز قيادته الثورة الشيعية، الذي قاد إلى صراع مع قادة شيعة معتدلين. وفي عام ٢٠٠٣ أسس «جيش المهدي»، الذي شنّ خلال بضعة أشهر هجمات عنيفة وعمليات خطف عدة ضد قوات التحالف. وهكذا تعاظمت شعبية مقتدى الصدر بين الشيعة وازداد كذلك عنفه. وانتشرت مقاومة شيعية عبر العراق، انطلاقاً من معاقل مقتدى الصدر في مدينة الصدر والنجف وكربلاء. وفي موازاة ذلك، كانت سنة ٢٠٠٣ تشهد أيضاً صعود مقاومة سنية، وبخاصة في المثلث السني، تعززها حملة الولايات المتحدة العسكرية والسياسية لتطهير البلاد من البعثيين، التي نظر إليها السنة باعتبارها استهدافاً لهم وتمييزاً ضدهم. وهكذا، وفي الحقبة التي تلت سقوط صدّام، غاصت البلاد عميقاً في الفوضى وازداد الجو العام ظلمة.

---

(٣٧) Osama bin Laden, «To the Muslims in Iraq in Particular and the [Islamic] Nation [Umma] in General,» Al- Sahab (Institute for Media Production), 27 May 2004.

وقد ترجم النص الكامل لرسالة بن لادن من قبل: FBIS Report FEA20041227000762, 27 December 2004.

انظر أيضاً: حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة»» ج ٩، و Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*, p. 252.

(٣٨) Napoleoni, *Insurgent Iraq: Al-Zarqawi and the New Generation*, p. 137.

تعاظمت المقاومة السنية المؤلفة من قوميين إسلاميين، وعلمانيين، وزعماء عشائر. كان للمقاومتين الشيعية والسنية، بالإضافة إلى خلفيتيهم الدينية، دوافع وتطلعات مختلفة. ففي حين حارب الشيعة ضد عقود من التهميش الذي ظنّوا أن الحكومة الانتقالية فشلت في رفعه، حاربت المقاومة السنية ضد الغزاة الأجانب، مع تصور واسع بأن المحتلّ قد سلّم العراق إلى إيران الشيعية على طبق من فضة.

ورغم أن ما دفع إلى المقاومتين الشيعية والسنية هو الغزو الأمريكي، فهما كانتا تنطلقان من زاويتين مختلفتين تماماً، بل سرعان ما دخلتا في صراع مباشر بعضهما ضد بعض. ففي صيف ٢٠٠٣، استهدفت شبكة الزرقاوي تكراراً السكان الشيعة في خلال مناسبات حجّهم، وأعراسهم، ومآتمهم، وأسواقهم، ومساجدهم. وردّ الشيعة على ذلك بتشكيل ميليشياتهم ومجموعاتهم الثأرية، ومن خلال الاستقطاب نفسه. لم يهاجم الزرقاوي الجماعة الشيعية فحسب، بل السنّة أيضاً الذين لم ينضموا إلى قضيته، تاركاً خلفه بحراً من الدماء. ففي ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٣، هاجمت شبكة الزرقاوي السفارة الأردنية في بغداد بسيارة مفخخة، فقُتل ما لا يقل عن أحد عشر شخصاً وجرح خمسة وستون[٣٩].

وبعد أيام، في ٢٩ آب/أغسطس، هاجمت الشبكة مسجد الإمام علي بن أبي طالب في النجف، فقتلت خمسةً وتسعين، بمن فيهم آية الله محمد باقر الحكيم، مؤسس «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية». وقد قاد ياسين جراد، والد زوجة الزرقاوي الثانية، بنفسه السيارة الملغّمة التي فجّرت المسجد.

وفي أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣، دعا الزرقاوي إلى هجمات أخرى ضد الشيعة لكنها لم تلقَ الكثير من الصدى، إذ كانت المقاومتان السنية والشيعية تركزان جهودهما ضد قوات التحالف. وقد حددت الجماعتان الغازي الأجنبي، لا المنافس المحلي، باعتباره العدو لكليهما. مع ذلك، استمر الزرقاوي في حملته الدعائية الشرسة ضد الشيعة. فقد قارن أولاً الغزو الأمريكي باجتياح المغول للعالم المسلم، بما فيه العراق، وتدميره بغداد في القرن الثالث عشر. وكان بن لادن سنة ١٩٩٦، وفي إعلانه الحرب ضد الولايات المتحدة، قد استخدم المبرر نفسه. أطّر الزرقاوي الشيعة بالمفردات نفسها التي استخدمها صدام حسين في نيسان/أبريل ٢٠٠٣. ففي مقالة له بعد الغزو مباشرة نشرتها القدس العربي، اتهم صدّام حسين بوش بغزو البلاد بمساعدة ابن العلقمي، الوزير في بغداد الذي ساعد المغول على غزوها. كان الشيعة بنظر الزرقاوي «علقمي» من جديد، في مساعدتهم الغزاة.

---

(٣٩) Dexter Filkins, «At Least 11 Die in Car Bombing at Jordan's Embassy in Baghdad,» *New York Times*, 7/8/2003, <http://www.nytimes.com/2003/08/07/international/worldspecial/07CND-IRAQ.html>.

حول تورط الزرقاوي في تفجير سيارة مفخخة، انظر: «إف. بي. آي» يحقق في تفجير السفارة الأردنية ببغداد،» الشرق الأوسط، ١٠/٨/٢٠٠٣، <http://archive.aawsat.com/details.asp?article=186448&issueno=9021#.VvwZWeJ97IW>.

سادساً: ولاء الزرقاوي للقاعدة، أو زواج المصلحة

كانت القاعدة أواخر ٢٠٠٢ ومطلع ٢٠٠٣ تعاني نكسات خطيرة في أفغانستان وباكستان واليمن والسعودية، مع قدرة متراجعة على العمل والمبادرة. فتوزّعها على مسارح مختلفة، والحصار المفروض على ما تبقى منها، جعلاها أقرب إلى الشلل. فقد أنهكتها حرب بوش ضد أفغانستان وعوامل أخرى، فباتت أقرب إلى الانهيار. لكن الفرصة سنحت لها من جديد في الغزو الأمريكي على العراق. كان الغزو هدية للقاعدة في أمسّ الحاجة إليها. وكان الزرقاوي وشبكته في موازاة ذلك يكتسبان المزيد من الثقل على الأرض. فتضاعفت الضغوط عليه للانضمام إلى تنظيم القاعدة المركزية ومبايعة بن لادن[٤٠]. ففي عريضة للزرقاوي إلى بن لادن والظواهري، وقعت في أيدي الكرد وسرَّبوها إلى الأمريكيين ثم نشرتها وزارة الخارجية الأمريكية، صرف الزرقاوي الكثير من الجهد لإقناع الرجلين بشرعية حربه ضد الشيعة. كانت تلك إحدى نقاط خلافه مع القاعدة المركزية. شرح الزرقاوي خطة عمله، جاعلاً الأعداء في أربع فئات:

١ ـ الأمريكيون: «هؤلاء كما تعلمون أجبن خلق الله. هم العدو الأسهل، الحمد لله. ونحن نسأل الله ليمكننا من قتلهم وأسرهم لزرع الرعب في من يقف خلفهم ولمبادلتهم بشيوخنا وإخواننا المعتقلين».

٢ ـ الكرد: «هؤلاء ورم في الحلق وشوكة حان وقت نزعها. هم في آخر اللائحة. مع ذلك فنحن نسعى إلى إيذاء بعض رموزهم، بإرادة الله».

٣ ـ قوات الأمن العراقية: «هؤلاء هم عيون المحتل وأذناه ويداه، التي من خلالها يرى ويسمع ويقصف. ونحن مصممون بتوفيق من الله على استهدافهم في المرحلة القادمة بشدة وقبل أن يتعزز وضعهم وخطرهم».

٤ ـ الشيعة: «هؤلاء برأينا هم مفتاح التغيير. وأنا أعني أن استهدافهم وضربهم في عمقهم الديني والسياسي والعسكري سوف يستثيرهم ليظهروا للسنّة حقيقة ما يدور في صدورهم من أحقاد. إذا نجحنا في جلبهم إلى ساحة المواجهة المذهبية، فسيكون من الممكن إيقاظ السنّة غير المدركين للأخطار الداهمة التي يمثلها الباطنيون هؤلاء»[٤١].

يعبّر الزرقاوي بجلاء، في استنتاجه، عن رغبته في الانضمام رسمياً إلى شبكة الجهاد العالمي: «هذه رؤيتنا، لقد شرحناها. وهذا هو طريقنا، أوضحناه. إذا وافقتم عليه، وإذا اتخذتموه برنامجاً

---

(٤٠) كميل الطويل: «الزرقاوي: الحكومة الإسلامية في العراق ممر لقلب الأنظمة المجاورة،» الحياة، ٢٠٠٤/٩/١٩؛ «الزرقاوي موجود وأنصاره في كل مكان،» الحياة، ٢٠٠٤/٩/٥، و«بن لادن يفشل في أفغانستان... لكنه يدخل العراق من بوابة الزرقاوي،» الحياة، ٢٠٠٤/١٠/١٩، ومحمد عبد الرزاق، «أمير مقاتلي الفلوجة (أبو أسامة) إلى «الوسط»: كل مجاهد في العراق هو عضو في القاعدة،» الوسط، ٢٠٠٤/٥/٣.

(٤١) Abu Musab al-Zarqawi, «Musab al-Zarqawi Letter Obtained by United States Government in Iraq,» US Department of State Archive (2004), <http://2001-2009.state.gov/p/nea/rls/31694.htm>.

ومنهجاً، وإذا كنتم مقتنعين بقتال طوائف المرتدين، فسوف نكون جنودكم المستعدين، نعمل تحت رايتكم، ونطيع أوامركم، ونقدم لكم علناً الولاء، نقهر الكفرة ونسعد المؤمنين الذين يؤمنون بالله الواحد»[٤٢]. تُظهر الوثيقة أن الزرقاوي لا يرغب في التعاون مع القاعدة كيفما كان: يمكن للتحالف أن يتحقق إذا وافق بن لادن والظواهري على خريطة طريق الزرقاوي، التي تجعل قتال الشيعة من أولوياته، وليس العدو البعيد، تحالف الولايات المتحدة.

في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤، وفي بيان على الشبكة، أعلن الزرقاوي تغيير اسم تنظيمه من «التوحيد والجهاد» إلى «القاعدة في بلاد الرافدين»، أو «القاعدة في العراق»، كما أعلن الولاء لبن لادن قائلاً إنه يعتبره «أفضل قائد لجيوش المسلمين ضد الكفرة والمرتدين». ويضيف البيان أن الطرفين قد تواصلا واتفقا على الوحدة ضد «أعداء الإسلام». وأعلن بن لادن بعد شهرين، في شريط متلفز على شبكة الجزيرة، قبوله البيعة من الزرقاوي وعيّنه أميراً على «القاعدة في العراق». امتدح بن لادن الزرقاوي لـ «عملياته البطولية» ضد الأمريكيين، قائلاً إنه ورفاقه إنما يحاربون من أجل الله: «نحن سعيدون أنهم استجابوا لأمر الله ورسوله في الوحدة، ونحن في القاعدة نرحب اتحادهم معنا»[٤٣]. لم يحجب هذا التحالف بين زرقاوي «التوحيد والجهاد» وبن لادن «القاعدة» وجود اختلافات رئيسية بين التنظيمين الجهاديين، رغم أن الأولوية برأيهما هي لرصّ الصفوف ومهما كانت الأثمان.

على نقيض الزرقاوي، رأى بن لادن والظواهري، ورغم عدائهما الضمني للشيعة، أن الأولوية ليست لقتال الشيعة بل لقتال العدو البعيد (الولايات المتحدة). وجدير بالذكر أن زعيمي القاعدة لم يهاجما إيران علناً، ولا هاجما أبداً الشيعة الإيرانيين في أفغانستان أو الشيعة في السعودية. فالكثير من ضباط القاعدة، مع عائلاتهم، كانوا قيد الحجز المنزلي في إيران، ولم يشأ الرجلان أن يسعّرا نار المواجهة مع طهران لتلاقي مصلحة الطرفين في قتال الأمريكيين. كان هدفهما مهاجمة العدو البعيد وتأجيل المواجهة مع العدو القريب. فبعد غزو العراق الذي قادته الولايات المتحدة، دعا الرجلان العراقيين المسلمين، وغير العراقيين من كل الأعراق الإثنية واللغوية للاتحاد ومقاومة النظام الجديد العميل للأمريكيين في بغداد. كذلك أظهر بن لادن احتقاره للفروق الإثنية والطائفية والأيديولوجية في إدانته للعراقيين المتعاونين مع التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، بمن فيهم العرب السنّة، الذين اعتبر أن أحزابهم آثمة أيضاً. قال: «أدعو كل المسلمين، عموماً، والشعب العراقي خصوصاً، ألّا يدعموا القوات الصليبية الغازية وحلفاءها. من يتعاون مع الولايات المتحدة أو أذنابها، مهما كانت أسماؤهم وألقابهم، هم كفرة وكذلك من يدعم الأحزاب الكافرة مثل حزب البعث العربي الاشتراكي، ومثله الأحزاب الديمقراطية الكردية»[٤٤].

---

(٤٢) المصدر نفسه.

(٤٣) «Al Zarqawi Group Vows Allegiance to Bin Laden,» Associated Press, 17 October 2004, and Dan Murphy, «In Iraq, a Clear- Cut Bin Laden- Zarqawi Alliance,» *Christian Science Monitor*, 31/12/2004.

(٤٤) Bin Laden, «To the Muslims in Iraq in Particular and the [Islamic] Nation [Umma] in General».

من الواضح إذاً، أن بن لادن لم يكن من أنصار فكرة صراع أهلي سني ـ شيعي، على الأقل ليس الآن حيث الأفضلية هي لقتال المحتل الأمريكي. وليس غريباً بالتالي أن بن لادن كان متردداً في البدء حيال أي اندماج للتوحيد والجهاد مع القاعدة نظراً إلى طائفية الزرقاوي ودمويته اللتين لا تعرفان حداً. وفي الواقع، فقد حصل الاندماج بعدما أيّد عدد من علماء الدين الراديكاليين المعروفين دعوة الزرقاوي إلى الجهاد في العراق وأسلوبه في القنابل البشرية الانتحارية. ففي ٢٣ آب/أغسطس، ٢٠٠٤، نشرت القدس العربي نداء من ثلاثة وثلاثين عالماً، من بينهم العالم السنّي المعروف يوسف القرضاوي، بياناً أيدوا فيه المقاومة الإسلامية في العراق ضد «الحملة الاستعمارية الصهيونية ـ الأمريكية»[٤٥].

وعليه، ففي نهاية ٢٠٠٤، وضع بن لادن والزرقاوي، رغم تباين آرائهما، الخلافات جانباً ووّحدا صفوفهما. كان كل منهما يحتاج إلى الآخر لديمومة تنظيمه والنفاذ إلى «قلب العالم الإسلامي». فبالنسبة إلى بن لادن والظواهري، أصبح العراق «مكان أعظم معركة للإسلام في هذا العصر» ضد «رأس الكفرة» (الولايات المتحدة)، كما أن نجم الزرقاوي كان بدأ يلمع ويكتسب المزيد من الشعبية داخل الحركة السلفية الجهادية وخارجها. كان القائد الأردني الجريء والقاسي يخطف الأضواء من القائد السعودي الشهير، الذي عادت فاصطادته القوات الأمريكية لاحقاً.

كان الصعود السريع للزرقاوي، رغم مشاكله، ورقة النجاة لبن لادن والظواهري يدخلان من خلالها إلى الأمكنة الأكثر قدسية في الإسلام وإلى النقطة السياسية الأكثر سخونة (الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني)، والفرصة كذلك لتوسعة ساحة المواجهة مع الولايات المتحدة. وعليه أجاز للزرقاوي مهاجمة الأهداف الأمريكية[٤٦]، فهو قادر، ومن خلال تعيينه الزرقاوي أميراً على القاعدة في العراق، على استثمار النجاحات العسكرية هناك، وتجديد قاعدته المنهكة، وتعزيز جاذبية تنظيمه للجماهير العربية والمسلمة التي عارضت بشدة الاحتلال الأمريكي لأراض إسلامية. كانت تلك خطوة من بن لادن مربحة للطرفين، أمل من خلالها عكس الصورة السلبية التي يملكها المسلمون حيال المشروع الجهادي العالمي. كذلك، فقد استخدم الخطوة ليظهر نفسه كمدافع عن حقوق الفلسطينيين. وفي الواقع فقد تناقض الصعود السريع لشعبية الزرقاوي في الدوائر الجهادية في البلاد العربية مع الشك وفقدان الثقة اللذين صاحبا اندماج الزرقاوي مع قاعدة بن لادن[٤٧].

---

(٤٥) «شخصيات إسلامية وعلماء يدينون «الجرائم الأمريكية الصهيونية» في العراق وفلسطين،» القدس العربي، ٢٠٠٣/٨/٢٣.

(٤٦) Laura Jordan and Katherine Shrader, «Bin Laden Enlisting Al- Zarqawi for Attacks,» Associated Press, 1 April 2005.

(٤٧) هاني السباعي، «المقدمة،» في: منتصر الزيات، محرر، أيمن الظواهري كما عرفته (القاهرة: دار مصر المحروسة للنشر، ٢٠٠٢)، ومحمد الشافعي: «الظواهري يطرد قائدين جهاديين،» الشرق الأوسط، ٢٠٠٢/٦/٦، و«أوراق الظواهري السرية،» ج ١، الشرق الأوسط، ٢٠٠٢/١٢/١٣.

لم يكن الزرقاوي، وبخلاف بن لادن والظواهري، ذا خلفية ثرية بل من أسرة فقيرة. ولم يكن أيضاً رجلاً مثقفاً جداً ولا حتى عالم دين مهماً، بل مجرد أردني بدأ مسيرة تطرفه في بلده، ضد نظام حكمه. وكان ذلك كافياً ليجذب قلوب العديد من الشباب الذي تحوّل إلى السلفية في الوطن العربي ما سهّل قبول ادعائه السير على خطى النبي محمّد (ﷺ). وأسرّ صعوده غير المسبوق السلفيين الجهاديين ومنحهم المثال لجهاديين قادمين من الشرائح الاجتماعية الأكثر فقراً في المجتمعات العربية. ومنحته أصوله البدوية أيضاً مفتاح النجاح لصلات ثقافية وإثنية في المشرق العربي كانت تنقص بن لادن دائماً. وعليه كانت أفضليات الاندماج بين التوحيد والجهاد والقاعدة، حسب بن لادن والظواهري، تفوق سلبياته، وقد اعتقدا أن بإمكانهما بعد الاندماج تدجين وحشية ذلك البدوي.

لكن الزرقاوي، وبحسب فؤاد حسين، أفاد أيضاً من الاندماج الذي حوّله من مجرد قائد ميداني في العراق إلى قائد جهادي عالمي على قدم المساواة مع الآباء المؤسسين للسلفية الجهادية، أمثال عبد الله عزام وبن لادن والظواهري. وبالرغم من تردد الزرقاوي الأولي في الانضمام إلى القاعدة، إلا أن تخطيطها الحاسم لهجمات ٩/١١ وإحلال بن لادن والظواهري على رأس قائمة بوش للإرهابيين الأكثر طلباً لهم ساعدا التنظيم ليعزز من شرعيته وينشر أيديولوجيته داخل الأوساط الإسلامية، ما يعزز بدوره شرعية الزرقاوي وسلطته. كذلك، وفّر الدمج للزرقاوي خط تجنيد وتمويل ثابتين، وهو ما يحتاجه لتعزيز خططه للسيطرة على الحركة الجهادية واحتكار المقاومة السنية في العراق. وفي حين ساعده أصله البدوي في صِلاته المشرقية، جلب تقاربه مع القاعدة زيادة مهمة في مقاتليه أنصار القاعدة وقبل أن يصل التنظيم إلى نهاياته. فقد أتى عديدون من شبه الجزيرة العربية وشمال أفريقيا، كما جلب له تقديمات سخية من رجال أعمال عرب، الأمران اللذان عززا بقوة من شبكته. كان هبوب الريح لمصلحة شراعه، وقبل أي عامل آخر، هو ما حمل الزرقاوي على «إعلان الولاء الكامل لبن لادن»[٤٨].

تُظهر قصة زواج المصلحة بين بن لادن والزرقاوي بوضوح أن الجهاديين، وكلاعبين سياسيين، تقودهم المصالح أكثر مما تفعل الأيديولوجيا والدين. من جهة ثانية، ففي وسع الغرور والصراعات الشخصية أن يكونا عقبة حقيقية أمام تشكيل تحالفات راسخة. ومرة أخرى، حارب الجهاديون بعضهم بعضاً بالقوة نفسها التي حاربوا فيها أعداءهم، مضحّين بوحدتهم على مذبح الطموح السياسي الضيّق والمصلحة الشخصية. والعالم الجهادي، كما سيتضح لاحقاً، تملأه المنافسات السياسية والإقليمية، والأنانية، والتمزّق. والخطاب المثالي للحركة الجهادية العالمية طوباوي وخرافة ويخفي اهتمامات دنيوية بالسلطة والهيمنة.

في هذا المجال، ورغم أن الزعم وفّر شكلياً حيّزاً لبن لادن و«القاعدة» في العراق، فقد ظلّ شرخ كبير يفصل بين موقفيهما حول الوسيلة الفضلى لطرد الأمريكيين من العراق وتأسيس الإمارة

(٤٨) حسين، «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة،» ج ٣.

الإسلامية هناك. لم يؤدِ اندماج «التوحيد والجهاد» بـ «القاعدة» إلى تغيير في سلوك الزرقاوي، فاستمر في أساليب عمله العنيفة وفي استقلال عن شريكيه. ولعل صعود الزرقاوي المشهدي عائد بالدرجة الأولى إلى استخدامه المفرط للعمليات الانتحارية التي نفّذها، وبخاصة ضد الشيعة، ما أدى إلى تعميق الانقسام المذهبي داخل المجتمع العراقي. وكما اتضح من خريطة طريق مذكرة الزرقاوي إلى بن لادن والظواهري، فهو يضع الحرب ضد الشيعة في مقدم أهدافه، وهو خيَّر فعلاً قادة «القاعدة» بين الموافقة على خريطة طريقه أو الافتراق. وهو ما حدث. فبالرغم من بيعة الزرقاوي للقاعدة، فإن اندماج التوحيد والجهاد مع تنظيم بن لادن كان وفق شروطه. وعليه، وبالرغم من البيعة، فقد كان في وسع الزرقاوي استعادة استقلاليته ساعة يشاء.

وقعت رسالة مهمة من الظواهري، نائب بن لادن، إلى الزرقاوي في يد الأمريكيين بعد اعتقالهم مبعوث الظواهري صيف ٢٠٠٥. تُلقي الوثيقة الموقعة في ٩ تموز/يوليو ٢٠٠٥ المزيد من الضوء على طريقة تفكير بن لادن والظواهري وتظهر الخلافات الرئيسية التي قامت بين القاعدة المركزية وفرع الزرقاوي. وعليه فمن المفيد أن نورد نقاطها الأساسية. يبدأ الظواهري رسالته بامتداح شجاعة الزرقاوي وتصميمه على التصدي لأعداء الإسلام، وكذلك استراتيجيته المزدوجة؛ إزالة الاحتلال الأمريكي للعراق وتأسيس إمارة إسلامية فيه، أو خلافة، إذا أمكن. لكن لغة المخاطبة تتغيّر حين يذكّر الظواهري القائد الأردني أن «السلاح الأقوى» في أيدي الجهاديين هو «كسبهم لتأييد الجماهير الإسلامية في العراق، والبلدان الإسلامية المحيطة. وهكذا علينا المحافظة على ذلك التأييد إلى أقصى حد، بل علينا الكفاح من أجل المزيد منه». ويضيف الظواهري، في نقد ضمني لأساليب الزرقاوي، أنه بغياب التأييد الشعبي يسهل تدمير الحركة الجهادية؛ وعلى ذلك فالتحدي هو الاندماج بالجماهير الإسلامية لا الانسلاخ عنها: «ولا يبدو أن المجاهدين، أقلّه من «القاعدة في بلاد الرافدين» يمكن أن ينالوا السيادة من دون الشعب العراقي. لذلك، أؤكد ثانية، لك ولجميع إخوانك، الحاجة إلى توجيه العمل السياسي ويقدر العمل العسكري، بالتحالف والتعاون والتلاقي مع كل قادة الرأي والتأثير في الساحة العراقية. أكرر التحذير من الانفصال عن الجماهير وللمخاطر المحتملة الناتجة من ذلك»[٤٩].

يكشف مضمون رسالة الظواهري طائفية خريطة طريق الزرقاوي، التي ستجهض، حسب الظواهري، كل محاولات اكتساب قلوب الأمة وعقولها. ورغم قول الظواهري بأنه يوافق رؤية الزرقاوي للشيعة كأعداء، لكنه يحذّره من أن أكثرية المسلمين لا تفهم هذه المواجهة الحتمية ولا حتى بإمكانهم تخيّلها. وهو يحذّر الزرقاوي من أن المسلمين العاديين الذين يكبرون جهاده في العراق يعارضون الهجمات على الشيعة، وبخاصة على مساجدهم، وعلى الأخص على مصلّى مسجد الإمام علي بن أبي طالب. كذلك، يحض الظواهري شريكه الشاب على تجنب مهاجمة

(٤٩) Ayman al-Zawahiri, «Letter from al-Zawahiri to al-Zarqawi,» Combating Terrorism Centre, 2005, <http://www.ctc.usma.edu/v2/wp-content/uploads/2013/10/Zawahiris-Letter-to-Zarqawi-Translation.pdf>.

المصالح الشيعية والإيرانية، لأن مجموعات من المجاهدين وعائلاتهم هم إما موقوفون في إيران وإمّا قيد الإقامة الجبرية بعد فرارهم إلى إيران عقب الغزو الأمريكي لأفغانستان سنة ٢٠٠١. ومعنى الخطاب واضح، وهو أن هجمات الزرقاوي على الشيعة والمصالح الإيرانية سوف يستجلب ردّاً مضاداً من إيران على المجاهدين، نقطة تظهر بوضوح سياسة التعايش بين «القاعدة» وإيران. وبدلاً من مطالبة الزرقاوي، أو أمره مباشرة بالامتناع عن مهاجمة الشيعة، فهو يستعيض عن ذلك بطرح أسئلة عدة يسألها المجاهدون ومؤيدوهم، حسب قوله، حول صوابية معركة الزرقاوي مع الشيعة:

«أهو أمر لا يمكن تجنبه؟ أم هو شيء لا يمكن وضعه جانباً إلى أن يشتد عود حركة المجاهدين في العراق وتصبح أقوى؟ وإذا كانت بعض العمليات ضرورية للدفاع عن النفس، فهل كل العمليات ضرورية؟ أم أنه كانت هناك عمليات لا لزوم لها؟ وهل فتح جبهة أخرى الآن بالإضافة إلى الجبهة ضد الأمريكيين والحكومة قرار حكيم؟ أم أن هذه المعركة مع الشيعة ترفع العائق أمام الأمريكيين لوضع المجاهدين ضد الشيعة، فيما يستمر الأمريكيون بالسيطرة على الأمور عن بُعد؟ وإذا كانت الهجمات على قادة الشيعة ضرورية لوضع حد لمخططاتهم، فما ضرورة العمليات ضد الشيعة العاديين؟ ألا يقود ذلك إلى تعزيز الأفكار الخاطئة في رؤوسهم، ثم أليس واجبنا إيصال دعوة الإسلام إليهم وشرحها لهم لندلهم إلى الحقيقة؟ ثم هل يستطيع المجاهدون قتل كل الشيعة في العراق؟ هل حاولت أية حكومة إسلامية في التاريخ فعل ذلك؟ ثم لماذا قتل الشيعة العاديين ولماذا عدم مسامحتهم على جهلهم؟ ثم ما الذي نخسره إذا لم نهاجم الشيعة؟ ثم هل ينسى الإخوان أن لدينا أكثر من مئة سجين لدى الإيرانيين ـ بعضهم قياديون مطلوبون في بلدانهم؟ ثم إذا كنا ملزمين بفعل الضرورة على مهاجمة الشيعة فلماذا نجعل منها مسألة علنية، ما يجعل الإيرانيين يقدمون على خطوات مضادة؟ وهل ينسى الإخوان أننا والإيرانيين نحتاج أن نتوقف عن إيذاء بعضنا بعضاً في هذا الوقت الذي يستهدفنا فيه الأمريكيون؟»[٥٠].

ومن أجل تخفيف حدة العاصفة، يخلص الظواهري في ملاحظة شخصية قائلاً إنه تعلّم شخصياً أن الطريق الصعب هو تجنب ردّ الفعل وإبقاء التركيز على الهدف الرئيس: «ذلك درس تعلمته من خبرتي في حياتي، ولا أخفيك حقيقة أننا نعاني الكثير من هذه السياسة من ردّات الفعل، ثم نعاني مرة ثانية في محاولتنا العودة إلى الخط الأصلي»[٥١]. ويحذّر الظواهري الزرقاوي أيضاً أن قتله وذبحه الرهائن دعاية سيئة لا تخدم إلا أعداءنا. ويذكّره أن الإعلام الحربي مهم مثل المعركة في الميدان وأن الحركة الجهادية هي في سباق على قلوب الأمة وعقولها: «نستطيع قتل الرهينة برصاصة، ومن دون تعريض أنفسنا لأسئلة وشكوك واضطرارنا إلى الإجابة عنها. نحن بغنى عن ذلك»[٥٢]. وللمفارقة، يخلص الظواهري من رسالته بمطالبة الزرقاوي إيداع «القاعدة» مبلغ مئة ألف

(٥٠) المصدر نفسه.
(٥١) المصدر نفسه.
(٥٢) المصدر نفسه.

دولار لأن الولايات المتحدة قد قطعت كل مصادر التمويل، طلبٌ إن دلّ على شيء فعلى التبدّل في ميزان القوى بين التنظيم الأم والتنظيم الوليد، تنظيم الزرقاوي.

تُظهر المقارنة بين قادتي التنظيمين، بالإضافة إلى البيانات المعلنة أو المسرّبة من مؤيدين ثقة لهما، شرخاً فكرياً وعملانياً كبيراً بين المجموعتين حاول الطرفان ويحذر إبقاءه خارج التداول. إلا أنه مع تصعيد الزرقاوي المستمر للعنف والوحشية، بات من الصعب إبقاء الشرخ في المواقف أمراً سرياً. وقد وردَ جواب الزرقاوي الرسمي، وحض الظواهري، في تسجيل صوتي بعد عدة أشهر من إعلانه «الحرب الشاملة» ليس فقط ضد الشيعة بل أيضاً ضد السنّة الذين يشاركون في الحكومة العراقية التي أعيد تشكيلها[٥٣]. ولا يتضمن إعلانه أكثر مما كانت تفعله مجموعاته الانتحارية من إسالة للدماء. ففي خطاب التحدي منه في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥، قال الزرقاوي إن «تنظيمه قرر إعلان الحرب الشاملة ضد «الروافض» الشيعة في كل العراق، أينما كانوا،» و«ضد كل من يثبت انتماؤه إلى «الحرس الوطني» أو الشرطة أو الجيش، وكل من يثبت أنه متعامل مع الصليبيين أو عميل لهم سوف يقتل. وسوف يهدم أو يحرق منزله بعد إخراج الأطفال والنساء منه». بل هو هدد بذبح العشائر السنية إذا تعاونوا مع التحالف الأمريكي. هناك فقط، حسب الزرقاوي في خطابه، «معسكران ـ معسكر الحق وأتباعه، ومعسكر الباطل وشيعته. عليكم أن تختاروا في أي جانب أنتم»[٥٤].

سابعاً: نزعة الإبادة الزرقاوية ضد الشيعة

كان الزرقاوي طائفياً، مضطرباً نفسياً، وقد تبنّى نزعة إبادية ضد الشيعة. ففي مذكرة سياسات إلى بن لادن والظواهري التقطتها القوات الكردية ونشرتها وزارة الخارجية الأمريكية في شباط/فبراير ٢٠٠٤، يصف الزرقاوي الشيعة بالخطر الوجودي ويلجأ إلى الدين والتاريخ لتسويغ زعمه: «لقد حدّثنا القرآن عن الذين في قلوبهم مرض وهم أصل التطرف، ومزورو الركن الخامس، والذين يخدعون إخواننا بألسنتهم وكلامهم المعسول بينما الشيطان في قلوبهم ـ الذين في قلوبهم مرض ـ وهو سر إحباطنا، هم ومن يشبههم. هم العدو. احذروا منهم. حاربوهم. لقد نطق شيخ الإسلام ابن تيمية بالحق والكرامة حين قال ذلك»[٥٥]. ويكمل الزرقاوي، فيصف الشيعة «بالعقبة الكأداء، الأفعى المتربصة، الماكرين، والعقرب الخبيث، العدو الجاسوس، والسم المتغلغل»[٥٦]. ينتمي الزرقاوي إلى موجة جديدة من السلفيين الجهاديين المأخوذين بسياسات الهوية والكفاح لتنقية الإسلام وأراضي الإسلام من المرتدين. وهكذا يتصدر الشيعة حسب هؤلاء لائحة الأعداء الحقيقيين أو المتخيَّلين.

---

(٥٣) Abu Musab al-Zarqawi, «Leader of Al-Qaeda in Iraq Al-Zarqawi Declares «Total War» on Shi'ites,» Middle East Media Research Institute (2005), <http://hdl.handle.net/10066/4810>.

(٥٤) المصدر نفسه.

(٥٥) Al-Zarqawi, «Musab al-Zarqawi Letter Obtained by United States Government in Iraq».

(٥٦) المصدر نفسه.

يشرح الزرقاوي في مذكرته أنه يستند إلى «المستشرقين» ليصف المسلمين الشيعة بالخيانة، في تحللهم من الركن الخامس في الإسلام، ثم يتهمهم بإعاقة تحرير الجيوش الإسلامية لأوروبا. ومن المفيد أن نستلّ من نص الزرقاوي بعض المقاطع الطويلة كي نأخذ فكرة دقيقة عن طريقة تفكيره:

«تحدث أحد المستشرقين بالحق حين قال إنه لو لم توجد الدولة الشيعية الصفوية لكانت أوروبا تقرأ القرآن اليوم كما يفعل بربر الجزائر. نعم توقفت جيوش الدولة العثمانية على أبواب فيينا، وكانت تحصيناتها لتنهار تقريباً تحت سيوف المجد ويعم الجهاد أوروبا. لكن هذه الجيوش أُجبرت أن تنسحب وتعود على وجه السرعة لأن الجيش الصفوي احتل بغداد، أزال مساجدها، قتل سكانها، أسر نساءها وثروتها. عادت الجيوش لتدافع عن المقدسات الإسلامية والمسلمين. استعر القتال الشديد لحوالى القرنين ولم ينتهِ حتى استُنزف حولُ الدولة الإسلامية وصولها فمالت إلى الضعف ثم غطّت في سباتها، ولتستيقظ لاحقاً على وقع طبول الغزاة الغربيين»[٥٧].

كان الهدف الاستراتيجي للزرقاوي منذ البدء إطلاق حرب سنّية ـ شيعيّة شاملة لتعبئة واستنهاض الرأي العام السنّي. في ملخص السياسات، يتحدث الزرقاوي بوضوح أنه يضع في المقدم الحرب ضد الشيعة وأنه يلتزم مهاجمة أهداف مدنية ودينية، ليستجلب رداً شيعياً ضد السنّة. وهو ما سيجلب الصحوة للسنّة من سباتهم ويجبرهم على الانضمام إلى الحرب: «الحل كما نراه.. هو دفع الشيعة إلى المعركة، لأنه الطريق الوحيد لتوسعة القتال بيننا وبين الكفّار»[٥٨]. ومع أن الأمريكيين يمثلون العدو الرئيسي، إلا أن الشيعة حسب الزرقاوي يمثلون تهديداً أكثر خطراً وتدميراً على الأمة. فهم وبحسب بيان للتنظيم: «قد والوا الأمريكيين ودعموهم ووقفوا ضد المجاهدين. وهم فعلوا كل ما في مقدورهم ولا يزالون ليقضوا على الجهاد والمجاهدين»[٥٩]. ولم يكتفِ الزرقاوي باستهداف الشيعة والأقليات عموماً بل منافسية السنّة أيضاً، وهو يبرر القتل الجماعي للمسلمين وذلك «من أجل دفع شر أكبر وتحديداً شر توقف الجهاد»[٦٠].

ومن غير الصعب ملاحظة أن موقف البغدادي من الشيعة هو امتداد لرؤية «التوحيد والجهاد»؛ فـ «داعش» و«التوحيد والجهاد» أو «القاعدة في العراق» يتشاركان الرؤية نفسها. كلاهما ينتمي إلى جيل الجهاديين الذين ينظرون إلى الشيعة لا كمرتدين فحسب، بل أيضاً كـ «خنجر» في قلب العالم الإسلامي. وكلاهما يذهبان بعيداً في لوم الشيعة لتقهقر الحضارة الإسلامية، يبنون جميعاً على الأحكام الملتهبة وفتاوى الشيخ المتطرف المثير للجدل، شيخ الإسلام ابن تيمية، العالم المحافظ إلى أقصى حد في القرن الثاني عشر الذي قدّم تفسيراً سنّياً نقياً للإسلام وكان له التأثير الكبير في

(٥٧) المصدر نفسه.
(٥٨) المصدر نفسه.
(٥٩) المصدر نفسه.
(٦٠) Middle East Media Research Institute, «Abu Mus'ab Al-Zarqawi: Collateral Killing of Muslims Is Legitimate,» <http://www.memri.org/bin/opener.latest.cgi?ID=SD91705> (posted on 7 June 2005).

حركات إسلامية معاصرة من مثل الوهّابية، السلفية، والجهادية. ويُنقل عن ابن تيمية وصفه الشيعة بأنهم «أكثر شرّاً من باقي الملل ويستحقون الحرب أكثر من الخوارج» دليلاً على الكراهية الزائدة واللاعقلانية[٦١].

بعث الزرقاوي بموجات من الانتحاريين الذين استهدفوا المدنيين الشيعة وأماكنهم المقدسة، مستحضراً ردوداً عنيفة من الميليشيات الشيعية. لكن استراتيجيته لم تفعل أكثر من زيادة الشرخ الذي حال دون قيام تحالف سني ـ شيعي؛ تحالف كان سيضع الحرب الوطنية في المقدمة، ويدفع بالإسلاميين إلى الخلف في القتال من أجل مستقبل العراق. وكان قد حدث شيء من ذلك التحالف في خلال الأحداث التي شهدتها البلاد في العشرينيات في خلال الانتفاضة الوطنية العراقية ضد البريطانيين[٦٢]. وعليه، يبدو صراع الزرقاوي ضد الشيعة في العراق كما لو كان، بمعنى ما، صراعاً على السلطة وكموقف عام تقوده سياسات الهويّة.

ثامناً: توحّش القاعدة في العراق: خريطة طريق لجيل ما بعد القاعدة

خلُص تقرير «المجلس الوطني للاستخبارات» (NIC) في الولايات المتحدة لسنة ٢٠٠٥، الذي اشترك في تحريره ألف متخصص من الولايات المتحدة والخارج، إلى التوقع والتحذير من أن السنّة العراقيين سوف يوفرون الجيل القادم من «الجهاديين» المحترفين، جيل سوف يحلّ محل الموجة السابقة التي تدرّبت في أفغانستان[٦٣]. وفي صدى للنتائج التي انتهى إليها الحلفاء في الولايات المتحدة في دراستهم، قالت «لجنة الشؤون الخارجية» في مجلس العموم البريطاني، «لقد أصبح العراق ساحة النزال للقاعدة مع ما في ذلك من تداعيات كارثية على الشعب العراقي»[٦٤]. والمضحك أن مسؤولي استخبارات الولايات المتحدة وأجهزة أمنها قد أدركوا ـ ولو متأخرين ـ الآثار التي ستترتب على الاحتلال، الذي قادته الولايات المتحدة على العراق ثم الحرب التي تلت، وعلى مضاعفة التطرف داخل البلاد وخارجها. فقد اعترف نائب الأميرال لويل جاكوبي، مدير وكالة استخبارات وزارة الدفاع (DIA) أمام لجنة الاستخبارات المنتقاة في مجلس الشيوخ سنة ٢٠٠٥

(٦١) عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد الثامن والعشرون: الجهاد (المدينة المنورة: مجمع الملك فهد للطباعة، ٢٠٠٤)، ص ٤٨٢، <http://d1.islamhouse.com/data/ar/ih_books/chain/ Fatawa_Ibn_Taymiyyah/mfsiaitm28.pdf>.

(٦٢) Aula Hariri, «The Iraqi Independence Movement: A Case of Transgressive Contention,» in: Fawaz Gerges, ed., *Contentious Politics in the Middle East: Popular Resistance and Marginalised Activism beyond the Arab Spring Uprisings* (New York: Palgrave Macmillan, 2015).

(٦٣) Douglas Jehl, «Iraq May Be Prime Place for Training of Militants, C.I.A Report Concludes,» *New York Times*, 22/6/2005; Dana Priest, «Iraq a New Terror Breeding Ground,» *Washington Post*, 13/1/2005; Dana Priest and Josh White, «War Helps Recruit Terrorists, Hill Told,» *Washington Post*, 17/2/2005; David Morgan, «Iraq Conflict Feeds International Threat-CIA,» Reuters, 16 February 2005, and «Iraq Warns Neighbors of Terror Threat,» Agence France Presse, 10 July 2005.

(٦٤) «Iraq Now an Al- Qaeda Battleground, British Report Says,»Agence France Presse, 29 July 2004.

بأن: «سياساتنا في الشرق الأوسط تزيد من كراهية المسلمين لنا»[٦٥]. والأمر عينه ورد في تقييم سرّي لوكالة الاستخبارات الأمريكية، إذ لاحظ أن العراق يمكن أن يصبح ساحة تدريب للمقاتلين أكثر أهمية مما كانت عليه أفغانستان في الأيام الأولى للقاعدة، فهو يوفر مختبراً حيّاً لقتال المدن. كذلك صرح مديرا الاستخبارات في عهد بوش، بورتر غروس وجورج تينيت، للكونغرس أن الحرب في العراق قد ولّدت «الموجة القادمة» من الإرهاب التي سوف تستمر «للأمد المنظور من المستقبل مع القاعدة أو بدونها»[٦٦].

وبينما مثّلت المعتقلات العراقية والأمريكية في العراق الحاضنة التي خرج منها التطرف، فقد وفّرت سياسات التهميش الطائفي من طرف الأمريكيين والحكومة العراقية التي مورست ضد السنّة العراقيين بُعيد الغزو والاحتلال الأمريكيين للبلاد سنة ٢٠٠٣ المناخ المناسب لولادة القاعدة من جديد في العراق على نحو أكثر تطرفاً. كان بالإمكان التغلب على المشكلات الناشئة لو وضعت النخبة الحاكمة الجديدة المصلحة الوطنية في رأس اهتماماتها وتعلّمت من الدرس المرّ الذي انتهى إليه النظام السابق في العراق. لكن تلك النخبة أخفقت، ومعها الشعب العراقي الذي عانى دورة لا نهاية لها من الحروب القاسية والمدمّرة والعقوبات الاقتصادية المكلفة. مع ذلك، فإن قلة فقط توقعوا تأثير التداعيات البعيدة الأمد لتوحش الزرقاوي الممنهج في ظهور الجيل القادم من السلفيين الجهاديين، الذي سيجلب للعراق وسواه ما لم يكن متخيّلاً من التدمير والرعب.

يبحث أبو عبد الله المنصور العيساوي، قائد «جيش المجاهدين» ـ وهو تنظيم مسلّح سلفي جهادي آخر في العراق ـ في كتابه الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم بكثير من التفصيل الأساليب التي استخدمها الزرقاوي ومَن خلَفه. كان العيساوي أحد الفقهاء المقربين المرشدين للزرقاوي في العراق، وهو يعرف أيضاً الأشخاص الذين تولوا قيادة شبكة الزرقاوي بعد وفاته، أبو حمزة المهاجر، أبو عمر البغدادي، وأبو بكر البغدادي. يذهب المؤلف في كتابه إلى أن الزرقاوي وأركانه استخدموا التكفير كسلاح. لقد كانوا تكفيريين بامتياز، يقول العيساوي الذي كثيراً ما استضاف الزرقاوي وخلفاءه في منزله، وقد استخدموا التكفير كأداة في خدمة أجندتهم الأيديولوجية. كذلك قضى العيساوي سنة ٢٠٠٥ بعض الوقت مع أبي بكر البغدادي وأعلى ضباط «داعش» في معسكر بوكا، السجن غير المشهور الذي كانت تديره الولايات المتحدة بالقرب من أم قصر في جنوب العراق[٦٧]. وفي الوقت الذي يمتدح فيه العيساوي شجاعة الزرقاوي، نراه يقدّمه كرجل بالغ التطرف والتشدد، ويأخذ عليه استهدافه، مثلاً، رجال الشرطة كافة بل «كل من يرتدي بزة زرقاء» بمن فيهم شرطة

---

(٦٥) Bob Herbert, «Iraq Then and Now,» *New York Times*, 21/2/2005, <http://www.nytimes.com/2005/02/21/opinion/21herbert.html?pagewanted=print&position>.

(٦٦) «Rumsfeld Questions Terror War Progress,» Associated Press, 22 October 2005; 1 November 2005; 25 February 2005; 26 April 2005, and 25 May 2004.

(٦٧) أبو عبد الله محمد المنصور العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم ([د. م.: د. ن.]، ٢٠١٤)، ص ١ ـ ١٦٧. انظر أيضاً: عبد الواحد الأنصاري، «مبادئ الجماعات الإسلامية المسلحة تسقط في «تجربة الدولة».. «داء التفسخ» يصيبها،» الحياة، ٢٠١٤/١١/١٩.

المرور. وحين ضغط عليه المرشد ليقدّم مبرراته، ردّ الزرقاوي، «إذا طلب الصليبيون [الأمريكيون وحلفاؤهم] من رجل الشرطة قتال المجاهدين فسيفعل»، وعليه، فقتله مبرر. ويشرح العيساوي كيف ردّ على الزرقاوي قائلاً له إن منطقه خطأ، و«أنت لا يمكنك اتهام كل الناس على قاعدة الشك والنوايا»[٦٨]. ومع ذلك، يخلص العيساوي إلى أن الزرقاوي كان أقل انحرافاً في أفكاره من معاونيه وأفضل من أبي بكر البغدادي[٦٩]، المتهم بأعمال القتل في تنظيم القاعدة، خليفة الزرقاوي، والأكثر تطرفاً منه.

رغم حقيقة أن العيساوي يجعل الزرقاوي أفضل من معاونيه الثلاثة وأقل تطرفاً منهم، إلا أنه يأخذ عليه أن قتله المسلمين كان مبنياً على أسس باطلة وعلى تلاعب بنصوص الشريعة من أجل تبرير حكم الرعب الذي ساد العراق بالاستناد إلى تفسير قاصر للسنّة. وفي ما هو أكثر سوءاً، فقد رفض الزرقاوي ومعاونوه وخلفاؤه الإصغاء إلى نصائح علماء دين محترمين، بل ذهبوا بعيداً وتكراراً في انتقاد هؤلاء العلماء وحتى أخذهم بالاتهام في مجرى تطرفهم. يشبّه العيساوي هؤلاء بالخوارج، الجماعة المتطرفة التي ظهرت مطلع الإسلام، وكفّرت المسلمين جميعاً. ويذهب العيساوي، الذي أعطى الزرقاوي ومعاونيه دروساً دينية، إلى أن تفكيرهم هو «خوارجي» أكثر مما هو إسلامي، ويأخذ عليهم عنفهم الذي لا يميّز بين العراقيين بسبب قلة دعمهم للسلفيين الجهاديين. وهو صريح في دفاعه عن «العمليات الاستشهادية» ولا ينظر إليها باعتبارها «عمليات انتحارية»، لكنه ينتقد الاستخدام العشوائي والمجّاني لها والذي سمّم موقف الرأي العام من القاعدة كما من الحركة الجهادية عموماً. وهو يكشف أن التنظيم أعدم أعداداً من الجهاديين المنافسين ومن زعماء العشائر ورجال الدين السنّة الذين أيدوا المقاومة المسلحة ضد القاعدة. وكما سنرى في الفصل التالي، فإن عدة قادة قبليين في المثلث السني، وبعدما كانوا في البدء في صف القاعدة، سرعان ما تحوّلوا ضدها، لخلافات حول الاستراتيجيا وحول خططها في المثلث السنّي، فتعاونوا وتحالفوا مع قوات التحالف[٧٠].

تلقي شهادة العيساوي، من قرب، الضوء على المسائل الأصلية التي جعلت السنّة العراقيين يتمردون على القاعدة في العراق، انطلاقاً من معارضتهم الأساليب الزرقاوية الوحشية والإرهاب الذي جلبه لمجتمعهم وأغرقه في صراع مذهبي، مع كل التداعيات الكارثية التي نتجت منه. وفي حين دعم بعض العراقيين المقاومة المسلحة ضد قوات التحالف الذي قادته الولايات المتحدة، إلا أنهم عارضوا منذ البدء ـ ورغم الانقسام الطائفي القائم ـ الهجمات التي تستهدف المدنيين. إلى ذلك، فإن قصف قوات التحالفِ معاقلَ المقاومة السنية، كذاك الذي جرى في الفلوجة أواخر ٢٠٠٤، قد قاد إلى مغادرة أعداد من الناس لمنازلهم ومدنهم. وفي النتيجة، نزح عشرات ألوف السنّة المحتاجين للسكن إلى بغداد باعثين هناك أزمة إنسانية متفاقمة. ومع تزايد عدد السنة

(٦٨) العيساوي، المصدر نفسه، ص ٩٦ ـ ٩٧.
(٦٩) المصدر نفسه، ص ٧ و٩٧.
(٧٠) المصدر نفسه، ص ٩٦ ـ ١٥٤.

المهجّرين إلى بغداد، بدأت الجماعات السنية المسلحة في العاصمة باستهداف ممنهج للجماعة الشيعية، ولأسباب متصلة بتعاون قوات الحكومة التي يقودها الشيعة مع قوات التحالف الأمريكية في الهجوم الذي جرى على الفلوجة ومدن سنّية أخرى.

نزح الشيعة بفعل حملات الترهيب أو التهجير القسري من مناطق عدة، وقصد كثيرون منهم مدينة الصدر المكتظة أو المدن الشيعية الأخرى، فيما اشتدت وتيرة الصراع المذهبي على الضفتين. وذروة الهجمات تلك كانت تفجير الجهاديين السنّة «للقبة المذهَّبة» في سامراء. كانت تلك نقطة تحوّل في تصاعد درجة ردّ الشيعة ضد العنف السنّي. كانت أعنف الردود الشيعية في بغداد، حيث تحوّلت الميليشيات الشيعية إلى فرق موت. ولم يتورع الطرفان عن استخدام القنابل البشرية الانتحارية بعضهم ضد بعض، ما حوّل بغداد إلى ساحة حرب أهلية دموية(٧١).

خيّل للزرقاوي مع نجاحات سنة ٢٠٠٤ الأولية أن الرياح تهب مع أشرعته، لكنه سرعان ما اكتشف أن أكثرية السلفيين المحليين قد قابلوا مشروعه ببرودة معتبرين أن الأولوية هي للحرب ضد الاحتلال. وبتجاهله للتذمر المتزايد من أعماله في قاعدة عملياته ـ المثلث السنّي ـ ارتكب الزرقاوي خطأه الاستراتيجي القاتل أو القاعدة الأساس لعمل الانتفاضات المسلحة: لقد غدا تدريجاً معزولاً عن الدعم الشعبي. وقد توقع بن لادن والظواهري مسبقاً هذه العزلة المتزايدة، بل رأوا فيها بداية تدمير الزرقاوي لنفسه، فحذراه محاولين دون جدوى عكس الاتجاه الكارثي الذي اندفع فيه. ولكن الزرقاوي كان في الواقع متسقاً مع منظومة معتقداته الخاصة، وأهم من ذلك، كان ينتمي إلى موجة جديدة من الجهاديين الذين يملكون أولويات استراتيجية تختلف عن تلك التي تملكها القاعدة المركزية.

لم يكن لديه موانع تحول دون انخراطه في حمامات دم جماعية، بما فيها ضد إخوانه المسلمين، ولتتوسع دائرة عنفه الأعمى خارج حدود العراق. جلب عنف الزرقاوي الأعمى والعشوائي (الذي تعوّدنا عليه لاحقاً مع أساليب «داعش») الكثير من نقد بن لادن والظواهري له. ومع ريادته في أسلوب قطع رؤوس أسراه، أطلق عليه عدد من المراقبين لقب «شيخ الجزّارين»، في إشارة إلى درجة انخراطه في ذبح ضحاياه(٧٢).

في هذا الوقت، أثار الزرقاوي في الأردن تنديداً واسعاً، حين قام انتحاريون، بأمر منه كما قيل، بتفجير ثلاثة فنادق يملكها أمريكيون في عمّان(٧٣). خرج الكثير من الأردنيين إلى شوارع العاصمة ليحتجوا على نهج الزرقاوي، وحمل بعض المتظاهرين لافتات كتب عليها: «لماذا؟»، في إشارة

---

(٧١) «Iraqi Death Squads «Not Police»,» BBC News, 12 April 2006, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/4901786.stm>; Mona Mahmood [et al.], «Revealed: Pentagon Link to Iraqi Torture,» *Guardian*, 6/3/2013, <http://www.theguardian.com/world/2013/mar/06/pentagon-iraqi-torture-centres-link>, and Michael Schwartz, *War without End: The Iraq War in Context* (Chicago, IL: Haymarket Books, 2008).

(٧٢) Al-Zawahiri, «Letter from al-Zawahiri to al-Zarqawi».

(٧٣) Hassan S. Fattah and Michael Slackman, «Three Hotels Bombed in Jordan; at Least 57 Die,» *New York Times*, 10/11/2005, <http://www.nytimes.com/2005/11/10/international/middleeast/10jordan.html?r=0>.

إلى استهجان المتعاطفين معه لاستهدافه بلده، فيما كان الكثيرون منهم يدعمون المعركة الجهادية في العراق[٧٤]. وكان للتفجيرات تداعياتها السلبية على «القاعدة»، بحيث بات أردنيون كثر يعتبرونها علناً تنظيماً إرهابياً[٧٥].

وفي حدود سنة ٢٠٠٧ كانت هذه الاستراتيجية نقطة التحول التي جعلت الرأي العام العراقي في معظمه ضد «القاعدة في العراق». فهجمات الزرقاوي ضد الشخصيات والرموز السنية الدينية والقبلية والمقاومة، كهجومه على تنظيم «جيش الإسلام» وسواه، فجّرت موجة معارضة محلية واسعة ضد أساليبه الوحشية والغطاء التكفيري الذي يغلّفها. كانت الهجمات تلك في الجوهر حرباً سنية ـ سنية، بدأت قبل ذلك، وستستمر طويلاً بعد موت الزرقاوي. لقد أضعفت تلك الحرب الداخلية تنظيمه، وقطعت الصلات التي تربطه بالمجتمع المحلي. ورغم أن الأمريكيين كانوا قد نجحوا بواسطة بالمال والسلاح في انتزاع تعاون سنّة كثيرين معهم بين سنتي ٢٠٠٦ و٢٠٠٨ وجعلوهم يقاتلون القاعدة في العراق تحت اسم «أبناء العراق» أو «الصحوات»، وهي تجربة بدأت في محافظة الأنبار السنية، إلا أن الدافع لذلك لم يكن في الواقع غير الرغبة الجماعية في طرد شبكة الزرقاوي من المناطق ذات الأغلبية السنية. لقد ذهبت «القاعدة في العراق» إلى حتفها على يد السنّة الذين كانوا قد استقبلوا في البدء الزرقاوي ورجاله وبالترحاب باعتباره جزءاً من المقاومة ضد الاحتلال وعلى رأسه الولايات المتحدة. إلا أنه مع مرور الزمن، وانكشاف مشروع الزرقاوي وتكتيكاته الطائفية، التي لا علاقة لها بالاستراتيجية الأصلية، انفضّ عنه التأييد الشعبي وعن مشروع شبكته الجهادية. لقد أضحى جلياً وبسرعة أن مواقف الزرقاوي وأفعاله هي على تناقض مع التطلعات السياسية للأكثرية السنية الصامتة. ولم تتوقف تداعيات الاصطدام ذاك عند حدود العراق بل تجاوزتها إلى أنحاء مختلفة من الوطن العربي.

إضافة إلى خسارة الدعم الشعبي، كان على بن لادن أن يستمع إلى النقد العلني من بعض مرشديه الأكثر قرباً منه الذين لاموا القاعدة لتحويلها جيلاً من الشباب غير المجرّب إلى قنابل تسير على قدمين وتحدّوا سلطته في التحدّث باسم الإسلام. إلا أن بن لادن والزرقاوي، تحت وطأة إمكانات ضغط متدنية، لجأ إلى لغة لطيفة في إقناع الزرقاوي بتغيير أساليبه الخطرة والعودة إلى خط القاعدة الأصلي. تنبه بن لادن والظواهري الزرقاوي أن اللجوء إلى استراتيجية الإبادة العشوائية سوف يجعله يفقد قلوب المسلمين وعقولهم وينفضّ التأييد الشعبي من حوله. وحين يسترجع المرء أحداث الفترة السوداء تلك بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٦ (قتل الزرقاوي في ٨ حزيران/يونيو ٢٠٠٦)، فسيعثر على نقاط تشابه صارخة بين آراء الزرقاوي وتصرفاته وبين آراء البغدادي وتصرفاته و«الدولة الإسلامية» لاحقاً. وفي النهاية فقد ورثت «الدولة الإسلامية» من «القاعدة في العراق» هذه التركة الدموية الثقيلة، وهي ليست واقعاً غير امتداد لتنظيم الزرقاوي. وعليه، يمكن النظر إلى التنظيمين كوجهين لعملة واحدة، مع فارق في الدرجة، لا في التكتيكات أو المشروع. كلاهما غاصا في

=

(٧٤) Fawaz Gerges, «Buried in Amman's Rubble: Zarqawi's Support,» *Washington Post*, 4/12/2005, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2005/12/02/AR2005120202370.html>.

(٧٥) المصدر نفسه.

عروض التوحش والعنف المشهدية، وكلاهما اعتبرا الشيعة زنادقة، وكلاهما سعَيا إلى التخلص منهم، وكلاهما أخيراً له تفسيره الواسع للتكفير الذي يذهب أبعد كثيراً مما كان فعله بن لادن والظواهري.

وفي نظرة إلى التباعد في الشخصية بين حارس القاعدة المركزية التاريخي وبين الزرقاوي ومن بعده زعيم «داعش» الحالي، البغدادي، يبدو أن هناك فارقاً أيديولوجياً أيضاً ظهر إلى العلن بُعيد مقتل بن لادن في أيار/مايو ٢٠١١. فبينما يشارك الجيل الجديد من الجهاديين «القاعدة» موقفها العام، إلا أن هذا الجيل احتفظ بهويته الخاصة ولم يرَ نفسه ملزماً بتنظيم الآباء. على سبيل المثال، فبالرغم من مبايعة الزرقاوي لبن لادن، إلا أنه لم ينفّذ أوامره؛ ومثله خليفته البغدادي، الذي نفّذ انقلاباً على أميره السابق، الظواهري، وعمل من دون كلل على إقناع فروع القاعدة المركزية بنقل ولائها والانضمام إلى «الدولة الإسلامية». وقد فعل بعضهم ذلك. جيل أو موجة «ما بعد القاعدة» يبدو معنياً بالفعل والصدمة والرعب، أكثر مما هو معني بالنظرية وبالفتاوى. وبرأيهم فصدى الصدمة والذبح وإسالة الدم أعلى كثيراً من صدى الكلمات. لقد أعلن الزرقاوي والبغدادي وأصحابهما حرباً شاملة من دون حدود. وعلى نقيض تعاليم الآباء المؤسسين للحركة الجهادية، المنظّر سيّد قطب، ومن بعده الجيل الأول، يبدو كل من الزرقاوي والبغدادي فقهياً أمّيين ولم يُظهرا إلا القليل من الاهتمام باستمالة دعاة أو علماء معروفين إلى معسكرهما. إن ما يميّز موجة ما بعد القاعدة عن سابقتها هو فقرها الفكري. وفي الحقيقة فإن المرجعية الفقهية للحركة الجهادية انتقدت باستمرار وبعنف تطرف الموجة الجديدة باعتبارها انحرافاً عن الإيمان، كما عن الأيديولوجيا السلفية الجهادية، الأمر الذي يشي بالكثير عن الخلافات بين الجهاديين. ويتفق الآن الظواهري وعلماء ذوو سمعة عالية مع العيساوي في وصفه البغدادي وأتباعه بالخوارج الجدد(٧٦). في بالمقابل، يردّ جيل ما بعد القاعدة بوصف كبار السن فيها بالجبناء الذين فقدوا إيمانهم بالقضية الجهادية. وهم يصفون أنفسهم بالطليعة الحقيقية للأمة السنّية، ويحاولون تنقية أراضي الإسلام من الكفّار والفساد المعنوي وإقامة الخلافة(٧٧).

---

(٧٦) في خطاب آخر له بعد مقتل ممثل القاعدة سوريا أبو خالد السوري والذي اغتاله داعش في شباط/فبراير ٢٠١٤، يشير الظواهري ضمناً، إلى البغدادي «زعيم الخوارج». انظر: «Al- Zawahiri Says that the Grandson of al-Khawarij and His Gang Who Killed Abu Khaled Al-Surri God Bless Him Would Be Doomed,» YouTube, 11 May 2015, <http://www.youtube.com/watch?v=VWdc-aZMCKU>.

وفي مقابلة مع قناة «الجزيرة»، يصف زعيم فرع القاعدة في سوريا «جبهة النصرة» أبو محمد الجولاني أفراد «الدولة الإسلامية» بالخوارج. انظر: «زعيم «جبهة النصرة» يصف أعضاء تنظيم «الدولة الإسلامية» بأنهم «خوارج»،» فرنس ٢٤، ٤ حزيران/يونيو ٢٠١٥، <http://goo.gl/liJ0VT>.

انظر أيضاً: العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم، ص ٩٦ ـ ١٥٤، وعثمان بن عبد الرحمن التميمي، «إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام،» مؤسسة الفرقان، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، ص ٢٤ و٢٦، <http://www.slideshare.net/yaken0/ss-5927504>.

(٧٧) أبو محمد العدناني الشامي، «عذراً أمير القاعدة،» مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٤، <https://justpaste.it/othran>، وأبو محمد العدناني، «مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي تقدم: «هذا وعد من الله» =

حين كان بن لادن حيّاً، لم يكن في وسع الزرقاوي وآخرين غير إعلان البيعة له، وإن كان وفق قاموسهم الخاص. فقد تسلّموا زمام المبادرة وأنشأوا أجندتهم المحلية المستقلة التي تخدم مصالحهم وطموحاتهم، ومعتقداتهم المتعصبة، ولكن من دون أن يقطعوا حبل وريدهم بكبارهم. أما مع موت بن لادن، فقد تيتمت القاعدة المركزية، وفقدت قائدها الذائع الصيت، ومرساتها وتوازنها. ولأن البعض نظر إليه كمتردد وضعيف، لم يستطع الظواهري، خليفة بن لادن، أن يوحي بالثقة أو الولاء بين الجهاديين من وزن ما كان عليه بن لادن. على سبيل المثال فقد تحدى البغدادي الظواهري بإعلان نفسه خليفة الدولة الإسلامية. بل لقد أظهر البغدادي وحلقته الداخلية ازدراءهم العلني للظواهري باستخدامهم غير مرة تعبير «قاعدة الظواهري»، مع ما في ذلك من تحدٍّ معنوي وسياسي لسلطته[٧٨].

تاسعاً: مقتل الزرقاوي والفترة الانتقالية ٢٠٠٦ ـ ٢٠١٠

في الوقت الذي قتل الأمريكيون الزرقاوي، في حزيران/يونيو ٢٠٠٦، كان الرجل قد خسر قلوب وعقول عرب كثيرين، وخصوصاً العراقيين، معرّضاً وجود تنظيمه لخطر حقيقي. كان سقوط تنظيمه الوشيك غير بعيد من زمن موته. فإرساله مئات المفجّرين الانتحاريين، وأعمال الخطف وقطع الرؤوس حوّلت كلها أكثرية العراقيين والمسلمين ضد «القاعدة في العراق» والقاعدة المركزية على حد سواء. وفيما ربح التمرد السنّي رهانه ضد القاعدة في العراق، أدان علماء مسلمون كثر في طول الوطن العربي وعرضه علانية، ومن بينهم مرشد الزرقاوي نفسه، المقدسي، أساليب الزرقاوي الوحشية والغطاء التكفيري الأيديولوجي. ففي صيف ٢٠٠٥، أنّب المقدسي علانية الزرقاوي، رفيقه في المعتقل في الأردن في التسعينيات، وتلميذه السابق، لأعماله الإرهابية ضد المدنيين؛ ففي سلسلة مقابلات له ـ من بينها واحدة على شبكة الجزيرة الفضائية ـ انتقد المقدسي أعمال العنف ضد المدنيين باعتبارها تفتقد المبرر الشرعي وتسيء إلى مصالح الأمة بل وتسيء إلى صورة الإسلام. ذكّر المقدسي الزرقاوي أن عملياته الاستشهادية يجب أن تنفّذ تحت شروط محددة واستثنائية. وحذّره أيضاً من أنه بفقدانه التقييم الصحيح

= الشيخ أبو محمد العدناني الشامي (حفظه الله)،» اليوتيوب، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٤، <http://www.youtube.com/watch?v=Uen14MVYNqk>.

انظر أيضاً بالنسخة الإنكليزية: Abu Mohmmed al-Adnani, «This Is the Promise of Allah,» 19 June 2014, <http://triceratops.brynmawr.edu/dspace/bitstream/handle/10066/14242/ADN20140629.pdf?sequence=1>.

انظر أيضاً بيانات الدعائية للمسؤول الإعلامي في تنظيم «داعش»: أبو همام بكر بن عبد العزيز الأثري، «مد الأيادي لبيعة البغدادي،» منبر التوحيد والجهاد (تموز/يوليو ٢٠١٣)، <https://archive.org/details/baghdadi-001>.

انظر أيضاً: أبو حسن الأزدي، «موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام،» مؤسسة المأسدة الإعلامية (آب/أغسطس ٢٠١٣)، <https://ia601904.us.archive.org/35/items/daolh1/daolh1.pdf>.

(٧٨) أبو محمد العدناني، «عذراً أمير القاعدة،» والأنصاري، «مبادئ الجماعات الإسلامية المسلحة تسقط في «تجربة الدولة».. «داء الفسخ» يصيبها».

لطبيعة الصراع في العراق فإنه يواجه العزلة من العراقيين وهم الأكثر دراية بمصلحة بلادهم[٧٩]. لكن نقد مرشده الروحي لم يَلقَ من الزرقاوي غير أذن صمّاء، بل ردّ عليه بعنف متهماً صاحبه بالتقاعس والتخاذل[٨٠].

ثم حدث ما خشي منه بن لادن والزرقاوي، فكان ردّ فعل العلماء المسلمين الراديكاليين ضد استهداف الزرقاوي المدنيين قد تحوّل ضد القاعدة المركزية أيضاً لسماحها بحدوث أفعال كتلك. ففي رسالة مفتوحة لبن لادن، سنة ٢٠٠٧، نشرها الداعية السعودي الراديكالي المعروف سلمان العودة، الذي قضى سنوات في السجن، فسأل: «كم يبلغ عدد الأطفال والنساء والكبار السنّ الأبرياء الذين قتلوا باسم القاعدة»[٨١]؟ ولا يتردد العودة في توجيه إصبع الاتهام لبن لادن، فيقول:

«أنت مسؤول ـ أخ أسامة ـ لانتشار الأيديولوجيا التكفيرية وإدخال ثقافة التفجيرات الانتحارية التي تسببت بحمام دم ومعاناة وجلبت الخراب لجماعات وأسَر مسلمة بكاملها... ولكن إلامَ، حتى لو نجحت خططك بالمشي على جثث مئات ألوف الناس؟ هل الإسلام فقط بنادق وحروب؟ هل أصبحت وسائلك هي غايات بحد ذاتها؟... إن إخواناً لنا كثيرين في مصر والجزائر وغيرهما باتوا يعتقدون أنها غاية طريق أيديولوجية القاعدة. وقد تحققوا الآن كم كانت مدمّرة وخطرة»[٨٢].

وكما العودة، فقد أدان دكتور فضل، أحد أرفع منظّري بن لادن، قتل المدنيين واختيار الأهداف وفق أسباب دينية أو عرقية[٨٣]. وبحسب كثيرين، فإن الاستخدام المفرط للمفجِّرين الانتحاريين، ومعظمهم شبّان ومن دون خبرة، أظهر أن التنظيم لا يقيم وزناً لحياة هؤلاء الذين انضموا إلى القضية السلفية الجهادية. واضطر بن لادن سنة ٢٠٠٧، في شريط صوتي بُث من قناة الجزيرة، إلى أن يعترف بأن مقاتليه في العراق «ارتكبوا أخطاء»، ودعا إلى وحدة الأمة قبل أي ولاء قومي أو قبلي أو حزبي. ويعود بن لادن في الشريط إلى سيرة الرسول، فيضيف: «قال النبي عليه السلام، مرةً، ما من أحد كامل. كلنا نرتكب أخطاء وعلينا طلب المغفرة على الأخطاء تلك. البشر يرتكبون أخطاء، والأخطاء تقود دائماً إلى النزاع والخلاف. ومع اعترافنا أننا ارتكبنا أخطاء... فعلينا الآن تدارك الأخطاء تلك»[٨٤].

---

(٧٩) مروان شحادة، «خلاف الزرقاوي والمقدسي ... بين أولوية «الجهاد» أو تشديم «الاجتهاد»،» الحياة، ٢٠٠٥/٧/٢٦. انظر أيضاً: مشاري الذايدي، «أبو محمد المقدسي: المرشد الروحي للزرقاوي،» الشرق الأوسط، ٢٠٠٥/٧/٢٦

(٨٠) انظر رد الزرقاوي: <http://ak-ma.blogspot.co.uk/2013/03/blog-post9.html>.

(٨١) Fawaz A. Gerges: *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*, pp. 298-299, and «Osama bin Laden's Growing Anxiety,» *Christian Science Monitor*, 26/10/2007.

(٨٢) المصدران نفسهما على التوالي.

(٨٣) Gerges, «Osama bin Laden's Growing Anxiety».

(٨٤) Gerges: *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*, pp. 298-299, and «Osama bin Laden's Growing Anxiety».

ومن خلال معرفتنا بأن قادة القاعدة لا ينشرون غالباً غسيلهم الوسخ علناً، يبدو اعتراف بن لادن علانية بـ «الأخطاء» أمراً غير اعتيادي، ويدلّ على أن التنظيم أدرك تماماً أنه ارتكب خطأً استراتيجياً مشهوداً بموافقته على الاندماج مع الزرقاوي، وهو قرار يتهدد على نحو خطير مكانة القاعدة المركزية في أعين الرأي العام الإسلامي كما جمهورها نفسه.

وبعيداً من أي تنازلات، دفع مقتل الزرقاوي إلى المزيد من الخلاف بين خلفائه والمجتمعات المحلية. فبعد أيام من مقتله، بادر مجلس شورى المجاهدين، الذي يضم مسؤولي القاعدة في العراق وسبعة فصائل مجاهدة أخرى رديفة، إلى تسمية أبو عمر البغدادي، وأبو حمزة المهاجر (المعروف أيضاً بأبي أيوب المصري)، وهما من أقرب مساعدي الزرقاوي، الأول أميراً، والثاني وزيراً للحرب[٨٥]. ورغم السرية والغموض اللذين يلفّان شخصية المهاجر، وهو من سوهاج، مصر العليا، إلا أنه والزرقاوي تشاركا الجيل الجهادي نفسه وامتلكا الموقف الأساسي نفسه في قسمة العالم إلى قسمين لا ثالث بينهما: معسكر الإيمان ضد معسكر الكفر. أما أبو عمر البغدادي فهو عراقي سبق أبا بكر البغدادي كأمير للقاعدة في العراق. وكما سلفهما، استهدف الزرقاوي والبغدادي والمهاجر كل الشيعة كما السنّة العاديين الذين يتعاملون مع السلطات العراقية. كما أن وصولهم إلى قيادة التنظيم لم يهدّئ من الانتقادات أو جلب أساليب القاعدة نحو الاعتدال. وفي رأي البعض، فتسليم خلافة الزرقاوي لأبي عمر البغدادي إنما كان محاولة في إعادة تصوير التنظيم باعتباره عراقياً أكثر منه سنّياً. ورغم التشكيك الأولي حول الهوية الحقيقية للبغدادي وحتى للمهاجر[٨٦]، فقد أمكنهما السيطرة على بقايا القاعدة في العراق وإلى حين مقتل الإثنين في عملية أمريكية ـ عراقية مشتركة قرب تكريت في ١٨ نيسان/أبريل ٢٠١٠[٨٧]. وبعد مقتل البغدادي والمهاجر، اعترفت «القاعدة في العراق» بهويتهما، الأول قائداً للمؤمنين والثاني وزيراً للحرب[٨٨].

في محاولة منه لترميم «القاعدة في العراق»، أقر مجلس شورى المجاهدين دمج التنظيم مع تنظيمات وميليشيا محلية أخرى وأعلن في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر تأسيس «الدولة الإسلامية في العراق». ورغم التغيير، فقد استمر الخارج ينظر إليه باعتباره «القاعدة في العراق». وإلى ذلك، لم تجرِ استشارة القاعدة المركزية وقائديها، بن لادن والظواهري، قبل إعلان «الدولة الإسلامية في العراق». وبعد الإعلان عن تأسيس «الدولة الإسلامية في العراق» أرسل المهاجر رسالة إلى بن لادن

---

(٨٥) John F. Burns and Dexter Filkins, «A Jihadist Web Site Says Zarqawi's Group in Iraq Has a New Leader in Place,» *New York Times*, 13/6/2006, and Dexter Filkins and John F. Burns, «U.S. Portrayal Helps Flesh Out Zarqawi's Heir,» *New York Times*, 16/6/2006.

(٨٦) Michael R. Gordon, «Leader of Al Qaeda Group in Iraq Was Fictional, U.S. Military Says,» *New York Times*, 18/7/2007.

(٨٧) Tim Arango, «Top Qaeda Leaders in Iraq Reported Killed in Raid,» *New York Times*, 20/4/2010, <http://www.nytimes.com/2010/04/20/world/middleeast/20baghdad.html?r=0>.

(٨٨) الأثري، «مد الأيادي لبيعة البغدادي،» منبر التوحيد والجهاد.

قائلاً فيها إن مجلس الشورى قد قابل القائد الجديد أبا عمر البغدادي، وأعطى البيعة لبن لادن، ومؤكداً بالتالي تحالف «القاعدة في العراق» مع القاعدة المركزية[٨٩].

رغم تأكيدات المهاجر لبن لادن، ظلت «الدولة الإسلامية في العراق» تعمل مستقلة عن القاعدة المركزية. فالعلاقة بين التنظيمين كانت إرادية، وليست إكراهية، وبناء على إرادة قادة القاعدة في العراق بالاعتراف بصلة مؤسساتية تنظيمية. طوال الفترة التي فصلت بين مقتل الزرقاوي في حزيران/يونيو ٢٠٠٦ ومقتل خليفته في نيسان/أبريل ٢٠١٠ توسع الشرخ بين التنظيمين، رغم محاولة الطرفين إظهار التضامن بينهما في العلن وإبقاء خلافاتهما غير معلنة. مع ذلك، فقد كانت تلك فترة انتقالية قاسية، إذ نزف فيها تنظيم القاعدة في العراق الكثير وإلى درجة الخطر الشديد. حاول أولو التنظيم وإنْ متأخرين إعادة توجيه الأمور لمصلحتهم، من خلال رسم صورة وردية للتنظيم في الفترة الانتقالية بعد موت الزرقاوي، وتصويرهم مجلس شورى المجاهدين وجبهة المطيبين بوصفهما يمثّلان الإرادة الجماعية للمقاومة العراقية السنية. وقيل إنَّ الجماعتين رائدتان في إنشاء الدولة الإسلامية في العراق وتمهيد الطريق أمام الخليفة القادم[٩٠].

إلا أن واقع الحال لم يكن كذلك. وأفضل وصف ممكن للفترة الانتقالية التي كانت بقيادة المهاجر والبغدادي هو أنها حولت التنظيم إلى شبكة تشبه المافيا، تضرب أو تفجّر أو تغتال ثم تختفي، وتهاجم العدوين الشيعي والسني معاً. لقد دعمت أعلى قيادات القاعدة، بن لادن، والظواهري، وأبو علاء الليبي، تنظيم «القاعدة في العراق» و«باركوه» في دعم له ضد الجماعات الإسلامية المسلحة الأخرى في العراق. ففي ٢٠٠٨، وفي خلال منتدى مفتوح على قناة إعلامية للقاعدة (الشباب)، امتدح الظواهري «القاعدة في العراق» باعتبارها «إمارة شرعية أنشئت على أيدي «الشورى» وفق قواعد شرعية صحيحة ونالت البيعة من معظم المجاهدين والقبائل في العراق»[٩١].

اعترف الظواهري بعد ذلك، وإن متأخراً، من جديد، أنه لم تجرِ استشارتهما، هو وبن لادن، قبل إقدام القاعدة في العراق على إعلانها وأنهما ومن دون ضجيج حاولا منع الإعلان ذلك. يدل اعتراف الظواهري العلني على ضعف سيطرة القاعدة المركزية على فرعها في العراق. وقد كشف الظواهري في حوار علني مع أنصاره، بعد إعلان القطيعة بينه وبين أبي بكر البغدادي سنة ٢٠١٣ ـ ٢٠١٤، أنه ومعه قادة آخرون من القاعدة المركزية قد أسهبوا في شرح سلبيات إعلان الدولة الإسلامية وأنها تفوق إيجابياته المحتملة، ولكن دون جدوى. وفي رسالة له إلى مؤيديه،

---

(٨٩) انظر التسجيل الصوتي لأيمن الظواهري يشرح العلاقة بين القاعدة وداعش: <http://www.youtube.com/watch/v=oztWZfVU> (posted on 15 September 2015), and «Al-Nusra and Al-Qaeda: Repercussions of Revoking Pledge of Allegiance,» *Policy Brief* (Omran for Strategic Studies), 14 August 2005, <http://files.omrandirasat.org/Nusra-and%20AlQaeda-Repercussions-of-Revoking-Pledge-of-Allegiance.pdf>.

(٩٠) التميمي، «إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام».

(٩١) «A Review of Events: As-Sahab's Fourth Interview with Shaykh Ayman al-Zawwhiri,» November-December 2007, <https://archive.org/details/A-Review-of-Events2>.

انظر أيضاً: الأزدي، «موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام».

كُتبت سنة ٢٠١٠، قبل سنة من موته، وسرّبها الأمريكيون من بين وثائق أخرى عثروا عليها في مخبئه، يحذر بن لادن جماعة فرع العراق من الإسراع في خلق الإمارات الإسلامية لأن التجربة أثبتت أن الولايات المتحدة قادرة على إزالتها، ويعطي طالبان، وحماس، والدولة الإسلامية في العراق أمثلة على ذلك. وينصح بن لادن أتباعه بشن حرب إنهاك ضد الولايات المتحدة لإضعاف قدرتها على تدمير مستقبل الدول الإسلامية. أما غير ذلك، يخلص بن لادن، فسيكون الأمر كمن «يضع العربة أمام الحصان»[٩٢].

وضع تردد الظواهري في النقد العلني لـ «الدولة الإسلامية في العراق» الظواهري نفسه تحت نار النقد بعد القطيعة الحادة بين القاعدة المركزية و«الدولة الإسلامية في العراق»، التي ستغدو «الدولة الإسلامية في العراق والشام»، أواخر ٢٠١٣. فقد انتقده علماء إسلاميون عراقيون معروفون لتجاهله تحذيراتهم وأخذه جانب «الدولة الإسلامية في العراق»، واتهموه علانية بأنه وضع مصالح التنظيم فوق مصالح الجماعة والحق[٩٣]. وفي الحقيقة، وبخلاف تقييم الظواهري، كان أبو عمر البغدادي والمهاجر طائفيين ومرضى نفسياً، مثلهم مثل الزرقاوي. وقد أشار العيساوي إلى أن المهاجر كان شخصاً غريباً وأكثر تطرفاً من سلفه. ويضيف المؤلف والقائد الجهادي أنه بعد إعلان «الدولة الإسلامية في العراق»، احتفل المهاجر بذلك قائلاً إنهم بنوا «منصة» للمهدي ويبلغ به الأمر أنْ وصف نائب العيساوي «بأنه صورة من المنصة»[٩٤]. وقد صوّر قائد «الدولة الإسلامية في العراق»، في الحوار، جنوده باعتبارهم «فرسان المهدي». ويلاحظ العيساوي ساخراً أن المهاجر تقصّد اختيار أبي عمر البغدادي «أميراً للمؤمنين» لأنه «متزوج من زوجتين»[٩٥].

وخلافاً لكل ما يعزز أو يصلح التنظيم، خطف المهاجر وأبو عمر البغدادي، خليفتا الزرقاوي، التنظيم ودفعا به إلى التهلكة. فقد أوغل الزرقاوي والمهاجر وأبو عمر البغدادي بعيداً من حاضنتهم الشعبية وغامروا بلفظهم من الحاضنة تلك. وبحسب العيساوي، فتلميذه المارق قتل «لائحة طويلة» من السنّة، بمن فيهم دعاة، وقادة مجتمع مدني، وناشطون، وجهاديون، وأناس عاديون، لأنهم ببساطة لا يوافقونه على رؤيته المتطرفة. ويورد العيساوي أنه في واحد من الحوارات مع ضابط من «القاعدة في العراق» في سجن معسكر بوكا، كشف الضابط أن المسؤولين الأعلى منه في العراق خططوا لقتل المقدسي، مرشد الزرقاوي، لأنه انتقد بعض أساليبهم وتفسيرهم الخاطئ للعقيدة[٩٦]. وبحسب أبي علي الأنباري، أحد قادة الثوار العراقيين، فإن «القاعدة في العراق» قتلت ١٥٠٠

(٩٢) انظر التسجيل الصوتي لأيمن الظواهري يشرح العلاقة بين القاعدة وداعش: <http://www.youtube.com/watch/v=oztWZfVU>.

انظر أيضاً: Bin Laden documents in Office of the Director of National Intelligence, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/arabic2/Message%20for%20general%20Islamic%20nation%20-%20Arabic.pdf>.

(٩٣) العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم، ص ١٥٤ ـ ١٥٩.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ٦.

(٩٥) المصدر نفسه.

(٩٦) المصدر نفسه، ص ١٠٢ ـ ١٠٣.

سنيّ في محافظة الأنبار وحدها، إضافة إلى خطف النساء ونهب الممتلكات[٩٧]. تعمّق الانقسام السنّي ـ السنّي، إذاً، مع انضمام عناصر محلية كثيرة إلى ميليشيات الصحوات في حمل السلاح ضد «القاعدة في العراق» وخليفتها «الدولة الإسلامية في العراق»، وطُرد مقاتلوها من المدن باتجاه الحدود العراقية ـ السورية.

وعليه، فلا عجب بالتالي من أن قتل المهاجر وأبي عمر البغدادي في نيسان/أبريل ٢٠١٠ في غارة أمريكية ـ عراقية مشتركة شكل نقطة تحوّل في الكفاح لتخليص العراق من «القاعدة في العراق» و«الدولة الإسلامية في العراق». على سبيل المثال، وصف جو بايدن، نائب الرئيس الأمريكي، العملية «بأن قتلهما هو ضربة ساحقة للقاعدة في العراق»، ويضيف، أن العملية «تظهر الإمكانات الأمنية المعززة والقدرات القوية التي باتت لقوى الأمن العراقية»[٩٨]. وذهب الجنرال رايموند أوديرنو قائد القوات الأمريكية في العراق أبعد من ذلك بالقول: «قتل هذين الإرهابيين يمكن أن يكون الضربة الأكثر قسوة التي وجّهت للقاعدة في العراق منذ بدء التمرد»[٩٩]. وأضاف، «لا يزال هناك الكثير لنفعله، إلا أنها خطوة مهمة إلى الأمام في تخليص العراق من الإرهابيين». ويفسّر المالكي، رئيس وزراء العراق يومذاك، الأمر كما يلي: «نفّذت الهجوم قوات بريّة التي طوّقت المنزل، ثم استخدمت الصواريخ». وأضاف، «خلال العملية، جرى مصادرة أجهزة الكومبيوتر بما فيها من اتصالات ورسائل إلى الإرهابيين الكبيرين، أسامة بن لادن وأيمن الظواهري»[١٠٠]. ولكن، وبالرغم من نغمة الانتصار في التصريحات تلك، فقد شهدت سنوات ٢٠١٠ ـ ٢٠١٤ صعود نجم جديد اسمه أبو بكر البغدادي، الذي بدأ ببناء تنظيمه، وحوّله إلى سلاح قاتل من العيار الثقيل، ما مكّنه من السيطرة على أجزاء واسعة من العراق وسورية. وسوف تهدد قبضة البغدادي القوية على التنظيم من أسس نظام الدولة في قلب الوطن العربي.

---

(٩٧) نبيل نعيم، معركة داعش: الإرهاب المقدّس (القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠١٥)، ص ١٤. هذا الرقم استمر بالتزايد، وبخاصة بعد احتلال الموصل، تكريت، وأجزاء من محافظة الأنبار، وثلث الأراضي السورية في صيف ٢٠١٤.

(٩٨) Khalid Al-Ansary, «Iraqis Say Qaeda Deaths Will Not Improve Their Lives,» Reuters, 20 April 2010, <http://www.reuters.com/article/2010/04/19/us-iraq-violence-alqaeda-idUSTRE63I3CL20100419>, and Arango, «Top Qaeda Leaders in Iraq Reported Killed in Raid».

(٩٩) Andrew England, «Al-Qaeda's Military Leaders in Iraq Killed,» *Financial Times*, 20/4/2010, <http://www.ft.com/cms/s/0/e3b88b42-4c13-11df-a217-00144feab49a.html#axzz3WWWD4Y9I>.

(١٠٠) «Iraqi al-Qaeda Leaders «Killed»,» BBC News, 19 April 2010, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middleeast/8630213.stm>.

الفصل الثالث

كيف أوصلت سياسات العراق المتعثرة إلى إحياء «داعش»

حين تسلّم أبو بكر البغدادي، سنة ٢٠١٠، إمرة «الدولة الإسلامية في العراق» بعد مقتل سلفه أبي عمر البغدادي، كان التنظيم قد غدا محاصراً وفي حالة نزيف. كان عليه أن يخوض معركة مزدوجة في العراق: واحدة ضد الحكومة التي يهيمن عليها الشيعة، والشيعة عموماً؛ وأخرى ضد إخوانه السنّة الذين عارضوا رؤيته الظلامية وأيديولوجيته التكفيرية. كانت المهمة سنة ٢٠١٠ هي إعادة بناء التنظيم ببطء وتحت الضغط. فمنذ سنة ٢٠٠٣، غدت العلاقة بين «القاعدة في العراق» والعشائر السنّية، أقرب إلى المواجهة بفعل استهداف القاعدة للزعماء المحليين وشيوخ العشائر. وإضافة إلى اصطدام المصالح بين العشائر السنّية و«القاعدة في العراق»، أرسلت جماعات ثائرة، من بينها إحدى أقواها، «جيش الإسلام»، الميليشيا السنّية المسلحة، إشارات إلى الأمريكيين تشير إلى استعدادها للتفاوض إذا جرت تلبية شروط معينة لها. وانضم سنّة آخرون إلى مجالس «الصحوة» وقاتلوا بشراسة «القاعدة في العراق» وخليفته «الدولة الإسلامية في العراق» وأوقعوا خسائر ثقيلة في شبكة البغدادي. لم توافق العناصر والاتجاهات الجديدة في المجتمع السنّي على رؤية «الدولة الإسلامية في العراق»، التي كان بالإمكان اختصارها ببساطة في «الحرب ضد الكل». وعليه كان من السهل الاستنتاج في تلك اللحظة أن الريح كانت تعاكس أشرعة «الدولة الإسلامية في العراق».

لكن الأمور سرعان ما اتخذت منحى مختلفاً تماماً مع سقوط الموصل صيف ٢٠١٤ في يد «الدولة الإسلامية» ما أنعش كلياً التنظيم، وليتحول بعدها إلى «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش). أيقظ التحوّل الجديد ذاك وبقوة الحكّام في الشرق الأوسط ورعاتهم الغربيين، الذين كانوا سهّلوا بطريقة غير مباشرة صعود «داعش» القوي ذاك. ورغم أن مكاسبه السريعة فاجأت الولايات المتحدة وسورية وجيران آخرين، إلا أن «داعش» في الواقع لم يسقط من السماء، ولا قام من بين الأموات. لقد كانت التغيّرات الظرفية هي الدافع الرئيسي وراء صحوة «داعش». وأهمها، على وجه

الخصوص، التطورات الاجتماعية والسياسية الحادة في الحقبة الراهنة من تاريخ المشرق العربي، وفي مقدّمها السياسات التنموية الفاشلة وإخفاق انتفاضات الربيع العربي.

بين سنتي ٢٠٠٣ و٢٠٠٥ كانت العلاقات بين زعماء العشائر السنية والتحالف الذي تقوده الولايات المتحدة إما عدائية وإمّا غير ودّية في الحد الأدنى. فبالرغم من التقارير التي حملت صور الأفراح العراقية بعد إزاحة نظام حكم صدّام سنة ٢٠٠٣، استمر عراقيون كثيرون ينظرون بعين الريبة والشك إلى مخططات الولايات المتحدة. فهم يتذكرون أن قصف الولايات المتحدة العنيف الذي تلا غزو صدّام للكويت سنة ١٩٩٠ لم يستهدف البنى التحتية المدنية والعسكرية فحسب، بل كذلك المنشآت الكهربائية في البلاد ومعها مصافي المياه ومحطات معالجة مياه الصرف الصحي، ما قاد إلى انتشار وباءَي الكوليرا والتيفوئيد. كذلك، كان الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب قد ناشد العراقيين إطاحة صدّام، ولكن حين كادت انتفاضتا الشمال والجنوب ضد النظام العراقي تؤتي أُكُلها في شباط/فبراير ١٩٩١، لم تترجم وعود الدعم الأمريكي إلى وقائع على الأرض. وسمح ذلك لقوات صدّام الخاصة أن تلقي فوراً بكامل ثقلها فتضع حداً للتمرد بعد قمعها المتظاهرين بعنف بالغ. وأدّت لاحقاً عقوبات الأمم المتحدة، المدعومة من الولايات المتحدة وبريطانيا، ضد النظام العراقي إلى انهيار أنظمة المياه والكهرباء والعناية الصحية والزراعة في البلاد، وإلى تضخم جنوني. ومع استمرار التردي الاقتصادي الواسع للبلاد، جرى تسريح ثلثي جنود الجيش العراقي الذين سرعان ما واجهتهم فور عودتهم إلى منازلهم أزمة بطالة حادة. واقتطع الكثير من الرواتب، هذا إذا جرى دفعها. وانهار في السياق نفسه النظام التربوي في البلاد، بسبب هجرة المدرِّسين وفقدان التجهيزات المدرسية الضرورية، فسقطت البلاد من جديد في معدّلات أمية عالية. انهارت البلاد كلياً بين حروب صدّام وسياساته الكارثية، وحملات القصف، وحصار الأمم المتحدة، وتمزّق النسيج العراقي الاجتماعي ـ الاقتصادي الذي زاد حدَّتَه غزو ٢٠٠٣، مع معدلات بطالة عالية وازدياد نسب الفقر والسكن السيئ وتآكل البنى التحتية للمواصلات.

ترك حصار الأمم المتحدة، إذاً، البلاد معزولة كلياً، والسكان في قبضة صدام الحديدية، مع الشعور بأنهم متروكون ومخدوعون من الأسرة الدولية. هذا هو السياق العام الذي نشأت فيه الانتفاضة سنة ٢٠٠٣ ضد قوات التحالف وضد السنّة والشيعة في آن[1].

لكن سنوات المقاومة المكلفة الطويلة ضد قوات التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة والنظام الطائفي في بغداد كانت قد أنهكت السنّة، فانقسموا أيضاً حول أجدى الوسائل للتأثير في عراق ما بعد صدّام كما حول المستقبل عموماً. ومع تحوّل المدّ ضد التنظيم السلفي الجهادي، صار في وسع الشيخ أسامة الجدعان، الزعيم القبلي القوي في الأنبار أن يقول صراحة: «لقد تبيّن لنا أن

---

(١) للتعرف أكثر إلى الآثار التي تركتها عقوبات النظام على المجتمع العراقي، بما فيها خصوصاً الجماعة الشيعية، انظر: Nicholas Krohley, *The Death of the Mehdi Army: The Rise, Fall, and Revival of Iraq's Most Powerful Militia* (London: C. Hurst and Company, 2015).

إرهابيين أجانب كانوا يختبئون خلف يافطة المقاومة العراقية الشريفة. فقد زعموا أنهم يضربون قوات الاحتلال الأمريكي، بينما كانوا يقتلون في الواقع العراقيين المدنيين في الأسواق والمساجد والكنائس وفي مدارسنا»[٢].

إضافة إلى المواجهة الساخنة التي بدأت تلوح، أغضبت «القاعدة في العراق» الجماعات السنية بتعيينها منفردة الأمراء المحليين، واحتكارها الموارد المالية في الأراضي الواقعة تحت سيطرتها، وتجاوزها السلطات القبلية وظهورها في مظهر عدم الاحترام للمعتقدات والتقاليد المحلية. ومع تصاعد الصراع بين الطرفين، كان سنّة كثيرون يستنتجون أكثر فأكثر أن استراتيجية «القاعدة في العراق» مصمَّمة لا على تحريرهم بل على السيطرة على أرضهم ومواردهم وشعبهم. كما كان هناك في الوقت نفسه شعور سنّي متزايد من عدم الثقة بالحكومة التي يقودها الطائفيون في بغداد، ونظروا إليها باعتبارها واجهة للمصالح الإيرانية، التي تهدد بدورها الجزء الذي يخصّهم من مستقبل البلاد السياسي. ومع إعلان بوش عن إرسال تعزيزات عسكرية كبيرة إلى العراق، غدا قادة السنّة أكثر اقتناعاً بأنه من المستحيل إنزال الهزيمة العسكرية بقوات التحالف. وعليه، جرى النظر إلى «القاعدة في العراق» كأنما هي صُدِّرت للعراق لمنازلة القوات الأمريكية بهدف السيطرة عليه، وبدأت القاعدة منذ ٢٠٠٥ بمواجهة المقاومة من عدة جماعات سنية ـ وبخاصة من قبيلة «البو مَحَل» حول مدينة القائم ـ الذين هاجموا مقاتلي القاعدة الناشطين في مناطقهم. كان ذلك تغييراً رئيسياً في المناخ العام، وبدأت «البو مَحَل» بالتعاون مع الولايات المتحدة[٣].

والأكثر أهمية، في سنة ٢٠٠٦، كان هزيمة المقاتلين السنّة بعد معركة بغداد على أيدي السلطات والميليشيا الشيعية. وهو ما يفسّر ازدياد عدد الأفراد، والقادة القبليين والمجموعات الإسلامية السنية التي بدأت في ذلك الوقت بالتعاون مع قوات الاحتلال الأمريكي. ورغم أن «جيش الإسلام» حارب الأمريكيين سنة ٢٠٠٧، فإن بعض مقاتليه حوّلوا بنادقهم باتجاه الجهاديين وانضموا إلى «الصحوات» السنّية، مع تحذير قائدهم من أن العراق «يواجه احتلالين، أمريكي وإيراني، والإيراني هو الأكثر سوءاً»[٤].

وعليه، فقد دفعت عدة عوامل ـ أولها الأمل باستعادة جزء من التأثير داخل البلاد ـ السنّة الوطنيين لتوحيد موقفهم وعملهم مع الولايات المتحدة ضد «القاعدة في العراق». ومخافة المزيد من الضعف، شكّلت «القاعدة في العراق» في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ «مجلس شورى المجاهدين» في محاولة منها لرأب الصدع مع شيوخ العشائر ولإظهار التنظيم في زيّ محلي وطني.

---

(٢) Michael Eisenstadt and Jeffrey White, «Assessing Iraq's Sunni Arab Insurgency,» *Policy Focus* (Washington Institute for Near East Policy), no. 50 (December 2005), <http://www.washingtoninstitute.org/html/pdf/PolicyFocus50.pdf>.

(٣) Ellen Nickmeyer and Jonathan Finer, «Insurgents Assert Control over Town Near Syrian Border,» *Washington Post*, 6/9/2005, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2005/09/05/AR2005090500313.html>.

(٤) «Emir of the Islamic State of Iraq,» Al-Faloja Forum (25 February 2007).

وحّد المجلس بين ما لا يقل عن ست جماعات إسلامية سنية منخرطة في المقاومة المسلحة، بمن فيها «جيش الطائفة المنصورة»، و«كتائب أنصار التوحيد والسنّة»، و«مجموعة سرايا الجهاد»، و«فصائل الغربية»، و«فصائل الأحول»، و«جند الصحابة».

وفي مسعى إلى إصلاح العلاقة بين «القاعدة في العراق» والعشائر السنية، عرض أبو حمزة المهاجر في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦، وكان قد خلَف الزرقاوي لفترة قصيرة وزيراً للحرب لدى القاعدة، على زعماء العشائر الصفح بشرط الانضمام إلى التنظيم. ودعا المهاجر إلى الوحدة بين القاعدة والجماعة السنية، مُظهراً رغبته في الابتعاد عن استراتيجية الزرقاوي في المواجهة. ففي رسالة له أذيعت من على مواقع إسلامية عدة، قال المهاجر: «لأن رمضان هو شهر التسامح، فنحن نعرض على زعماء العشائر العملاء الصفح، بشرط واحد ـ أن تعلنوا التوبة علانية أمام شعبكم وتنضموا إلينا»[٥]. إلا أن هؤلاء رفضوا الانصياع، وردّوا بلسان أحمد ناجي جبارة الجبوري، زعيم مجلس عشائر صلاح الدين، «العراق عراقنا. هو لا يتبع زعيم تنظيم القاعدة الذي جاء فدخل العراق لتحريره من الاحتلال. لكنه لم يأتِ لتحرير العراق من شعبه. نحن شعب العراق، وهو يريد تحريرنا، ما يعني أنه يريد إزالتنا وجعل العراق بلاداً فارغة من شعبها ومواطنيها... القاعدة تساعد المحتلين في تمزيق العراق إرباً»[٦].

وكانت «القاعدة»، إضافة إلى معركتها مع العشائر السنية المتمردة، تعاني النزيف والانقسام على المستوى الداخلي. فقد نظر كثيرون داخل «القاعدة» إلى المهاجر كزعيم ضعيف، وعارضوا استراتيجيته في اغتيال شيوخ العشائر وعراقيين آخرين، ودعوا من ثمة إلى تغيير شامل في قيادة التنظيم. ففي ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، وقبل يوم واحد من إعلان تأسيس «الدولة الإسلامية»، ظهر شريط فيديو على المواقع الإسلامية منسوب إلى جهادي عراقي يدعى أبو أسامة العراقي، أو أبو أسامة المجاهد، ترك خلفه موجة من النقاش في الأوساط الإسلامية الراديكالية. دعا العراقي، ويعتقد أنه كان ضابطاً سابقاً في جيش صدّام، القاعدة المركزية (أي بن لادن والظواهري) إلى قطع علاقتها مع «القاعدة في العراق». انتقد العراقي في الشريط علانية قيادة المهاجر وأفعاله، قائلاً إن استهداف القاعدة في العراق المدنيين والمستشفيات والمدارس وشيوخ العشائر والأئمة وعلماء الدين، جعل المجتمع القبلي ضد التنظيم[٧]. وأضاف، في دعوة صريحة إلى «عرقنة» التنظيم، «إن

(٥) «Terror Tape Says 4,000 Foreign Fighters Killed in Iraq,» CNN, 28 September 2006, <http://edition.cnn.com/2006/WORLD/meast/09/28/iraq.main>.

(٦) «Iraqi Tribal Leader Says Not «Scared» by Abu-Hamzah's Message,» *BBC Monitoring International Reports* (28 September 2006).

(٧) ««مجلس شورى المجاهدين» يعلن إمارة تأسيسية في العراق،» العربية.نت (١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦)، <http://www.alarabiya.net/articles/2006/10/15/28296.html>

انظر أيضاً: «The Nature of the Enemy,» *U.S. Department of Defense*, vol. 1, no. 3 (24 October 2006); Mohammad Ballout, «Details Emerge on Kidnapped Syrian Bishops,» *Al-Monitor* (15 August 2013), <http://www.al-monitor.com/pulse/tr/security/2013/08/bishops-kidnapped-syria-aleppo-details.html#ixzz3Z07MuRNL>, and Bill Roggio, «Divisions in al Qaeda in Iraq,» *Long War Journal* (13 October 2006), <http://www.longwarjournal.org/archives/2006/10/divisions_in_ alqaeda.php>.

عدم معرفتكم بالناس في العراق ليس سبباً لاختيار أي كان ووضعه في الواجهة... نحن نحثكم على جعل القيادة لعراقي تماماً كما كانت لأفغاني في أفغانستان... ونحن نتضرع إلى الله لتلقّي رسالتنا آملين أن لا يخفيها عنكم بعض من يحيط بكم، فتتمكنون من اتخاذ القرار الملائم وإلغاء البيعة الحالية في العراق. نحن أبناؤكم ولن نخفق في قيادة الحرب والجهاد»[٨].

ورغبةً في التقليل من شأن الخلاف بين الجهاديين العراقيين، أدانت قيادة القاعدة المركزية الإعلان العراقي باعتباره مبنياً على مغالطات. لكن ذلك لم يحل دون تعرّض «القاعدة في العراق» إلى المزيد من التمزّق من الداخل والضغط السنّي المسلّح من الخارج. فبحسب أبي عبد الله محمد المنصور العيساوي، قائد «جيش المجاهدين»، يوجد غير دليل على تصفيات متبادلة حدثت بين «القاعدة في العراق» و«الدولة الإسلامية» وتنظيمات مجاهدة مشابهة أخرى. وقد كشف العيساوي، المرشد الروحي للزرقاوي، ثم للبغداديَّين، أن الزرقاوي ومن بعده خليفتاه، شنّوا حملة إرهاب ضد كل من لا يسير في ركابهم، بمن فيهم سلفيون جهاديون آخرون.

مع ذلك، ورغم الانقسامات الداخلية، جاء الدعم الكبير من التنظيمات الإسلامية السنّية الستة التي وحّدت صفوفها مع «القاعدة في العراق» ما أمّن لها ولو مؤقتاً زخماً كافياً، وليعلن «مجلس شورى المجاهدين» في ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦ من ثم تأسيس «الدولة الإسلامية في العراق». بايع التنظيم الجديد أميراً جديداً هو حامد داوود محمد خليل الزاوي، والمعروف أكثر بلقبه الحربي، أبو عمر البغدادي. بعد إعلان البيعة، أعلن التنظيم بعقوبةَ عاصمةً للدولة، وضمّت كذلك بغداد والأنبار وديالا وكركوك وصلاح الدين ونينوى وأجزاء من بابل باعتبارها محافظات في الدولة[٩].

لكن الإعلان ذاك، لم يؤدِ إلى دفن الانقسامات المتعاظمة بين «الدولة الإسلامية في العراق» والعشائر السنّية. وبلغت المواجهة الذروة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦ حين شكّل الحشد العشائري المعادي للدولة الإسلامية في العراق «مجلس إنقاذ الأنبار» من قبائل الرمادي. ترأس مجلس إنقاذ الأنبار عبد الستّار الريشاوي (المعروف أيضاً بأبي ريشة)، الذي شرّع علانية التعاون مع قوات الاحتلال، وفي مقدمها الأمريكيون[١٠]. وكشفت رسالة لأفراد في «مجلس الشورى»، وقعت في

---

(٨) «Bin Laden Urged to Disown Iraq's Qaeda Chief-TV,» *Asharq al-Awsat*, 13/10/2006, <http://www.aawsat.net/2006/10/article55264974/bin-laden-urged-to-disown-iraqs-qaeda-chief-tv>.

(٩) حول الإسلام، انظر: «"مجلس شورى المجاهدين" يعلن تأسيس إمارة إسلامية في العراق،» العربية نت، ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، <http://www.alarabiya.net/articles/2006/10/15/28296.html>.

(١٠) انظر: Maggie O'Kane and Ian Black, «Sunni Militia Strike Could Derail U.S. Strategy against al-Qaida,» *Guardian*, 21/3/2008, <http://www.theguardian.com/world/2008/mar/21/iraq.alqaida>, and Mark Kuki, «Turning Iraq's Tribes against Al-Qaeda,» *Time* (26 December 2006), <http://content.time.com/time/world/article/0,8599,1572796,00.html>.

انظر أيضاً: Cécile Hennion, «Irak: Des tribus sunnites se lèvent contre Al- Qaida, sans renoncer à la guerilla,» *Le Monde*, 12/6/2007, <http://www.lemonde.fr/proche-orient/article/2007/06/12/irak-des-tribus-sunnites-se-levent-contre-al-qaida-sans-renoncer-a-la-guerilla_922246_3218.html>.

أيدي قوات التحالف، اشتداد المعركة بين الدولة الإسلامية وزعماء العشائر. وتضمنت الوثيقة أسماء عدد من زعماء العشائر وأفراد من الحزب الإسلامي المرشحين للاغتيال[11].

وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، لحقت عشائر أخرى بإعلان تشكيل «صحوة الأنبار» وشكلت صحواتها الخاصة. وانضم مقاتلون عرب سنّة ومقاومون إسلاميون في مناطق مختلفة من البلاد إلى تحالف عريض لمحاربة « الدولة الإسلامية في العراق» فشكلوا تحالفاً واسعاً («المواطنون المعنيون» أو «أبناء العراق»). في حدود ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧، كانت «الصحوات» قد تشكلت في مختلف المناطق السنية في العراق بدعم واضح من الأمريكيين. تقدمت الصحوات إلى الواجهة، وباتت تضم في مختلف تشكيلاتها، وفي أقل من عام واحد، ما لا يقل عن ثمانين ألف عضو، فيما تكفلت الولايات المتحدة بتقديم الدعم المالي والعسكري للحركة[12].

تسلّم المتطوعون السلاح وكذلك الراتب الشهري، الذي وصل في نهاية الأمر إلى حدود ٣٠٠ دولار شهرياً. كان الراتب ذاك أدنى من رواتب أفراد قوات الأمن العراقية، لكنه لم يكن سيئاً جداً بل كان حافزاً لشبان سنّة عاطلين من العمل، وفي مجتمعات محلية تعرّضت لضغط اقتصادي واجتماعي لفترة طويلة، للعمل مع قوات التحالف لا ضدها. تضمنت مسؤولية الصحوات التدريب، وإقامة حواجز التفتيش، وتوفير المعلومات عن الجماعات السلفية الجهادية وغيرها من جماعات الثوار، وأحياناً المشاركة المباشرة في القتال ضد «القاعدة». وقد أكد أحد أفراد الصحوات في مقابلة معه التعاون مع قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة، قال: «حين نلقي القبض على بعض أفراد العصابات، فنحن نفعل ذلك بدعم من قوات التحالف. وقد تلقينا بعد مهام كثيرة نفذناها رسائل تنويه وكذلك مكافآت مالية. هو أمر حسَن. تلقيت من قوات التحالف مبلغ ٧٠٠ دولار، ٣٠٠ كراتب شهري، و٤٠٠ كمكافأة، ومجموعه ٧٠٠ دولار في شهر واحد (دولارات أمريكية)»[13].

وهكذا، وفي أقل من عام واحد، تمكن برنامج الصحوات المدعوم من الأمريكيين، الذي اشتمل على دفع المال لرجال العشائر لمقاتلة «القاعدة في العراق» و«الدولة الإسلامية في العراق» من توفير الاستقرار الأمني في الأنبار ومحيطها. وبحسب الجنرال دايفيد بتريوس، القائد العام للقوات المتعددة الجنسية في العراق، فقد هبط عدد العمليات في المنطقة من ١٣٥٠ عملية في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦ إلى أكثر قليلاً من ٢٠٠ عملية في آب/أغسطس ٢٠٠٧. وفي حدود ٢٠٠٧، كانت الصحوات قد انتشرت في طول البلاد وعرضها، وأسس الجنرال بتريوس «خلية قوة الارتباط الاستراتيجية» (FSEC)، ومهمتها تنمية الاتصالات والصلات بين المقاومة العراقية والحكومة المركزية بواسطة مبادرات من الخلية. برهنت الهيكلية الجديدة عن فاعليتها في استهداف ميليشيات

---

(١١) انظر الوثيقة التي نشرها مركز مكافحة الإرهاب في وست بوينت، بعنوان: «القاعدة في العراق: تقرير حالة،» <http://www.ctc.usma.edu/v2/wp-content/uploads/2013/09/Al-Qaida-in-Iraq-Situation-Report-Original.pdf>.

(١٢) O'Kane and Black, Ibid.

(١٣) Mark Wilbanks and Efraim Karsh, «How the «Sons of Iraq» Stabilized Iraq,» *Middle East Quarterly*, vol. 17, no. 4 (Fall 2010), pp. 57–70.

«القاعدة» وفي دفعها خارج المناطق القبلية. وبين ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ غدت الصحوة الأداة المفتاح لاستراتيجية الولايات المتحدة في محاربة القاعدة، وأمكنها إخراج التنظيم من معاقله في الرمادي والفلوجة. وبحسب رياض العجيدي، وهو ضابط رفيع سابق في «القاعدة في العراق»، فقد هبطت القوة الفاعلة للتنظيم في البلاد من ١٢٠٠٠ رجل في حزيران/يونيو ٢٠٠٧ إلى ٣٥٠٠ رجل أوائل ٢٠٠٨[١٤]. في هذه الأثناء كان تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» يهاجم زعماء العشائر والمدنيين العراقيين. ففي أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، وفي أحد أبرز الأمثلة، نجح مسلحو «الدولة الإسلامية في العراق» في اغتيال الشيخ عبد الله أبو ريشة قرب منزله، وبعد أيام قليلة فقط من استقبال الرئيس جورج دبليو بوش له.

في ٢٠٠٧، حاول رئيس الوزراء العراقي يومذاك، نوري المالكي، تكرار تجربة برنامج الصحوات في المناطق ذات الأكثرية الشيعية، وبخاصة في جنوب العراق، وذلك بتأسيسه «إسناد»، أو «المجالس الداعمة». وعلى مثال الصحوات، استهدف «إسناد» مسلحي «الدولة الإسلامية في العراق»، لكن «إسناد» تأسس أيضاً لهدف إضافي وهو قتال الميليشيات الشيعية المنافسة في المنطقة، كما لمواجهة نفوذ السياسيين منافسي المالكي، الذين كان لهم ميليشياتهم من مثل «المجلس الإسلامي الأعلى في العراق». تألف «إسناد» بشكل رئيسي من جماعات عشائرية في محافظات عدة. كان يجري دفع رواتبهم من مكتب المالكي، ويتلقون الأوامر منه مباشرة، ويتبعونه فقط. أقلق نجاح الصحوات في المهام التي تألفت من أجلها، وفي إقامة تحالف فعّال مع الولايات المتحدة، وفي الثمانين ألفاً التي بلغته في النهاية، المالكي. فقد كان طوال الوقت ضد تسليح السنّة لأن نجاحهم، وفق رأيه، قد يحيلهم إلى قوة سياسية شرعية وقوة عسكرية مؤثرة[١٥].

حذّر المالكي في مؤتمر صحافي له سنة ٢٠٠٦ من أن «الدولة هي الوحيدة التي يحق لها حمل السلاح... سوف نتعامل مع أي كان [بخلاف ذلك] باعتباره خارجاً على القانون... الجميع الآن موقنون أن وجود الجماعات والميليشيات المسلحة يؤذي استقرار الدولة ووحدتها»[١٦]. يعكس بيان المالكي الشكوك المتبادلة بين السنّة عموماً ورئيس الوزراء. أذعن المالكي لضغوط الولايات المتحدة التي أجبرته على إبداء التعاون. قاد تفاهم الوطنيين العراقيين، الثوار سابقاً، مع الولايات المتحدة إلى علاقات تعاون مع قوات التحالف. مع ذلك، استمر المالكي في شكوكه وسلبياته. في المقابل، انتقد زعماء العشائر علناً حكومة المالكي لفشلها في حفظ الأمن وتحسين الخدمات

(١٤) Amit R. Paley, «Shift in Tactics Aims to Revive Struggling Insurgency,» *Washington Post*, 8/2/2008, <http://www.washingtonpost.com/wpdyn/content/article/2008/02/07/AR2008020703854.html?hpid=sec-world&sid=ST2008020801213>.

(١٥) Johan F. Burns and Alissa Rubin, «U.S. Arming Sunnis in Iraq to Battle Old Qaeda Allies,» *New York Times*, 11/6/2007, <http://www.nytimes.com/2007/06/11/world/middleeast/11iraq.html?pagewanted=all&_r=1 &>.

(١٦) «Iraqi PM Says Ready to Tackle Militias,» *Asharq al-Awsat*, 25/10/2006, <http://www.aawsat.net/2006/10/article55264854/iraqi-pm-says-ready-to-tackle-militias>.

الأساسية في البلاد. وتحول فقدان الثقة عداوة سنة ٢٠٠٨، حين جمّدت السلطات العراقية عمل قوات الصحوات، ما اعتبره زعماء العشائر خيانة من الولايات المتحدة[١٧].

ورغم وعود المالكي باستيعاب ربع أفراد قوات الصحوة في أجهزة الأمن الحكومية وقطاعات رسمية أخرى، إلا أنه وحتى ٢٠١٠ لم تهدأ مخاوف زعماء القبائل، إذ لم يتحقق من وعود المالكي إلا النزر اليسير. برر المالكي عدم إدماج قوات الصحوة في أجهزة الأمن العراقية بالخوف من أن يكون الجهاديون والبعثيون السابقون قد تغلغلوا في الصحوات تلك، بل أمر أكثر من ذلك باعتقالات جماعية في صفوف الناشطين السنّة، وبخاصة في الموصل[١٨]. وفي الحالات التي أدمجت فيها عناصر من قوات الصحوة في المؤسسات الحكومية، لم يعطوا إلا مراكز متدنية وأجوراً متدنية، وفي عقود مؤقتة في الأغلب لا تدفع أجورها إلا بتقطّع، الأمر الذي سمّم العلاقة بين الطرفين وعلى نحو أكثر سوءاً من السابق. واستمرت العلاقة بالتدهور طوال السنوات اللاحقة، ووصلت مع بدء انتفاضات الربيع العربي، أواخر ٢٠١٠ ومطلع ٢٠١١، إلى درجة اللاعودة[١٩].

لم يكن زعماء العشائر السنّة وحدهم ممن تعاون مع السلطات الأمريكية المحتلة. ففي سنة ٢٠٠٧، عقد أبو عزّام التميمي (قائد رفيع في «جيش الإسلام»)، سلسلة اجتماعات سرية مع القوات الأمريكية في «أبو غريب». قال التميمي في اتصالاته إن في وسعه حشد حوالى ١٧٠٠٠ رجل للمساعدة في الحرب ضد «الدولة الإسلامية في العراق». فكثيرون من «جيش الإسلام» ـ وكما زعماء عشائريون آخرون ـ شعروا في تلك الفترة أن ميزان القوى داخل المناطق السنية بدأ يميل لمصلحة منافسيهم وأن مواقعهم باتت مهددة. فقد كان على «جيش الإسلام» أن يواجه ـ إضافة إلى القوات الأمريكية ـ المعارضة المتزايدة من الصحوات السنية والميليشيات الشيعية، إضافة إلى الصراع الداخلي على المصالح. وعليه، أمكن لرجال التميمي طرد عناصر «الدولة الإسلامية» من أبي غريب، ووافق المالكي بعدها، وبضغط من الأمريكيين، على إدماج رجاله في قوات الأمن العراقية. كذلك فعل ضابط رفيع آخر في «جيش الإسلام»، وهو «أبو عابد»، في العامرية، غرب بغداد، وانضم إلى التحالف المضاد «للدولة الإسلامية»[٢٠]، ونجح في تنظيف المنطقة من مقاتلي تنظيم «الدولة الإسلامية».

---

(١٧) «Le Trouble des sunnites irakiens ralliés au pouvoir,» *Le Monde* and AFP, 1/4/2009, <http://www.lemonde.fr/proche-orient/article/2009/04/01/le-trouble-des-sunnites-irakiens-rallies-au-pouvoir_1175208_3218.html#Ee6uWrgvsoC3f7oR.99>.

(١٨) «PM Says Saddam Loyalists Infiltrated Iraq's Sahwa Militia,» Agence France Presse, 4 April 2009, <http://lebanonwire.com/0904MLN/09040417AF.asp>.

(١٩) Richard Spencer and Carol Malouf, «We Will Stand by ISIS until Maliki Steps Down, Says Leader of Iraq's Biggest Tribe,» *Telegraph*, 29/6/2014, <http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/iraq/10934438/We-will-stand-by-Isis- until-Maliki-steps-down-says-leader-of-Iraqs-biggest-tribe.html>.

(٢٠) Ghaith Abdul-Ahad, «Meet Abu Abed: The US's New Ally against al-Qaida,» *Guardian*, 10/11/2007, <http://www.theguardian.com/world/2007/nov/10/usa-al-qaida>.

انظر أيضاً: «أخبار وتقارير: كيف تحوّلت العامرية إلى منطقة آمنة؟،» الاتحاد، <http://www.alitthad.com/paper.php?name=News&file=article&sid=32667>.

في الوقت الذي أثبتت قوات الصحوات فاعليتها النسبية، لم تكن كل مجموعات المقاومة السنّية في المركب نفسه مع قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة. فقد استمر آخرون، منهم على سبيل المثال، «جيش رجال الطارق النقشبندي»، و«جيش رجال النقشبند»، وهي ميليشيا يهيمن عليها البعثيون، في مقاومة قوات الاحتلال في الموصل وصلاح الدين وكركوك. وفي تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧، أسست ستة تنظيمات سنية مسلحة هي «جيش الإسلام»، «جماعة أنصار السنة»، «الجبهة الإسلامية للمقاومة العراقية»، «جيش الفاتحين»، «حماس العراق»، قيادة موحدة أسمتها «المجلس السياسي للمقاومة العراقية»[21]، والذي أصدر بياناً جاء فيه: «احتلال العراق عمل من أعمال العدوان، وعمل ظالم، مرفوض إسلامياً، وقانونياً وعقلياً، وكل القوانين تعتبر مقاومة الاحتلال حقاً بديهياً ومشروعاً»[22]، وحذّر من أن «القوانين والمعاهدات التي تجاز تحت الاحتلال باطلة وستلغى»[23].

وقالت المجموعة، سنة ٢٠١٠، إنها لا تعترف بحكومة المالكي، ووفق الناطق باسمها عبد الرحمن الجنابي، «نحن في المجلس السياسي للمقاومة العراقية نرفض الدخول في حوار مع المالكي لأن الحكومة التي ينصّبها المحتل غير شرعية، وقد تألفت بإرادة الاحتلال بهدف تشريع وجوده وممارساته»[24]. ورغم رفض «المجلس السياسي» الانضمام إلى الصحوات إلا أنه عارض «الدولة الإسلامية». وفي ذلك إشارة كافية إلى أن المجتمع السني العراقي، ورغم انقساماته الداخلية، كان يظهر معارضة واسعة لـ «القاعدة في العراق».

في تلك الفترة، وبينما المنطقة على شفا موعد مباشر مع الانتفاضات العربية، اتخذ المالكي عدة خطوات لتهدئة الجماعة السنية ومواجهة الميليشيات الشيعية التي بدأت بتحدي سلطته. ورغم أن ذلك بدا للوهلة الأولى حاملاً أملاً ما، إلا أن الأمر كان في النهاية جزءاً من حسابات المالكي الخاصة في الإمساك بالسلطة والتجاوب مع ضغوط الولايات المتحدة معاً. وبالرغم من أحسن

---

(٢١) «البيان التأسيسي للمجلس السياسي للمقاومة العراقية،» أعلنتها قناة «الجزيرة»، ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧ ونشرت في المجلة العراقية الجهادية الفرقان، العدد ١٥، و Kirk Semple and Omar al-Neam, «Amnesty Plan for Insurgents Shows Divide in the Shiite Bloc,» *New York Times*, 4/7/2006, <http://query.nytimes.com/gst/fullpage.html?res=9E06E4DD1230F937A35754C0A9609C8B63>.

انظر أيضاً مقابلة مع علي الجبوري، الأمين العام للمجلس السياسي للمقاومة في العراق، في برنامج «بلا حدود» على قناة الجزيرة بتاريخ ١٥ تموز/يوليو ٢٠٠٩، <http://www.aljazeera.net/NR/exeres/C1561271-9BEB-470F-AA08-A88929A6C83C.htm>.

(٢٢) Ewan MacAskill, «Sunni Insurgents form Alliance against US,» *Guardian*, 12/10/2007, <http://www.theguardian.com/world/2007/oct/12/usa.iraq>.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) ««المقاومة العراقية» ترفض عرض المالكي للحوار،» أخبار البوابة، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠، <http://www.albawaba.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AE%D8%A8%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%88%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%B1%D9%81%D8%B6-%D8%B9%D8%B1%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A-%D9%84%D9%84%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1>.

الجهود التي بذلت، ظلت المبادرتان اللتان قدّمتا دون التوقعات لأن غاية المالكي الأخيرة كانت تعزيز قبضه على السلطة. ففي صيف ٢٠٠٦، أطلق المالكي مبادرة مصالحة مع خطة عملية من أربع وعشرين نقطة[٢٥] هدفها ـ كما أعلن ـ جلب الجماعة السنية إلى الحقل السياسي؛ بل قام من أجل ذلك بزيارة البلدان الخليجية في محاولة منه لكسب تأييدها لخطته. ثم أعلن رئيس الوزراء عن بعض الخطوات في سياق إنجاح خطته، من بينها ضمان العفو عن المسلحين الذين يلقون سلاحهم وينبذون العنف؛ ومراجعة برنامج اجتثاث البعث؛ ومحاربة الطائفية داخل الحكومة؛ واستضافة مؤتمر مصالحة[٢٦]. مع ذلك، لم تستطع المبادرة مداواة الجراح العميقة في المجتمع العراقي ولا رأب الانقسام المتبادل.

نظر زعماء السنّة إلى مبادرة المصالحة باعتبارها شكلية وفارغة، لأن المسلحين الذين حاربوا القوات العراقية وقوات التحالف ليسوا مشمولين بعرض العفو. وفي الاتجاه عينه، عارضت أصوات شيعية قوية خطة المالكي لخوفهم من أن تحرير البعثيين سوف يساعدهم على إعادة تنظيم أنفسهم ومحاولة استعادة السلطة، بينما يبقى أفراد الميليشيات الشيعية في السجن[٢٧]. وكان المعسكر الشيعي في بغداد قد أخذه الغضب في ٢٠٠٦ بسبب لقاء المالكي مع جورج دبليو بوش في عمّان، الأردن. فقد تعهّد رئيس الوزراء في الاجتماع بمحاربة الميليشيات الشيعية، كذلك الموافقة على زيادة عديد القوات الأمريكية في العراق. وكان الهدف هو الإظهار للجماعة السنية أن الحكومة جادة في استهدافها مسلحي وميليشيات الشيعة. وفي السنة التالية، ٢٠٠٧، أطلقت الحكومة في بغداد وضواحيها، بما فيها مدينة الصدر، مبادرة أمنية أسمتها «فرض القانون»[٢٨].

وشهد العام نفسه إعدام «لجنة الإعداد والمتابعة للمصالحة الوطنية»، التي رأستها بسيمة الجادري وهدفت إلى تعزيز الحوار مع الصحوات والبعثيين السابقين. واقترحت إحدى توصيات اللجنة وضع الصحوات تحت سلطة الحكومة، لكن القرار كما قلنا أعلاه لم يفعل الكثير للتخفيف من فقدان الثقة مع العشائر السنية. وفي سنة ٢٠٠٨، ومع ازدياد التوتر بين الحكومة وجيش المهدي، أطلق المالكي عملية «صولة الفرسان» ضد الصدريين في البصرة[٢٩]. شهدت المدينة قتالاً

(٢٥) Taheri Amir, «Iraq: Will Al-Maliki's Peace Plan Work?,» *Asharq al-Awsat*, 30/6/2006, <http://www.aawsat.net/2006/06/article55266188/iraq-will-al-malikis-peace-plan-work>.

(٢٦) «Le Premier ministre irakien a présenté son plan de réconciliation nationale,» *Le Monde*, 25/6/2006, <http://www.lemonde.fr/proche-orient/article/2006/06/25/le-premier-ministre-irakien-a-presente-son-plan-de-reconciliation-nationale_787940_3218.html>.

انظر أيضاً: «Iraqi Leader Outlines Plan for Reconciliation,» *Washington Post*, 25/6/2006, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/06/25/AR2006062500316.html>.

(٢٧) Irk Semple and Omar al-Neami, «Amnesty Plan for Insurgents Shows Divide in Shiite Bloc,» *New York Times*, 4/7/2006.

(٢٨) Damien Cave, «Baghdad Violence Declines in Security Push, Iraq Says,» *New York Times*, 15/3/2007, <http://www.nytimes.com/2007/03/15/world/middleeast/15iraq.html?pagewanted=all>.

(٢٩) انظر: «معارك عنيفة بين قوات الأمن و«جيش المهدي» في البصرة.. واستنفار أمني في الجنوب،» الشرق الأوسط، ٢٦/٣/٢٠٠٨، <http://archive.aawsat.com/details.asp?issueno=10626&article=464255#.VwyJA9R97cs>. =

شرساً، لم يتوقف إلا بتدخل إيران والنجاح في التوصل في آذار/مارس إلى هدنة، وافق الصدر بموجبها على سحب مسلحيه من الشوارع. وفي أواخر ٢٠٠٨، وقعت حكومة المالكي اتفاقية مع إدارة بوش تضمنت تعهد الحكومة الأمريكية بسحب قواتها من المدن العراقية في حدود حزيران/يونيو ٢٠٠٩، ومن كامل البلاد مع نهاية ٢٠١١.

وعلى الجانب السنّي، بدا جلياً في عامَي ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧، أن شريحة واسعة من المجتمع السنّي، وبعد رحلة طويلة تلت مرحلة من التذبذب والتأرجح أعقبت الاحتلال الأمريكي سنة ٢٠٠٣، باتت بوضوح ضد القاعدة وما سيعرف لاحقاً بـ «الدولة الإسلامية في العراق». واجه شيوخ عشائر، ووطنيون عراقيون، وحتى ثوار متدينون، تنظيم «الدولة الإسلامية» وحاولوا طرده من مدنهم ومناطقهم. وبالفعل تحركت الأرض تحت أقدام «القاعدة» وفقدت ملجأها في قلب المنطقة السنية وباتت ـ من ثم ـ أمام خطر وجودي حقيقي. ومع العام ٢٠١٠، كان خلفاء الزرقاوي محاصرين، وفي موقف دفاعي؛ وكانوا يحتاجون لمعجزة سياسية ليظلوا موجودين، فكيف بتقدمهم.

أولاً: إخفاق المؤسسة السياسية

كان إخفاق المؤسسة السياسية العراقية ما بعد صدّام وانقسامها، ونزعة المالكي الاستبدادية المتزايدة منذ سنة ٢٠١٠ وما بعدها، عاملين رئيسيين في إنضاج البيئة المناسبة لـ «القاعدة» و«الدولة الإسلامية في العراق» للعودة والإمساك بالموقف من جديد. فقد أخفقت النخبة السياسية في دفع العراق إلى الأمام ومساعدته على الفرار من إرث الحكم البعثي في تاريخ البلاد، بما فيها الحروب والصراعات، والاستقطاب الطائفي المدمّر، والفساد المستشري. لم يصدم الإخفاق والمعاناة الطويلة والخداع العراقيين فحسب، بل هي همّشت أيضاً مشاعر الوحدة الوطنية عندهم؛ فتصفية البعث، وحلّ الجيش العراقي (مصدر دخل عشرات ألوف السنّة)، أغضب الجماعة السنية على أوسع نطاق. وطُرد من العمل ـ بموجب الإجراء المذكور ـ مسؤولون رسميون سابقون، وموظفون في القطاع العام، وأطباء، وأساتذة جامعيون، ومدرسون، ناهيك بالجنود العاديين. ولم يأخذ أصحاب القرار بعين الاعتبار أن عضوية الحزب في العهد السابق كانت شرطاً مسبقاً للتوظيف والعمل عموماً. وعليه، فقد كانت عملية إعادة البناء الجديدة أحادية الجانب ومتطرفة جداً في أهدافها ومراميها. ثم جاء تدمير مؤسسات الدولة العراقية قبل أن يتاح للبلاد أن تستقر وللمصالحة أن تتحقق، وكان ذلك أمراً حاسماً لاتصاله خصوصاً بالصعود الطائفي الذي رافق قلب نظام الحكم البعثي السابق. وفي مقابل تخلي نظام الحكم الوليد في بغداد عن الاختصاصيين، الذين لا ناقة لهم

= انظر أيضاً: «مقتدى الصدر يدعو لوقف «صولة الفرسان» والائتلاف يؤيدها،» الجزيرة.نت، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٨، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2008/3/27/%D9%85%D9%82%D8%AA%D8%AF%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%AF%D8%B1-%D9%8A%D8%AF%D8%B9%D9%88-%D9%84%D9%88%D9%82%D9%81-%D8%B5%D9%88%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%A6%D8%AA%D9%84%D8%A7%D9%81-%D9%8A%D8%A4%D9%8A%D8%AF%D9%87%D8%A7>.

ولا جمل في ما حدث، قدّمت البنى العشائرية التي لجأ إليها هؤلاء حضناً دافئاً. وكذا في ملايين العراقيين الذين أُجبروا بفعل العنف المستشري والخوف على حياتهم وأسرهم على التخلي عن مساكنهم واللجوء إلى الأمكنة الريفية أو المناطق العشائرية التي في وسعها توفير الأمان لهم. وكان للعنف تأثيره في الحكومة أيضاً. فقد غدا صعباً على الإداريين الوصول إلى مكاتبهم، وغدا جعل عجلة الدولة تدور مهمة أصعب. والحكومة التي تشكلت في أيار/مايو ٢٠٠٦ وفق خطوط طائفية - إثنية بدت عاجزة عن تحقيق مطلب الوحدة الوطنية، وأسهمت بالتالي في توفير الظروف المثالية لعمل الميليشيات الدينية والجماعات السلفية الجهادية. ورغم النجاحات الواضحة التي حققتها حتى العام ٢٠١٠ الصحوات و«أبناء العراق» في محاربة «القاعدة في العراق» إلا أن صلاتها الحسنة كانت في الواقع مع قوات التحالف وليس مع الحكومة. وفي حين نظر المالكي والنخبة السياسية الشيعية الحاكمة إلى الصحوات وأبناء العراق بكثير من الشك، فقد نظرت القيادة السياسية السنية إليهم أيضاً باعتبارهم منافسين وتهديداً لها.

وإذا كانت أرفع القيادات السياسية التي صنعت المشهد السياسي ما بعد صدّام قد صرفت الكثير من الوقت في منافيها خارج العراق، فإن «الصحوات» وعلى نقيض ذلك، كانت تملك الأرض ومعها قاعدة تأييد اجتماعية قوية لها داخل العراق. وإلى ذلك، كانت البنى القبلية والعشائرية في العراق قد شهدت تعزيزاً واضحاً من نظام صدّام بعدما بدا، منذ عام ١٩٩١ وما بعده، أنه يعاني ضعفاً شديداً، بنتيجة التمرد الشيعي في الجنوب من جهة، والعقوبات الدولية من جهة ثانية. ففي مسعى منه لرحرحة أوضاعه، لجأ نظام البعث إلى توزيع قبضته على البلاد بتعزيز سلطة زعماء العشائر العراقية[٣٠]. تلا انسحاب القوات الأمريكية وانتقال السلطة إلى الحكومة العراقية، محاولة بعض قادة «أبناء العراق»، بمن فيهم عناصر بعثية سابقة وميليشيات إسلامية، تشكيل حركة سياسية. أمِل هؤلاء أن الدور الذي مارسوه في محاربة التمرد سيسمح لهم بأداء دور رسمي في المستقبل السياسي للبلاد[٣١].

في هذا الإطار كانت الصحوات وطوال وجود القوات الأمريكية في العراق تتمتع بحمايتها والمديح لما أنجزته، حتى حين لا يكون بعض تكتيكاتها شرعياً. إلا أنه مع انسحاب القوات الأمريكية ونقل السلطة إلى الحكومة العراقية، جرى تجريم بعض أفراد الصحوات وأُخضع كثيرون من أفرادها للتحقيق، ما عمّق الانقسامات بين السياسات المحلية والوطنية[٣٢]. وبينما كان السنّة الذين عاشوا في مناطق شهدت عمليات للقاعدة، أو الصحوات، أو أبناء العراق، أبطالاً حقيقيين

(٣٠) لمعرفة المزيد عن علاقة صدام حسين بالعشائر العراقية، انظر: Amatzia Baram, «Neo- Tribalism in Iraq: Saddam Hussein's Tribal Policies, 1991-96,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 29, no. 1 (February 1997), pp. 1–31.

(٣١) Abdul-Ahad, «Meet Abu Abed: The US's New Ally against al-Qaida».

(٣٢) Ned Parker, «Sunni Leader Hero to U.S., Outlaw in Iraq,» *Chicago Tribune*, 5/7/2008, <http://articles.chicagotribune.com/2008-07-05/news/0807040300_1_sunni-fighters-tahseen-sheikhly-shiite-dominated-government>.

على المستوى المحلي، سرعان ما جرى تحميلهم على المستوى الوطني والرسمي مسؤولية جرائم نُسبت إليهم قبل انضمامهم إلى قوات التحالف أو بعده. وفي العام ٢٠٠٩ كان زعماء العشائر هدفاً لـ «الدولة الإسلامية في العراق» وللقوات العراقية في آن معاً. كذلك من الجدير الإضاءة على أن واقع تراجع مستويات العنف في البلاد سنة ٢٠٠٨ لم يمنع تزايد الهجمات في محافظة نينوى، ما يعني أن «القاعدة في العراق» كان لا يزال موجوداً، وكان يعمل جاهداً للعودة إلى المنطقة وتعزيز قاعدته هناك(٣٣).

قبل انتخابات آذار/مارس بوقت قصير، تعرضت الجماعة السنية لنكسة سياسية أخرى، إذ مُنع ٥١١ شخصاً، معظمهم من السنّة من الترشّح للانتخابات(٣٤). وقد أيقظت تلك الخطوات التوترات الطائفية من جديد، وبينما أدان البعض الإجراء ذاك، نظر إليه آخرون باعتباره محاولة بعثية للاستيلاء على السلطة. وكانت لجنة تصفية البعث هي التي اتخذت قرار منع الترشّح، علماً أن اللجنة هي برئاسة أحمد جلبي الذي اعتبره كثيرون في العراق، ومن جهات سياسية مختلفة، شخصيةً مثيرة للجدل، ويملك أجندته التي تقوم على شطب أي معارضة سياسية. وتناقض القرار ذاك أيضاً مع المزاج العام للحملة الانتخابية للمجالس المحلية سنة ٢٠٠٩، حيث حاول المالكي فيها تقديم نفسه كزعيم وطني لا زعيم طائفة. وحاول رئيس الوزراء أيضاً تجميل صورة حكومته بالوعد بتوفير خدمات اجتماعية أكثر، بما فيها وظائف أكثر ومزيد من الاستثمار في البنى التحتية والصحة والتربية. نجحت استراتيجية المالكي الانتخابية، وفاز «تحالف دولة القانون» الذي أسسه في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٩ علامة على النأي بنفسه عن الانقسامات الطائفية، بأكثرية مقاعد البرلمان. وأثبتت النتيجة أن الناخبين ومن مشارب مختلفة اقترعوا لمصلحة المرشحين العلمانيين ـ الوطنيين وضد الأحزاب ذات الخلفية الطائفية. ورغم أن الأصوات انقسمت وفق خطوط إثنية ـ طائفية بحيث بات مستحيلاً على أي حزب احتكار الأصوات وفق قاعدة طائفية ـ إثنية إلا أنه سجّل بوضوح رفض الأحزاب التي لم تقدم برنامجاً وطنياً علمانياً. وكان من ضحايا هذا التوجه لوائح المجلس الأعلى للثورة الإسلامية. وعليه استمر المالكي في ٢٠٠٩ مبتعداً بنفسه عن التحالف الوطني العراقي من خلال إدانته الانقسامات الطائفية وتأكيده أن الطريق في المستقبل هو للوحدة الوطنية والاندماج الداخلي.

وهكذا، وفي هذا الجو الوطني القوي الذي ساد انتخابات ٢٠٠٩، لم يتأخر السياسيون في تأكيد الحاجة إلى إعادة البناء والوحدة. ومع إعلان روزنامة انسحاب القوات الأمريكية، تراجع الخطاب ضد الاحتلال إلى الصفوف الخلفية. كما أن الفريقين، وعلى عكس انتخابات ٢٠٠٥، تجنبا الاستخدام المفرط للرموز الدينية، الشيعية والسنية. ركّز معارضو المالكي، بدلاً من ذلك،

(٣٣) «Measuring Stability and Security in Iraq,» US Department of Defense (March 2008), <http://www.defense.gov/pubs/pdfs/Master%20%20Mar08%20-%20final%20signed.pdf>.

(٣٤) Zaid al-Ali, *The Struggle for Iraq's Future: How Corruption, Incompetence, and Sectarianism Undermined Democracy* (New Haven, CT: Yale University Press, 2014).

على فشله الحكومي، وإدارته السيئة للاقتصاد، وبخاصة فقدان الخدمات الأساسية والأوضاع الاجتماعية السيئة. واتهموا الحكومة كذلك بالفساد الممنهج، ومشيرين تحديداً إلى وزير الاقتصاد فالح السوداني، المقرب من المالكي الذي اتهم باستغلال مركزه للكسب الشخصي. وبعد مساءلته أمام البرلمان في التهم المنسوبة إليه، حاول الوزير الفرار، إلا أنه أوقف قبل أن يتمكن من ذلك[٣٥]. أخذ منتقدو المالكي عليه نزعته الاستبدادية المتنامية، وانتهاكه القانون في حله لخصوماته السياسية[٣٦].

في ٧ آذار/مارس ٢٠١٠، ذهب اثنا عشر مليون عراقي إلى صناديق الاقتراع. خسر تحالف المالكي (دولة القانون) في الانتخابات تلك لمصلحة أياد علاوي، التحالف العراقي المدني. نال تحالف المالكي ٨٩ مقعداً، بينما نال تحالف علاوي ٩١ مقعداً، وحل ثالثاً التحالف العراقي الوطني، ثم التحالف الكردستاني. رفض المالكي النتائج التي خالفت كل توقعاته، وحذّر من مؤامرة من البعثيين السابقين، والإرهابيين والقوى الأجنبية[٣٧]. وبعد إصراره على إعادة احتساب الأصوات، انتهت العملية إلى تأكيد النتائج السابقة. إلا أن المالكي استمر قابضاً على الأغلبية بعدما جيّر «المجلس الأعلى» له أصواته فبات على رأس أكبر التكتلات البرلمانية وبات من حقه تشكيل الحكومة الجديدة. لم ينه قرار «المجلس الأعلى» الصراع السياسي الضاري الجاري، لكنه أتاح لرئيس الوزراء الاحتفاظ بمنصبه. مع ذلك، لم يستطع المالكي تشكيل حكومته إلا بعد تسعة أشهر من تكليفه. وفي أثناء ذلك كانت أوضاع البلاد الاقتصادية والاجتماعية تتجه إلى المزيد من التدهور. أكثر من ذلك، أظهر نجاح المالكي في تجاوز أزمته، ولو بصعوبة، أن السياسيين العراقيين مستمرون في لعبة السلطة التقليدية وفق العلاقات الإثنية ـ الطائفية وعلى خلاف إرادة الشعب العراقي كما أظهرتها الانتخابات. وهكذا جاءت حقبة ما بعد الانتخابات حافلة بالاضطراب الأمني وبالميل المتزايد لرئيس الوزراء نحو الاستبداد.

توسعت مصادرة المالكي لمؤسسات الدولة، لتشمل الجيش، والشرطة، والقضاء، والبنك المركزي. وفي احتكاره السلطة، تصرف المالكي بين ٢٠١٠ و٢٠١٤ كوزير للداخلية واحتفظ بوزارة الدفاع من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠ حتى آب/أغسطس ٢٠١١، واستخدم سلطته لتجاوز وزارة الدفاع من خلال تشكيل وحدات ترتبط به مباشرة وتتحرك بناء لأوامره[٣٨]. وقد أطلق العراقيون على الوحدات تلك اسم «فدائيو المالكي»، تيمّناً بـ «فدائيي صدّام»، التي زرعت

(٣٥) Nada Bakri, «Iraq's Ex-Trade Minister, Abdul Falah al-Sudani, Detained in Graft Investigation,» *Washington Post*, 31/5/2009, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2009/05/30/AR2009053001089.html>.

(٣٦) Steven Lee Myers and Anthony Shadid, «Leader Faulted on Using Army in Iraqi Politics,» *New York Times*, 10/2/2010, <http://www.nytimes.com/2010/02/11/world/middleeast/11iraq.html?_r=0>.

(٣٧) Rod Norland, «Maliki Contest Results of Iraq Vote,» *New York Times*, 27/3/2010, <http://www.nytimes.com/2010/03/28/world/middleeast/28iraq.html?_r =0>.

(٣٨) Judith S. Yaphe, «Maliki's Maneuvering in Iraq,» *Foreign Policy* (6 June 2012), <http://foreignpolicy.com/2012/06/06/malikis-manuevering-in-iraq/?wp_login_redirect=0>.

الرعب في أرجاء البلاد لسنوات. أحاط المالكي نفسه بسياسيين موالين مطواعين وملأ أجهزة الأمن بالتعيينات السياسية، الأمر الذي أضعف بنيوياً قدرة القوات المسلحة على الدفاع عن البلاد، ما ظهر جلياً حين استولى «داعش» سنة ٢٠١٤ على ثلث مساحة العراق من دون قتال. عزز المالكي أيضاً قبضته على الجيش والشرطة من خلال تعيين لواء للإشراف عليهما. ولم ينجُ الناس العاديون من نزعته الاستبدادية. فمع تصاعد غضب الناس لعجز الحكومة عن توفير الخدمات الأساسية لهم، وبخاصة الكهرباء والماء اللذان كانا يشهدان انقطاعات متكررة، نزل المتظاهرون المحتجون على ذلك إلى الشوارع في أنحاء البلاد وطالبوا بالمحاسبة، لكن أجهزة أمن المالكي تصدّت لهم. بعد ذلك جرى منع التظاهرات دون إبطاء، ودفع الناس من جديد إلى هامش الحياة السياسية في البلاد. بات من الذكريات لا أكثر مطلب المشاركة الشعبية والشفافية الحكومية التي حلم بهما العراقيون بعد التخلص من صدّام. لقد أعاد المالكي، برأي عراقيين كُثر، تشغيل الآلة الأمنية القمعية لنظام صدّام من خلال تأسيسه ميليشيات خاصة، ووحدات شرطة خاصة، وانتهاكاته المستمرة لحقوق الإنسان. أما الهدف من نهجه هذا فكان احتكار السلطة ومنع قيام معارضة منظمة[٣٩].

بلغت غطرسة المالكي ذروتها في تلاعبه بصلاحيات البرلمان، محاولاً تأسيس نظام سياسي يستجيب لأوامره لا لمكوّنات المجلس النيابي. فقد اقترح سنة ٢٠١٠، بالتعاون مع «مجلس القضاء الأعلى»، قانوناً دستورياً يحد من سلطة البرلمان وذلك بتقييد صلاحياته وحرمانه حق اقتراح التشريعات. وفي محاولة منه لمنع النواب من محاسبة الوزراء، أنهى المالكي حق البرلمان في استدعائهم للمثول أمامه. أخذت نزعته الاستبدادية شكل كرة ثلج متدحرجة لتشمل كل شيء، وازدادت عنفاً على وجه الخصوص بعد انسحاب القوات الأمريكية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١، فأقدم على اعتقال عشرات البعثيين السابقين في محافظات صلاح الدين، والأنبار، ونينوى، وديالا، حيث سجّل «التحالف العراقي» أفضل النتائج[٤٠]. وكل سياسي تجرأ على انتقاد المالكي، كان مرشحاً ليكون في مرمى نيرانه واستهدافاته. فأقدم على اعتقال شخصيات سنّية عدة رفيعة المستوى، وكانت الحجة التآمر والإعداد لانقلاب. استهدف المالكي شخصيات رفيعة في مقدمهم نائب الرئيس طارق الهاشمي، ووزير المالية رافع العيساوي، ووناثب رئيس مجلس الوزراء صالح المطلك، وجميعهم قادة في «التحالف العراقي». واكتمل استبداد المالكي بتجريد «المحكمة العليا»، برئاسة القاضي الأول مدحت المحمود، من استقلاليتها التي كانت حافظت عليها حتى ذلك الوقت بعيداً من المناورات السياسية. كان حجم السلطات التي تركّزت بين أيدي رئيس الوزراء ثقيلاً جداً وبات من الصعب على القضاء أن يبقى محايداً؛ فكانت الصفقة بين

(٣٩) IISS, «Iraq: Maliki Power Grab Risks Fresh Civil War,» *IIS Strategic Comments*, vol. 18, no. 3 (2012), pp. 1–3.

(٤٠) Al-Ali, *The Struggle for Iraq's Future: How Corruption, Incompetence, and Sectarianism Undermined Democracy*, p. 132.

المحمود ورئيس الوزراء بتسخير القضاء لرغبات المالكي. لم تنج حتى المؤسسات المستقلة من قبضة المالكي، فقد أجبر سنة ٢٠١١ رئيس «لجنة الاندماج»، القاضي رحيم العجيلي على الاستقالة[٤١].

في كانون الثاني/يناير ٢٠١١، أصدر القاضي الأول، المحمود، قراراً قضائياً وسّع من هيمنة المالكي على المؤسسات المتبقية في البلاد، بما فيها البنك المركزي، ولجنة الاندماج، واللجنة الانتخابية العليا، واللجنة العليا لحقوق الإنسان. وظهرت سيطرة المالكي على البنك المركزي واضحة في ٢٠١٢، إذ رفعت قضايا جنائية ضد الحاكم ونائبه. وإلى تضييقه على حرية حركة «التحالف العراقي»، جرى لوم المالكي أيضاً على تملّصه من اتفاقية أربيل، التي تضمنت حق التحالف في تعيين وزير الدفاع. فبعد رفضه عدة أسماء رشّحهم التحالف، احتفظ المالكي بالمنصب لثمانية أشهر، استغلها بدفع الموالين له إلى أرفع المراكز، ومؤكداً أن من سيخلفه يجب أن يكون موالياً له. وفي حزيران/يونيو ٢٠١١، سمّى أحد مستشاريه المقرّبين، فالح فيّاض، وزيراً للأمن الوطني، وسعدون الدليمي وزيراً للثقافة، وقائماً مقام وزير الدفاع.

تظهر برقية واردة إلى الخارجية الأمريكية من السفير رايان كروكر في بغداد، وفي ما يشبه الإدانة، أن الولايات المتحدة كانت على بيّنة من سلطوية المالكي المتعاظمة، واستمرت مع ذلك في دعمه علانية. تصف البرقية المالكي بـ«العُصابي»، وهي تلخّص كيف أدّت قراراته وسياساته إلى «تركيز شديد للسلطة بين أيدي الحلقة الداخلية من المسلمين الشيعة على حساب التدرّج الرسمي للسلطة». وتذهب البرقية أبعد من ذلك بالتحذير من أن المالكي ربما كان يسير على خطى [صدّام] حسين[٤٢].

ضاعفت سيطرة المالكي على الجيش من التوترات الطائفية، في ظل اتهام السنّة له في فترته الثانية بتحويل أجهزة الأمن إلى ميليشيا كبرى قد يبلغ تعدادها خمسمئة ألف جندي يقودهم الشيعة[٤٣]. ويأتي في السياق نفسه، العدد الكبير من عناصر الحماية التي أحاط بها نفسه رئيس الوزراء، والوزراء، والمحافظون، والمسؤولون الرفيعون، وكذلك الرئاسة بالتأكيد. على سبيل المثال، كان نائب الرئيس طارق الهاشمي يحتفظ ليس بعشرات الحراس الشخصيين بل بثمانمئة عنصر حراسة. وكذلك حال المالكي، وعلاوي، والنجيفي. أما الرئيس فكان لديه فرقة حماية كردية مؤلفة من ستة آلاف عنصر، تقيم عموماً في القطاع الرئاسي من بغداد. وعليه، لم يكن مستغرباً في شيء أنه لم تكن هناك قوى أمنية لتقاتل «داعش» في الموصل سنة ٢٠١٤، وحيث

(٤١) Patrick Cockburn, «Iraq Regime Tries to Silence Whistleblowers,» *Independent*, 29/9/2011, <http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/iraq-regime-tries-to-silence-corruption-whistleblowers-2362637.html>.

(٤٢) Ryan C. Cocker, «Maliki Reshapes the National Security System,» WikiLeaks, 15 May 2007, <http://www.wikileaks.org/plusd/cables/07BAGHDAD1593_a.html>.

(٤٣) جمال محمد تقي، «ظاهرة الدولة الميليشياوية في العراق بين التحجيم والتعميم!،» القدس العربي، ٢٠١٥/٤/٢٢، <http://www.alquds.co.uk/?p=330699&print=1#comments_controls>.

كانت تتمركز على الضفة اليسرى من دجلة أضخم ثكنات الجيش ومخازنه، وحيث لم يحدث أيضاً أي قتال. لقد اختفى الجيش ببساطة، وكانت وحداته وفق بعض التقارير أفضل وحدات الجيش تدريباً وتجهيزاً، إضافة إلى وحدات الشرطة الفدرالية التي كانت تتمركز على الضفة اليمنى من النهر.

أسهم احتكار المالكي للسلطة، وإساءة استخدامه لها، في دفع النظام السياسي إلى المزيد من الفشل ووضع البلاد بالتالي على الحافة. وبعد اعتقال القادة الثلاثة من «التحالف العراقي»، حذّر المطلق (نائب رئيس الوزراء)، من أن الكتلة ستقاطع اجتماعات الحكومة، وقال: «سبب هذا القرار هو التخريب الجاري للعملية السياسية، وبهدف الحيلولة دون انزلاق البلاد إلى كارثة بفعل ديكتاتورية المالكي المستمرة». استمر المطلك في نقد رئيس الوزراء على قناة «البابلية» التلفزيونية التابعة له، ووصفه بأنه «أكثر سوءاً من صدّام حسين»[44]. لكن موقف المطلك هذا من المالكي كلّفه في النهاية موقعه الوزاري فجرت إقالته لاحقاً. ودفع ذلك العلاوي، زعيم كتلة «العراقية» إلى دق جرس الإنذار:

«البلاد تعود بسرعة إلى الوراء نحو حكم الرجل الواحد، تطور خطير سيقود إلى الدكتاتورية الكلية... والسيّد المالكي يعتمد أكثر فأكثر على بيروقراطية ققفازية اتصفت بالفساد والتوحش، ويطمئن إلى قضاء مدجّن سلاحاً ضد معارضيه السياسيين فيما هو يخفي جرائم المقربين منه. لقد أخفقت الحكومة في توفير الخدمات السياسية، بما فيها المياه النظيفة، الكهرباء، وتدني مستوى الرعاية الصحية؛ ونسبة البطالة بين شبابنا المحبط هي فوق ٣٠ بالمئة ما يجعل منهم فريسة سهلة للإرهابيين؛ والوضع الأمني من سيئ إلى أسوأ يومياً رغم الزيادة في القوات الأمنية الخاصة. إلا أن بعضاً من هذه القوات أصبح جزءاً من المشكلة، وذلك باستخدامها، وفق تقارير منظمات حقوق الإنسان الدولية، غرف تعذيب ترتبط مباشرة برئيس الوزراء شخصياً»[45].

مع ذلك، لم يؤخذ نقد علاوي للمالكي على محمل الجد، لأن شعبيته بين أفراد الطبقة الوسطى العلمانية الوطنية في العراق كانت قد تدنت إلى درجة منخفضة. فعراقيون كثيرون انتقدوا علاوي لانضمامه إلى حكومة لم تستطع توفير الخدمات الأساسية وتورطت في قمع التظاهرات الشعبية (وسنعود إلى ذلك لاحقاً).

لقي إنذار علاوي صدى إضافياً في نيسان/أبريل ٢٠١٢، حين كرر مسعود برزاني، رئيس الإقليم الكردي ذي الحكم الذاتي، كلمات علاوي نفسها:

«يواجه العراق أزمة خطيرة ... إنه يتجه نحو حكم الفرد الواحد... لدينا وضع في بغداد حيث رجل واحد هو رئيس الوزراء وهو في الوقت نفسه القائد العام للقوى المسلحة، هو وزير الدفاع،

---

(٤٤) «VP Arrest Warrant Plunges Iraq into Crisis,» *Daily Star*, 29/12/2010, <http://www.dailystar.com.lb/ArticlePrint.aspx?id=157339&mode=print>.

(٤٥) Ayyad Allawi, «Iraq's Slide toward Renewed Violence,» *Washington Times*, 9/4/2012, <http://www.washingtontimes.com/news/2012/apr/9/iraqs-slide-toward-renewed-violence>.

ووزير الداخلية، ومدير الاستخبارات. ويدأ في الآونة الأخيرة يفاوض لوضع البنك المركزي تحت سلطة رئيس الوزراء. أين تجدون في العالم مثل هذا الوضع؟»[٤٦].

من بين كل العوامل التي غذّت صعود «داعش»، كان عجز التحالف والمؤسسة السياسية العراقية عن توفير مشروع وطني جامع وإعادة بناء المشهد السياسي في المقدمة. فبدلاً من الابتعاد عن الاستبداد السياسي وعبادة الشخصية اللتين جسّدهما صدام حسين لسنوات، أخفقت الطبقة السياسية التي ورثت ذلك الفساد في أن تنهي الطائفية والتفتت الاجتماعي. وحتى العراقيون الذين تعاونوا مع القوات الأمريكية والحكومة العراقية ضد «القاعدة في العراق» سقطوا ضحية الانقسام الطائفي. فباستثناء الحركة الصدرية والأحزاب السياسية الكردية، ورغم أن تنظيمات مثل «حزب الدعوة الإسلامية» تملك قاعدة اجتماعية مهمة، فإن معظم السياسيين العراقيين الرفيعين في عراق ما بعد ٢٠٠٣ كانوا في المنفى، الأمر الذي كان يثير دائماً حنق الشعب العراقي. كان العراقيون يشعرون بالمرارة حيال الحياة المرفّهة التي يعيشها السياسيون المنفيون في الخارج بينما هم عانوا شخصياً من قمع صدّام. الإقامة في الخارج كانت واحداً من العوامل التي أضعفت نُخب ما بعد صدّام وصلاته مع الشعب العراقي، وسببت لهم بفقدان الفهم أو التقييم الصحيح للمشكلات الاجتماعية والسياسية التي تعيشها البلاد. على سبيل المثال، فقد تلا الغزو الأمريكي للبلاد سنة ٢٠٠٣ المبادرة إلى استئصال البعث من البلاد، وكانت تلك فرصة حقيقية لم تستغلها النخبة الحاكمة لتأخذ خطوات جدية لتملأ الفراغ الذي أحدثه استئصال البعث، وما ارتبط منه بهوية العراق الجديد على وجه الخصوص. وسط هذا الغياب للأفكار وهذه الفوضى الاجتماعية، اللذين تعززا بتفكك المؤسسات الأمنية العراقية والمقاومة المسلحة، لم يكن هناك من رؤية وطنية واضحة لتحل محل النظام القديم، ولا من رمز جامع يستطيع أن يمثّل العراقيين ككل.

إضافة إلى ذلك، ورث العراق تحديات حادة من حقبة صدّام، التي غدت مشكلات أكثر تأزماً بفعل سياسات إعادة البناء القاصرة اللاحقة. لقد جعلت سياسات المالكي، خصوصاً، في الإقصاء والطائفية البلاد على شفا انفجار خطير. فحكومته التي يهيمن عليها الشيعة عاملت العرب السنّة كمواطنين من الدرجة الثانية. بل هي أوحت في أكثر من إشارة إلى الجماعة السنية في العراق بأن الأغلبية العددية التي يتمتع بها الشيعة، إضافة إلى القمع الذي مارسه نظام صدّام ضدهم، تمنحهم ترخيصاً باحتكار السلطة. وفي النهاية شكّلت سياسات المالكي القاصرة، وارتماؤه في حضن إيران، وتزايد نزعته الاستبدادية، وعجزه عن مكافحة الفساد، وسجّله في انتهاك حقوق الإنسان، الوقود الذي كان يحتاج إليه «داعش» لصعوده السريع.

(٤٦) Josh Rogin, «Kurdish Leader: No to Arming the Syrian Opposition,» *Foreign Policy* (5 April 2012), <http://foreignpolicy.com/2012/04/05/kurdish-leader-no-to-arming-the-syrian-opposition/>.

ثانياً: ترخيص جديد للبقاء:
نوري المالكي وانتفاضات الربيع العربي

هناك بعض الأسئلة ذات الصلة بين الجماعة السنّية و«داعش» تستحق البحث: لماذا رحّب سنّة عاديون بعودة «داعش» بعدما كانت أكثرية السنّة ثارت على التنظيم الأم منذ بضع سنين؟ ما هي العوامل الاجتماعية والسياسية التي وفّرت لـ «داعش» الترخيص بالحياة من جديد؟ كيف أمكن لشبكة سرية، محاصرة، وفي موقف دفاعي، أن تدير معركة ضد أعداء أقوى منها كثيراً وأن تستولي بسرعة لا تصدّق على ثلث أراضي العراق ونصف أراضي سورية تقريباً؟ كيف نجحت في الاندماج بفقراء السنّة المحليين العراقيين والسوريين وتؤسس قاعدة مهمة لها؟

ما لا شك فيه، أن «داعش» قد تعلّم دروساً مهمة من سابقيه، فتجنب بعناية ارتكاب الأخطاء التي ارتكبتها سابقاً «القاعدة في العراق» و«الدولة الإسلامية في العراق» بينما كانت تبني شبكتها داخل المجتمعات السنية المحلية. فقد استند «داعش» في شكله الجديد ومن حيث المبدأ إلى التعاون والشراكة، أكثر منه إلى القهر والتصلب الأيديولوجي. يمكن لجهة تصنيف الأسباب أن نتحدث عن أربعة متغيرات تستطيع أن تفسّر الصعود الصاعق لـ «داعش». الأول، هو حال التذمر والاضطراب الذي تُركت فيه الصحوات في المجتمعات السنية، أكان من جهة الولايات المتحدة أم من جهة الزعماء السنّة الغارقين في منافساتهم، إضافة إلى الفساد في البرنامج الذي أنشأه ودعمه الأمريكيون والعراقيون[47]. وكانت «الدولة الإسلامية في العراق» قد استُغلت من قبل هذه المنافسات والتناقضات داخل الجماعة السنية وتعاونت مع السنّة غير الراضين عن أحوالهم.

الثاني، ما كان بوسع البغدادي وقيادييه أن ينجحوا لولا الأخطاء الكارثية التي ارتكبتها الحكومة المركزية في بغداد. فقد قدّم رئيس الوزراء المالكي لـ «القاعدة في العراق» ترخيصاً بالحياة من خلال إهماله الخدمات، والفشل في إدخال السنّة في العملية الاجتماعية والسياسية، ونزع الصحوات من جداول الرواتب. وهكذا تحركت من جديد عربة «الدولة الإسلامية في العراق» التي كانت توقفت، وذلك بفعل إخفاقات إجراءات المالكي المترددة في مصالحة المتمردين السنّة ومقاربة مطالبهم المحقة.

أما قوة الدفع الثالثة فقد وفّرتها الانتفاضات العربية الواسعة النطاق التي بدأت بين ٢٠١٠ و٢٠١٢، والتي تحولت إلى تحركات عنيفة في سورية ثم انزلقت إلى حرب أهلية شاملة. أحسن البغدادي ومساعدوه الإفادة من تفكك مؤسسات الدولة في سورية المجاورة من أجل مدّ شبكاتهم الاجتماعية بين الجماعات السنية المحلية في بلد مزقته الحرب واستنزفت مصادره وثرواته الغنية. كانت سورية، لـ «داعش» بأهمية العراق لأنها أعطت التنظيم عمقاً استراتيجياً ومكاناً واسعاً للمناورة،

(٤٧) Nour Malas and Ghassan Adnan, «Sunni Tribes in Iraq Divided over Battle against Islamic State,» *Wall Street Journal*, 22/5/2015.

وقد تبيّن لاحقاً أهمية ذلك. فقد تلقى «داعش» عائدات عالية لاستثماره في سورية، واستخدم ذلك ليتوسع ويزداد قوة في العراق سنة ٢٠١٤. واليوم، توفّر سورية والعراق معاً لـ «داعش» أسباب البقاء والقوة، بما فيها التجنيد للشباب، والمال، والأرض.

والعامل الرابع والأخير، هو قدرة «داعش» على إعادة الارتباط بالمجتمع السني الريفي من خلال التحالف، ولو مؤقتاً، مع الجماعات والميليشيات المحلية. وكانت البلاد قد اندفعت، كسواها في المنطقة، في موجات من تظاهرات الاحتجاج السلمية الداعية إلى الإصلاحات، إلا أن المزاج سرعان ما تبدّل في المناطق السنية. فبعد تصاعد القمع الرسمي للتظاهرات السلمية الأولية، غدا المطلب الرئيسي استقالة المالكي، وبرزت إلى السطح تشكيلات من الجماعات السياسية أو التنظيمات المسلحة، بحيث غدا من الصعب التمييز بين المحتجين السلميين والمسلحين. في غضون ذلك، انضم إلى «داعش» بعثيون سابقون من رتب عالية تحوّلوا إلى السلفية الجهادية، ما سهّل عليها العمل مع الفصائل الوطنية.

تلاقت سياسات المالكي التقسيمية مع انتفاضات الربيع العربي، التي بلغت ذبذباتها العراق، لتوفّر لـ «داعش» نصيباً أوفر من النجاح. ففي ١٢ شباط/فبراير نظمت العشرات من التظاهرات في العراق احتجاجاً على سياسات الحكومة، وبخاصة على الفساد المستشري فيها وفشلها في توفير الخدمات الأساسية. تجمّع مئات العراقيين في ساحة التحرير في بغداد، وهم يهتفون «لا، لا للفساد» و«مسؤولو الحكومة سارقون». في اليوم نفسه أقدم رجل في الثلاثين من عمره، وأب لأربعة أطفال على إحراق نفسه في الموصل احتجاجاً على البطالة. وبالرغم من ضعف خدمات التواصل عبر الإنترنت في العراق، استخدم الناشطون وصحافيون وسائل التواصل الاجتماعي مثل الفايسبوك لترويج التظاهرات. وفي مطلع شباط/فبراير، افتتحت صفحات جديدة عدة على الفايسبوك، ومعظمها بخلفيات وطنية وعلمانية، تطالب بخدمات عامة أفضل وبنهاية للفقر والفساد المتفاقمين. وحملت لافتة على صفحة جماعة محتجة، «سنّي، مسيحي، شيعي، صابئي، أيزيدي... كلها ليست الهوية... المهم أن دمي عراقي»[48]. بالإضافة إلى دعوات الإصلاح، جاء في صفحات جماعات الفايسبوك شعارات أخرى من مثل، «بغداد ليست قندهار»، وأخرى انتقدت الدعم الحكومي لتزايد النفوذ الديني، بدليل حظر البارات وحانات الشراب في العاصمة كلياً[49].

في ٢٥ شباط/فبراير، أو ما سمّي يوم الغضب، خرجت أضخم تظاهرة ضد الحكومة، حيث تجمع عشرات ألوف العراقيين في ما لا يقل عن اثنتي عشرة تظاهرة جرى تنظيمها في أرجاء البلاد، بما فيها العاصمة، بغداد. منع المالكي البث الإعلامي الحي للتظاهرات، في الوقت الذي سقط

---

(٤٨) تأسست في ١ شباط/فبراير ٢٠١١ وتحمل شعار «الثورة العراقية الكبرى»، <http://www.facebook.com/Iraqe.Revolution>.

(٤٩) Stephanie McCrummen, «Iraq Protests: A Younger Generation Finds Its Voice,» *Washington Post*, 21/3/2011, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2011/03/16/AR2011031602331.html?wprss=rss_world>.

ما لا يقل عن ثلاثة وعشرين شخصاً برصاص قوات الأمن - بمن فيهم ستة في الفلوجة، وستة في الموصل، واثنان في كردستان، وثلاثة في بغداد(٥٠).

في البصرة، أُجبر المتظاهرون الغاضبون حاكم المدينة على الاستقالة وكذلك كامل مجلس مدينة الفلوجة. وأُجبر حاكم مدينة الموصل، الذي كان في الفلوجة، على الفرار من المدينة. بعد أسبوع واحد، ورغم وحشية القمع، جرت الدعوة إلى يوم غضب ثانٍ(٥١). وفي بغداد هتف ألفا متظاهر «نوري المالكي، كاذب، كاذب»، «النفط للشعب، لا للّصوص»، و«نعم للديمقراطية وحماية الحريات». في الموصل تجمع ثلاثة آلاف متظاهر، وكذلك في البصرة والنجف والناصرية.

وفي مسعى منها إلى منع الناس من الوصول إلى أمكنة التظاهر، منعت حكومة المالكي سير العربات في بغداد والمدن الرئيسية الأخرى. وكان من شدة التظاهرات أن أجبر ثلاثة حكام محافظات جنوبية ورئيس بلدية بغداد على الاستقالة. وفي خلال ثلاثة أسابيع من التظاهرات، كان قد سقط تسعة وعشرون قتيلاً، واعتقلت الحكومة أكثر من ثلاثمئة، بمن فيهم صحافيون وشعراء ومثقفون ومقدمو برامج تلفزيونية(٥٢). ومع أن التظاهرات لم تلقَ غير القليل من تأييد زعماء الشيعة العلني، مع دعوتهم إلى الإصلاح، انفرد رجل الدين الراديكالي مقتدى الصدر بالتأييد العلني، محذّراً المالكي بقوله، «احذر الربيع العربي في العراق»(٥٣).

في مواجهة هذا التذمر الشعبي، وعد المالكي باقتطاع ٥٠ بالمئة من راتبه الشهري، وأعطى أعضاء حكومته مهلة ١٠٠ يوم لتحسين مستوى أدائها، ومحاربة الفساد، أو مواجهة الإقالة. ودعا أيضاً إلى انتخابات مبكرة في المحافظات للاستجابة لمطالب الناس، لكن ذلك لم يجد طريقه إلى التنفيذ حتى نيسان/أبريل ٢٠١٣.

حتى عام ٢٠١٢، لم تكن العلاقة بين الحكومة والجماعة السنية قد تحسنت. كان العراقيون بوجه عام غاضبين لفشل نظام المالكي في الوفاء بوعوده، كما أن قمعه المتظاهرين لم يساعده على بناء العلاقة تلك. كان الجمهور السنّي غاضباً أيضاً بسبب تهميش الحكومة له، كما الأحزاب السياسية السنية أيضاً. في الوقت نفسه، كانت الاحتجاجات تندلع في مدن عدة، بما فيها الموصل، اعتراضاً على تمديد انتداب القوات الأمريكية في العراق، بينما انتقل رجال العشائر من الرمادي والفلوجة

---

(٥٠) Stephanie McCrummen, «23 Killed in Iraq's «Day of Rage» Protests,» *Washington Post*, 25/2/2011, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2011/02/25/AR2011022502781.html>.

(٥١) «Protesters Take to Iraq's Streets Despite Vehicle Ban,» Radio Free Europe Radio Liberty (4 March 2011), <http://www.rferl.org/content/protesters_iraq_streets_vehicle_ban/2327895.html>.

(٥٢) Stephanie McCrummen, «After Iraq's Day of Rage, a Crackdown on Intellectuals,» *Washington Post*, 27/2/2011, <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2011/02/26/AR2011022603345.html?wprss=rss_world>.

(٥٣) Yasir Ghazi and Christine Hauser, «Moktada al-Sadr Encourages Demonstrations in Iraq,» *New York Times*, 1/1/2013, <http://www.nytimes.com/2013/01/02/world/middleeast/moktada-al-sadr-encourages-demonstrations-in-iraq.html>.

انظر أيضاً: Adam Schrek, «Iraqi Shiite Cleric Lends Support to Sunni Protest,» Yahoo News, 1 January 2013, <http://news.yahoo.com/iraqi-shiite-cleric-lends-support-sunni-protest-112135871.html>.

والنجف وكركوك لدعم الاحتجاجات[٥٤]. في السنة نفسها سرّعت الحكومة تنفيذ أحكام الإعدام بالسجناء، دافعة بمئة وتسعة وعشرين شخصاً إلى الموت، بينما كانت منظمات حقوق الإنسان تضيء على الاستخدام المتمادي للتعذيب بهدف إجبارهم على «الاعتراف» وعلى فقدان الشفافية في معظم المحاكمات[٥٥]. انتقدت المفوضية العليا في الأمم المتحدة لحقوق الإنسان الإعدامات أيضاً، كذلك طلبت المفوضة السامية لحقوق الإنسان في كانون الثاني/يناير توقفاً مباشراً عن تنفيذ أحكام الإعدام في العراق، بعدما نفذت الحكومة أربعة وثلاثين إعداماً في يوم واحد لتهم تتصل بالإرهاب[٥٦]. وفي تقرير لهيومان رايتس ووتش، انتقدت المنظمة أيضاً استهداف النساء من قبل قوات الأمن: فقد اعتقل بعضهن بسبب أنشطة قام بها أزواجهن، فسُجِنَّ وعُذِّبنَ، وضُربنَ، واغتُصبنَ[٥٧].

تزامن الغضب السنّي من طريقة معاملة الحكومة للسجناء، وبخاصة النساء، مع إطلاق عملية لـ «داعش» سماها «تحطيم الجدران». شنّ «داعش» حملته في تموز/يوليو ٢٠١٢ مع هدفين في الواجهة: تأمين إطلاق السجناء، وإعادة امتلاك الأراضي التي فقدها في السنوات السابقة. ورغم إعلان البغدادي أن هدف حملة «تحطيم الأبواب» هو توفير المهارات الضرورية لحماية الجماعة، إلا أنه استهدف أيضاً مسألة تتمتع بوقع خاص في قلوب المجتمع السني. ففي كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، تصاعد التوتر بعد حملة حكومية على رافع العيساوي، وزير المالية آنذاك، وتوقيفها اثني عشر شخصاً من حراسه، ما قاد إلى المزيد من التظاهرات، في الفلوجة أولاً. وبينما دعت التظاهرات السابقة إلى توفير خدمات عامة أفضل، رفع المتظاهرون هذه المرة مطلب استقالة المالكي. وفي الحقيقة، كان يوم ١٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢ نقطة تحول في الاحتجاجات: ففي حين جرت الموجة الأولى تحت عناوين وطنية، ركّزت الموجة الثانية على ما رأى فيه السنّة تعميق النظام للطائفية.

وصبّ دعم المالكي للرئيس بشّار الأسد في الحرب الجارية في سورية الزيت على النار في العراق وزاد من مخاوف السنّة المتزايدة. تمددت التظاهرات سريعاً إلى محافظتي الرمادي والأنبار، ومدن سامراء والموصل، وأحياء في بغداد. وفي ٣٠ كانون الأول/ديسمبر، انتقل نائب رئيس الوزراء صالح المطلك إلى الرمادي في محاولة منه للانضمام إلى المتظاهرين، لكن الجمهور هاجمه ومنعه من ذلك. في حدود كانون الثاني/يناير، خرجت التظاهرات أيضاً في محافظتي صلاح الدين وديالا. ومع اشتداد الاحتجاجات ضد الحكومة في المناطق ذات الأغلبية السنية، خرجت تظاهرات مؤيدة للحكومة في المدن الجنوبية الشيعية، معمّقة الانقسام بين الجماعتين. وتصاعدت في الأشهر القليلة

(٥٤) Jamal Al-Badrani, «Iraqis Rally against US Troops Presence,» Reuters, 24 April 2011, <http://www.reuters.com/article/2011/04/24/us-iraq-protests-idUSTRE73N21C20110424>.

(٥٥) «Death Row Sentences and Executions 2012,» Amnesty International (2013).

(٥٦) «Pillay Condemns Execution of 34 Individuals in One Day in Iraq,» Geneva Centre for Justice (24 January 2012), <http://www.gicj.org/index.php?option=com_content&task=view&id=124&Itemid=52>.

(٥٧) «Iraq: Security Forces Abusing Women in Detention,» Human Rights Watch (6 February 2014), <http://www.hrw.org/news/2014/02/06/iraq-security-forces-abusing-women-detention>.

اللاحقة وتيرة التظاهرات على الضفتين. ومع تجدد التظاهرات الطائفية، انتشرت أعمال العنف وغدت خارج السيطرة، وظهر ذلك في أعمال التفجير المتبادلة بين السنّة والشيعة. ومع اشتداد العداء السني ـ الشيعي، أخذت عملية «تحطيم الأبواب» لـ «داعش» المزيد من البعد الطائفي، وذلك بتحول الجماعة إلى الهجوم على الشيعة المدنيين في محاولة منه لإشعال حرب شاملة.

هكذا عادت في حدود ٢٠١٣ معدلات العنف في العراق إلى مستوى الذروة التي كانت عليها سنة ٢٠٠٨. ففي سنة واحدة أعلن «داعش» مسؤوليته عن عشرين موجة من الهجمات القاتلة وثماني عمليات تحطيم للسجون، التي بلغت ذروتها في الهجوم على سجن أبو غريب. ركّز «داعش»، من حيث المبدأ، على معاقله السابقة في شمال العراق، إلا أنه سرعان ما وجّه هجماته بطريقة متصاعدة ضد المناطق ذات الأغلبية الشيعية. في تلك النقطة، كان خيار «داعش» محاولة السيطرة على المناطق المحاذية لحدود العراق مع سورية، ما يوفّر ممراً لمقاتليه في محافظتي الأنبار ونينوى لتهريب المعدات والرجال بين البلدين المتجاورين.

باختصار، لقد غذّت التظاهرات، والقمع، والفوضى المتزايدة، قوة الجماعات المسلحة، بما فيها «داعش» والبعث في تشكيلاته المختلفة، التي كانت لوهلة خلت قد ضعفت إلى أقصى حد. وفي صيف ٢٠١٣، شكّل زعماء العشائر الذين جرى تهميشهم من طرف الحكومة، بمن فيهم الصحوات وأبناء العراق، «المجلس العسكري العام لثوار العراق»، الذي انتظمت فيه الميليشيات العشائرية المتقاربة. أعلن التجمع عن تأسيسه رسمياً في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، قائلاً إن مسرح عملياته يشمل الأنبار والفلوجة والموصل وصلاح الدين والتأميم وبغداد وأبو غريب وديالا والدهلية. وصف المجلس نفسه كحركة وطنية غير طائفية تهدف إلى قلب نظام المالكي. وبالإضافة إلى دعوة العراقيين إلى دعم قضيته، دعا البيان خصوصاً العشائر الشيعية في الجنوب إلى الانضمام إلى الحركة[٥٨]. إلا أن معظم أعضاء المجلس هم من السنّة العرب الذين كانوا في الصحوات أو «أبناء العراق»، أو كانوا ضباطاً بعثيين سابقين. وفي الوقت الذي أعلن المجلس انضمام عراقيين متظاهرين من كل الطبقات إلى صفوفه، شنّت قوى الأمن غارة على منزل عضو البرلمان العراقي النائب أبو أحمد العلواني في منزله في الرمادي في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣ قتل فيها ثمانية عشر شخصاً، كما جرى اعتقاله لاحقاً[٥٩].

وذاك الحدث، برأي مصادر أخرى، هو سبب صعود «داعش» في المنطقة على وجه الخصوص[٦٠]. فقد دعم العلواني التظاهرات في الأنبار، الأمر الذي أغضب الحكومة. وأثار

---

(٥٨) تلفزيون الرافدين، «البيان الأول للمجلس العسكري العام لثوار العراق،» يوتيوب، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، <https://www.youtube.com/watch?v=bV-y5B_Vbl0>.

(٥٩) «Iraq MP Ahmed al-Alwani Arrested in Deadly Ramadi Raid,» BBC, 23 December 2013, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-25534541>.

(٦٠) «نزوح الآلاف من سكان الفلوجة وسط تفاقم الاشتباكات والقصف،» شبكة الإعلام العربية (محيط)، ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، <http://www.moheet.com/2014/01/06/1863786/%D9%86%D8%B2%D9%88%D8%AD-%D8 =

استهداف المالكي للعلواني السنّة في الأنبار، وتلا ذلك الكثير من الفوضى السياسية والاجتماعية. وبالرغم من زعم «المجلس» الانتماء إلى خط علماني ـ وطني، فقد عمل مع حركات اجتماعية ـ سياسية مثل «هيئة الأمة الإسلامية» كما مع فصائل إسلامية مثل «جيش الإسلام» و«جيش رجال الطارق النقشبندي»، الجماعة التي يقودها عزت الدوري. كان الدوري سابقاً أحد الرجال الأقوياء المقربين جداً من صدّام، وشغل مراكز رئيسية مثل نائب الرئيس، ونائب رئيس «مجلس قيادة الثورة».

طوال الثمانينيات، شكل جيش رجال طارق النقشبندي (ج.ر.ط.ن) الشبكة الراعية للنظام، منتزعاً من أعضائه الولاء التام له. ضمّ ذاك «الجيش» العراقيين الأثرياء والعائلات العسكرية. وقد تضاعف عديد هذا «الجيش» في التسعينيات بنتيجة حملة الأسلمة التي شرع بها صدّام بعد حرب الخليج الثانية. ورغم أن التنظيم يصف نفسه باعتباره جمعية صوفية، لكنه اكتنه أيضاً السلطة والنفوذ. وبقي إلى ذلك، وخلال الفترة الأولى التي تلت الاحتلال الأمريكي، من دون دعاية زائدة، بل هو لم يعلن رسمياً عن وجود ذراع عسكرية مقاومة له حتى ٢٠٠٦، أي إلى حين إعدام صدّام. تألف «الجيش» خصوصاً من جنود الحرس الجمهوري السابق ومن ضباط في الجيش والشرطة، وكان هدفه الرئيسي قلب النظام الذي نشأ في العراق وإلغاء الدستور الذي جرى إقراره في ظل الاحتلال. في حدود ٢٠١٣، أظهر «النقشبندي» في خضم دورة العنف الجارية المزيد من القوة، كما أيّد الدوري علناً التظاهرات[٦١]. وحين تحدى المتظاهرون أوامر المنع من النظام في نيسان/أبريل كان هناك مجزرة بانتظاره، إذ سقط منهم ثلاثة وخمسون قتيلاً على أيدي قوات الأمن في الجويجة، قرب كركوك، ما زاد قوة عضد التمرد المسلح ضد حكومة المالكي[٦٢].

منذ مطلع سنة ٢٠١٣ بات من الصعب معرفة من يقود التظاهرات، إذ اختلط المسلحون بالمدنيين، بينما كان عنف قوات الأمن لا يفرّق بين الاثنين. قفز «داعش» إلى مقدم المشهد هذا وأعلن في خطوة ذكية تأييده السنّة، ما سمح له بانخراط سهل بين أوساط المجتمع المحلي. وانطلاقاً من نجاحاته في سورية، فقد عزز التنظيم قوته في العراق. ولم يجد من السنّة الغاضبين لاستبعادهم وتهميشهم أي معارضة لانخراط التنظيم بين ظهرانيهم. وزاد من قوته لاحقاً تعاونه الوثيق مع جماعات وطنية ـ بعثية قوية مثل «المجلس العام» و«جيش النقشبندي»، ولكليهما قواعد تأييد صلبة في المناطق الريفية التي كان طُرد إليها «داعش» في أثناء بروز الصحوات وانتشارها.

إلى ذلك، وكما يلاحظ الباحث في الاقتصاد السياسي، كامل مهدي، فقد كانت المناطق الريفية للأنبار وديالا وصلاح الدين ونينوى الأكثر تهميشاً مقارنة بسائر العراق والأكثر إحساساً بالغبن،

= %A7%D9%84%D8%A2%D9%84%D8%A7%D9%81-%D9%85%D9%86-%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D9%88%D8%AC%D8%A9-%D9%88%D8%B3%D8%B7-%D8%AA%D9%81%D8%A7%D9%82.html#.VwyMYdR97cs>.

(٦١) Salman Raheem, «Fugitive Saddam Deputy Lends Support to Iraq Sunni Protests,» Reuters, 5 January 2013, <http://www.reuters.com/article/2013/01/05/us-iraq-protests-douri-idUSBRE9040BV20130105>.

(٦٢) «Deadly Anti-government Violence Grips Iraq,» Al Jazaeera, 27 April 2013, <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/04/201342610411101447.html>.

وكانت بالتالي معاقل تقليدية «للقاعدة في العراق» أولاً، ثم لـ «داعش» لاحقاً. في سنة ٢٠١٢ شكلت المناطق الريفية من هذه المحافظات حوالى ٥٠,٧ بالمئة من إجمالي عدد القاطنين فيها، وفوق المعدل العام في العراق البالغ ٣١,٧ بالمئة. وكانت نسبة التريف في نينوى ٤٠ بالمئة، رغم أنها تضم الموصل، ثاني أكبر مدينة في العراق[٦٣]. وشهدت نينوى، بحسب البنك الدولي، زيادة حادة في معدلات الفقر فارتفعت من ٢٠ بالمئة سنة ٢٠٠٧ إلى ٣٢ بالمئة سنة ٢٠١٢، رغم استمرار المحافظات الجنوبية التي يقطنها الشيعة الأكثر فقراً في البلاد[٦٤]. وزادت نسبة المواطنين في المحافظة الذين يعيشون على أقل من ١,٢٥ دولار يومياً إلى ١٨ بالمئة، ما يعني بوضوح انزلاق المزيد من المواطنين إلى درك التهميش، ومن دون أمل تقريباً في أي تحسن ظاهر، ما شكل بكل تأكيد الأرض الخصبة للصراع الاجتماعي.

وحتى العام ٢٠١٣ استمرت المناطق الريفية، بما فيها نينوى، القاعدة الأكثر قوة للفصائل الإسلامية الراديكالية، التي أمكنها تعبئة النزاعات والتطلعات المحلية لصالحها. ففي الشمال على سبيل المثال، دار نزاع حدودي طويل بين العرب السنّة والسلطات الكردية حول حدود منطقة كردستان بهدف السيطرة على المنطقة والثروات البترولية فيها، وانضاف إليها نزاع آخر مع الحكومة في بغداد لاحقاً. فبينما حدد القانون الإداري الانتقالي لسنة ٢٠١٤ حدود منطقة الحكم الذاتي الكردية لتضم محافظات دهوك وأربيل والسليمانية، فإن أجزاء من محافظات كركوك وديالا ونينوى اعتُبرت مناطق خلافية تخضع للمادة ١٤٠ من الدستور التي تحدد آلية التحكيم في حل الخلافات تلك. مع ذلك، فالتناقضات العرقية والطائفية للمناطق تلك، سمحت للأكراد بحضور قوي فيها، مع تقارير أشارت إلى أن الحكومة الكردية في منطقة الحكم الذاتي قد حرّكت مدنيين وقوات من البشمركة إلى هذه المناطق لترسيخ الغلبة الديمغرافية والاستراتيجية للكرد فيها على حساب الجماعات المحلية الأخرى. لكن المناطق الشمالية تلك في كركوك وصلاح الدين وديالا تحتوي بالفعل على وجود عربي سني رئيسي، أمكن لـ «داعش» وفصائل إسلامية أخرى أن تجد بينهم قواعد تأييد لها، ومن بينها فصائل «المجلس» و«الجيش» و«داعش»، بالإضافة إلى معاقلها في الأنبار. ومع عجز الحكومة عن فرض الهوية الوطنية الجامعة بين قاطني تلك المناطق، تحوّلت التوترات الحدودية والسياسية والطائفية والدينية إلى مرتع الخصب لسياسات الهوية للسلفيين ـ الجهاديين، والبعثيين، والقوميين مع الدعم المحلي اللازم لها. وبالرغم من الفروقات الأيديولوجية بين الأطراف الثلاثة هذه، إلا أنها عملت معاً على إلحاق الهزيمة بقوات الأمن الحكومية. والموصل أبرز الأمثلة. ومع أن تفكك القوات الحكومية الذي ظهر في الموصل حتى قبل وصول داعش كان عاملاً رئيسياً

---

(٦٣) العراق، وزارة التخطيط، «مسح اجتماعي واقتصادي للمساكن في العراق،» تقرير ٢٠١٢، الجهاز المركزي للإحصاء، <http://osit.gov.iq/documents/statistics_ar/living%20conditions/%20survey/Full%20Report/pdf>.

(٦٤) «The Unfulfilled Promised of Oil and Growth-Poverty, Inclusion and Welfare in Iraq, 2007-2012,» World Bank Group (2014), <https://openknowledge.worldbank.org/bitstream/handle/10986/21364/938580v20WP0RE021B0102601500PUBLIC0.pdf?sequence=1>.

للتقدم السريع الذي حققه «داعش» صيف ٢٠١٤، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لولا تعاون الفصائل المتمردة الأخرى[٦٥].

على سبيل المثال، كان قائد عمليات نينوى، العميد مهدي غرّاوي، حليفاً مقرّباً من المالكي، رغم أنه كان في حرس صدّام الجمهوري سابقاً. وكان معروفاً بدمويته وقتله المتكرر المعارضين واستخدامه المتكرر تعذيب السجناء. وقد حاولت الولايات المتحدة فصله من مركزه كقائد عسكري للمنطقة وأمرت من ثم باعتقاله لجعله وحدات الشرطة واجهة للميليشيات الشيعية التي اتهمت بالمسؤولية عن قتل المئات من السنّة[٦٦]. مع ذلك، رفض المالكي الانصياع لرغبات الأمريكيين، نافياً مسؤولية الغراوي عن أي من الجرائم المرتكبة، ثم أعاده بعد بعض الوقت إلى مركزه السابق. وكان لسياسات الغراوي ومساعديه في استخدام العنف الزائد والاعتقال وأعمال القتل الوحشية أثرها المباشر في دفع الناس بعيداً نحو التهميش والنأي عن الحكومة، وحوّلها بالتالي أرضاً خصبة للتجنيد في صفوف الجماعات المتمردة[٦٧]. واتهم تقرير لـ «هيومان رايتس واتش» سنة ٢٠١٣ الغراوي ومساعديه بقتل خمسة رجال، بمن فيهم ولد في الخامسة عشرة من عمره، وذلك في عملية لرجال الأمن في الموصل[٦٨]. وقد أكد السكان المحليون أن الضحايا أبرياء ولم تقدم الشرطة أي تفسير مقنع لقتلها الرجال الخمسة. ومع انفلات قوى الأمن خارج السيطرة، ألقى السكان المحليون بتأييدهم بين أيدي الفصائل المسلحة، بما فيها «داعش». ولعب مخططو «داعش» ورقتهم بنجاح كامل هنا، فتعاونوا مع الجماعات المسلحة البعثية ـ القومية التي كان لها في الأصل معاقل تأييد قوية في الموصل[٦٩]. وحين سقطت الموصل، استعرض البعثيون قوتهم في الشوارع وملأت صور صدّام والدوري جدران المدينة. ومع ذلك، فقد تبيّن أن النجاح ذاك كان مؤقتاً، إذ ما إن استقر الأمر لـ «داعش» في المدينة حتى بادر بسرعة إلى اعتقال حلفائه البعثيين والقوميين السابقين، وقام بتصفية بعضهم. وعليه، فقد جرى تطهير الموصل لا من البعثيين والقوميين السابقين فحسب، بل من تنوعها الثقافي أيضاً. فمن الموصل أعلن الخليفة الجديد، البغدادي، نفسه خليفة للمسلمين في كل مكان وطالبهم بإعلان الولاء لسلطانه والهجرة إلى أراضي الخلافة في العراق وسورية، وباعتباره فرضاً دينياً إلزامياً.

---

(٦٥) Sam Jones and Borzou Daragahi, «Iraq's Security Forces Ill-Equipped to Face Militants,» *Financial Times*, 10/7/2014, <http://www.ft.com/cms /s/0/a089e41e-081c-11e4-9afc-00144feab7de.html#axzz3iW7JlpU9>.

(٦٦) Ned Parker, Isabel Coles, and Salman Raheem, «Special Report: How Mosul Fell-An Iraqi General Disputes Baghdad's Story,» Reuters, 14 October 2014, <http://www.reuters.com/article/2014/10/14/us-mideast-crisis-gharawi-special-report-idUSKCN0I30Z820141014>.

انظر أيضاً: Cocker, «Maliki Reshapes the National Security System».

(٦٧) «Iraq: Abusive Commander Linked to Mosul Killings,» Human Rights Watch (11 June 2013), <http://www.hrw.org/news/2013/06/11/iraq-abusive-commander-linked-mosul-killings>.

(٦٨) المصدر نفسه.

(٦٩) Christoph Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State,» *Der Spiegel*, 18/4/2015, <http://www.spiegel.de/international/world/islamic-state-files-show-structure-of-islamist-terror-group-a-1029274.html>.

الفصل الرابع

تطور البغدادي:
من الجندي المغمور إلى الخليفة الدموي

مع إدراك الدور الحاسم للشخصيات في عمل الجماعات الجهادية، فقد بحث المراقبون ووسائل الإعلام عن شيطان، بطل، مهندس عبقري، أو أي شخصية في الظل؛ في وسعها أن تشرح المناورات الاستراتيجية التي أوصلت «داعش» إلى الذروة الصارخة التي بلغها في صيف ٢٠١٤. وكانت الضالة المنشودة الولاء المطلق للأمير (سمعاً وطاعة) أو للزعيم لتفسير وجود هذا الكم من التركيز الإعلامي على محاولة فهم شخصية فرد ما. والنظر إلى الأمير باعتباره رمز الإيمان بالتنظيم، أو حارسه، هو ما يفسّر الكم الكبير من الشرعية الدينية والسلطة الوضعية اللتين يمنحهما أفراد التنظيم لقائدهم وتتخذ شكل «البيعة»، أو واجب الولاء الإلزامي. والمفهومان: الطاعة والولاء؛ مبدآن إسلاميان لهما الأولوية، لذلك لم يتردد البغدادي في أول ظهور له في تموز/يوليو ٢٠١٤ في أن يعطي الأمر لأتباعه قائلاً: «أطِيعوني»[1]. وفي وسع المرء أن يفعل ذلك بوجود شخصية كاريزماتية جاذبة مثلما كان لعبد الله عزّام وأسامة بن لادن وأبو مصعب الزرقاوي، فيمارس التأثير القوي في الأتباع وفي جلب الأنصار الجدد إلى قضيته. وهو ما يجعل الأمير قادراً، إذا رأى ذلك ضرورياً، على إرسال المقاتلين إلى حتوفهم، بمن فيهم القنابل البشرية الانتحارية، في هرمية قيادية ملزمة تبدأ من فوق إلى تحت.

إلا أن قصة صعود «داعش» هي أكثر تعقيداً من تلك التي في وسعه أن يقدّمها رجل في الظل من مثل أبو بكر البغدادي، أو الحاج بكر. لقد ترافق ارتقاء البغدادي إلى القيادة سنة ٢٠١٠ مع وضع عراقي شديد الاستقطاب، سياسياً وأيديولوجياً، وكان أبرز ما فيه حجم التهميش الذي مارسته

(١) نشرت «الفرقان» و«الاعتصام»، الأداتان الإعلاميتان لداعش، تسجيلاً مصوراً للبغدادي يَؤم المصلين من مدينة الموصل صيف ٢٠١٤. انظر شريط الفيديو في أول ظهور للبغدادي: «خطبة الجمعة في الجامع الكبير في الموصل لأبو بكر البغدادي،» قناة الجزيرة على اليوتيوب، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٥، <http://www.youtube.com/watch?v=dIRf0EJuPak>.

حكومة بغداد ضد الجماعة السنّية. وقد رأى الكثير من السنّة في سياسات رئيس الوزراء، نوري المالكي، الطائفية نتيجة جلية للنفوذ الإيراني. سمح هذا الشعور المتزايد بالكراهية من السنّة حيال حكومة المالكي للبغدادي وحلقته الداخلية أن يضربوا في المكان الصحيح والزمن الصحيح وأن ينجحوا من ثم في إعادة إحياء التنظيم الجهادي الضعيف، في ذلك الوقت، ودفعه قدماً ليكون طليعة للجماعة السنّية في مواجهة الحكومة التي يهيمن عليها الشيعة في بغداد. إلا أن تسنّم البغدادي إمرة الحركة السلفية الجهادية في العراق لم يكن عرضياً بل جلب مباشرة تغييرات حادة في أساليب عمل التنظيم وفي أكثر من اتجاه.

الاسم الحقيقي للبغدادي هو «إبراهيم بن عوّاد إبراهيم علي البدري السامرائي»، ويجري أحياناً العود إليه بكنية «أبو عوّاد» أو «أبو ضيا» ـ اسم ابنته الكبرى. أما «البغدادي» فهو اسمه الحركي أو الميداني. لا يُعرف إلا القليل عن البغدادي قبل تسلّمه قيادة «داعش»، وما هو أكثر من ذلك ففيه الكثير من الخلط بين الحقيقة والخيال. ولد البغدادي في سامراء، في المثلث السنّي، سنة ١٩٧١، ترعرع في ناحية الجابرية، حيث الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، والجزء المحافظ المتديّن من العراق، وتسوده قبيلتان، أبو البدري وأبو الباز. وكما الناحية التي عاش فيها، كانت أسرة البغدادي من الشريحة المتدنية للطبقة الوسطى. ذهب البغدادي إلى المدرسة المحلية، أحب أنواع الرياضة، وبخاصة كرة القدم، حيث كان يمارسها في حقل قريب من المنزل. ويذكره طارق حامد، زميله في الملعب، بأنه «كان من النادر أن ينتابه الغضب في أثناء اللعب، حتى لو اصطدمت به أو أسأت إليه بتصرف ما»[٢]. ويشير إليه عارفوه في تلك الفترة بأنه كان نموذجاً لطبقته الاجتماعية: متديّن، ملتزم، ومنعزل. بل قيل إن البغدادي اكتسب لقباً آخر (المؤمن)، لإظهار مدى تديّنه والتزامه التفسير الدقيق للعقيدة الإسلامية في فترة مبكرة من حياته. وهذه الشهادة تذهب في عكس ما كان شائعاً من أن عراق السبعينيات والثمانينيات كان، نسبياً، بلداً علمانياً. لكن التديّن الإيماني التقليدي ليس مرادفاً للسلفية الجهادية أو المتطرفة. ومع أن دعويي «داعش» ومريديه يسقطون الحاضر على الماضي فيصورون البغدادي أصولياً منذ مطلع شبابه، إلا أنها فرضية مشكوك في صحتها، تنضم إلى سلسلة أخرى من الروايات المتخيّلة التي تصرّ على تصوير البغدادي «المؤمن» الذي يخاف الله والذي بدأ بقتال أعداء الإسلام الأصولي منذ بواكير حياته.

مع ذلك، هناك إجماع بين عارفي البغدادي على أن غزو العراق سنة ٢٠٠٣ الذي قادته الولايات المتحدة كان نقطة تحول في طريقه نحو التشدد. وهو كان كذلك أيضاً لآلاف الشبّان السنّة الذين شعروا بالمرارة تجاه الولايات المتحدة التي قدّمت العراق على طبق من فضة للشيعة ومن خلفهم إيران، وضد مصالح العرب السنّة. وعليه لجأ كثيرون من هؤلاء الذين شعروا بالمرارة، وبخاصة ممن هم في وضعية البغدادي الاجتماعية، إلى حمل السلاح ضد الاحتلال الأمريكي، وضد الشيعة على

(٢) ورد في: Janine Di Giovanni, «Who Is ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi?,» *Newsweek* (8 December 2014).

نحو متزايد، الذين اعتُبروا حلفاء للولايات المتحدة وعملاء لها. في الوقت الذي احتلت الولايات المتحدة العراق، كان البغدادي الشاب ينتقل إلى بغداد بهدف الدراسة، وسكن في الأعظمية في غرفة ملاصقة لمسجد محلي صغير. يقع المسجد في حي فقير من الأعظمية يسمّى «الطوبجي»، في الطرف الغربي من العاصمة، ويقطنه سنّة وشيعة فقراء. وتقول روايات الفترة أن البغدادي كان يلعب آنذاك كرة القدم في فريق تأسس في الجامع[٣]. وفي الوقت نفسه، كان البغدادي يركّز على دراساته في «التجويد» أي قواعد تلاوة الآيات القرآنية، مركزاً على جمالياتها لا على ممارستها.

ومع أن هناك بعض اللغط حول دراسته، إلا أنه يعتقد أن البغدادي كان يسعى إلى الحصول على إجازة جامعية من جامعة صدّام الإسلامية في بغداد ومن ثم الدراسة تحضيراً للدكتوراه في الفقه الإسلامي. في إثر الغزو الأمريكي، ساعد البغدادي على تأسيس جماعة مسلحة صغيرة اسمها «جيش أهل السنّة والجماعة». كانت تلك واحدة من عشرات من مثيلاتها عبّرت عن مناخ واسع من التمرّد السنّي. ويمكن الربط، من وجهة البغدادي، بين تحوله إلى السلاح والقصف العنيف من قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة الذي تعرّضت له منطقته الاستراتيجية، سامرّاء، بهدف إخراج المتمردين السنّة منها. في هذه المرحلة المبكرة، لم يكن البغدادي عضواً في شبكة «القاعدة» التي كان يقودها الزرقاوي، وقد جعلته السلطات الأمريكية في العراق عند اعتقاله في شباط/فبراير ٢٠٠٤ تحت تصنيف «جندي عادي» سنّي. بعد اعتقاله، فوضعته تلك السلطات في معسكر بوكا. ويقول البنتاغون إن البغدادي الذي اعتُقل في الفلوجة في أوائل ٢٠٠٤، أُفرج عنه في كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه مع عدد كبير من السجناء الذين لا يمثّلون خطراً كبيراً. في المقابل، تقول روايات أخرى إن البغدادي قضى في المعتقل في بوكا بين سنة واحدة وخمس سنوات[٤]. وقد وُصف وضعه بـ «متورط مدني»، ما يعني أنه منتسب إلى جماعة مسلحة لكنه لم يعتقل لتورطه في عمل جرمي معيّن. واللافت للنظر أن تاريخَي اعتقاله وإطلاقه غير محددين بدقة[٥].

أولاً: تصنيع تكفيري بامتياز

إذا كان الغزو الأمريكي للعراق هو نقطة تحول أولى في انعطافة البغدادي نحو التطرف، فالمعتقل كان نقطة التحول الثانية الحاسمة. يروي عبد الباري عطوان، الكاتب في الإسلاميات والمحارب القديم، في كتابه الدولة الإسلامية الصادر سنة ٢٠١٥ أنه قابلَ سجيناً آخر كان معتقلاً أيضاً في

(٣) «أبو بكر البغدادي،» الجزيرة نت، ٢ نيسان/أبريل ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons/2014/12/2/%D8%A3%D8%A8%D9%88-%D8%A8%D9%83%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%BA%D8%AF%D8%A7%D8%AF%D9%8A>.

(٤) Tim Arango and Eric Schmitt, «U.S. Actions in Iraq Fueled Rise of a Rebel,» *New York Times*, 10/8/2014, and Martin Chulov, «ISIS: The Inside Story,» *Guardian*, 11/12/2014.

(٥) Chulov, Ibid., and Trevor Royle, «The Mystery Man,» *Sunday Herald*, 28/12/2014; Di Giovanni, «Who Is ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi?,» and «Profile: Abu Bakr al-Baghdadi,» BBC, 5 July 2014, and Ruth Sherlock, «How a Talented Footballer Became World's Most Wanted Man, Abu Bakr al-Baghdadi,» *Daily Telegraph*, 11/11/2014.

معسكر بوكا سنة ٢٠٠٤. قال السجين مع البغدادي، الذي لم تحدد هويته، إن تجربة البغدادي في بوكا أنتجت الرغبة في «الثأر». فقد اقترب البغدادي، عند إطلاقه، من الحارس الأمريكي قائلاً له: «سوف نجدك... في أي زمان وأي مكان... هنا أو في نيويورك»[٦]. ويقول المتشددون السنّة الذين عرفوا البغدادي قبل مرحلة الاعتقال وبعدها، إن الاعتقال جعله «أكثر تطرفاً» عمّا كان عليه قبل ذلك، ولينضم من ثم سنة ٢٠٠٦ إلى «القاعدة في العراق» بقيادة الزرقاوي[٧]. لقد كان معتقل بوكا «هبة» من السماء لذلك «الجندي العادي» فقد أدخله إلى السلك الجهادي ومن ثم إلى تنظيمات كبرى، وليصبح بعد فترة ما أصبح عليه في التمرد المسلح. وبالفعل، فقد أمضى قادة جهاديون بعض الوقت في هذا المعتقل الذي كانت تديره الولايات المتحدة، ما وفّر لهم رفقة رجال في مثل تفكيرهم والفرصة للتوسع في شبكاتهم. وفي حالة البغدادي، هناك أبو محمد العدناني، الذي سيغدو مسؤول الدعاية الأول في «داعش» والناطق باسمها والرجل الثقة للبغدادي[٨].

وفي تعزيز لهذا الرأي، يسمّي معتقلون سابقون معسكر بوكا «مدرسة القاعدة»، أو المؤسسة التي خرّجت الجهاديين في ما يشبه مصنعاً للجهاديين. فقد استضاف معتقل معسكر بوكا نحو ٢٤ ألف معتقل، كان بعضهم ضباطاً بعثيين ومقاتلين قوميين، يعملون لنظام صدّام[٩]. جثا هؤلاء أمام السلفيين الجهاديين في معسكر بوكا، فأرشدوهم دينياً وحوّلوهم جماعياً إلى أيديولوجيتهم الدينية. والجامع المشترك بين عدد من الضباط البعثيين السابقين الذين انضموا إلى القاعدة، ولاحقاً إلى «داعش» هو أنهم قضوا فترة من الوقت في معتقل معسكر بوكا أو معسكر كروبر، أو الآخر الذائع الصيت سجن أبو غريب في الضواحي الغربية للعاصمة. ويمكن القول بالمعنى الحرفي للكلمة إن طاقم القيادة والسيطرة في تنظيم «داعش» إنما جرت تنشئته في «سجون تشغيلها صنيعة أمريكية». وفيما يتواصل السجناء ويبنون شبكتهم فردياً، يغدو تطرفهم أكثر عمقاً على وقع تجاربهم الشخصية على أيدي قوات الأمن في المعتقل التي تستخدم غالباً التعذيب. ولا حدود لما خرج من المعتقلات تلك من أخبار وروايات وإشاعات حول المدى الذي يبلغه التعذيب. وتقفز إلى الذهن فوراً قصص سجن أبو غريب التي وثّقت بشرائط فيديو صوّرت حالات التعذيب الجارية وبعضها هستيري. ولحوادث التعذيب تلك أثرها المباشر وغير المباشر في سجناء لم يكونوا أصلاً في «القاعدة في العراق» ولا من أنصار الأيديولوجيا السلفية الجهادية. وعليه، فما إن يغادروا السجن، حتى يغدو البعض منهم متشددين وينضمون لاحقاً إلى «القاعدة في العراق» وإلى فصائل مسلحة أخرى مشابهة. وبحسب الحكومة العراقية، فإن ١٧ من أصل ٢٥ من أعلى قيادات «داعش» الذين

---

(٦) عبد الباري عطوان، الدولة الإسلامية: الجذور، التوحش، المستقبل (لندن: دار الساقي، ٢٠١٥)، ص ٤٦.

(٧) وائل عصام، ««البغدادي» خرج من سجن بوكا أكثر تطرفاً وكفر بـ«الإخوان»،» القدس العربي، ٢٠١٤/١٠/١٩، <http://www.alquds.co.uk/?p=237500>.

(٨) Di Giovanni, «Who Is ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi?».

(٩) Medyan Dairieh, «My Journey inside the Islamic State,» *Vice News*, 1 July 2015, <https://news.vice.com/article/my-journey-inside-the-islamic-state>.

يديرون الحرب في العراق وسورية كانوا بين ٢٠٠٤ و٢٠١١ في المعتقلات لهذه الفترة أو تلك[١٠]. في مقابلة معه، يقول معتقل سابق اسمه عادل محمد جاسم إن صديقاً له قضى أسبوعين لا أكثر في معتقل بوكا، الذي أقفل في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٨، جنّد ٢٥ فرداً من أصل ٣٤ من معارفه الذين كانوا هناك. تكشف الحقيقة تلك، أن معتقل بوكا، مع معتقلات مشابهة أخرى، كان الحاضنة للتطرف الإسلامي ومركز التجنيد للجهاديين[١١]. في فترة اعتقاله هذه حدث ما يعتقد أنه تحوّل نفسي في شخصية البغدادي، فـ «أيقن أن حياته لا معنى لها من دون قتل»[١٢].

قدّم معسكر بوكا البيئة الضرورية لتحويل البغدادي من «جندي عادي»، وضيع، غير معروف، إلى قائد طموح وعضو في شبكة ميليشيا سنّية أكبر كثيراً. وبحسب مرشد مبكر للبغدادي، والذي غدا هو نفسه قائداً عسكرياً رفيعاً، وهو أبو عبد الله محمد المنصور العيساوي، قائد «جيش المجاهدين»، فقد قلّب المعتقل البغدادي «من فوق إلى تحت، رجل غيّره معسكر بوكا كلياً»[١٣]. كذلك أخبر الغارديان مقاتل آخر في «داعش» وكان مع البغدادي في معسكر بوكا وكنيته «أبو أحمد»، أن البغدادي اكتسب مهاراته التفاوضية حين كان في السجن الذي كانت تديره قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة. فقد ترك البغدادي أثراً في سجّانيه الأمريكيين الذين رأوا فيه «حلّال مشكلات» قادراً على تسوية النزاعات بين الفصائل المتنافسة وجلب الهدوء للمعسكر. ولكن، يضيف أبو أحمد، و«مع مضي الوقت غدا في قلب كل ما يجري في المعسكر؛ كان في قلب كل مشكلة تحدث في السجن». يضيف، «لقد أراد أن يكون رئيس السجن، وحين أعود بالذاكرة الآن إلى ما كان يجري أستطيع أن أتذكر أنه لجأ غالباً إلى سياسة فرّق تسُدْ للحصول على ما يريد، وهو السلطة. ونجح في ذلك»[١٤].

مع ذلك، فصعود البغدادي القياسي إلى أعلى المواقع كان مفاجأة حتى لـ القاعدة المركزية، الأمر الذي يشير أيضاً إلى الدرجة التي كانوا بلغوها في اغترابهم عن الأحداث الجارية في العراق، وعن التحولات الجارية داخل «الدولة الإسلامية في العراق». فوفق شهادة شخصية من الظواهري، فحين بلغت بن لادن أخبار اختيار البغدادي أميراً لـ «الدولة الإسلامية في العراق» سنة ٢٠١٠، لم يتبيّن بن لادن من هو الرجل وطلب معلومات عن تاريخه وخبرته. وقد أخبر قادة رفيعون في العراق بن لادن أنه اختيار مؤقت لأن الوضع الأمني لا يسمح باختيار أمير دائم[١٥]. والمعنى في

---

(١٠) Chulov, «ISIS: The Inside Story».

(١١) Mohammed Mahmoud Mortada, «The Mysterious Link between the US Military Prison Camp Bucca and ISIS Leaders,» *Al-Akhbar*, 13/9/2014, <http://english.al-akhbar.com/node/21519>.

(١٢) هشام الهاشمي، عالم داعش: من النشأة إلى إعلان الخلافة (لندن: دار الحكمة؛ بغداد: دار بابل، ٢٠١٥)، ص ١٦٨.

(١٣) أبو عبد الله محمد المنصور العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم ([د. م.: د. ن.]، ٢٠١٤)، ص ٧ ـ ٩٧.

(١٤) Chulov, «ISIS: The Inside Story».

(١٥) Ayman al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al-Sham [Greater Syria],» *Pietervanostaeyen* (blog), 3 May 2014, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/05/03/dr-ayman-az-

شهادة الظواهري الشخصية هو أن البغدادي لم يكن قد أظهر بعد قدرات قيادية متميزة وأنه كان شخصية غير معروفة في الأوساط السلفية الجهادية قبل وراثته الراية الدموية من الزرقاوي، مؤسس «القاعدة في العراق».

ثانياً: سيرة البغدادي المتناقضة

يرسم معاصرون للبغدادي صورة له، مغايرة كلياً لما هي عليه أيديولوجيا «الدولة الإسلامية في العراق والشام» الآن، لا يتميّز فيها بشيء دينياً ولا في ميادين القتال. يقول هؤلاء، وكصدى ربما لملاحظات الظواهري، إنه انتقل من مجرد تلميذ دين خجول، متواضع، لا يلفت النظر في شيء، غير معروف، إلى تعيين نفسه خليفة دموياً سيئ السمعة. بحسب العيساوي، وكان مرشداً للزرقاوي والبغدادي، لم يكن هناك من شيء استثنائي أو غير اعتيادي في شخصية البغدادي. ويستذكر العيساوي أن الزرقاوي بقي في منزله لوقت طويل، بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٥ على الأرجح، كما كان البغدادي وجهاً عادياً مألوفاً له. صورة العيساوي عن البغدادي، صورة مقاتل عادي تدبّر بفعل طموحه أمر تسلّق السلّم الجهادي، بمساعدة الحظ والظروف الملائمة. وهو يتذكر أن البغدادي تلقى الدروس الدينية منه برفقة آخرين وذلك سنتي ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤، «انتهت الدروس سنة ٢٠٠٥ لأن الأمريكيين اعتقلوني. أنا أعرفه جيداً. كان محدود الذكاء، ومن دون مهارات قيادية»[16]. ويخلص العيساوي إلى القول إن البغدادي كان «متوسطاً»، وهو اتهام خطير من عالم دين راديكالي كان البغدادي قد جثا أمامه[17]. ويخلص رفعت سعيد أحمد، وهو متخصص في الجماعات الإسلامية، إلى نتيجة مشابهة فيقول إن البغدادي «كان متوسط الإمكانات في دراساته الدينية»[18]. كما أنه من المفيد أن نورد شهادة قائد في «الجيش الإسلامي»، أحمد الدبّاش، معاصر للبغدادي، في وصفه لسنواته الأولى وقبل انضمامه إلى الحركة الجهادية، يقول: «كنت مع البغدادي في الجامعة الإسلامية. درسنا المقرر نفسه، لكنه لم يكن صديقاً. كان هادئاً، ومتزوياً. كان يصرف وقتاً طويلاً بمفرده»[19]. وحين ساعد لاحقاً على تأسيس «الجيش الإسلامي» سنة ٢٠٠٣، حارب الدبّاش مع عدد من قادة ثوار، من بينهم أولئك الذين سيتولون لاحقاً «القاعدة في العراق»، وهو

---

zawahiri-testimonial-to-preserve-the-blood-of-mujahideen-in-as-sham/>.

(١٦) العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم، ص ٧ ـ ٩٧.

(١٧) في ردّهم على العيساوي، نشر مؤيدو البغدادي بياناً بعنوان كشف المستور عن أخبار عبد الله المنصور، أمير المجاهدين في العراق، تعرضوا فيه للعيساوي. وفي البيان يعترف أولئك أن الزرقاوي والبغدادي كانا من مريدي العيساوي، لكنهم يتهمونه بالتناقض في أقواله والكلام المزدوج. وبدل الرد على التهم التي ساقها العيساوي ضد البغدادي، اكتفى هؤلاء بمهاجمة دوافع العيساوي.

(١٨) رفعت سيد أحمد، «داعش الأمريكية .. وقادتها: إلى أين من هنا؟،» البديل (٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤)، <http://elbadil.com/2014/11/24>.

(١٩) ورد في: Sherlock, «How a Talented Footballer Became World's Most Wanted Man, Abu Bakr al-Baghdadi».

يؤكد هنا أن البغدادي لم يكن واحداً منهم، يقول «كنت على معرفة شخصية بكل قادة المقاومة. والزرقاوي كان أقربهم إلي، وأكثر من أخ. لكني لم أعرف البغدادي. لم يكن مهماً. لقد تعوّد أن يؤم المصلين في مسجد قريب من منطقتي. لم يلفت أنتباه أحد»[٢٠].

إلا أنه من الواضح أن البغدادي كان جندياً موهوباً، فأمكنه التسلّق على أكتاف تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» بعدما انضم إليه سنة ٢٠٠٦. صحيح أنه لا يملك كاريزما بن لادن، أو ثقافة الظواهري، أو شراسة الزرقاوي؛ إلا أنه تمكن من تجاوز وجوه التقصير تلك من خلال اكتساب ثقة قادة «الدولة الإسلامية»، وخصوصاً سابقه المباشر أبو عمر البغدادي، الذي خلف الزرقاوي سنة ٢٠٠٦. وبحسب مصدر من الداخل، فقد أصبح أبو بكر البغدادي الساعد الأيمن لأبي عمر البغدادي[٢١]. ومن معمودية الدم والنار، تعلم البغدادي بسرعة، وتعلم كيف يبقى حيّاً، بل ويصعد السلّم من القعر إلى فوق. وبحسب معارف ثقة، فقد كانت تلك ميزة البغدادي البارزة والمؤثرة في من حواليه. وبحسب أحد زملائه قضى معه سنتين في معتقل بوكا، «إذا جلست معه في غرفة واحدة واستمعت إليه فسيكون من الصعب ألا تجذبك شخصيته وأفكاره ومعتقداته»[٢٢]. وهذا الزميل يشبّه البغدادي ببن لادن، الذي كان عمل معه لفترة من الزمن. ويضيف، «كان هادئاً، متماسكاً، مع ابتسامة دائمة تنم عن راحة داخلية»[٢٣]. وفي الحقيقة فإن آخرين، منهم المحلل الأمني، هشام الهاشمي، كانوا قد عقدوا المقارنة نفسها بين البغدادي وبن لادن. يقول الهاشمي في كتابه، إن البغدادي «حريص على تقليد بن لادن حتى في خطبه واستشهاداته. يقلّد بن لادن كنسخة طبق الأصل»[٢٤].

تسلّم أبو بكر البغدادي إمرة التنظيم حين قُتل سلفه أبو عمر البغدادي سنة ٢٠١٠ في عملية أمريكية ـ عراقية مشتركة. وتتناقض الروايات عن سبب اختيار البغدادي قائداً لـ «الدولة الإسلامية في العراق». وذلك دليل على أن البغدادي وغداة مقتل سلفه كان يعتبر من الحلقة الداخلية، ورجل ثقة لسلفه، وأهلاً ليتولى القيادة الآمنة لتنظيم غدا على شفا الانهيار. فقد كان تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» سنة ٢٠١٠ في أزمة حادة؛ كان محاصراً داخلياً من عشائر سنية قوية منظمة وكذلك خارجياً من القوات الأمريكية والعراقية. وكان التطوع السوري في التنظيم سنة ٢٠١٠ إلى نضوب أيضاً. وعليه، لم يكن وصول البغدادي إلى رأس التنظيم، بهذا المعنى، تحوّلاً دراماتيكياً. كان النجاة من الانهيار والتدمير هو عنوان تلك الآونة للتنظيم. مع ذلك، لم يغب عن بال قادة التنظيم الهدف الاستراتيجي الأول: السيطرة على المناطق السنية من العراق لتحويلها إلى مكان ولو هشّ لـ «الدولة الإسلامية».

---

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) ورد في: Chulov, «ISIS: The Inside Story».

(٢٢) عطوان، الدولة الإسلامية: الجذور، التوحش، المستقبل، ص ٤٦.

(٢٣) المصدر نفسه.

(٢٤) الهاشمي، عالم داعش: من النشأة إلى إعلان الخلافة، ص ١٦٨.

ترسم شهادات رفاق سلاح للبغدادي، عرفوه من قرب، صوراً متناقضة له. تتدرج الشهادات تلك من اعتباره قاتلاً مريضاً نفسياً إلى اعتباره بطلاً تمكن منفرداً من إحياء الخلافة. تلك الصور متناقضة ولا مكان فيها للون رمادي. ورغم كثرة الكلام والألوان فما من سجل دقيق لماضيه. فمن جهة أولى، يصفه أصحابه بأنه محارب كبير من أجل الدين وسيجلب الخلاص من الظلمة ويحرر الأمة من القهر السياسي. ويُتبعون ذلك بالقول إنه يملك شهادة دكتوراه من الجامعة الإسلامية في بغداد، مع تركيز على التاريخ والثقافة والشريعة والفقه الإسلامي. يستخدم أصحابه ذلك ليظهروه مظهر الرجل المثقف، متضلعاً في الدين وأهلاً لتسنّم منصب الخلافة. في الخط نفسه، نلاحظ إعلان المتحدث الرئيسي باسم التنظيم والرجل الموثوق لديه، العدناني، تأسيس «الدولة الإسلامية» وتنصيبه خليفة لها، فدعاه «الشيخ، المجاهد، العالم، الذي يمارس ما يدعو إليه، المتعبّد، القائد، المحارب، المحيي، والمتحدر من سلالة النبي»[٢٥]. عمل البغدادي جاهداً لترسيخ تلك الصورة وادعاء الانتساب إلى سلالة الخلفاء الأُول في الإسلام، وأحد مظاهر هذا التوجه ارتداؤه الزيّ الذي كانوا يتزيّون به في ذلك الزمن.

وكلمات العدناني هي بعض ما تفعله الحلقة الدعائية الضيّقة من محاولات لرسم صورة له في الوعي العام بتصويره البطل فوق العادة، مخلّص السنّة، والمنحدر من سلالة النبي. ودعا المسلمين قاطبة من ثم لإعلان البيعة للبغدادي. ويصدر دعائي آخر لـ «الدولة الإسلامية في العراق»، أبو همام عبد العزيز الأثري، منشوراً يكيل فيه المديح لخصال البغدادي البطولية والتقشفية بل يذهب إلى حد مقارنة دولته بالدولة الأولى التي أسسها النبي، في الجزيرة العربية؛ ادعاء لا يتعامل معه منافسوه من الإسلاميين بكثير من القبول أو الجدية. ويقوم تأكيد آخر إضافي من مناصري «داعش» على أن البغدادي نجح في مدّ سلطته في العراق وسورية وأنه يتربع الآن «على كرسي الخلافة»، بينما فشل كل الجهاديين من قبله في بلوغ ذلك. ويذهب دعويّو التنظيم من ذلك إلى الاستنتاج أن إحياء الخلافة وتبوّؤ البغدادي سدّتها يُظهران أن المنصب حق له، بل وشرعية ذلك أيضاً. تلك هي أطروحة دائمة في الدعاية لـ «داعش» الهدف منها تأكيد شرعية خلافة البغدادي الدينية، بل وأبعد من ذلك في ردّ أصول البغدادي العائلية إلى نسب النبي[٢٦]. لكن ذلك يبقى موضع خلاف

---

(٢٥) بعد خطبة البغدادي الأولى في الجامع الكبير في الموصل صيف ٢٠١٤، علّق إسلاميون كثر على فقدان الجاذبية في شخصية البغدادي. انظر: مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي تقدم: ««هذا وعد من الله» الشيخ أبو محمد العدناني الشامي (حفظه الله)»، اليوتيوب، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٤، <http://www.youtube.com/watch?v=Uen14MVYNqk>.

انظر أيضاً النسخة باللغة الإنكليزية: Abu Mohmmed al-Adnani, «This Is the Promise of Allah,» 19 June 2014, <http://triceratops.brynmawr.edu/dspace/bitstream/handle/10066/14242/ADN20140629.pdf?sequence=1>.

(٢٦) أبو همام بكر بن عبد العزيز الأثري، «مد الأيادي لبيعة البغدادي،» منبر التوحيد والجهاد (تموز/يوليو ٢٠١٣)، <https://archive.org/details/baghdadi-001>

انظر أيضاً: أبو حسن الأزدي، «موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام،» مؤسسة المأسدة الإعلامية (آب/أغسطس ٢٠١٣)، <https://ia601904.us.archive.org/35/items/daolh1/daolh1.pdf>.

وتشكيك من علماء أنساب العشائر العراقية. ويحسب مصدر مستقل متخصص بالنسب الهاشمي، فإن عشيرتي أبو البدري وأبو الباز اللتين ينحدر منهما البغدادي ليستا منحدرتين من عائلة النبي أو ينتسبان لها[٢٧]. وفي كل الأحوال، فإن قاعدة شرعية منصب البغدادي هي الآن، وكأمر واقع، معادلات القوة القائمة وليس أي شيء آخر.

ثالثاً: استراتيجية البغدادي في الغموض

واضح الآن، وكما عرضنا في ما تقدم، أن معظم ما يتعلق بالبغدادي من تفاصيل شخصية هو موضع خلاف. هو رجل الظل بامتياز؛ ما يفتح باباً لتفسيرات متناقضة، رغم إصرار أصحابه على تلميع صورة معينة له في أذهان الرأي العام. هناك صورة ضبابية له، غير واضحة؛ وهو ما يدفع إلى الميل للتبسيط. شيء واحد على الأقل يجمع أصحابه وأعداءه هو الاعتراف أنه أكثر دموية من سلفَيه السابقين له، الزرقاوي وأبو عمر البغدادي. هو «الأكثر تعطّشاً للدم بين الجميع»، وفق ناشط من «داعش» عرف البغدادي منذ أيام المعتقل[٢٨]. ويتردد هذا الحكم عند العيساوي أيضاً. فهو يقول إنه بالرغم من أن سابقيه متعطشان للدم، إلا أن ذلك بدا بسيطاً قياساً بما أظهره البغدادي. ويخلص من ذلك إلى القول، «إنه سفّاح بامتياز»[٢٩]. ويستذكر قادة الفصائل المقاتلة الذين حاربوا مع «القاعدة في العراق» أو «الدولة الإسلامية في العراق،» بأنه كان يعدم منافسيه أو أخصامه السنّة من دون شفقة، وكان يعتبر ذلك مهمة تتقدّم على محاربة الأمريكيين[٣٠].

ويعتبر دعائيو «داعش»، في منشوراتهم وتبريراتهم، أن قسوة البغدادي دليل على استحقاقه منصب الخلافة. ويردّ العدناني والأثري وآخرون على منتقدي قسوة البغدادي وتطبيقه الحرفي لـ «حدود» الشريعة، ويتهمونهم بالضعف والفساد لأخذهم بالمعايير الدولية السائدة لمفهوم حقوق الإنسان. أكثر من ذلك هم يتهمون أخصامهم الداعين إلى نظام سياسي قائم على حقوق الإنسان بأن موقفهم فيه حطّ من الإسلام الحقيقي الأصلي كما أنه يضعف دفاعات الإسلام أمام التأثيرات الغربية الزاحفة. وإلى ذلك، يربط دعائيو داعش بين تراجع الإسلام وتزايد نفوذ الثقافة الغربية، وبعض سبب التراجع ذاك، في رأيهم، عدم وجود خليفة قوي، وعدم إعطاء الأولوية لمفهوم الجهاد، المبدأ الإسلامي المقدس الحاسم في الدفاع عن الدولة الإسلامية. وعظمة البغدادي كصانع سياسات تكمن في إنفاذه القوانين الإسلامية واستعادته قوة الإسلام ومجده. وغالباً ما تذكّر دعايات «داعش»

---

(٢٧) ورد التقرير على حساب «تويتر» wikibaghdady@. للاطلاع على كامل التفريدات بالعربية، انظر: ««ويكيليكس البغدادي» تكشف «داعش» على حقيقتها... تغريدات «مولمة»،» زمان الوصل (٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)، <https://zamanalwsl.net/news/45122.html>.

(٢٨) ورد في: Chulov, «ISIS: The Inside Story».

(٢٩) العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم، ص ٧ ـ ٩٧.

(٣٠) عصام، ««البغدادي» خرج من سجن بوكا أكثر تطرفاً وكفر بـ «الإخوان»».

وبياناته المسلمين أن دعوات البغدادي إلى الجهاد العنفي يجب النظر إليها بوصفها الأداة الوحيد لوقف التدهور الثقافي واستعادة أيام الإسلام الذهبية.

يظلم أيديولوجيو «داعش» كثيراً التقليد الثقافي للإسلام، باستنادهم إلى القوة المادية الغاشمة وبردّهم جوهر الإسلام إلى أعمال حربية وألوان من العنف الوحشي. فنصر الإسلام، بحسب البغدادي وجماعته، إنما يكون بإزالة كل المعوقات التي تحول دون تحبيب فعل الجهاد إلى أفئدة المسلمين وعقولهم، وبناء جيش عقائدي مصمم وجاهز لمقاتلة أعداء الإسلام، القريبين منهم أولاً ثم الأبعدين. ولا يني البغدادي ومساعدوه يلجأون إلى الآيات القرانية الكريمة لتذكير المسلمين بأن الجهاد العنفي فريضة إلزامية في الإسلام وليس خياراً حرّاً. وبالتزامهم تنفيذ حكم الله في الأراضي التي يسيطرون عليها، ففريضة الجهاد عندهم فوق كل فريضة أخرى. وفي تسجيله الصوتي في أيار/ مايو ٢٠١٤، وفي نقض مباشر لكل الأدبيات الإسلامية التقليدية المتداولة، ينتقد البغدادي منتقدي قسوة «داعش» باعتبارها لاإسلامية، فيخاطبهم قائلاً، «أيها المسلمون، لم يكن الإسلام في يوم من الأيام دين سلم. الإسلام دين حرب. ونبيّكم... إنما انتصر بالسيف»[٣١].

بحسب «داعش»، فالخليفة والسيف كانا دائماً معاً في استراتيجية هجومية وكأداة لرفعة الحكم الإسلامي. وبعيداً من كل غموض، يذهب «داعش» إلى أن الجهاد، أو الحرب الدائمة أو مؤسسة الحرب في الإسلام، هي حرب هجومية، وتتطلب لذلك التعبئة الدائمة. ورغم محدودية قدرات داعش، إلا أن البغدادي يقول إن القتال لن يتوقف حتى يبلغ روما[٣٢]. أي أن الجهاد لا يمكن أن يعلّق أو يهمل حتى يتحوّل المسلمون وسواهم إلى ضفة «داعش» في تفسيره للإسلام، ما يعني بدوره الصراع المستمر.

في سوق الأفكار أيضاً، يقدّم «داعش» سردية بديلة تعرّف ماهية الحرب مع الآخر (المسلم وغير المسلم، وبخاصة الشيعة). يجري التعريف بمفردات دينية صرف، تنال من أسس الفكر الإسلامي الحديث والخطاب السياسي السائد. يرفض التنظيم مفهوم التعايش السلمي ومفهوم الدولة ـ الأمة، وكذلك القواعد والعادات التي يمليها المجتمع الدولي. أكثر من ذلك، فرفض «داعش» للأمر الواقع المفروض من الخارج يسمح له بموقف أيديولوجي يعطيه الأرجحية على منافسيه/الأنظمة العربية كما الجماعات الجهادية المنافسة. لكن ذلك صحيح فقط ما دام هو يسيطر على الأرض والناس. والتعريف العنفي للجهاد يمنح الإلهام والبوصلة لجهاديين ومغامرين تركوا فعلاً «قاعدة» الظواهري وانضموا إلى البغدادي. ومن خلال الاستناد الكثيف إلى الرؤية

---

(٣١) انظر النص والتسجيل الصوتي للبغدادي: Abu Bakr al-Baghdadi, «March Forth Whether Light or Heavy,» Carol Ann Grayson (Radical Sister) Blog (14 May 2015), <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-Baghdadi>, and Rukmini Callimachi, «ISIS Releases Recording Said to Be by Its Reclusive Leader,» *New York Times*, 14/5/2015.

(٣٢) انظر شريط البغدادي المصور: Abu Bakr Al-Baghdadi, «Even If the Disbelievers Despise Such,» Pietervanostaeyen (blog) (14 November 2014) [audio transcript], <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/11/14/audio-message-by-abu-bakr-al-baghdadi-even-if- the-disbelievers-despise-such>.

الثورية المتشددة عند «داعش»، يستغل أيديولوجيو داعش ـ بقوة ـ قسوة داعش ذات الأهداف النبيلة، ما يجعل الإسلام في الموقع الأعلى على الخشبة الدولية. وعليه، يقترب أيديولوجيو «داعش» من حد اتهام الظواهري بالكفر، لأنه لم يدعُ الرئيس المصري السابق مرسي إلى تطبيق الشريعة الإسلامية بعدما بلغ السلطة في سنة ٢٠١٢[٣٣]. وفيما يتهم «داعش» أعداءه المسلمين بالخيانة، وبكونهم أمراء حرب صغار، يجري وصف البغدادي بالقامة القيادية الطويلة الذي يسير على خطى النبي محمّد وخلفائه الراشدين الأربعة.

على نقيض ذلك، حاولت فصائل إسلامية راديكالية، مثل جبهة النصرة، الحطّ من صدقية البغدادي وشرعيته، وذلك بتسريب معلومات تربط بينه وبين النظام البعثي السابق في العراق. وقيل في واحدة من تلك الاتهامات إن البغدادي هو واجهة فقط لبعثيين أقوياء يسيطرون على «داعش» من خلف الستار؛ وهم شبكة من ضباط الشرطة والجيش العراقيين في عهد صدّام وقد اختاروا البغدادي لهذه المهمة لأنه لا يشكل تهديداً لسيطرتهم على التنظيم. وتناقلت النصرة تلك الاتهامات إضافة إلى موقع على الإنترنت باسم wikibaghdady@، الذي بعث بين كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٣ وكانون الثاني/يناير ٢٠١٥ بأكثر من ألف تغريدة بالعربية تتضمن تشكيكاً بسردية «داعش» والنيل من سمعة البغدادي. في إحدى تغريدات الموقع الأكثر جدية، قيل إن عقيداً بعثياً سابقاً، الحاج سمير (ويقال له الحاج بكر)، كان القوة الدافعة خلف «داعش» إلى أن أرداه المقاتلون الإسلاميون في حلب في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، وإن البغدادي وفق تلك الرواية ليس أكثر من نسخة مصنّعة من ذاك المؤسس[٣٤].

وفي رواية مماثلة، ظهر سنة ٢٠١٥ تقرير في در شبيغل الألمانية تضمن معلومات عن اكتشاف وثائق من مركز الحاج بكر الحصين قبل مقتله. تظهر الوثائق تلك التي يقال إنها وقعت في أيدي فصائل منافسة للتنظيم في حلب، أن الضباط البعثيين السابقين في جيش صدّام خطفوا «داعش» وأسسوا فيه نظام قيادة وتحكّم من خلف الستار، رغم إلباسه رداءً دينياً[٣٥]. وفي خط هذه الرواية نفسه، نشر الكاتب في در شبيغل كريستوف رويتر كتاباً بالألمانية عنوانه القوة السوداء: الدولة الإسلامية واستراتيجيات الرعب. استقبلت الأوساط الإعلامية فرضية وجود أيادٍ بعثية وراء «داعش» بالقبول والتغطية الواسعة وهي الآن مسلّم بصدقيتها في الإعلام الغربي. ونشر هيثم المنّاع كتاباً افترض فيه أن ضباط الجيش السابقين قد «احتلوا المواقع العليا في داعش» وهم «يسيطرون على عملياته العسكرية»[٣٦].

---

(٣٣) عبد الستار حتيتة، «شهادات منشقين عن «داعش» المتطرف،» الشرق الأوسط، ٢٠١٥/٥/١٦.

(٣٤) انظر: ««ويكيليكس البغدادي» تكشف «داعش» على حقيقتها... تغريدات «مؤلمة»».

(٣٥) Christoph Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State,» *Der Spiegel*, 18/4/2015.

(٣٦) هيثم المناع، خلافة داعش (باريس: المعهد الإسكندنافي لحقوق الانسان؛ المؤسسة العربية الأوروبية للنشر، ٢٠١٤)، ص ٣٤ ـ ٣٥.

وتفسّر فرضية سيطرة البعثيين على «داعش» ـ إذا صحّت ـ منحى العنف السائد في هذا التنظيم، وسبب سيطرته المركزية القوية على السكان. إلا أن رواية الفصائل الإسلامية يجب أن تخضع في المقابل للتدقيق، لأنها صادرة عن فصائل إسلامية منافسة لـ «داعش»، وبخاصة «جبهة النصرة» والأيديولوجيون المتطرفون في القاعدة المركزية، بمن فيهم أبو محمد المقدسي. ورغم أن هناك ميلاً طبيعياً لقبول الرواية أعلاه بسبب من بساطة تفسيرها واقعاً مجتمعياً معقداً، إلا أنها تغالي في التركيز على دور رجل فرد هو الحاج بكر. كما أن تلك الرواية لا تأخذ بعين الاعتبار وجود ضباط بعثيين سابقين من جيش صدّام وشرطته، ممن انضموا إلى القاعدة في العراق بعد سقوط النظام البعثي وربما نفذوا مؤامرة للاستيلاء من جديد على السلطة بواسطة «داعش». والصلات بين العسكريين البعثيين و«داعش» تلقي الضوء على تفسير أكثر إقناعاً، وبعضه تحوّل لدى البعثيين السابقين الذين انضموا إلى «داعش»، وإلى عقيدة الجهاد الإسلامي السلفي. حدث التحوّل تدريجاً وسط أزمة تحولات كبرى اجتماعية وسياسية كانت تعصف بالعراق في تسعينيات القرن الماضي. واشتدّ التحوّل إلى الإسلام بعد الغزو الأمريكي للعراق والمقاومة المسلحة اللاحقة التي تجذّرت أرضيتها الأيديولوجية والاجتماعية في المعتقلات التي كان يديرها الأمريكيون[٣٧].

بكلام آخر، قلبت «داعش» البعثيين جماعياً إلى قضيتها السلفية الجهادية، وليس إلى أي خيار آخر (وسنوضح ذلك في الفصل الخامس). والمعنى الضمني لهذا أنه ما من مؤامرة بعثية للحظ من سلطة البغدادي. وهناك، بعيداً جداً من ذلك الزعم، دليل متزايد يشير إلى أنه كان للبغدادي دور محوري في تجنيد مئات البعثيين السابقين ممن كانوا ضباط جيش أو شرطة، في «داعش»، ثم في هيكلة التنظيم العسكري لـ «داعش». وغير بعيد ممّا نعرفه من سيرة البغدادي، فإن نجاح الرجل في ذلك كان مشهوداً له، كما كان ذلك نقطة تحوُّل رئيسية في إعادة الهيكلة العسكرية للتنظيم. فهو يعرف تماماً آليات الأطر العسكرية، وقد نجح في وضع ضباط محترفين أكفاء في موقع المسؤولية الاستراتيجية والتخطيط.

ما يعنينا في النهاية ليس تاريخ البغدادي الشخصي، بل امتلاكه رؤية استراتيجية سمحت له بتحويل تنظيم هشّ كان على شفير الانهيار إلى جيش محترف صغير، ظهر أن بإمكانه خوض حرب عصابات في الريف كما الحرب التقليدية سواء بسواء. وبهذا المعنى يظهر تفوق البغدادي الواضح على مرشديه، أسامة بن لادن وأبو مصعب الزرقاوي، في الخداع الاستراتيجي، والمهارات التنظيمية، وإمكانات التعبئة العالية. وبمعزل عمّا إذا كان البغدادي لا يزال حيّاً، أو أنه مات، فإن إعلانه «الدولة الإسلامية» في العراق وبلاد الشام قد خلخل أسس نظام الدولة العربية بطريقة لا سابق لها وفرض التنظيم لاعباً رئيساً في السياسات الإقليمية والدولية.

---

(٣٧) Michael Weiss and Hassan Hassan, *ISIS: Inside the Army of Terror* (New York: Regan Arts, 2015).

الفصل الخامس

البعثيون وجهاديو «داعش»: مَنْ حَوَّلَ مَنْ؟

عرقنة «داعش»

تحتوي قصة مسيرة البغدادي من أمير لـ «الدولة الإسلامية في العراق» في أيار/مايو ٢٠١٠ إلى تنصيب نفسه خليفة جديداً لـ «الدولة الإسلامية في العراق والشام» والعالم العربي ـ الإسلامي في حزيران/يونيو ٢٠١٤ الكثير من التعقيدات بل والتناقضات. وتعود التناقضات تلك، ربما، إلى الغموض الذي أحاط بصعود البغدادي من مجرد تلميذ دين مجهول إلى أعلى موقع سلفي ـ جهادي عالمي الآن.

ورغم النقص في المعطيات التي لدينا حول خلفية البغدادي، إلا أننا على يقين من شيء واحد على الأقل: هو نتاج بيئته. على مستوى الأيديولوجيا والمزاج، هو امتداد لسابقَيه، أبو مصعب الزرقاوي وأبو عمر البغدادي، من دون تغيير يذكر. فتنظيمه هو امتداد لـ «القاعدة في العراق» و«الدولة الإسلامية في العراق» وقد ورث منهما مواقفهما وإرثهما الدموي. فكما سلفاه، الزرقاوي وأبو عمر البغدادي، مارس أبو بكر البغدادي منذ البدء العنف الزائد والوحشية ضد أعدائه من الشيعة والسنّة بهدف بث الرعب وخلق صورة تنظيم مقتدر قوي لا يخشى شيئاً. ونهجه المفضل في هجماته هو إرسال انتحاريين ليفجروا المساجد والأسواق ومراكز الشرطة وأماكن الحج، وليتسببوا بالحد الأقصى من الخسائر وجذب الدعاية التي هو بحاجة إليها.

ويقارن العيساوي، المرشد الروحي السابق للزرقاوي ولأبي بكر البغدادي في آن، بين الرجلين ويخلص إلى أن البغدادي أكثر تطرفاً من سلفه مؤسس «القاعدة في العراق»؛ وأنه قتل من السنّة الذين يشبهونه في عقيدته السلفية لكنهم يختلفون معه في عقيدته التكفيرية العمياء، أكثر مما فعل سلفه. قلّد البغدادي منذ البدء سلفيه في قتل الشيعة العاديين وكذلك السنّة الذين لم يتحولوا إلى صفّه، وليستحق وصفه من جهادي سابق ذائع الصيت، بأنه «تكفيري بامتياز»[1]. بحسب العيساوي،

---

(١) ناجح إبراهيم وهشام النجار، داعش السكين التي تذبح الإسلام (القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٤)، ص ٤٦.

وهو موضع تقدير عالٍ من أتباع الزرقاوي والبغدادي، فإن الزرقاوي لم يبلغ من القتل والوحشية ما بلغه خليفته، مع اعترافه في الأصل أن الزرقاوي كان مخططاً شرعاً في خط القتل والتوحش الذي اختطّه. لكن العيساوي يصبّ أقسى نقده للبغدادي وأفعاله التي تجاوزت كل الحدود. لا يشبه البغدادي برأيه إلا الخوارج الذين كانوا كفّروا الأمة برمّتها واستحلّوا دمها[٢]. ولا يفوتنا بالتأكيد أن التمييز الذي يقيمه العيساوي بين الزرقاوي والبغدادي تمييز تقني أدواتي لا أيديولوجي. فكلاهما برأيه تكفيريان، ودمويان، ولا يُميّز واحدهما من الآخر إلا بالدرجة. هما يملكان الأفكار نفسها ويقفان إلى أقصى يمين الحركة السلفية الجهادية. وعليه، فالبغدادي وأتباعه لا يوفرون مناسبة إلا ويمحضون فيها الزرقاوي الإعجاب والتقدير، بوصفه النواة لـ «الدولة الإسلامية العراق والشام».

اتّبع «داعش» تحت إمرة البغدادي سنتي ٢٠١٠ ـ ٢٠١١ خريطة طريق سلفه، الكعب على الكعب، حتى في الأماكن التي استهدفها في هجماته ذات العيار الكبير، والمصممة ربما ليثبت من خلالها تخصيصاً إخلاصه لخط الزرقاوي في اعتبار محاربة الكفر والكفّار، بمن فيهم السنّة الذين يخالفون داعش الرأي، أولوية تتقدم على كل ما عداها. امتلك البغدادي منذ البدء، وقبل أن يلمع نجمه في حزيران/يونيو ٢٠١٤، صيته السيئ في التوحش والمبالغة في استخدام العنف وذلك من خلال عملياته الانتحارية التي تنتج قتلاً جماعياً. فعلى شاكلة سلفه، اختطّ البغدادي طريقه إلى قمة تنظيمه بالدم وباللجوء إلى الإرهاب لإسكات معارضيه أو الذين يخالفونه الرأي من السنّة. ومذ كان أميراً لـ «الدولة الإسلامية في العراق»، كان البغدادي المهندس لهجمات انتحارية صارخة، من مثل تفجير مسجد أم القرى في بغداد في ٢٨ آب/أغسطس ٢٠١١، الذي أودى بحياة ٢٨ مصلياً على الأقل، من بينهم خالد الفهداوي، العضو في الحزب الإسلامي العراقي السنّي. وبحسب الحزب هذا، فقد شنّ تنظيم «الدولة الإسلامية» حملة دموية استمرت شهراً كاملاً استهدفت قادة سنّة معتدلين وكان من بين ضحاياها سبعة من قادة «الحزب الإسلامي» وحده[٣]. وبحسب رشيد العَزّاوي، أحد مسؤولي الحزب، فقد «وزّعت القاعدة إنذارات تضمّنت أن لا مزيد من الرأفة بأعضاء الحزب الإسلامي، وقتلهم جائز في كل مكان». كانوا يريدون «إسكات الصوت المعتدل وترك الساحة السنية للمتطرفين فقط»[٤]. وقد أعلن تنظيم «الدولة» بين آذار/مارس ونيسان/أبريل ٢٠١١ مسؤوليته عن أكثر من عشرين عملية هجومية في جنوب بغداد وحدها.

في إثر مقتل بن لادن في ٢ أيار/مايو ٢٠١١، نشر البغدادي بياناً مكتوباً نعى فيه مؤسس القاعدة وتعهد بالثأر لمقتله بتنفيذ عمليات قاتلة: «أخبركم إخواني في تنظيم القاعدة وعلى رأسهم الأخ المجاهد أيمن الظواهري... ابتهجوا، عندكم رجال مخلصون في الدولة الإسلامية في العراق

---

(٢) أبو عبد الله محمد المنصور العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم ([د. م.: د. ن.]، ٢٠١٤)، ص ٩٧ و١٠٢ ـ ١٠٣.

(٣) Suadad Al-Sahly, «Iraq Mosque Bomb Targeted Moderate Sunnis, Say Officials,» Reuters, 29 August 2011, <http://www.alarabiya.net/articles/2011/8/29/164654.html>.

(٤) المصدر نفسه.

يتبعون الصراط المستقيم ولن يتخلّوا أو يرغموا على الخروج... أقسم بالله، الدم بالدم، والتدمير بالتدمير»[5]. وبعدها مباشرة أعلن البغدادي مسؤوليته عن هجوم على قيادة الشرطة في الحلة، جنوب العاصمة، حيث قتل فيه أكثر من ٢٥ عنصراً من ضباط وأفراد الشرطة وجرح ٧٢ آخرون[6]. وفي ١٥ آب/أغسطس، شنّ التنظيم موجة تفجيرات انتحارية بدأت بالموصل حيث قتل ٧٠ شخصاً، وتلاها إعلان التنظيم مسؤوليته عن ١٠٠ هجوم آخر في أنحاء مختلفة من العراق. وفي ٢٢ كانون الأول/ديسمبر، شنّ التنظيم سلسلة هجمات منسّقة بما فيها سيارات مفخخة وعبوات ناسفة في أكثر من ١٢ حيّاً من بغداد، قتلت ٦٨ شخصاً وجرحت ١٨٥ آخرين[7]. وبعد أربعة أيام، أعلن تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» مسؤوليته عن تلك الهجمات، وحذّر من أن «سلسلة الغزوات الخاصة... كانت لدعم السنّة المستضعفين في سجون الكفّار وانتقاماً للمعتقلين الذين جرى إعدامهم»[8].

بالإضافة إلى وحشية تلك الهجمات الواسعة، إلا أنها أظهرت كذلك أن التنظيم، ورغم النكسات التي أصيب بها على أيدي القوات الأمريكية والعراقية كما على أيدي الصحوات السنّية، كان لا يزال قادراً على مهاجمة أهداف عدة في العراق في وقت واحد أو على نحو متزامن. فهو لا يزال يملك خزّاناً من الانتحاريين الراغبين في تنفيذ عمليات انتحارية ويملك أيضاً سيطرة مركزية منسّقة. وقد سمحت هذه البنية التحتية القوية له بالاستمرار في قيد الحياة، وبتجاوز الهجمات التي استهدفته من القوات الأمريكية والعراقية، وليركب لاحقاً الرياح السياسية المواتية التي هبّت داخل العراق وسورية سنتي ٢٠١١ و٢٠١٢ فيستثمرها في رصّ صفوفه. ولا يمكن هنا إغفال دور الأيديولوجيا الصلبة للتنظيم وتجانسها في العودة السريعة للحياة إلى شرايين التنظيم وليشتدّ عوده بعد فترة قصيرة. فعلى أساس من ثقتهم بعقيدتهم وصوابية قضيتهم يبني السلفيون الجهاديون استراتيجيتهم المستقبلية لا لأسابيع أو شهور بل لعقود طويلة من الزمن، وتحدوهم الثقة العارمة بأنهم منتصرون في النهاية. أما ما يلحق بهم من خسائر ومصائب فهي بالنسبة إليهم إرادة الله ومجرد تجارب يبلوهم بها ليختبر صدق إيمانهم وعزيمتهم ومثابرتهم على الجهاد. فالدرب إلى الخلاص تمر بالحلو والمرّ، وبالدم والآلام. وكلما عظمت التضحيات عظم جزاء الله لهم.

وعليه، فأحد الدروس المهمة التي يجب استخلاصها من الحركة السلفية الجهادية في العقود القليلة الماضية هي قدرتها على الحياة بعد موت، والولادة من جديد، واختيار مهام مقدسة جديدة. فمنذ أواخر خمسينيات القرن الماضي كانت الأنظمة العربية، ورعاتها الدوليون، يعلنون المرة بعد

---

(٥) «Iraq's Qaeda Pledges Support to Zawahri, Vows Attacks,» Reuters, 9 May 2011, <http://www.reuters.com/article/2011/05/09/us-iraq-qaeda-zawahri-idUSTRE74835A20110509>.

(٦) Michael C. Schmidt, «Al Qaeda Affiliate Is Blamed in Iraq Suicide Bombing,» *New York Times*, 5/5/2011, <http://www.nytimes.com/2011/05/06/world/middleeast/06hilla.html?gwh=945C868984004CB0A90B94A4C7721C07&gwt=pay>.

(٧) «Dozens Killed in Co-ordinated Baghdad Attacks,» BBC, 22 December 2011, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-16297707>.

(٨) «Al- Qaida in Iraq Claims Responsibility for Baghdad Blasts,» *Guardian*, 27/12/2011, <http://www.theguardian.com/world/2011/dec/27/al-qaida-in-iraq-baghdad>.

المرة وفاة الحركة السلفية الجهادية وأفولها، إلا أن التطورات اللاحقة سرعان ما كانت تثبت أنها قادرة على الولادة من جديد تحت عناوين جديدة ولتذهب بعدها للقتال في معركة خاسرة جديدة. وبفعل هذه التعبئة الأيديولوجية المطلقة، الشمولية، كان تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» قادراً أن يستوعب نكساته وخسائره بين ٢٠٠٦ و٢٠١١، وينهض من جديد، في شهادة حيّة على جدية السلفيين الجهاديين، هو درس يجب أن يبقى في البال. حين تسلّم البغدادي قيادة التنظيم في أيار/مايو سنة ٢٠١٠، كان التنظيم في ذروة أزمته، مع ذلك لم يستسلم لا هو ولا الحلقة الصغيرة المحيطة به ولم يفقدوا رؤية هدفهم الاستراتيجي ـ تأسيس الدولة الإسلامية في العراق. ومن أجل ذلك، ضاعف هؤلاء من جهدهم وعملوا صابرين على إعادة بناء شبكاتهم الضعيفة.

يشير أعضاء من التنظيم، كما بعض الذين رافقوا البغدادي، إلى تطورين رئيسيين حوّلا التنظيم بنيوياً: **الأول**، هو عرقنة التنظيم؛ ففيما تسيّد القادة والمقاتلون العرب المراكز العليا في «قاعدة» الزرقاوي في العراق، تغيّرت الحال مع العام ٢٠١٠ إذ تسلّم العراقيون مراكز صنع القرار في التنظيم، وليستمر الأمر كذلك. كانت عرقنة التنظيم أمراً إلزامياً لا اختيارياً نتج من تناقص عدد المجندين الأجانب، وذلك بنتيجة إقفال سورية خط التموين الجهادي من جهة، والمعارضة العراقية المسلحة المتزايدة لوجود مقاتلين أجانب في نواحيهم من جهة ثانية. وهكذا حوّل تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» تركيزه نحو الداخل، ونأى بنفسه عملياً أكثر فأكثر عن التنظيم الأم في الخارج (القاعدة المركزية). ومع التحول هذا جاءت تحولات مصاحبة أخرى مثل تحوّله ليكون أكثر محلية، ومحدودية، وربما طائفية كذلك. ومع أن البغدادي ومع اختياره أميراً للتنظيم أعلن البيعة لـ بن لادن والولاء للقاعدة المركزية، إلا أنه لم يربط نفسه بمعركة بن لادن ضد العدو البعيد (التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة)، بل اعتبر أول أهدافه قتال العدو القريب (الشيعة والسلطة المركزية في بغداد والمتعاملين معها). كان الزرقاوي وأبو عمر البغدادي من قبل في خط التفكير والأولويات كليهما، إلا أن البغدادي دفع كلية إلى الواجهة بشعار «العراق أولاً» وليكتمل انفصاله الرسمي عن القاعدة المركزية. وعرقنة التنظيم كانت تعني بالممارسة تعميق الانقسام الطائفي في العراق من خلال انتشار العنف الطائفي كما ربط مستقبل التنظيم بالتطورات الداخلية في بلد بات شديد الاستقطاب. كانت تلك مقامرة خطرة من البغدادي، لكنها نجحت كما أثبتت التطورات اللاحقة. ولم يكن الأمر بحاجة إلى قطيعة أيديولوجية مع إرث الزرقاوي، بل استمر البغدادي حاملاً استهداف الزرقاوي للشيعة باعتباره الهدف الرئيسي إلى جانب هدف تأسيس الدولة الإسلامية في العراق كرأس جسر لباقي الوطن العربي. لم يغب عن البغدادي ومساعديه الأقربين، وهم يعززون قدرة التنظيم العسكرية لجعلها أكثر تأثيراً، الهدف الاستراتيجي الرئيس: تطهير مناطق السنّة من الشيعة وبناء الدولة الإسلامية.

الثاني، أن العرقنة كانت تجري على قدم وساق في موازاة إعادة هيكلة رئيسية للسلطة داخل التنظيم. وتشير كل الأدلة المتوافرة إلى الدور الرئيسي لضباط جيش وشرطة سابقين في نظام صدّام

في تحويل التنظيم من جماعة قريبة من شكل المافيا إلى جيش صغير محترف[٩]. كانت خبرات وكفاءات ضباط الجيش والشرطة السابقين في جيش صدّام حاسمة في هذا التحول. وهناك تقديرات بأن ٣٠ بالمئة من الكوادر العليا في «داعش» يحتلّها ضباط جيش وشرطة من رتب عالية كانوا سابقاً في جيش صدّام أو من بقايا الآلة العسكرية التي كانت موجودة ثم جرى تفكيكها. حوّلت خبرات الضباط العراقيين السابقين، ومعها خبرات المقاتلين المحترفين للقاعدة في العراق، «داعش» إلى تنظيم مقاتل فاعل، يجمع بين حرب العصابات في المدن والحرب التقليدية. وتمكن التنظيم بفعل تلك التغييرات الحاسمة من اختراق دفاعات الجيشين العراقي والسوري واحتلال مدن ومناطق ريفية في آن، بما فيها الموصل في العراق والرقّة في سورية على الضفة الشمالية للفرات، والتي باتت تدعى عاصمة «الدولة» بحكم الأمر الواقع.

السؤال، إذاً، ليس حول دور أولئك الضباط السابقين في إحياء الجهاز العسكري لـ «داعش»، بل حول حجم النفوذ السياسي لهؤلاء وحدود سلطتهم في التنظيم[١٠]، ومدى ديمومة هواهم البعثي. ووفق حساب تويتر wikibaghdady@ بالعربية، الذي أرسل ما لا يقل عن ألف تغريدة بين كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣ وكانون الثاني/يناير ٢٠١٥، ومن أشخاص يزعمون أنهم انشقوا عن «داعش» أو من منافسين له، فإن الضباط البعثيين السابقين يهيمنون على القرارات داخل «داعش». وقد سرّب الموقع بعض المعلومات حول الأدوات والأساليب التي يمارس هؤلاء من خلالها نفوذهم داخل التنظيم. يؤكد الموقع، على سبيل المثال، أن عقيداً، اسمه الحركي «الحاج بكر، مع ضابطين بعثيّين سابقين آخرَين كانوا في جيش صدّام، يقودون شورى التنظيم (المجلس العسكري)، أعلى سلطة اتخاذ قرار وفي ما يشبه الحكومة، ويتراوح عدد أعضائه كما يعتقد بين ٨ و١٣ شخصاً. ويضيف المسرّب أن «جميع أفراد حلقة البغدادي الداخلية عراقيون وهو لا يقبل أي جنسية أخرى لأنه لا يثق بأي إنسان آخر»[١١].

يقدّم التسريب معلومات وتفاصيل إضافية عن هذا العالم الداخلي الغامض يمكن التأكد منها بمقاطعتها مع مصادر أخرى. والمسرّب يدفع بإنذاره قدماً ليقول إن الضباط البعثيين السابقين من جيش صدّام وشرطته قد استولوا على التنظيم وهم يسعون إلى إعادة النظام القديم. مع ذلك، وبالرغم من أن أمر صلة «داعش» الوثيقة بالبعثيين السابقين من جيش صدّام باتت مسلّماً بها متداولة

---

(٩) للاطلاع على كامل التغريدات بالعربية، انظر: «"ويكيليكس البغدادي" تكشف "داعش" على حقيقتها... تغريدات "مؤلمة"،» زمان الوصل (٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)، <https://zamanalwsl.net/news/45122.html>.

انظر أيضاً: Christoph Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State,» *Der Spiegel*, 18/4/2015.

(١٠) هناك رسم بياني لـ الواشنطن بوست لأدوار الضباط البعثيين السابقين في قيادة داعش، انظر: «Most of Islamic State's Leaders Were Officers in Saddam Hussein's Iraq,» *Washington Post*, 4/4/2015, <http://www.washingtonpost.com/world/most-of-islamic-states-leaders-were-officers-in-saddam-husseins-iraq/2015/04/04/f3d2da00-db24-11e4-b3f2-607bd612aeac_graphic.html>.

(١١) «"ويكيليكس البغدادي" تكشف "داعش" على حقيقتها... تغريدات "مؤلمة"،» و Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State».

داخلياً وخارجياً، فإنه ليتوجب إخضاع الرواية هذه للتدقيق والنقد بهدف تبيّن حقيقتها وحدودها نظراً إلى ما يتضمنه ذلك من استنتاجات تتعلق بطبيعة «داعش» كحركة اجتماعية كما من ديمومتها أيضاً.

تشير التحليلات الدقيقة للتغريدات الألف والمئة والست والتسعين إلى أن المسرّب في موقع «ويكي بغدادي» على اطلاع بتفاصيل «داعش» الداخلية منذ لحظة تولّي البغدادي قيادتها في أيار/مايو ٢٠١٠ وإلى فترة قريبة؛ وأنه أراد عامداً أن يفشي أسراراً حساسة بعد القطيعة العنيفة أواخر سنة ٢٠١٣ بين البغدادي وأبو محمد الجولاني، زعيم جبهة النصرة. ورغم تقديم المسرّب تفاصيل حول بنية تنظيم «داعش» وتكوينه الداخلي، إلا أنه من الجلي أنه يريد أيضاً ـ وربما خصوصاً ـ النيل من سمعة البغدادي، كما من مساعديه، أمام الرأي العام الإسلامي الجهادي. وجرى تصميم التسريبات كيما تسخر من إسلامية قيادات «داعش» من خلال ردّها إلى أصولها البعثية، عارضاً نفاقهم، وعدم جدية التزامهم الديني، وخيانتهم رفاقهم المجاهدين، وبخاصة من النصرة. هدف المسرّب الواضح هو تدمير الصورة المثالية التي يرسمها «داعش» لنفسه كحركة إسلامية لا يقود سلوكها وأهدافها ودوافعها وتديّن أفرادها وقادتها سوى تحقيق إرادة الله على الأرض. بخلاف ذلك، يقدّم المسرّب «داعش» كمنظمة تستخدم الخطاب الإسلامي والشعارات الإسلامية كغطاء فقط يخفي الطبيعة الحقيقية التآمرية لقادتها الكبار الذين نشأوا وفق الهندسة الصدّامية القائمة على الإرهاب الداخلي والملتزمين مصالحهم الفئوية أو الطائفية، أو طموحاتهم الشخصية في السلطة والانتفاع إلى الحد الأقصى بالموارد المتوافرة كما بالأهالي.

رغم أن التفسير أعلاه جاذب وفيه بعض عناصر الحقيقة، إلا أنه جزئي وقاصر عن تقديم تفسير متكامل، فهو يخلط بين ولادة «داعش» من جديد والضباط البعثيين السابقين في التنظيم، كما يتجاهل الظروف الداخلية والخارجية والبنيوية في العراق وسورية التي وفّرت الحياة في شرايين التنظيم. كذلك، تتضمن الفرضية التسليم بأن الضباط البعثيين استمروا بعثيين، وكأنما البعث إطار أيديولوجي متجانس لا فرار منه؛ أو أن الضباط البعثيين في الجيش العراقي السابق هم أيديولوجيون لا محترفون؛ أو أن الضباط البعثيين السابقين لم يصبهم التغيير بنتيجة الحروب المتلاحقة التي بلغت ذروتها في الغزو الأمريكي للعراق والتسريح اللاحق للجيش العراقي.

بمعزل عن دوافع الشخص/الأشخاص الذين يقفون خلف الموقع المسرّب أعلاه، وأخذه جانب الجولاني في الحرب السلفية الجهادية الداخلية، إلا أنه يكشف عن معلومات استراتيجية تساعدنا، إذا دعّمت بمصادر أخرى، بتتبع مسيرة «داعش» وترجحاته وتحولاته. ومن بين المعلومات المهمة الدور المركزي لضباط الجيش والشرطة من نظام صدّام السابق في «داعش»[١٢]. ومع أنه من الصعب

(١٢) المصدران نفسهما على التوالي؛ Liz Sly, «The Hidden Hand behind the Islamic State Militants?: Saddam Hussein's,» *Washington Post*, 4/4/2015, <http://www.washingtonpost.com/world/middle_east/the-hidden-hand-behind-the-islamic-state-militants-saddam-husseins/2015/04/04/aa97676c-cc32-11e4-8730-4f473416e759_story.html>.

تصديق كل التفاصيل المحددة التي يقدمها الموقع، فإن هناك أدلة إضافية أنه لم يكن بوسع «داعش» التمدد بالسرعة التي شاهدناها من دون المهارات العسكرية والأمنية لأولئك الرجال المحترفين، الذين انضموا إلى البغدادي بعد الجولة الثانية من عملية اجتثاث البعث في العراق سنة ٢٠١٠.

تركّز مقالة كريستوف رويتر في در شبيغل الألمانية، وموقع ويكي بغدادي، بشكل عالٍ على كولونيل سابق في الجيش العراقي، الحاج سمير أو الحاج بكر (اسمه الحقيقي سمير عبد حمّاد العبيدي الدليمي)، كان قد قتل في اصطدام مع فصائل سورية من الثوار في حلب في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤. كان بكر، وإلى حين اغتياله، أحد أقرب مساعدي البغدادي، وذا دور عملي في اختيار البغدادي أميراً. ضابط سابق آخر في جيش صدّام هو عدنان إسماعيل نجم، المعروف بأسامة البيلاوي، واسمه الحركي عبد الرحمن البيلاوي، عمل رئيساً للمجلس العسكري في «داعش» حتى مقتله على أيدي قوات الأمن العراقية قبل أيام من سقوط الموصل في حزيران/يونيو ٢٠١٤. كان البيلاوي مساعداً مهماً للبغدادي، وقد سمّى عملية غزو الموصل على اسمه. وفيما توافرت تفاصيل وافية عن بكر والبيلاوي لدى رويتر وويكي بغدادي، كان هناك أيضاً ضباط آخرون في المجلس العسكري لـ «داعش» كانوا سابقاً في حزب البعث العراقي السابق. على سبيل المثال فقد عيّن البغدادي نائبين له في القيادة، واحداً للعراق وآخر لسورية. فقد كان فاضل الحيّالي (ويعرف بأبي مسلم التركماني والحاج ممتاز) نائباً للبغدادي على العراق إلى حين مقتله في غارة جوية أمريكية في آب/أغسطس ٢٠١٥. وقد أدار الحيالي، وهو ضابط وحدات خاصة سابق في الجيش العراقي من تلّعفر قرب الموصل، بجدارة المناطق التي كان يسيطر عليها «داعش» في العراق نيابة عن البغدادي. وبالمثل، يحتل أبو علي الأنباري، عميد سابق في الجيش العراقي، إمرة قيادة البغدادي العسكرية في سورية وممثله فيها، وهو يقود العمليات فيها ويشرف على مسؤولي «داعش» الذين يديرون عملياته وماليته ومخازن أسلحته وشؤونه القضائية. ومساعد عسكري رفيع آخر للبغدادي، هو أبو أيمن العراقي، أو السوداوي (ويعرف أيضاً بعبد الناصر الجنابي)، كان سابقاً عقيداً في استخبارات القوات الجوية وعضواً رفيعاً في المجلس العسكري، خدم في سورية والعراق وإلى مقتله أواخر سنة ٢٠١٤. واعتمد البغدادي أيضاً على ضباط سابقين مهمين آخرين، مثل وليد جاسم العلواني، المعروف باسمه الحركي أبو أحمد العلواني، عضو المجلس العسكري في «داعش» وقتل أواخر ٢٠١٤؛ وكان عبد الله أحمد المشهداني، مسؤول احتضان منفذي العمليات الانتحارية والمقاتلين الأجانب؛ وعبد النايف الجبوري، المعروف باسمه الحركي، أبو فاطمة الجحيشي، كان مسؤولاً عن عمليات «داعش» شمال مدينة كركوك[١٣].

(١٣) Mohammed Mahmoud Mortada, «The Mysterious Link between the US Military Prison Camp Bucca and ISIS Leaders,» *Al-Akhbar*, 13/9/2014, and Tim Arango and Eric Schmitt, «U.S. Actions in Iraq Fueled Rise of a Rebel,» *New York Times*, 10/8/2014.

انظر الملف الشخصي للأنباري على الموقع الإلكتروني لمشروع مكافحة الإرهاب: <http://www.counterextremism.com/extremists/abu-ali-al-anbari#sthash.emvGAQJg.dpuf>.

ما يجمع بين تلك الأسماء هو أنها أقامت لفترة ما في معتقل «بوكا» الذي كانت تديره الولايات المتحدة الأمريكية، والذي بات معروفاً من المعتقلين بعد ذلك بـ «مدرسة القاعدة»، حيث أمضى البغدادي نفسه أيضاً فترة اعتقال فيه. تظهر القائمة أعلاه، رغم أنها جزئية، الدور المهم الذي كان لأولئك الضباط في المجلس العسكري لـ «داعش». كما تشير الوقائع إلى أن قوات التحالف بقيادة الولايات المتحدة كانت قد نجحت في قتل أرفع مساعدي البغدادي العسكريين، رغم أن البعض كان يشيع خبر موته ليتجنب المطاردة. مع ذلك، ومع الإنهاك الذي باتت عليه هرمية القيادة والسيطرة في «داعش»، لم يعد سهلاً اكتشاف دور أولئك في هيكلية قيادة التنظيم. فالنزف مستمر في طاقة التنظيم البشرية والمادية وفي قدرته بالتالي على شن الهجمات أو حتى الاحتفاظ بالأراضي الواسعة التي يحتلها في العراق وسورية حتى الآن. ورغم قدرة البغدادي وحلقته الداخلية على تعويض الخسائر في الكوادر العليا للتنظيم، فإن تأثير خسارة قيادات مجرّبة مثل تلك يجعل التنظيم أكثر ضعفاً وهشاشة. إلا أنه، في المقابل، من المبكر الزعم كما يفعل بعض المسؤولين الأمريكيين من أن قتل أعلى قيادات داعش العسكرية قد شل شبكة التنظيم القيادية[١٤]. فحتى هذا الوقت، مطلع ٢٠١٦، ما من إشارات قوية إلى انهيار في بنية التنظيم أو دفاعاته، رغم عجزه الظاهر عن التقدّم أكثر.

أولاً: الأيديولوجيا سعياً إلى السلطة

في الوقت الذي توجد فعلاً صلات ظاهرة بين «داعش» والضباط السابقين في نظام صدّام البعثي السابق، إلا أن المسرّب في «ويكي بغدادي»، ورويتر، وكتّاباً آخرين، يذهبون بعيداً إلى حد الزعم أن هؤلاء يسيطرون على التنظيم من خلف الستار، وهم القوة الحقيقية المحركة له. وجعل ذلك عدداً من المراقبين داخل المنطقة وخارجها يدفعون بالزعم قدماً ليقولوا إن «داعش» بعثي أكثر مما هو سلفي ـ جهادي، أو أحد تشكيلات «القاعدة». وبحسب كريستوف رويتر، «لا يجمع تنظيم الدولة الإسلامية مع سابقيه كالقاعدة إلا القليل خلا اللافتة الجهادية. فلا أثر جوهرياً للدين في أفعاله، أو في تخطيطه الاستراتيجي، أو في تبديله الخسيس للتحالفات أو في سردياته ومروياته الدعائية. فالإيمان الديني الذي يظهره مجرد أداة لخدمة أغراضه. أما القاعدة الثابتة لديه فهي التوسع في اكتساب السلطة بأي ثمن»[١٥].

ووفق مسرّب «ويكي بغدادي» أيضاً، فالبغدادي نفسه ليس أكثر من واجهة أمامية للضباط البعثيين الذين صمموا صعوده إلى رأس هرم التنظيم. ووفق التسريب، فإن الحاج بكر، وقبل أن يجف دم أبي عمر البغدادي، التقى أبا بكر البغدادي وقدّم له قيادة التنظيم على طبق من فضة. وحين خشي البغدادي من جسامة المسؤولية، أكد له أبو بكر أنه يضمن له سلامته الشخصية

(١٤) Rebecca Kheel, «ISIS Finance Minister, Other Leaders Killed in Airstrikes,» *The Hill*, 10/12/2015.
(١٥) Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State».

واستمرار وجود التنظيم معاً. ويخلص رويتر ومسرّب «ويكي بغدادي» إلى أن البعثيين هم الذين يسيطرون على التنظيم. لكنها مجرد تكهنات مبنية، كما رأينا سابقاً، على وهم أن العراق قد تجمّد في الزمان والمكان، وأن البعثيين لا يزالون على أيديولوجيتهم القومية كما كانوا، وأنهم اخترقوا داعش لإعادة الإمساك بالعراق.

أما الواقع فأكثر تعقيداً. فللحروب أثمان يجب أن تدفع، ومنها الغزو الأمريكي للعراق وآثاره المدمّرة في الدولة والمجتمع العراقيّين، بما فيها على تشكل النخب والمواقف. وواحدة من نتائج الغزو والاحتلال الأمريكيين للعراق هي التطرف بكل وجوهه والأسلمة المتزايدة للنخب السنية والشيعية العراقية، وبعض آثاره أيضاً انضمام ضباط بعثيين سابقين من الجيش العراقي المسرّح إلى «القاعدة» وأخواتها. فقد حدث تحوّل نحو الأسلمة في الطائفتين السنية والشيعية، تغذيه المقاومة المسلحة التي اندلعت ضد الاحتلال الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣. وما صعود القاعدة من جهة والتيارات الشيعية المتطرفة من جهة مقابلة، غير النتاج العملي المباشر للتطييف والانشطار اللذين باتت عليهما الهوية الوطنية العراقية، ولتفكك اللحمة الوطنية. وفي كل الأحوال، فالضباط البعثيون السابقون في جيش صدّام الذين التحقوا بعد تسريح الجيش الوطني بالقاعدة أو بالميليشيات الشيعية خلعوا سريعاً لبوسهم الأيديولوجي السابق وارتدوا زي المجموعات التي انضموا إليها وهويّتها. لهذه الأسباب، يتوجب منهجياً وعملياً توخي الحذر في الادعاء أن التنظيم هو في قبضة البعثيين السابقين، وأن القرار فيه هو من صنع الضباط البعثيين الذين انضموا إلى «داعش»، وهذا أمر بعيد كلياً من الحقيقة. فبكر وأعوانه ما انفكوا يعلنون حرباً شعواء ضد أفكار ورموز الحقبة البعثية، من مثل العلمنة، أو العروبة، أو الدولة القومية. وما يجمعهم مع حزب البعث السابق قليل، ولا يتعدى عقيدة كليهما الشمولية وأداتهما المفضلة، القمع. على عكس الزعم بخطف البعثيين لداعش، في وسع المدقق أن يرى هجرة من هؤلاء لأفكارهم السابقة وتحولهم جماعياً نحو التنظيمات الإسلامية، ومن بينها القاعدة في العراق التي غدت «داعش». وجدير بالملاحظة، أن مؤسس القاعدة في العراق، الزرقاوي، كان متشككاً حيال الضباط البعثيين الذين انضموا إليه، وكان حريصاً على إبقائهم تحت السيطرة. أما أبو عمر البغدادي، الذي خلف الزرقاوي سنة ٢٠٠٦ والذي يقال إنه كان ضابطاً سابقاً في الجيش العراقي، فقد فتح أبواب التنظيم أمام أفراد سابقين من القوات المسلحة العراقية. واستمرت عملية انخراط الضباط السابقين في التنظيم تدريجاً منذ ٢٠٠٦، ولتشتد مع اختيار أبو بكر البغدادي أميراً لـ «القاعدة في العراق» سنة ٢٠١٠ بعد مقتل أبو عمر البغدادي.

لم يعد في وسع حزب البعث أن يقدّم لأولئك الضباط السابقين الإطار الأيديولوجي الملائم أو الحل للأسئلة الوجودية التي باتوا بإزائها بعد الاحتلال الأمريكي للبلاد، وتفكيك مؤسساتها، وخسارة وظائفهم ومناصبهم ورواتبهم. لم يكن أمامهم، وكما غيرهم من السنّة الغاضبين، إلا البديل الإسلامي. ومع بدء المقاومة المسلحة ضد الاحتلال وتصاعدها، وجد ضباط الجيش والشرطة السابقون أنفسهم أمام الانضمام إلى واحد من جناحيها المتباينين أيديولوجياً، القومي أو الإسلامي.

اتجه جناح منهم من ذوي التوجه الديني إلى الخيار الإسلامي الجهادي، متمثلاً خصوصاً بـ «القاعدة في العراق». واتجه جناح آخر، وفي طليعته اللواء عزت إبراهيم الدوري نائب الرئيس العراقي السابق ورئيس مجلس قيادة الثورة في عهد صدّام وأحد الرجال الثقة منه، ومعه آلاف ضباط وجنود الجيش والشرطة السابقين، صوب المقاومة السنّية الآخذة بالتبلور غداة الاحتلال الأمريكي للبلاد سنة ٢٠٠٣، محاولاً إحياء حزب البعث من خلال انخراطه في المقاومة المسلحة. وغدا الدوري، بعد إعدام صدّام حسين سنة ٢٠٠٧، الزعيم الجديد للحزب ولتحالف من المجموعات المسلحة تحت اسم «الجيش النقشبندي» المؤلف من البعثيين السابقين وأنصارهم.

إن الانقسام الظاهر للضباط البعثيين السابقين، بين خطين قومي وإسلامي، يدحض ـ بحد ذاته ـ الزعم المتداول حول مؤامرة بعثية للاستيلاء على «داعش». فالبعض الذي انضم إلى «داعش»، لا إلى الدوري، إنما فعل ذلك بنتيجة التحوّل التدريجي الذي حدث له نحو الأسلمة، هو تحوّل حقيقي مفهوم وله سياقه، وليس مجرد مناورة. وقد رفدوا التنظيم إذّاك بالمهارات التنظيمية والعملاتية والأمنية التي كانت لهم، كما بهندسات الرعب والغزوات الخارجية التي كانوا يمارسونها في عهد صدّام. ورغم ما أضافوه من قدرات عسكرية وتنظيمية للتنظيم، إلا أن ذلك لم يغيّر في شيء من أيديولوجيته أو مواقفه. فالبغدادي، وقبل أي شيء آخر، وريث توجّه الزرقاوي ونهجه الأيديولوجي وأساليبه العنفية، ومنها قطع الرؤوس، رغم أنه ربما زاد عليه أو تجاوزه في بعضها. ويصحّ ذلك أكثر ما يصحّ في الجانب الأيديولوجي، حيث الفارق في هذا المجال بين «القاعدة في العراق» و«داعش» لا يكاد يرى. لذلك، ووفق متابعات عدة، لم يجلب تدفق الضباط البعثيين السابقين إلى التنظيم أي تغيير ملحوظ في هويته السلفية الجهادية أو آرائه. وعليه، فمن غير الصائب الخلط بين المردود العسكري والعملاتي الذي جلبه أولئك الضباط للتنظيم وبين زعم المؤامرة البعثية لخطف التنظيم أو لإدارته من خلف الستار. هذا تبسيط مبالغ فيه واعتماد قاصر على ملاحظات جزئية لا أكثر، لا على المشهد بأكمله.

لم يكن في جذب التنظيم ضباطاً محترفين من الجيش والشرطة في الجيش العراقي السابق المسرّح ما يدعو إلى الاستغراب أو المفاجأة، بل كان قراراً استراتيجياً وفّر للتنظيم الإمكانات التي سمحت له أن يحتل في فترة وجيزة ثلث أراضي العراق ونصف أراضي سورية تقريباً. ووفق ملاحظة عالم الاجتماع تشارلز تيللي، «فاختصاصيو العنف الرسمي أو الحكومي السابقون ينقلون معهم، حين ينضمون إلى تنظيمات معارضة للحكومة الجديدة، مصادرهم وصلاتهم وأساليبهم في التنظيم وفي العنف»[١٦]. وعلى الرغم من المساعدة التي قدّمها بعثيو الدوري، على سبيل المثال، لـ «داعش» في عملية احتلال الموصل، فما إن استقر الأمر للتنظيم الجهادي حتى بادر فوراً إلى قمع البعثيين، وإجبارهم على المغادرة، أو الموت. (وسنعود إلى ذلك لاحقاً).

---

(١٦) Charles Tilly, «Terror, Terrorism, Terrorists,» in: «Theories of Terrorism: A Symposium (special issue),» *Sociological Theory*, vol. 22, no. 1 (March 2004), p. 6.

والأكثر أهمية ربما هو أن الزعم بحلف عامد بين البعث و«داعش» يتجاهل حقائق العراق الداخلية والمحلية والتحولات الاجتماعية التي حدثت للبلاد بعد إجبار صدّام حسين على الانسحاب مكرهاً من الكويت في حرب الخليج الثانية. فالغزو العراقي للكويت سنة ١٩٩٠، وهزيمة صدّام اللاحقة، حرّكا المجموعة الشيعية التي كانت تشعر بالتهميش والإقصاء لتتمرد ضد سلطة بغداد سنة ١٩٩١، ولتُقمع بعد ذلك من قوات صدّام الخاصة على نحو وحشي ما ترك جراحاً وندوباً عميقة في الدولة والمجتمع. وكما أشرنا من قبل، فقد دخلت البلاد بعد ١٩٩١ مرحلة الهوية المنشطرة سنّياً وشيعياً، على المستويين السياسي والطائفي[١٧]. وتلا ذلك العقوبات الدولية الثقيلة على العراق التي ناء تحتها المجتمع العراقي لتزيد من حدة الأزمة ولتدفع نحو تحوّل متزايد في المجتمع نحو التديّن. لجأ صدّام، بهدف تعزيز موقعه في صراعه مع الولايات المتحدة ولامتصاص الموجة الدينية الجديدة السنية والشيعية، إلى نشر الرموز والإحالات الدينية وذروتها إعلانه «حملة الإيمان» سنة ١٩٩٣، التي تضمنت أجندة اجتماعية محافظة. لم يكن ذلك بالتأكيد انعكاساً لتديّن مفاجئ لدى صدّام، بل مناورة منه لإظهاره مظهر الرجل المؤمن. فقد استمر عملياً بقمع الإسلاميين المتشددين، مع هامش خاص لنائبه الدوري، الذي تحوّل إلى التصوّف وأقام علاقات بالجماعات الصوفية[١٨].

شهد العراق، قبل فترة طويلة من الغزو الأمريكي، تحوّلاً ملحوظاً نحو الهويّة الجمعية بفعل أثقال الحروب والاضطراب الاجتماعي والعقوبات الاقتصادية التي ناء تحتها المجتمع العراقي. وبدأت تطفو إلى السطح شقوق دينية ومذهبية في الهوية العراقية، ولكن من دون البحث عن بديل لها خلا الحالة الكردية[١٩]. وبلغت التحولات الداخلية حداً متقدماً مع إطاحة نظام صدّام في بغداد سنة ٢٠٠٣ ما كشف عن توجه قديم/جديد لدى ضباط عديدين من ذوي رتب دنيا تركوا زيّهم

---

(١٧) للمزيد عن انتفاضة ١٩٩١، انظر: Fanar Haddad, *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity* (London: C. Hurst and Company, 2011); Dina Rizk Khoury, *Iraq in War Time: Soldiering, Martyrdom, and Remembrance* (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2013), and Nicholas Krohley, *The Death of the Mehdi Army: The Rise, Fall, and Revival of Iraq's Most Powerful Militia* (London: C. Hurst and Company, 2015).

(١٨) Amatzia Baram, «From Militant Secularism to Islamism: The Iraqi Ba'th Regime, 1968-2003,» Woodrow Wilson International Center for Scholars: History and Public Policy Program (October 2011), and Adeed Daweesha, ««Identity» and Political Survival in Saddam's Iraq,» *Middle East Journal*, vol. 53, no. 4 (1999), pp. 553-567.

انظر أيضاً: مجدي أحمد حسين، «تزايد المد الديني في العراق مع صمود فريد في مواجهة الحصار،» العرب نيوز، ٢٠٠١/٧/٢٠، <http://alarabnews.com/alshaab/GIF/20-07-2001/MagdiHussien.htm>.

أفلت الدوري من مطاردة الولايات المتحدة والحكومة العراقية له منذ ٢٠٠٣ بفعل حماية الجيش النقشبندي.

(١٩) بحسب الاقتصادي السياسي كامل مهدي، لم يكن حزب البعث رمزاً قومياً وحدوياً للعراق. وعليه فقد طبّق تأميم النفط والتنمية باعتبارهما شعاره الرئيسي في السبعينيات، وبتركيز أكبر مما كان فعل مع الوحدة العربية. وقادت براغماتية صدام إلى تأسيس قومية يمكن تسميتها «ما بين النهرين»، وبخاصة أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية، ثم إلى نوع من الإيمان الديني. من مقابلة المؤلف مع مهدي في ٨ نيسان/أبريل ٢٠١٥. من أجل سياق تاريخي، انظر: Malik Mufti, *Sovereign Creations: Pan-Arabism and Political Order in Syria and Iraq* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996).

القومي لمصلحة أزياء طائفية بديلة؛ بل كانت تلك التوجهات الحقيقية لبعضهم حتى قبل الغزو، وكانوا تبعاً لذلك تحت المراقبة اللصيقة من استخبارات صدّام وأجهزة أمنه. وحين كانت حدود توجهاتهم تتجاوز الخط الأحمر المرسوم لها كان يجري توقيفهم وطردهم من الجيش. على سبيل المثال، فالناس الذين عرفوا بكر يقولون إنه كان سلفياً قبل سقوط بغداد سنة ٢٠٠٣، وإنه مع آخرين يشاركونه توجهاته انضموا إلى القاعدة أو إلى تنظيمات سلفية أخرى مشابهة وتولّوا بعدها مواقع قيادية فيها. هذا الانشطار بين الجناحين البعثي والسلفي الذي رافق تحوّل بكر، والكثير مما يشبهه، يلقي الضوء على التحولات الاجتماعية التي عصفت بالمجتمع السنّي العراقي من ثمانينيات القرن الماضي وإلى الآن. فقد أعيد بناء الهوية السنّية العربية تحت ضغط الحروب والأزمة المجتمعية وتدمير الدولة الذي حدث بعد الغزو الأمريكي ٢٠٠٣. وبنتيجة ذلك كلّه حدث الانتقال التدريجي لدى المزيد من السنّة، ومن بينهم ضباط الجيش، من البعث إلى السلفية والسلفية الجهادية.

يذهب الأكاديمي العراقي سعد جواد إلى أنه لم تكن هناك قبل ٢٠٠٣ إشارات واضحة لأي انشطار طائفي في البلاد. أما بعد ذلك فقد تدهورت الأوضاع بسرعة وطفا الانشطار الطائفي على السطح. ولأن الصفة الغالبة على النظام السابق كانت سنّيته، فقد جرى تهميش السنّة وإقصاؤهم من العملية السياسية الوليدة؛ إذ هيمنت ميليشيات وأحزاب شيعية على المجال السياسي وأفسدت السلطة وتمخّضت عن انتهاكات عديدة لحقوق الإنسان في العراق. والسبب الأكثر أهمية في كل ذلك، برأي جواد، هو انحلال الدولة ومؤسساتها، وبخاصة تسريح الجيش والقوى الأمنية، من دون أي بديل أو اعتبار للمشاعر الوطنية. وفي غياب مؤسسات مجتمع مدني عابر للطوائف، لم يكن أمام أغلبيّة الضباط غير الالتحاق بجماعتهم، فزرعوا بذور الاستقطاب الجمعي والتشظي. وعلى وقع تزايد اغتيال الطيارين وضباط الجيش بدأ الانشطار الطائفي يتّخذ شكله الفاقع وليتعزز ويصل إلى ما هو عليه اليوم. وفي تكرار معكوس لتجربة حزب البعث، وفّرت الميليشيات الشيعية الحماية والسلّم لترقّي ضباط الشيعة السابقين في الجيش والشرطة. ورداً على التهميش والإقصاء الجاريين ضد الضباط السنّة، كان توجّه الكثير من ضباط السنّة، عدا العقائدي منهم، نحو «القاعدة في العراق»، أو «داعش» الآن، باعتبارها أداة الثأر ضد الحكومة المركزية التي يهيمن عليها الطائفيون في بغداد وراعيها الإيراني[٢٠].

وفي حوارات مع عدة ضباط عراقيين سابقين، حذّر هؤلاء من خطأ التعميم والتبسيط حيال هذه الظاهرة المركّبة. وقد أخبرني أولئك أن شرائح صغيرة ولكن مهمة من زملائهم انضمت إلى «داعش» وجماعات سلفية جهادية أخرى، إما لقناعة أيديولوجية وإمّا لبطلان أوهامهم البعثية القومية السابقة. إلا أنهم يؤكدون أن القيمة الحقيقية للضباط السابقين المنضمين إلى «داعش» تكمن في مهاراتهم في السيطرة والتحكم، والخطط القتالية، والتنظيم، وجمع المعلومات الاستخبارية، والأمن الداخلي لا في أيديولوجيتهم أو تديّنهم. والرواية من جديد نفسها: الغزو والاحتلال الأمريكيان للعراق

(٢٠) من حوار المؤلف مع بروفسور سعد جواد، ٣ نيسان/أبريل ٢٠١٥.

وتسريح الجيش بسرعة حوّلا ضباط الجيش الوطنيين والفخورين بأنفسهم وجيشهم إلى المقاومة المسلحة والعمل السرّي. والسنوات الطويلة من القتال أو من الاعتقال في السجون التي كان يديرها أمريكيون جلبت التطرف إلى الضباط أولئك وبعثت بهم إما إلى «داعش» وإمّا إلى تنظيمات متمردة أخرى. وما استفزّ الضباط السنّة أكثر من ذلك، هو أنهم لم يُقصوا فحسب بل غدوا مطاردين من النظام السياسي الذي أعقب إطاحة صدّام حتى في منازلهم في المنطقة المدعوة بالمثلث السنّي. وصبّت السلطات الجديدة المزيد من الملح على الجرح بتكليفها ضباطاً عراقيين اصطياد زملائهم السابقين، وأجازت للشرطة ذات التوقيف الفوري للمتهمين بمقاومة الاحتلال. فأوقف لذلك الآلاف من السنّة عشوائياً وجرى تعذيب وإهانة بعضهم على أبشع ما تكون عليه الحال، فترك ذلك كلّه كمّاً من المرارة العميقة لا يزال يفتك بالنسيج العراقي الداخلي إلى اليوم[٢١].

وكما لحظنا في الفصل الثالث، فقد رأى السنّة أن الحكومة التي يهيمن عليها الشيعة قد استخدمت قانون استئصال البعث أداة لتحويل الجميع إلى متهمين بهدف استبعادهم من دوائر صنع القرار والسلطة. وأبو مطلق، العميد السابق في الجيش العراقي، واحد من تلك الحالات. فقد اضطُرَّ إلى العمل سائق سيارة أجرة لإعالة عائلته، ويؤكد أن المرارة الناتجة من المعاملة السيئة دفعت بعدد من زملائه السابقين لمحاربة قوات التحالف وحكومة بغداد التي يهيمن عليها الشيعة. ويضيف، «كيف تريدني أن أكون جزءاً من عملية بناء النظام السياسي الجديد الذي طردني من كل شيء ونهب كل شيء عندي؟»[٢٢].

ويلاحظ عالم الاجتماع العراقي وليد السعد، أنه بعد سقوط بغداد سنة ٢٠٠٣، اجتاحت موجة تديّن العراقيين، بمن فيهم البعثيون الذين اكتشفوا للتوّ تديّنهم وإيمانهم ـ لا عن اقتناع دائماً وإنما أحياناً ـ لمجرد حماية أنفسهم من إجراءات سلطات ما بعد صدّام. يقول، «لقد تحوّل عديدون من القومية والعلمانية إلى السلفية والأصولية»[٢٣]. كانت هجرة الضباط أولئك من البعث إلى السلفية والجهادية دليلاً على انهيار مؤسسات الدولة في العراق والتحوّل في النخبة الحاكمة الجديدة وفي الطبقات الاجتماعية[٢٤]. وإذا صحّ أن «داعش» هو نتيجة للغزو الأمريكي للعراق، فليس من المفاجئ إذاً أن تنضمّ مجموعات من الضباط السابقين في جيش صدّام إلى قافلة الجهاديين. مجموعات ضباط جيش صدّام هي عيّنة مصغّرة للمجتمع السني والشيعي عموماً، الذي عاد فتشظّى وفق خطوط جمعية، أيديولوجية، واجتماعية. وكما قيل آنفاً،

---

(٢١) علي هاشم، «هكذا سقط العراق!،» السفير، ٢٠١٥/٥/١٢.

(٢٢) Sabah Arar, «Shadow of Saddam Lives on in Iraq,» Agence France Presse, 3 May 2015.

(٢٣) وليد السعد، ورد في: علاء يوسف، «ضباط «بعث العراق» يقودون تنظيم الدولة،» الجزيرة نت، ٨ نيسان/أبريل ٢٠١٥، <http://www.aljazeera.net>.

(٢٤) حدثت عملية هجرة وتغيير أيديولوجي في مصر بعد هزيمة ١٩٦٧، حين هزمت إسرائيل الجيش المصري وأذلت الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، زعيم الدعوة القومية العروبية. فبنتيجة النكسة المفاجئة تلك، هجر الكثير من القوميين قوميتهم نحو تنظيمات إسلامية مختلفة، والذي أسس لصعود الإسلام السياسي على القومية العلمانية.

كان البعث أقل من عقيدة متجانسة وأقرب إلى أن يكون «حزب السلطة»، الذي كان يستطيع أن يوزع المغانم على أفراده على قاعدة الولاء الشخصي لرئيس الحزب. وعلى ذلك، يجب عدم النظر إلى تحوّل بعض الضباط السابقين في جيش صدّام من البعث إلى السلفية الجهادية باعتباره انقلاباً أيديولوجياً أو فكرياً.

واختبر الأفراد الشيعة في المؤسسة الأمنية العراقية تجربة مماثلة. فمعظم أفراد القوات المسلحة في العراق كانوا من الشبّان الشيعة. وبعد الغزو والاحتلال الأمريكيين، وجد هؤلاء أنفسهم في وضع يسمح لهم بالاختيار بين أن يبقوا في القوات المسلحة المشكّلة من جديد أو ينضموا إلى واحدة من الميليشيات الشيعية المتعددة التي كانت تعمل باستقلال عن دولة ما بعد ٢٠٠٣. وكان معظمها على صلة بمجموعات المقاومة الشيعية قبل الغزو وبعده[٢٥]. وبين هؤلاء «الحركة الصدرية» التي حشدت فقراء الشيعة وكانت في مقدم الذين تعرضوا لقمع النظام العراقي في تسعينيات القرن الماضي، إلى حد اغتيال النظام، مؤسس الحركة محمد صادق الصدر، والد مقتدى الصدر.

من الصعب التحديد بدقة أعداد الشيعة في القوات المسلحة الذين انضموا إلى الميليشيات الشيعية، مثل جيش المهدي (الحركة الصدرية)، أو «فيلق بدر»، الذي تأسس في الثمانينيات في إيران، كذراع عسكرية لـ «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية». ورغم ضبابية الصورة الأولية، إلا أن بعض الحقائق المتصلة بالبيئة الأمنية في عراق ما بعد ٢٠٠٣ تسمح ببناء بعض الاستنتاجات. أعيد بناء القوات المسلحة العراقية جذرياً بعد ٢٠٠٣ بطريقة تبقي أفرادها موالين أو متعاطفين مع النظام السياسي الذي نشأ بعد الاحتلال. وكان ذلك حتمياً، لأن القوات المسلحة السابقة كانت تورّطت في القمع الدموي للانتفاضات التي حدثت في المجموعتين الكردية والشيعية، واللتين سيصبح قادتهما العنصر السياسي الفاعل في عراق ما بعد ٢٠٠٣. وقد وضعت النخبة الشيعية السياسية الحاكمة، وبمجرد سيطرتها على القضاء والمؤسسات الأخرى، يدها بسرعة على الجماعات الشيعية المسلحة. وعليه لم يعد من الأهمية بمكان السؤال إذا كان الأفراد الشيعة في القوات المسلحة السابقة أصبحوا أعضاء في الميليشيات الشيعية أم لا. فقد كان هناك الكثير من التداخل بين تلك الميليشيات والدولة العراقية[٢٦]. وكان من الشائع أن يكون الفرد الشيعي في القوات المسلحة أو الشرطة عضواً أيضاً في واحدة من الميليشيات الشيعية. وكان يدير وزارة الداخلية، ولا يزال، عضو رفيع في فيلق بدر. وكان للتداخل بين مؤسسات الدولة والميليشيات الشيعية، وبخاصة جيش

(٢٥) البعث لهم حزب حاكم، سُلّم اجتماعي للترقي الاجتماعي والعيش في بحبوحة اقتصادية، ومن دون أن يكونوا بالضرورة موافقين على عقيدته.

(٢٦) مثال حديث على ذلك صعود «الحشد الشعبي»، الميليشيا الشيعية الكبيرة والمستقلة نسبياً والتي أسست بعد دعوة آية الله السيستاني العراقيين لقتال داعش. ومع أنها مدعوة ردّاً مدنياً على داعش، إلا أنها في حقيقتها فصيل مواز للجيش العراقي وتقودها نخب شيعية حاكمة داخل الحكومة العراقية.

المهدي وفيلق بدر، دور استراتيجي مرجح في أثناء الحرب الأهلية الطائفية سنة ٢٠٠٦[٢٧]. لكن ذلك لم يمنع حدوث توترات وصدامات متكررة بين الصدريين والجيش العراقي، الذي يهيمن عليه الشيعة، ما بعد ٢٠٠٣. ويتحدى التيار الصدري وجيش المهدي باستمرار شرعية المؤسسة الشيعية وسلطتها التي أعادت تنظيم القوات المسلحة وتسيطر عليها وتتحكم بالدولة العراقية، فيما كانت سنوات صدّام في المنفى. وغدا التوتر صدامات مفتوحة غير مرة بين الصدريين والجيش العراقي كما مع ميليشيات شيعية أخرى مثل فيلق بدر.

هذه التفاصيل ليست غريبة عن السكان السنّة في العراق. والتداخل بين القوى الأمنية والجماعات الشيعية المسلحة لم ينل من شرعية الدولة العراقية الجديدة في أعينهم فحسب، وإنما خلق، أكثر من ذلك، الظروف المناسبة التي احتاج إليها السلفيون الجهاديون لتعبئة المقاومة المسلحة السنية على نطاق واسع.

استمر البغدادي، كما رأينا، أميناً على خط سابقيه، الزرقاوي وأبو عمر البغدادي، في إرثهما الدموي وفي تقديس العنف، وإن يكُ بمعايير أكبر. انتهج الزرقاوي، المضطرب نفسياً، وبعده أبو عمر البغدادي وأبو بكر البغدادي، العنف الزائد على نحو استراتيجي ممنهج بهدف إلقاء الخوف والرعب في قلوب أعدائه والإعجاب والحماسة في عيون أتباعه. لا شيء غامضاً أو غير اعتيادي في توحّش «داعش»، وسيكون من الخطأ اختصار التنظيم بالعنف الزائد الذي يظهره.

لذلك لا بد من العودة إلى السياق. فبعد المواجهات العنيفة بين «جبهة النصرة»، الذراع الرسمية للقاعدة المركزية، و«داعش» أواخر ٢٠١٣، حاول كل طرف الحطّ من الطرف المقابل باتهامه أنه بعثي. خاض كلاهما حرباً شعواء للتفرّد بالتمثيل السلفي الجهادي. وادّعى كل منهما أنه حامل مشعل السلفية الجهادية والوريث المخلص لإرثها والقيّم على النقاء الديني والإيمان الصحيح، متهماً خصمه في الوقت نفسه بالفساد والنفاق. في هذا السياق، استمر موقع «ويكي بغدادي» الذي عرضنا له لمدة عام كامل يسرّب مئات التغريدات التي تنال من «داعش» ويعضها أنه تنظيم بعثي أكثر مما هو سلفي جهادي، وأن البغدادي ليس أكثر من واجهة للضباط البعثيين الذين يسيطرون على التنظيم وقراراته[٢٨].

وفي الخط نفسه، أدان عالم الدين المعروف أبو محمد المقدسي، ومرشد الزرقاوي لفترة من الزمن، «داعش» لأساليبه العنفية الدموية معتبراً إياها أساليب بعثية لا سلفية جهادية ودليلاً على

---

(٢٧) من أجل تاريخ متكامل ونقدي للحراك الشيعي في العراق، بما فيه تاريخ حزب الدعوة، وعلاقة الشيعة بحزب البعث، انظر: Ranj Alaaldin, «The Rise of the Shi'a: Mobilisation and Disconnect in Iraq, 1958-1980,» (PhD Dissertation, London School of Economics and Political Science, 2016).

(٢٨) «"ويكيليكس البغدادي" تكشف "داعش" على حقيقتها... تغريدات "مؤلمة"،» و Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State».

بعثية التنظيم[٢٩]. وحظي الاتهام بتغطية إعلامية واسعة. ردّ «داعش» باللغة نفسها، متهماً أحد أبرز قادة «النصرة»، أبو ماريا القحطاني، بأنه كان أحد أفراد تنظيم «فدائيي صدّام». واستدعى الاتهام رداً من القحطاني، اتهم فيه بدوره قادة «داعش» بأنهم «بعثيون ـ صدّاميون»[٣٠].

الدافع خلف الاتهامات المتبادلة بين الفصيلين المتنافسين سياسي بالتأكيد، ولكن ما هو أكثر أهمية أنه بالرغم من حدة الاتهامات بين الجولاني والبغدادي، فهو لم يبلغ حد اتهام الأول للثاني بأنه بعثي، أو أنه مجرد واجهة للسيطرة البعثية على التنظيم. وفي ذلك دلالة كافية. والجولاني يعرف الأمر من قرب، فقد كان مع البغدادي في العراق سنتي ٢٠١٠ ـ ٢٠١١، وكان قد أرسله إلى سورية أواخر ٢٠١١ ليؤسس قاعدة جهادية هناك، وكان في وسعه أن يعرض لأي علاقات قائمة بين البغدادي والضباط البعثيين السابقين. بخلاف ذلك، امتدح الجولاني، في مقابلة تلفزيونية مع الجزيرة، نجاحات منافسه ضد حكومة بغداد التي يهيمن عليها الشيعة. وأضاف أنه يرفض إدانة منافسه الراهن أو إقصاءه رغم موقف «داعش» من النصرة. شهادة الجولاني تقفل الباب على أية مبالغات في علاقة البغدادي بالضباط البعثيين السابقين أو في وصفها بالاتحاد الداعشي ـ البعثي[٣١].

وفي مقابلة أخرى مع صحافيين عرب في مقر قيادته في إدلب، شمال سورية، رفض الجولاني أي اتهام للبغدادي وقال إن كليهما يخوضان حرباً ضد أعداء الإسلام في العراق وسورية[٣٢].

أما إذا كان من شخص له حساب يجب تصفيته مع البغدادي فهو من دون شك أيمن الظواهري، زعيم القاعدة المركزية، التي تعرّضت زعامته للحركة الجهادية العالمية لنكسة خطيرة بعد التطورات العراقية الأخيرة. ورغم ذلك، لم يشكك الظواهري، وهو في ذروة النزاع مع البغدادي حول شرعية إعلان نفسه خليفة، وتشجيعه على ترك «القاعدة» لمصلحة تنظيمه، في إسلامية البغدادي أو جهاديته. هو يصف ما فعلوه في «داعش» بـ «الأخطاء الفادحة»، ويدعو في المقابل أتباعه وأتباع «داعش» إلى التعاون ضد التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة. يقول الظواهري في تسجيل صوتي سنة ٢٠١٥، «لو كنت في سورية والعراق لتعاونت معهم في قتل الصليبيين والعلمانيين والشيعة رغم أني لا أعترف بدولتهم، لكن الأمر أكبر من ذلك»[٣٣]. يؤكد الظواهري تكراراً أن النزاع

---

(٢٩) بسام البدارين، ««نكتة» المقدسي و«البعثيين» والداعشي عندما «الولح» برأس إمراة كردية مقطوع،» القدس العربي، ٢٠١٥/٢/٨، <http://www.alquds.co.uk/?p=292531>.

(٣٠) وائل عصام، «أبرز قياديي «جبهة النصرة» أبو مارية القحطاني كان من «فدائيي صدّام»،» القدس العربي، ٢٠١٤/١١/٨، <http://www.alquds.co.uk/?p=247461>.

(٣١) انظر فيديو قناة «الجزيرة» حول الجولاني والنصرة: Al Jazeera, 27 May 2015, <http://www.youtube.com/watch?v=-hwQT43vFZA>.

انظر أيضاً: «أمير جبهة النصرة أبو محمد الجولاني: حزب الله اللبناني زائل لا محالة بزوال نظام بشار الأسد في سوريا،» الجزيرة نت، ٢٧ أيار/مايو ٢٠١٥، و«الجولاني يشيد بـ «داعش ـ العراق»: الإخوان المسلمون انحرفوا،» الأخبار، ٢٠١٥/٦/٤.

(٣٢) من حوار للمؤلف مع موسى العمر، صحافي سوري قابل الجولاني، لندن، ٢٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥.

(٣٣) Omar Fahmi, «Al Qaeda Calls Islamic State Illegitimate but Suggests Cooperation,» Reuters, 9 September 2015, <http://www.reuters.com/article/2015/09/09/us-mideast-zawahri-idUSKCN0R91LY20150909>.

بين «القاعدة» و«داعش» إنما هو حول الطموحات السياسية للبغدادي، ولعدم رغبته في حصر سلطته بالعراق، وليس على مسائل عقائدية أو أيديولوجية. وفي كل الأحوال، فهو لم يتفوّه بكلمة يتهم فيها بمؤامرة بعثية ـ داعشية، أو أن البغدادي لا يملك السلطة الحقيقية على التنظيم.

يجب البحث عن الأسباب الحقيقية لصعود «داعش» الدرامي في التطورات العراقية التي تلاحقت بنتيجة الغزو الأمريكي سنة ٢٠٠٣، كما لهزال نظام الدولة العربية وإفلاسه، إلى عناصر أخرى، بدل تضييع الوقت في ردّه إلى حزب البعث المتهالك، أو إلى عبقرية رجل بعينه، أو إلى نظريات المؤامرة عموماً. والأمر ينسحب على التعقيدات الراهنة في العراق وسورية والجوار. فالجماعة السنية في العراق، وإلى درجة أقل في سورية، ممزقة بين قطبين أيديولوجيين ـ القومي الديني والسلفي الجهادي. وبينما اختارت شريحة سنية مهمة الهوية الطائفية الخالصة، فإن شريحة أخرى، بعثية متشددة، اختارت أن تعمل باستقلالية؛ مع أن أغلبية الجماعة السنية لا تني تناضل لتبقى في قيد الحياة والعثور على محل لها في النظام الجديد[٣٤]. عانى السنّة في العراق أكثر مما عانته أي جماعة عراقية أخرى، وضاعف صعود «داعش» من أزمتها فباتت محشورة بين التنظيم المتطرف من جهة والحكومة المركزية وميليشياتها الشيعية من جهة أخرى. ويعتمد جزء كبير من مستقبل «داعش» على الحراك داخل الجماعة السنية واتجاه ولاءاتها وعلى العملية السياسية في البلاد ككل بالتالي. ورغم بقاء حزب البعث لما يقرب من أربعة عقود في السلطة إلا أنه أخفق في تذويب الولاءات المذهبية والإثنية العراقية في هوية وطنية جامعة[٣٥].

وما يزيد الأمور تفاقماً هو أن الاضطهاد والاستبداد والحروب الخارجية قد خلقت شقوقاً داخل المجتمع العراقي، غدا من الصعب ردمها. فبات الكثير من العراقيين يجدون أمنهم وهويتهم في الولاءات التقليدية المحلية، العشائرية أو المذهبية أو الإثنية، لا في الهوية الوطنية الجامعة. أضف إلى ذلك إخفاق الدولة العربية بعد الاستقلالية وبعد الكولونيالية في صنع الهوية الوطنية الجامعة، بل هي غذّت بدلاً من ذلك المؤسسات التقليدية على حساب المشروع الوطني الذي يستطيع وحده توحيد المواطنين. وصدّام حسين مثال في ذلك. فإزاحة الولايات المتحدة له لم تكن كافية لدمل الجروح والشقوق التي تسبب بها في المجتمع العراقي طيلة حكمه الاستبدادي، ولم يعقبه بالتالي قيام عقد اجتماعي عراقي جديد. وكان تدمير الغزو الأمريكي للدولة في العراق العامل الأكثر سلبية في هذا المجال، وأكثر من أي عامل آخر. فقد دفع ذلك التدمير الجماعتين السنية والشيعية إلى خيارات واصطفافات ضيقة متقابلة، وإلى معارك حول الهوية، ليس فقط بين الجماعتين بل داخل

---

(٣٤) Tim Arango, «With the Fall of Ramadi, Plight of Iraq Sunnis Worsens,» *New York Times*, 19/5/2015.

(٣٥) تثير فرضية خليل عثمان حول أولوية الهوية جملة أسئلة حول أهمية الهويات المتعددة التي تسود العراق اليوم. مثلاً، من يقرر أية هوية هي المسيطرة؟ أو إن كل الهويات مسيطرة؟ إذا صحت الأخيرة، فهناك حاجة ملحة، إذاً، لتفحص لا الهويات الطائفية فقط بل الهويات الأخرى أيضاً. هناك أيضاً تأكيد للدولة مقابل أولوية الهوية، انظر: Khalil F. Osman, *Sectarianism in Iraq: The Making of State and Nation since 1920* (Abingdon, UK: Routledge, 2015).

انظر أيضاً: ميثم الجنابي، فلسفة الهوية الوطنية (العراقية) (بغداد: دار ميزوبوتاميا، ٢٠١١).

كل واحدة منهما أيضاً. والمعارك داخل الجماعتين حقيقية وجدية. فهناك حرب داخلية مستعرة داخل الجماعة السنية، يغذيها «داعش» ومثيلاته ويفيد منها، مقدماً نفسه المدافع الأول والوحيد عن الجماعة ضد «الآخر» الشيعي والسنّي «المرتد» الذي باع روحه للشيطان. وتنقسم الجماعة الشيعية بدورها داخلياً وفق خطوط اجتماعية وأيديولوجية، إلى جانب الصراع الشرس الجاري على السلطة بين المستفيدين. وللكرد أيضاً، رغم توحدهم الظاهر، انقساماتهم الداخلية حول مستقبل الجماعة الكردية. ويبرز الانقسام والصراع الحاليان بين داعش والنصرة الانقسامات السابقة بدمويته وتوحشه. وعليه، فالسؤال الذي يحتاج إلى إجابة هو: متى تنتهي الانقسامات والصراعات تلك؟ وفي أي اتجاه؟ وفي وسعنا القول، وفق المعطيات المتوافرة لدينا، إن «داعش» بهويته الطائفية التكفيرية المتطرفة سيبقى قوة دافعة لصراع الهويات والانقسامات الداخلية التي حطّمت النسيج الاجتماعي للعراق، والآن في سورية.

ثانياً: البعثيون والجهاديون: من التعايش إلى المواجهة

هناك نقطة أخرى متصلة بدور الضباط السابقين، من جيش صدّام وشرطته، في «داعش» وتحتاج إلى تدقيق. لم يخطف «داعش» شريحة مهمة من الضباط البعثيين فقط إلى صفوفه، بل هو تعاون أيضاً مع ضباط آخرين، معظمهم ممن لم يرمِ لبوسه البعثي. واللواء الدوري، أحد الرجال الثقة القلائل لصدّام، حالة تستحق القراءة. حاول الدوري إحياء حزب البعث المحظور بعد الاحتلال الأمريكي سنة ٢٠٠٣ من خلال تنظيمه ضباط الجيش والشرطة والجنود السابقين في تحالف من المجموعات المسلحة الثائرة تحت إسم «جيش النقشبندي». ربطت الولايات المتحدة بين هذا الجيش و«أنصار الإسلام»، الميليشيا العراقية المرتبطة بالقاعدة، واتهمته بأنه مموّل رئيسي للجماعات المسلحة. وتبعاً لذلك، جعلته السلطات الأمريكية في المرتبة السادسة في قائمة من أصل ٥٥ عراقياً اعتبرتهم الأكثر تهديداً وخطورة ويتوجب اعتقالهم أو قتلهم. مع ذلك، فقد أخفقت القوات الأمريكية والعراقية والميليشيات الشيعية في تحقيق ذلك، رغم إعلانها موته أكثر من مرة. نجا الدوري، ظلّ على قيد الحياة، وعمل دون كلل كما بدا على إحياء حزب البعث المحظور من سلطات بغداد. استمر الدوري من مخبئه أحد أكثر الأسماء المطلوبة من القوات الأمريكية، وأحد أكثر الفاعلين ضد قوات التحالف وحكومة بغداد. وبحسب مصادر محلية عدة، نجح جيش النقشبندي، الذي يضم خصوصاً ضباطاً وجنوداً من الجيش والشرطة السابقين وأنصاراً قوميين آخرين، في تأسيس شبكات اجتماعية مهمة في عدد من المدن السنية، من بينها الموصل وتكريت. كما أقام أيضاً علاقات محدودة بجماعات جهادية أخرى، من بينها القاعدة في العراق والتي غدت داعش. ولعله من المفيد أن نتذكر أن ما من مدينة سقطت ثمرة ناضجة في يد داعش صيف ٢٠١٤ إلا وكان ذلك نتيجة لتعاون داعش مع أنصار جيش النقشبندي. وعلى سبيل المثال، فحين جرى اجتياح تكريت لبعض الوقت في حزيران/يونيو ٢٠١٤، يروي السكان المحليون أن المقاتلين كانوا

يرفعون صور صدّام والدوري. وبحسب ذاك المصدر، فالقوة الرئيسية التي احتلت تكريت كانت من جيش النقشبندي وأعضاء سابقين في حزب البعث[٣٦].

وفي هذا السياق، يأتي التسجيل الصوتي الذي أذاعه الدوري بعد شهر من سقوط الموصل، والذي امتدح فيه «أبطال وفرسان القاعدة والدولة الإسلامية» كما الجماعات الأخرى التي تقاتل «الفرس، والاحتلال الصفوي للعراق»، في إشارة مباشرة إلى حكومة نوري المالكي في بغداد. دعا الدوري العراقيين جميعاً إلى التغلب على خلافاتهم، والمقصود الانقسامات بين الجماعات المعارضة لقوات المالكي، وأن يوحّدوا جهودهم لـ «تحرير» البلاد[٣٧]. كما أن هناك فرضية محتملة في أن يكون البعثيون قد تغلغلوا بقوة في الاحتجاجات الشعبية التي اندلعت في عدة مدن عراقية سنة ٢٠١٣ ومطلع ٢٠١٤ على وقع انتفاضات الربيع العربي. لكن تلك الاحتجاجات سرعان ما غدت أكثر فأكثر مسلحة ومتشددة بنتيجة تصدي قوات الحكومة المركزية لها بالكثير من العنف والقسوة من جهة مقابل العسكرة المتزايدة لتلك الاحتجاجات من قبل البعثيين والعناصر المتشددة الأخرى من جهة ثانية. بكلام آخر، لقد أسهم البعثيون في لعبة خطيرة وهي تقديم المنطقة على طبق من فضة لـ «داعش». ضمّت التظاهرات في البدء أفراداً من الإدارات المحلية وزعماء العشائر الذين كانوا حلفاء للمالكي، لكنهم انصاعوا للجوّ المسيطر ثم تساقطوا تدريجاً كيما يخلو الميدان لاحقاً لـ «داعش» وحده. وبين احتلال الفلوجة وسقوط الموصل كانت دعوات المجالس العسكرية الثورية المحلية عالية جداً، وكانت النغمة البعثية واضحة فيها. والتسجيل المنسوب للدوري بعد سقوط الموصل يحيل بوضوح على التحالف الذي نشأ بين داعش والبعثيين والفصائل القريبة منهما[٣٨].

في غضون ثلاثة أسابيع فقط من احتلال الموصل، بدأ «داعش»، ولم يكن ذلك مفاجئاً، بتوقيف كبار ضباط الجيش العراقي السابق وأفراد من حزب البعث. كان شهر العسل بين البعثيين و«داعش» قصيراً جداً، وتحوّل التعايش بين الطرفين إلى مواجهة. تصادم بعثيو الدوري وجهاديو الدولة الإسلامية لأن تفاهمهم التكتيكي الأولي لم يستطع أن يردم الهوّة الأيديولوجية بينهم، ولا أن يخفي الصراع على السلطة أيضاً. ورغم النفي العلني، فإن هناك انقساماً كبيراً حول مسائل عقائدية بين «داعش» والجيش النقشبندي. والمواجهة بين الطرفين حتمية لأن «داعش» لا يقبل بأي تحد لسلطته

---

(٣٦) انظر: أحمد الأنباري، «تعاطي فصائل المقاومة العراقية مع تنظيم الدولة،» الجزيرة نت، ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤. انظر أيضاً: «Iraqi Officials Say Saddam Deputy Believed Killed,» Associated Press, 17 April 2015; Dan Murphy, «Most Senior Baathist General to Evade US in Iraq Reported Killed: Does It Matter?,» *Christian Science Monitor*, 17/4/2015, and Suad Al Salhy, «Dancing with Daesh,» *Newsweek* (23 December 2015).

(٣٧) انظر: محمد شفيق، «الدوري قتل «مصادفة»...،» الأخبار، ٢٠١٥/٤/١٨، <http://www.al-akhbar.com/node/230779>.

انظر أيضاً: «Close Aide to Saddam Praises ISIS Extremists and Calls for the Fall of Baghdad,» Reuters, 13 July 2014, <http://www.businessinsider.com/close-aide-to-saddam-praises-isis-extremists-and-calls-for-the-fall-of-baghdad-2014-7#ixzz3aUEJougf>.

(٣٨) من حوار المؤلف مع كامل مهدي، ٣٠ تموز/يوليو ٢٠١٥.

في المناطق التي يسيطر عليها. ويسمي «داعش» علانية منافسيه القوميين «البعث الشيطاني» ويسمي الدوري بالمثل («الكافر المخادع»)[٣٩].

يقول زعيم قبلي سني من محافظة صلاح الدين، أنس الجبارة، أن الدوري حاول، بعد انسحاب القوات الحكومية من الموصل وتكريت صيف ٢٠١٤، أن يدير شؤون المدينة بتنصيبه أفراداً بعثيين في الإدارات المحلية ومواقع السلطة الأخرى. لكن «داعش» سارع إلى عزل المعيّنين من الدوري ووضعهم أمام خيار: الولاء للبغدادي أو الاعتقال والإبعاد. وفي تسجيلين صوتيين للدوري أذيعا في نيسان/أبريل وأيار/مايو ٢٠١٥ (واحد عبر شبكة التواصل الاجتماعي والآخر من على قناة التغيير التلفزيونية العراقية)، اتهم الدوري «داعش» حرفياً باعتقال ثلث أعلى قيادات حزب البعث، بمن فيهم سيف الدين المشهداني وفاضل المشهداني. وذكر الدوري في تسجيلَيه أن الجماعات التكفيرية مثل «داعش» تشكل خطراً على الأمة العربية لأنهم لا يعترفون بوجودها وجدّد التزامه القومي العربي. لقد كان الدوري نفسه، الذي كان امتدح قبل تسعة شهور متطرفي الدولة الإسلامية واصفاً إياهم بـ «الأبطال». ويذهب الدوري أكثر بانتقاد داعش لمسؤوليته صيف ٢٠١٤ عن المجزرة التي ذهب ضحيتها مئات الشيعة في معسكر سبايكر، القاعدة العسكرية السابقة قرب تكريت. وأدان الجيش النقشبندي أيضاً التطهير العرقي الذي قام به داعش للأقليات الدينية كما إعدام الطيار الأردني في سورية[٤٠]. ودفع ذلك بعض البعثيين إلى الذهاب إلى النقيض، وذلك بتعاونهم مع الحكومة العراقية والأمريكيين بهدف تنظيم المقاومة ضد «داعش» في الموصل ووفق خبرات «الصحوات» السابقة[٤١].

يعكس هذا الانقسام داخل البعث نفسه انقساماً أعمق داخل المجموعة السنية الأوسع، وهو أمر لا يأخذه كتّاب كثر بعين الاعتبار وهم يتحدثون عن دور الضباط البعثيين السابقين الذين انضموا إلى «داعش». فالجماعة السنّية المفتتة التي تعوزها القيادة تجد نفسها وسط خيارات متعددة متناقضة، كما تعاني أزمة هوية حادة. لقد أعادت اضطرابات العقدين المنصرمين الاجتماعية الحادة في العراق تشكيل الهوية السنية العربية هناك. ونجح «داعش» في اللعب على حافة السكين، فحيال الفراغ في القيادة والإحساس بالضحية، قدّم «داعش» رؤيته الطوباوية للسنّة، الخليفة، والذين

(٣٩) عثمان المختار، «عزة الدوري يحيي «عاصفة الحزم» ويهاجم «داعش»،» العربي الجديد، ٢٠١٥/٥/١٥؛ حمد جاسم محمد الخزرجي، ««البعث» والنقشبندية و«داعش» بعد الدوري،» الحياة، ٢٠١٥/٤/٢٨، <http://www.alhayat.com/Opinion/Letters/8834399>.

انظر أيضاً: «داعش العراق والسنة،» الحياة، ٢٠١٤/١١/٢٠، والحياة، ٢٠١٥/٥/٢٨، <http://alhayat.com/Opinion/Letters/>.

(٤٠) «عزة الدوري يعلن تأييد «عاصفة الحزم» ويدعو لمحاربة تنظيم «الدولة»،» القدس العربي، ٢٠١٥/٤/٥؛ «قناة «البعث» تبث تسجيلاً صوتياً منسوباً لعزة الدوري،» السفير، ٢٠١٥/٥/١٥؛ الأنباري، «تعاطي فصائل المقاومة العراقية مع تنظيم الدولة،» و «Iraqi Officials Say Saddam Deputy Believed Killed,» Associated Press, 17 April 2015.

(٤١) وائل عصام، «ضباط بعثيون سابقون يتعاونون مع الحكومة العراقية والأمريكيين لتشكيل «صحوات» في الموصل،» القدس العربي، ٢٠١٥/٥/٢٠.

يتوجّب عليهم أن يتحدوا من حوله، وكذلك الحماية ـ ومعها الخلاص والأمن والقوة. إلا أنه ما من دليل على أن أيديولوجيا «داعش» هي وحدها التي تعني المناطق السنية في العراق وسورية. فكثير من السنّة إنما قاتلوا تحت راية داعش لأنهم نظروا إلى التنظيم بوصفه حامياً لهم ضد الحكومة في بغداد التي «تهيمن عليها الميليشيات الشيعية»، أو تراعي مصالحهم. والراية السوداء لها في النهاية أطراف من حرير. لم يستعمر السلفيون الجهاديون في الواقع عقول السنة ولا أراضيهم. كان هناك تلاقٍ في المصالح بين المتمردين السنّة وداعش السلفية الجهادية، فكان زواج المصلحة بديلاً من الانجذاب الأيديولوجي. وفي النهاية، فالمسافة بين أيديولوجية التنظيم المتشددة والمقاتلين العاديين فيه ستؤثر جوهرياً في استقرار التنظيم وبقائه على المديين المتوسط والبعيد، وبخاصة إذا بدأت حظوظ التنظيم العسكرية بالتراجع.

لم يكن هناك ما يفاجئ في قمع داعش القاسي للبعثيين في الموصل وتكريت بعد سقوط المدينتين. فالتسامح والقبول اللذان أظهرهما «داعش» حيال الفصائل المشابهة الأخرى في سورية والعراق كان من باب التكتيك المؤقت لا أكثر على أن يخيّرهم لاحقاً بين الخضوع أو القصاص. ومن المفيد أن نذكر الفلوجة تحديداً مثالاً لافتاً. فوفق شهادات السكان المحليين، فقد أعقب احتلال التنظيم للفلوجة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤ تعاونه مع علماء سنّة بارزين وشيوخ عشائر ورفاق جهاديين، وظهر بالتالي مرناً وقابلاً للعمل مع آخرين كفريق، وعلى نقيض الممارسات الوحشية التي كانت لسلفيه، تنظيم القاعدة في العراق والدولة الإسلامية في العراق. ولكن ما إن رسّخ التنظيم أقدامه في الفلوجة حتى بدأ بتطهير المدينة من منافسيه المحتملين وفرض حالاً من الرعب ضد حلفائه السابقين. ويفيد شهود موثوقون، أن «داعش» استخدم في البدء أساليب الخداع لكسب المجموعات السنية المحلية في المناطق التي يسيطر عليها في العراق وسورية إلى جانبه، ألا أنه سرعان ما تحول لاحقاً إلى التطهير المنهجي لمناطقه من المعارضين والناشطين المستقلين. فقد شكا بكثرة ناشطون سوريون من اعتقالات «داعش» التعسفية ومن عمليات خطف، وإعدامات سريعة لصحافيين ومنشقين وطلاب وآخرين مشكوك بولائهم (وسنعود إلى ذلك في الفصل السادس).

وفي الحقيقة، فما من شيء يستطيع أن يتستر على أفعال «داعش» المتوحشة، ولا على أساليبه المبتكرة في إرهاب الرأي العام ومنعه من قيام أي لون من ألوان المعارضة. ومع أنه ما من دليل كافٍ على استيلاء البعثين على «داعش»، إلا أن هذا التنظيم استعار، وفق أكثر من دليل، الكثير من أساليب النظام البعثي السابق القمعية والتسلطية حيال الناس. أقصى «داعش»، من جهة أولى، البعثيين وطلب إليهم طلب المغفرة وتقديم فروض الولاء والطاعة للخليفة. إلا أنه، من جهة ثانية، قام بتقليد أساليب النظام البعثي السابق الوحشية مع إلباسه اللبوس الإسلامي، في إشارة أخرى ربما إلى الإرث الدموي الذي بلغه أيضاً من سلفه تنظيم «القاعدة في العراق».

الفصل السادس

كيف عزّزت الحرب السورية قوة «داعش»

كان وراء صعود «داعش» عاملا دفع رئيسيان: انهيار الدولة والنظام السياسي في العراق بعد الغزو والاحتلال الأمريكيين للبلاد، وسياسة رئيس الوزراء نوري المالكي التي اعتمدت العزل والاستبعاد حيال المجموعة السنّية في العراق؛ لكن ذلك لم يكن كافياً وحده لمدّ التنظيم بالقدرة على التوسّع، وهو ما تكفّلت به الحرب السورية الشاملة المندلعة منذ سنة ٢٠١١.

تزامن التجديد للمالكي للمرة الثانية رئيساً للوزراء في العراق مع زلزال سياسي بدأ يضرب المنطقة. فبدءاً من كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠، نزل ملايين العرب إلى الشوارع ليحتجّوا على عقود من الاستبداد السياسي والتنمية الفاشلة وطالبوا بالعدالة، والكرامة، والحرية. اندلعت الاحتجاجات بعد عقود من التعثر الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، وبلغ التأزم ذروته في تونس حين أحرق بائع خضار متجول، محمّد بوعزيزي، نفسه، فكانت الشرارة التي دفعت بملايين المواطنين العرب إلى الشوارع والساحات لمواجهة الاستبداد الذي هم فيه. طالب المتظاهرون بطرد الحكّام الذين حمّلوهم مسؤولية ما هم فيه من أوضاع مزرية، وشملت الاحتجاجات، إلى تونس ومصر وليبيا واليمن وسورية والبحرين. التأجج العالي هذا للمشاعر والأحقاد والطموحات، والانحسار النسبي للسلطة الذي أعقب ذلك، وبخاصة في سورية، شكّلا من دون تأخير المحفّز لنجاحات «داعش» اللاحقة ولتوسّعه السريع نحو سورية بعد انتفاضة ٢٠١١.

أولاً: الأصول الاجتماعية ـ السياسية للثورة السورية

بدأت الانتفاضة الشعبية السورية الكبرى، تدفعها أسبابها الاجتماعية والسياسية، في المناطق الريفية أولاً؛ مثل درعا. فتلك المناطق كانت قد شهدت أعواماً صعبة من الجفاف، وبعد عقد كامل من السياسات النيوليبرالية التي خطفت الاهتمام عن القطاع الزراعي المأزوم ولتتجه به نحو قطاع الأعمال الناشئ. كان الرئيس السوري السابق حافظ الأسد (١٩٣٠ ـ ٢٠٠٠)، ومن بعده ابنه وخليفته بشّار، قد أعاد هيكلة مشهد البلاد الاقتصادي ـ الاجتماعي، ووزّع السلطة الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية استراتيجياً بطريقة قسّمت السوريين وفق خطوط طبقية وإثنية. وسيطر العلويون الشيعة، رغم كونهم أقلية في البلاد، على المواقع العسكرية والأمنية الأساسية، مانحاً في الوقت نفسه هامشاً اقتصادياً واسعاً لنمو وازدهار نخب سنّية مدينية من الطبقتين الوسطى والعليا، وبخاصة في قطاعَي التجارة والأعمال في المدن الكبرى مثل حلب ودمشق. فرض النظام السوري، منذ أواخر ثمانينيات القرن الماضي وإلى اندلاع الانتفاضة مطلع ٢٠١١، أجندة رأسمالية قوامها تحالف رجال الأعمال في المدن السورية الكبيرة مع مسؤولي الدولة، فحوّل البلاد في أقل من عشرين سنة من بلد ذي اقتصاد موجّه من الدولة إلى اقتصاد رأسمالي يتصف إلى ذلك بالفساد[١].

قاد تحرير الاقتصاد منذ التسعينيات إلى ازدهار واضح للقطاع الخاص، إلا أن ذلك ترافق مع تقلّص متزايد للوظائف وفرص العمل في الدولة، وللتقديمات، والإجراءات الأخرى التي كانت تشكل شبكة أمان اجتماعي نسبي للمواطنين السوريين[٢]. وأدّت تلك السياسات إلى مضاعفة المسافة الفاصلة بين الفقراء والأغنياء في البلاد. وبينما حصد الموالون للنظام، ورجال الأعمال، والسياسيون ثمار اللبرلة الاقتصادية وأفادوا من الفرص الاقتصادية الجديدة، ظل الناس في المناطق الريفية والمدن الصغيرة وجهاً لوجه مع البؤس والتهجير والاستقطاب الاجتماعي[٣]. وجاءت إصلاحات نظام بشّار النيوليبرالية (٢٠٠٠ ـ ٢٠١٠) لتفاقم من الإهمال الجاري للقطاع الزراعي، ولتترك الفلاحين والآخرين الذين كانوا يعيشون من القطاع أنصاف فقراء مهملين ويعتمدون على ما تبقى من الشبكات التعاضدية القديمة، أو للسوق السوداء، لتأمين كفاف عيشهم. وبحسب إحصاءات منظمة «الفاو»، فإن أحوال ١٨,٢ بالمئة من السوريين هبطت إلى ما دون خط الفقر، بينما كانت أرياف محافظات دمشق وإدلب وحمص ودرعا والسويداء، حماه، الأكثر تأثراً بموجة الفقر الجديدة[٤]. وكان على هؤلاء، فوق ذلك، أن يتأقلموا مع الجفاف الذي ضرب مناطق واسعة من البلاد بين ٢٠٠٦ و٢٠١٠ والذي تسبب بندرة غذائية لم تشهدها سورية منذ زمن طويل، وبخسارة معظم الفلاحين ومربّي قطعان الماشية مصادر دخلهم وعيشهم.

---

(١) Bassam Haddad: «The Syrian Regime's Business Backbone,» *Middle East Research and Information Project*, vol. 42 (Spring 2012), <http://www.merip.org/mer/mer262/syrian-regimes-business-backbone>, and «Business Networks in Syria: The Political Economy of Authoritarian Resilience,» *Stanford Studies in Jewish History and Culture* (December 2011).

(٢) Bassam Haddad, «As Syria Free-Falls ... A Return to the Basics: Some Structural Causes (Part 2),» Jadaliyya (30 October 2012) <http://www.jadaliyya.com/pages/index/8095/as-syria-free-falls-.-.-.-a-return-to-the-basicss>, and Francesca de Chatel, «The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution,» *Middle East Studies* (27 January 2014), <https://blogs.commons.georgetown.edu/rochelledavis/files/francesca-de-chatel-drought-in-syria.pdf>.

انظر أيضاً: Raymond Hinnebusch, «Syria: From «Authoritarian Upgrading» to Revolution?,» *International Affairs*, vol. 88, no. 1 (2012).

(٣) محمد جمال باروت، العقد الأخير في تاريخ سورية: جدلية الجمود والإصلاح (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢).

(٤) «Crop and Food Security Assessment Mission to the Syrian Arab Republic,» FAO/WFP, 5 July 2013, <http://www.fao.org/docrep/018/aq113e/aq113e.pdf>.

وعلى ذلك، كان طبيعياً أن تنطلق الاحتجاجات والقلاقل الاجتماعية من المناطق الريفية ومن ضواحي المدن الكبرى والمراكز الاقتصادية. لم يجنِ معظم السكان الريفيين، وبخلاف حلقة رجال الأعمال والنخب المحيطة ببشار الأسد، أي مكاسب من الانفتاح الاقتصادي المتسارع في البلاد. ومع أن ذاك الانفتاح كان منذ نهاية سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي مطلباً أولوياً لحزب البعث الحاكم[٥]، إلا أن سكان المناطق الريفية، وبدلاً من أن يفيدوا من الانفتاح، فقد دفعوا أكثر من سواهم تكلفته الاقتصادية. ومن سخريات القدر أن أوسع قطاعات الشعب السوري التي اشتركت في الانتفاضة لم تكن في البدء مدفوعة بدوافع مذهبية أو راغبة في العنف. تحمّل متظاهرون في سورية بشجاعة إطلاق النار عليهم رغم سلمية تجمعاتهم وكان الهدف إيصال الرسالة إلى السلطات بضرورة الإصلاح السياسي والاجتماعي ومن دون حتى ذكر تغيير النظام. واستمر الأمر كذلك لستة أشهر قبل أن تجري عسكرة الانتفاضة وتتخذ منحى طائفياً، ودون أن يلغي ذلك تطلعات المتظاهرين المشروعة أو نضالهم من أجل التغيير.

وفي وسعي الآن استعادة مضمون حوارات ناشطين سوريين من مشارب مختلفة من داخل سورية أو خارجها غداة اندلاع الانتفاضة؛ كان جلّ ما يعنيهم استعادة بلدهم وبناء مجتمع منفتح ومتسامح تتعايش فيه معاً بسلام مختلف الجماعات الدينية والعرقية وتحت حكم القانون. ورغم التحذيرات المبكرة من طبيعة الردّ القوي من جانب أجهزة الأسد الأمنية، ظل الناشطون متمسكين بالأمل بأنه يمكن إنقاذ سورية، وأن الأسد، وكما نظيراه التونسي والمصري من قبل، سيخضع في النهاية لإرادة الشعب. لكن تمسك الأسد بالسلطة مهما كان الثمن أطاح ذاك الأمل. ولأن علاقة السلطة بالجيش في سورية، كما قلنا في المقدمة، مختلفة مما هي عليه في تونس ومصر، انحازت أجهزة الجيش والأمن في سورية إلى جانب النظام وضد المتظاهرين. وذلك عائد بالدرجة الأولى إلى التركيبة المذهبية لقيادات الجيش العليا، كما للخوف من التطرف الإسلامي الذي وجد آذاناً صاغية لدى بعض السوريين. وقد وثّقت منظمات حقوق الإنسان وغيرها من المنظمات الدولية تورط أجهزة الأمن الحكومية تلك. فقد قالت الأمم المتحدة سنة ٢٠١٢ إن مجموع الانتهاكات المرتكبة ضد المدنيين في سورية «تأتي في خط السياسات الرسمية للدولة، وتشير إلى تورط من أعلى المستويات الحكومية، كما من قوات الجيش والأمن»[٦]. ومع التصدي العنيف من تلك الأجهزة للتظاهرات السلمية، والاتهام المستمر لها بأنها تخفي مطالب طائفية، بدأت عسكرة الانتفاضة ومن ثم تطرفها. وبدأت تظهر الشعارات والإحالات الدينية، مع دور متزايد وبخاصة في المناطق الريفية لعُصَبٍ أو لفصائل إسلامية مسلحة أفادت من الفوضى الجارية لتبرز أجنداتها ومواقفها السلفية الجهادية المحافظة. ووفق تقديرات الأمم المتحدة، فقد قتل سنة ٢٠١٢ في

(٥) Suzanne Saleeby, «Sowing the Seeds of Dissent: Economic Grievances and the Syrian Social Contract's Unraveling,» Jadaliyya (16 February 2012), <http://www.jadaliyya.com/pages/index/4383/sowing-the-seeds-of-dissent economic-grievances-an>.

(٦) «Syrian Government and Opposition Forces Responsible for War Crimes,» UN News Centre, 15 August 2012, <http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=42687#.VcdJPzBViko>.

سورية في حوادث تتصل بالتظاهرات أكثر من ١٠٠٠٠ شخص، معظمهم مدنيون[٧]. وأصبح النزاع في تموز/يوليو ٢٠١٢، وفق لجنة الصليب الأحمر الدولي، نزاعاً داخلياً مسلحاً[٨]. وفي الوقت نفسه، كانت منظمة العفو الدولية تتهم نظام الأسد بجرائم دولة وجرائم ضد الإنسانية[٩]. وعملت منظمات حقوق الإنسان ومنظمات دولية عدة على تكثيف الضغط الدولي لوضع حد للعنف ولإنهاء «الهجمات الواسعة المتزايدة ضد السكان المدنيين، بما فيها الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب التي ترتكبها من دون وازع القوات الحكومية والميليشيات»[١٠].

تحوّلت الانتفاضة السورية بسرعة إلى حرب شاملة حارب الكل فيها ـ بما يشبه إلى حد كبير الحرب الأهلية اللبنانية سنة ١٩٧٥ التي استمرت خمسة عشر عاماً. مع تصاعد النزاع في سورية، انتشرت جماعات مسلحة وأيديولوجيات إسلامية، تراوحت بين المعتدل والسلفي الجهادي المتشدد. واستخدم حتى المتمردون الوطنيون (مثل الجيش السوري الحر) في خطابهم شعارات إسلامية لكسب الشرعية في أعين الجمهور ومنافسة التنظيمات الإسلامية الناشئة في الحصول على تمويل خليجي. وفي مقابلة في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٣ مع قناة France 24، أكد مقاتل في «الجيش السوري الحر» أن الممولين غالباً ما يمنحون الجماعات التي تكون قريبة من فرقهم وتفسيراتهم الدينية. وأضاف، «لهذا السبب ففي أشرطتنا المصوّرة التي تبثها فرقتنا نرغب بتلاوة آيات من القرآن ووضع شعارات إسلامية في الإطار... كلنا باعة بمعنى ما، يجب أن نصل إلى الممولين بكل الوسائل ومهما كانت آراؤنا الحقيقية، المانح دائماً على حق»[١١]. وتعززت التنظيمات الإسلامية المسلحة والخطاب الإسلامي الجهادي بدورهما، بل بات وجودهما مبرراً في أعين شرائح عدة من الشعب السوري كرد فعل على هجمات قوات النظام العنيفة ضد المدنيين. وفي تكرار لاستراتيجية الميليشيات الإسلامية في العراق بعد ٢٠٠٣، نصّبت الجماعات الإسلامية في سورية نفسها حامي الجماعة السنية وسلاحها في مواجهة العلويين الشيعة ونظام الأسد المدعوم من الشيعة.

ومع انفلات العنف في سورية على الغارب، تكسّر النسيج الاجتماعي ـ الاقتصادي للبلاد ومؤسساتها الهشّة. وسرَت كالنار في الهشيم بين الفصائل المسلحة وداعميها الخارجيين دعوات إلى الجهاد ضد نظام الأسد وحليفه الإيراني. وأضافت الدعوات إلى الجهاد الصريحة ملحاً طائفياً حاداً إلى الصراع السياسي الجاري. وفي المقابل، قدّم الأسد ومؤيدوه أنفسهم في الداخل وفي

---

(٧) انظر رسم تفصيلي من الأمم المتحدة: «UN Emergency Fund Provides over $9 Million to Boost Aid to Syrian Refugees,» UN News Centre, 13 June 2012, <http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=42224#.VYHfP2RViko>.

(٨) «Syria in Civil War, Red Cross Says,» BBC, 15 July 2012, <http://www.bbc.com/news/world-middle-east-18849362>.

(٩) «Syria: Fresh Evidence of Armed Forces' Ongoing Crimes against Humanity,» Amnesty International (June 2012), <http://www.amnesty.org/en/latest/news/2012/06/syria-fresh-evidence-armed-forces-ongoing-crimes-against-humanity>.

(١٠) المصدر نفسه.

(١١) ««Islamist Posturing» Is a Strategy to Raise Funds, Says Syrian Rebel,» France24, 21 November 2013, <http://observers.france24.com/content/20131121-islamist-posturing-funds-syrian-rebel>.

الجوار كمقاتلين في حرب وجودية، بوصفهم المدافعين عن التنوع الثقافي وعن طريقة العيش العلمانية للناس. وفي مقتطفات نقلت عنه، يقول «نحن منخرطون في حرب وجودية لا تسمح بأي تنازلات أو تسويات»[١٢]. أما أمين عام حزب الله في لبنان، السيد حسن نصر الله، الداعم الرئيسي للأسد في الحرب الجارية في سورية فقد حدد موقفه بمفردات نارية؛ ففي مناسبة الانسحاب الإسرائيلي من لبنان الذي جرى سنة ٢٠٠٠، قال: «نحن نواجه اليوم نوعاً من الخطر غير مسبوق في التاريخ، ويستهدف الإنسانية جمعاء»[١٣].

ثانياً: «الدولة الإسلامية في العراق» تنشئ «جبهة النصرة» في سورية

وفّرت التطورات المتلاحقة في سورية والعراق، وعلى نحو تبادلي، الفرصة الذهبية لأبي بكر البغدادي وحلقته الداخلية لبناء شبكات اجتماعية جديدة ـ وليحيي القديم منها ـ في البلدين تحت دعوى الدفاع عن الجماعة السنّية في وجه جلّاديها. وعليه، فما بدا مهمة مستحيلة سنة ٢٠١٠ تحقق بعد سنتين لا أكثر: شبكة سرية في البدء ما لبثت أن تحوّلت إلى حرب شاملة، قوية، مسلّحة، أمكنها الاستيلاء على مناطق شاسعة في شرق سورية وغرب العراق، باستثناء المنطقة الكردية. لم تأتِ هذه القفزة الضخمة من فراغ أو بالمصادفة. فوفق دليل موثوق، خطط البغدادي وقادته الكبار، وبعضهم قادة عسكريون سنّة في جيش صدّام السابق، على نحو ممنهج وبمهارة لجذب الجماعة السنّية في البلدين وكسب ثقتهم؛ الأمر الذي سمح ببناء قاعدة صلبة للتنظيم وتوسعة نفوذه. ذلك هو التكتيك الذي استخدمه قادة التنظيم قبل تفاقم الأزمة السورية بوقت طويل، وإلى أن تحقق بعد ذلك مع تحول الأزمة السورية إلى حرب شاملة. فبالإفادة من القوة التي تأتت لـ «الدولة الإسلامية» بعد الفراغ الذي استجد بعد مقتل أسامة بن لادن في أيار/مايو ٢٠٠١، أرسل البغدادي وحلقته الداخلية قائدين موثوقين، أبو محمّد الجولاني والملّا فوزي الدليمي، إلى إلى سورية أواخر ٢٠١١ لتأسيس خلية جهادية فاعلة هناك وقتال نظام الأسد[١٤].

لم يعلن «داعش» لسنة كاملة تورّطه في الحرب السورية. لجأ التنظيم بدلاً من ذلك إلى تزويد «النصرة» بضباط سابقين أكْفاء من الجيش العراقي السابق، وبالمال، والسلاح، ما سمح له بزرع الجهاديين بين الجماعات المتمردة سنة ٢٠١٢ وباتوا شركاء في التنظيمات المحلية. وفي اعتراف من أمير القاعدة المركزية، يقول أيمن الظواهري إنه اتفق والبغدادي «على عدم الإعلان عن أي

---

(١٢) انظر المادة التي نشرتها الوكالة العربية السورية للأنباء (سانا): «الرئيس الأسد في كلمة بمناسبة عيد الجيش: معركتنا مع الإرهاب معركة مصير ووجود لا مجال فيها للتهاون أو المهادنة،» سانا ـ دمشق، ٣١ تموز/يوليو ٢٠١٤، <http://www.sana.sy/?p=31515>.

(١٣) «Nasrallah: Hezbollah to Increase Presence in Syria,» Al Jazeera, 25 May 2015, <http://www.aljazeera.com/news/2015/05/nasrallah-hezbollah-increase-presence-syria-150524233716453.html>.

(١٤) Hashem Ali, «The Many Names of Abu Bakr al-Baghdadi,» Al-Monitor, 23 March 2015, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2015/03/isis-baghdadi-islamic-state-caliph-many-names-al-qaeda.html>.

وجود رسمي في سورية»[١٥]. ففي تسجيل صوتي من منبر القاعدة الإعلامي، «السحاب»، في أيار/مايو ٢٠١٤، أكد الظواهري أن القرار كان منذ البدء بالاندماج بين السكان المحليين لتجنّب لفت أنظار الأمريكيين لوجود «القاعدة» في سورية ـ الأمر الذي سمح للنصرة بالنمو والانتشار وبناء تحالفات مع فصائل إسلامية أخرى. قال الجولاني في إعلانه تأسيس جبهة النصرة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٢، «لقد ارتفعت دعوات الناس للجهاد، ولم نستطع إلا الاستجابة للدعوات تلك والعودة إلى شعبنا وأرضنا ومنذ الأشهر الأولى لانطلاق الثورة»[١٦]. وقدّم الجولاني تنظيمه كامتداد للمجاهدين السوريين لا كفرع من القاعدة المركزية أو «الدولة الإسلامية في العراق». وعليه، فقد لجأت «النصرة» في السنة الأولى من عملها إلى ممارسة «التقيّة»، متسترة على هويتها الأيديولوجية الحقيقية وجاعلة صورتها كجزء من المعارضة السورية الشرعية. تجنّب البغدادي ومعاونوه في السنة الأولى تلك إغراق سورية بالمقاتلين العراقيين واعتمد بدلاً من ذلك على المجندين السوريين السنّة والتحالفات المحلية والقبلية، بالإضافة إلى المتطوعين الأجانب مع بعض الضباط العراقيين الأكفاء الموثوقين. وما الاسم الحركي الذي اختير (الجولاني، من جولان) غير إشارة إلى الرغبة في موضعة «النصرة» كتنظيم سوري وطني.

وبينما كان التنظيم الجهادي ينفذ عملياته في العراق، كانت أوراق اعتماده للجماعة السنية في سورية هي أنه الطليعة المقاتلة للسنّة الذين يشعرون بالمهانة والتهميش من النظام في دمشق. وكانت استراتيجيته «تحطيم القيود» والتخلّص من الحدود «الاستعمارية» التي فصلت بين البلدين الجارين من خلال توحيد المجموعة السنية في البلدين. أريد لتحالف القوى السنية أن يكون المعادل المطلوب لتوسع النفوذ الإيراني في المنطقة، ودعمه خصوصاً لنظامي بغداد ودمشق. وتظهر أية مقاربة قريبة لتوزع التنظيمات المسلحة في سورية أن التمدد السلفي الجهادي كان يتغذّى بواسطة الشبكات الاجتماعية المحلية والعشائرية التي كانت تبنى بمزيد من المهارة من محافظة إلى أخرى وفي معظم أنحاء سورية. بالإضافة إلى هذه الشبكات، كان عدد من قادة التنظيمات الجهادية والضباط الميدانيين أعضاء سابقين في الجيش السوري الحر أو في فصائل أخرى ثم نقلت ولاءها إما لحوافز مالية وإمّا للحاق ببساطة بالنجاح الذي أحرزته التنظيمات الإسلامية الأكثر تطرفاً والتي بدت أحسن تمويلاً وأفضل تدريباً وتنظيماً كثيراً.

وهكذا اتجهت عدة فصائل للانضمام إلى «النصرة»، ومنها أفراد من فيلق التوحيد في حلب، ولواء داوود في القلمون وإدلب، بينما تحوّل المفرّج عنهم من سجون النظام إلى فاعلين رئيسين في التنظيمات الإسلامية[١٧]. فقد كان عدد من أفراد النصرة، ولاحقاً من «داعش» سجناء لدى

---

(١٥) Ayman al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al-Sham [Greater Syria],» *Pietervanostaeyen* (blog), 3 May 2014, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/05/03/dr-ayman-az-zawahiri-testimonial-to-preserve-the-blood-of-mujahideen-in-as-sham/>.

(١٦) «Al- Nusra Founding Statement,» YouTube, 25 May 2012.

(١٧) وائل عصام، «هل تنظيم «الدولة الإسلامية» في سوريا امتداد لفصائل الثورة السورية؟،» القدس العربي، ٢٠١٥/٥/٨، <http://www.alquds.co.uk/?p=338684>.

النظام إلى حين صدور عفو عام في أيار/مايو ٢٠١٢، ومن بين هؤلاء عوّاد المخلاف الذي أصبح لاحقاً أميراً على الرقة، وأبو أثير العبسي، أحد أعضاء شورى داعش ورئيس اللجنة الإعلامية فيه[١٨]. ووفق البعض، فإن العفو الذي أعلن ليشمل سجناء سياسيين تحوّل إلى إطلاق عدد من الإسلاميين المعروفين، في خطوة محسوبة استراتيجياً من نظام الأسد هدفت إلى تحويل الحركة الاحتجاجية من انتفاضة سلمية مشروعة إلى هجوم متطرف متعصّب على الدولة «العلمانية» التي يقوم الأسد بالدفاع عنها[١٩].

ثالثاً: فقراء المدن والأرياف

وجدت «النصرة» منذ البدء بيئة حاضنة في المحافظات والمناطق الريفية، مثل دير الزور والحسكة والرقّة، حيث كانت قد تعاظمت معدلات البطالة والفقر المدقع بفعل الحرب المدمّرة الجارية. ارتفعت معدلات البطالة في المناطق التي تسيطر عليها المعارضة من ٦٠ بالمئة إلى ٩٠ بالمئة[٢٠]. وسبب ذلك انتشار الصراع المسلّح، والتضخم الذي بلغ أرقاماً خيالية، ليصل في مناطق مثل إدلب إلى ٤٠٠ بالمئة مثلاً[٢١]. وبفقدان ١١ مليون شخص (أي نصف سكان البلاد) لمصادر دخلهم، غدا كثير من الناس على شفير المجاعة وأجبر بعضهم بالتالي على الالتحاق بالجماعات المسلحة، وبخاصة تلك التي توفّر لهم رواتب وتعتني بعائلاتهم[٢٢].

كانت دير الزور على وجه الخصوص، وهي أكثر المحافظات السورية فقراً، تربة خصبة للتنظيمات المسلحة مثل النصرة، وذلك لاحتضانها في الأصل شبكات جهادية عدّة كانت نشطت بعد الاحتلال الأمريكي للعراق سنة ٢٠٠٣[٢٣]. استقطبت النصرة، ومن بعدها «داعش» العدد الأكبر من المجنّدين، إذ التحق بهما المئات من فقراء السنّة الذين كانوا بحاجة إلى أي شيء يعيل أنفسهم وأسرهم، والذين دفع بهم التهميش واليأس، وليس الأيديولوجيا الجهادية بالضرورة، إلى تبنّي سردية

(١٨) Michael Weiss and Hassan Hassan, *ISIS: Inside the Army of Terror* (New York: Regan Arts, 2015), and «Amru al-Absi: Executive Summary,» Counter Extremism Project (2015), <http://www.counterextremism.com/extremists/amru-al-absi>.

(١٩) Weiss and Hassan, Ibid., and Phil Sands, Justin Vela, and Suha Maayeh, «Assad Regime Set Free Extremists from Prison to Fire Up Trouble during Peaceful Uprising,» *National* (January 2014), <http://www.thenational.ae/world/syria/assad-regime-set-free-extremists-from-prison-to-fire-up-trouble-during-peaceful-uprising>.

(٢٠) Rim Turkmani, «ISIL, JAN and the War Economy in Syria,» *Security in Transition* (London School of Economics) (30 July 2015), <http://www.securityintransition.org/wp-content/uploads/2015/08/ISIL- JAN-and-the-war-economy-in-Syria1.pdf>.

(٢١) Rim Turkmani [et al.], «Countering the Logic of the War Economy in Syria; Evidence from Three Local Areas,» *Security in Transition* (July 2015).

(٢٢) صبر درويش، ««داعش» السوري البطالة، اليأس، عدوى العنف،» بدايات، العدد ١٠ (شتاء ٢٠١٥)، ص ١٧ ـ ٢٦، <http://www.bidayatmag.com/node/505>.

(٢٣) «U.S Cross-Border Raid Highlights Syria's Role in Islamist Militancy,» *CTC Sentinel* (15 November 2008), <http://www.ctc.usma.edu/posts/u-s-cross-border-raid-highlights-syria%E2%80%99s-role-in-islamist-militancy>.

التنظيمين المذهبية. وبحسب مصادر سورية، يدفع «داعش» لمقاتليه مبلغ ٤٠٠ دولار أمريكي شهرياً، وإذا كان متزوجاً فـ ٥٠ دولاراً لكل طفل، و١٠٠ دولار لكل زوجة[٢٤]. وإلى الرواتب، يوفّر التنظيم السكن للمقاتلين الذين لا سكن عندهم، مع وقود للتدفئة ولسياراتهم من الفائض النفطي الذي تأتي من حقول نفط دير الزور[٢٥]. وتبدّل الموقف المالي المريح إلى حد كبير، وفق مصادر عدة، نهاية ٢٠١٥ بنتيجة تقلص موارد التنظيم المالية واضطر بالتالي إلى شدّ الأحزمة. وقد تسرّبت مذكرة داخلية للتنظيم في كانون الثاني/يناير ٢٠١٦ جاء فيها، «لقد تقرّر خفض الرواتب الشهرية التي تدفع للمجاهدين بمقدار النصف من دون استثناء ومهما كانت رتبته» من ٤٠٠ دولار إلى ٢٠٠ دولار[٢٦].

مع ذلك، يبقى «داعش» لفقراء السنّة الذين أنهكهم ولفترة طويلة الفقر المدقع واليأس مشروعاً يستجيب لآمالهم ومخاوفهم ويوفّر الأجوبة السهلة للأسئلة الوجودية التي كانت وراء اندلاع الحرب الأهلية. وعليه، بدت «الدولة الإسلامية» بديلاً جاذباً لهم عوضاً من الجماعات المسلحة الكثيرة المتنازعة التي لاحقت صورتها باستمرار أخبار الفساد والسرقة والتعديات[٢٧]. لقد استثمر «داعش» بقوة بين السنّة الفقراء، واستغلّ البطالة العالية وعجزهم لجلبهم إلى صفوفه، ووضع الكثيرين منهم في مواقع مسؤولية متباينة، مثل الشرطة، والأمن، والمراقبة، والإمرة الميدانية، وهو ما أمّن للتنظيم سيطرة سلسة على المناطق الشاسعة التي استولى عليها في دير الزور والرقّة والموصل والفلّوجة وفي أمكنة أخرى. فالعديد من القادة الميدانيين لداعش والنصرة كانوا في الأصل عمّالاً يدويين أو من خلفيات عمّالية وفلاحية فقيرة: باعة متجولين، مزارعين، عمّال بناء، أجراء في متاجر، ميكانيكيين[٢٨]. وأدى التكتيك هذا دوراً بارزاً في منح السنّة الشعور بالقدرة وأضاف رصيداً آخر إلى صورة داعش الذي يصّر على أنه القوة الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه السيطرة الشيعية وعلى منح السنّة فرصة التقرير في شؤون حياتهم. ووفق مفردات أحد مقاتلي المعارضة، «لقد أسمعت

---

(٢٤) Zvi Bar'el, «How the Islamic State Buys Power,» *Haaretz*, 1/9/2014, <http://www.haaretz.com/news/middle-east/.premium-1.613395>.

(٢٥) Syrian Observatory for Human Rights, «More than 6000 Fighters Have Joined the Islamic State since Last July/2014,» Facebook Post (20 August 2014), <http://www.facebook.com/syriahroe/posts/571680432940299>.

(٢٦) «تنظيم الدولة يخفض إلى النصف رواتب مقاتليه في سوريا والعراق،» القدس العربي، ٢٠/١/٢٠١٦، <http://www.alquds.co.uk/?p=468538>.

(٢٧) «منحة من الخليفة الداعشي إلى عناصره الراغبين بالزواج،» العربية نت، ٢٨ آب/أغسطس ٢٠١٤، ودرويش، «"داعش" السوري البطالة، اليأس، عدوى العنف».

(٢٨) أونس غاركس الذي غدا تحت اسم أبو علي الشيشاني، وأبو ماريا القحطاني، حالتان في هذا المجال. فالشيشاني يقول أنه قبل الانضمام إلى داعش كان يعمل طاهياً في مطعم في لبنان. وحين اندلعت الحرب عاد إلى بلاده وبايع داعش وذهب للقتال معه على الحدود السورية ـ اللبنانية. وفي مقابلة مع صحافي عربي في نهاية العام ٢٠١٤، أبدى الشيشاني اعتزازه بخلفيته الاجتماعية وقال أنه انضم للقتال لإحياء الخلافة الإسلامية. انظر: رضوان مرتضى، «أبو علي الشيشاني: من معلّم معجنات إلى أمير في "الدولة"،» الأخبار، ١٠/١٠/٢٠١٤، <http://www.al-akhbar.com/node/221626>.

صوتي للمرة الأولى»، في إشارة إلى احتفاله، حتى في ظروف الحرب، بأنه انتزع صوته من سيطرة النظام الحاكم[٢٩].

وإلى ذلك، فقد أدّت سنوات الجفاف، والتدهور الاقتصادي، والهوة المتزايدة بين المدن والمناطق الريفية[٣٠]، بالفلاحين إلى النزوح من الأرياف إلى ضواحي المدن بحثاً عن فرص اقتصادية، تاركين وراءهم شبكات المساعدة القائمة. وفّر الدين لأولئك المهمّشين سردية جمعية فيها الكثير من العزاء، يجمعهم في جماعة ويمدّ لهم صلة ما بين التقليد والحداثة. فقد أسهمت التقديمات الواردة من بلدان الخليج العربي الثرية في تمكين الحركات السلفية المحافظة، التي كانت حتى ذلك الوقت قلب المعارضة السنّية الإسلامية، من خلال بلسمة المصاعب الاجتماعية المتفاقمة في سورية. فحين غرقت البلاد في الحرب الأهلية الشاملة والفوضى، بدا الإسلاميون حاضرين بقوة بين الناس، على مثل ما كانوا عليه في ظروف مماثلة في أفغانستان مطلع تسعينيات القرن الماضي، من خلال تقديم أجوبة بسيطة جاذبة في موضوع الهوية، وأمكنهم جذب أعداد كبيرة من فقراء الريف وسكان ضواحي المدن الأكثر حاجة. وفرضوا في الأماكن تلك نوعاً من الإدارة الذاتية التي جرى تبريرها بأدلة شرعية. وعزز تفاقم الطابع الطائفي للصراع من قوة ادعاءات الإسلاميين السلفيين. في مقابل ارتفاع أصوات علماء دين سلفيين أمثال عدنان عرعور، وسالم الرافعي، وأحمد الأسير، بالمزيد من الاتهام للأسد بالطائفية وباتباعه الراعي الإيراني، ازداد تأييد الجماعات الشيعية في سورية ولبنان والعراق للنظام السوري، وهو ما قوّى بدوره من الخطاب السلفي. وعزز وصف الجهاديين والسلفيين الجهاديين للصراع في سورية بمفردات طائفية خالصة من شراسة النظام في سورية حيال معارضيه ومن استخدامه المفتوح لقوات الأمن للتصدي للمتظاهرين[٣١].

وإلى ذلك، فلم يؤدِّ الخطاب الدعائي للنظام المستمرة في أن الأقليات مستهدفة من المعارضة المسلحة، إلا إلى تعزيز الانقسام الحاصل في البلاد. تمكنت النصرة وداعش من استغلال مشاعر الغضب واليأس اللذين انتشرا في المناطق السنية من سورية غداة قمع النظام العنيف للتظاهرات السلمية. وتبخّرت بنتيجة شراسة النظام من جهة، وتشرذم المعارضة من جهة ثانية، الآمال بتسوية سلمية للنزاع أو بتغيير سلمي سريع للنظام. وغدا المسرح جاهزاً لحرب إقليمية بالواسطة بين تركيا وقطر والسعودية في ضفة، وإيران والعراق وحزب الله اللبناني في الضفة المقابلة. وتدفق المال والمقاتلون الأجانب والسلاح على الغارب إلى سورية، ونشأت

---

(٢٩) David Lesch, *Syria: The Fall of the House of Assad* (New Haven, CT: Yale University Press, 2014), p. 4.

(٣٠) انظر: United Nation Development Programme [UNDP], *Arab Human Development Report, 2009: Challenges to Human Security in the Arab* (New York: UNDP, 2009), <http://www.arab-hdr.org/publications/other/ahdr/ahdr2009e.pdf>.

(٣١) «Houla Massacre: UN Blames Syria and Militia,» *Guardian*, 15/8/2012, <http://www.theguardian.com/world/interactive/2012/aug/15/un-inquiry-syrian-arab-republic>.

في جانب المعارضة إشكالية انتشار الجماعات المسلحة، بما فيها النصرة وداعش وغيرهما من الفصائل الإسلامية.

رابعاً: النزاعان العراقي والسوري يرفد واحدهما الآخر

يجب عدم إهمال أهمية المرحلة الأولى من العلاقة بين «الدولة الإسلامية في العراق» و«النصرة» من ٢٠١٢ إلى نيسان/أبريل - أيار/مايو ٢٠١٣. فقد كانت العلاقة حاسمة في تأسيس قاعدة جهادية مهمة ذات بنية مستدامة ومتينة، رغم أنهما عادا فصارا معسكرين متقاتلين. هناك ميل لدى مراقبي «داعش» للتركيز حصرياً على الفترة التي تلت انهيار العلاقة مع النصرة في صيف ٢٠١٤، الأمر الذي يحول دون مقاربة شاملة. قبل انهيار العلاقة تلك، وضع البغدادي وقيادته الكثير من الموارد وعناصر القوة في جبهة النصرة وحصلوا في المقابل على مردود مالي ولوجستي كثيف. وقدّم ذلك المردود، مع تفكك النسيج الاجتماعي والإداري لسورية، الدافع لهجوم «داعش» الشامل في حزيران/يونيو ٢٠١٤ واحتلاله الموصل ومدناً مهمة أخرى في سورية والعراق. ففي أواخر ٢٠١٢، وعلى سبيل المثال، انتقل الحاج بكر، أحد أرفع قيادات داعش والضابط السابق في جيش صدّام، إلى سورية كجزء من الدعم اللوجستي للنصرة، التي ظلت حتى أواخر ٢٠١٣ ومطلع ٢٠١٤ الطليعة الأمامية لـ «داعش» في سورية[٣٢]. كانت الاستراتيجية آنذاك تعزيز قوة النصرة وسيطرتها على المناطق التي تحتلها.

اعتمد تقرير كريستوف رويتر في در شبيغل الألمانية، كما أشرنا سابقاً، على وثائق كشف عنها معارضون سوريون لداعش في تل رفعت، وهي مدينة صغيرة في محافظة حلب. أظهرت الوثائق بعضاً من تخطيط الحاج بكر وأساليبه الوحشية في تجنيد الأتباع وإسكات الخصوم. وبسبب من الاكتفاء بخلفية الحاج بكر البعثية خلال حكم صدّام ووظيفته في الأمن وجمع المعلومات، أهمل رويتر نقطة مهمة في تلك الملفات: فقد ذهب داعش بعيداً في دعم النصرة وتوسعها في عدة مدن شمال سورية، وبخاصة المناطق الريفية من محافظات الرقة وإدلب ودير الزور وحلب. تظهر الوثائق أن «داعش» استخدم عدداً من التكتيكات لمساعدة النصرة على ترسيخ أقدامها في البلد الذي مزّقته الحرب. واشتملت التكتيكات على التسلل إلى القرى والبلدات، ووضع خارطة بالجماعات الاجتماعية والإقليمية والعشائرية (أسماء العشائر، الشخصيات المؤثرة، رجال الأعمال، الناشطين، علماء الدين، المعارضين)؛ وتلقينهم المفاتيح الإسلامية الأساسية مدخلاً إلى افتتاح مكاتب «الدعوة»[٣٣]. لم يوفّر التنظيمان جهداً ضرورياً لتأمين السيطرة على مناطقهما، مستخدمين أساليب مختلفة من بينها

---

(٣٢) Christoph Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State,» *Der Spiegel*, 18/4/2015, <http://www.spiegel.de/international/world/islamic-state-files-show-structure-of-islamist-terror-group-a-1029274.html>.

(٣٣) مكاتب الدعوة هي مكاتب دينية مخصصة لبث النصح الديني لمذهب محدد أو لعقيدة دينية.

الاغتيالات وبث الرعب بين السكان. وتركز أغلب الوثائق التي حصلت عليها در شبيغل حصراً على الوسائل الإكراهية التي يستخدمها التنظيمان لتعزيز نفوذهما وإرهاب أعدائهما الحقيقيين أو المتخيّلين.

مع ذلك، فهناك حلقة مفقودة في السردية؛ فمنذ نهاية ٢٠١٢ وإلى نهاية ٢٠١٣ لم يكن هناك ما يميّز «الدولة ـ النصرة» عن التنظيمات المسلحة المتمردة الأخرى التي انتشرت في البيئة الفوضوية السائدة سوى شراستهما ووحشيتهما الزائدة. ففي خلال صيف ٢٠١٢، عززت التنظيمات السلفية والسلفية الجهادية من حضورها في ميدان القتال وشاركت في هجمات ذات حجم كبير على الجيش السوري. والنصرة هنا نقطة مهمة للبحث. فمن تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١ وإلى كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، شنّ التنظيمان ٦٠٠ هجوم في أنحاء البلاد المختلفة ضد الفروع الأمنية والجيش والمجموعات الأخرى العاملة معها[٣٤]. وعزز التنظيم من مرتكزاته العسكرية في المناطق الريفية، المرحبة عموماً بالأيديولوجية السلفية والبعيدة من قصف قوات النظام، بينما كانت عملياتها القتالية أو تفجيراتها الانتحارية تجري في المناطق المدينية.

كان جزء من استراتيجية النصرة تقديم نفسها مدافعة عن السوريين ضد نظام الأسد وكسب دعم المجتمعات المحلية[٣٥]. وأخذاً بنصيحة أيمن الظواهري سنة ٢٠٠٥، من «أنه في غياب الدعم الشعبي يمكن شطب الحركة الإسلامية الجهادية بسهولة ودفعها إلى الظل»[٣٦]، أبدى الجولاني حساسية عالية حيال مشاعر المجتمعات المحلية تلك، فجعل مقاتليه وتنظيمه محليين، وليس جزءاً من حركة جهادية عالمية. كانت جهود النصرة النشطة لتجنيد المقاتلين السوريين في ذلك الوقت جزءاً من سعيه إلى ترويج صورة التنظيم المحلي أمام الرأي العام، وكسب تأييد تلك المجتمعات التي يقاتل أبناؤها معه. نجح تنظيم النصرة منذ البدء في الاختلاط بالمتمردين السوريين وبتنظيماتهم المحلية، حاجباً هويته الجهادية. وفي الحقيقة فهو نجح في ذلك تماماً. فحين أعلنت الولايات المتحدة «النصرة» منظمة إرهابية، تصاعدت الاعتراضات على ذلك من معظم مجموعات المحتجة المعتدلة في سورية ورفعت ٢٩ مجموعة معارضة سورية وثيقة تدين التصنيف الأمريكي[٣٧].

ويدهش المرء حقاً من المستوى الذي بلغته «النصرة» في غرز نفسها وسط المجتمعات المحلية في سورية، وعلى نقيض الموقف الذي كان لتلك المجتمعات من «داعش». فقد دافع المثقفون السوريون المعارضون للأسد عن «النصرة» باعتبارها معتدلة وجزءاً من المجتمعات المحلية، بينما

(٣٤) US Department of State, «Terrorist Designations of the al-Nusrah Front as an Alias for al-Qa'ida in Iraq,» Press Statement, 11 December 2012, <http://www.state.gov/r/pa/prs/ps/2012/12/201759.htm>.

(٣٥) Jennifer Cafarella, «Jabhat al-Nusra in Syria,» *Middle East Security Report* (Institute for the Study of War), no. 25 (December 2014), <http://www.understandingwar.org/sites/default/files/JN%20Final.pdf>.

(٣٦) المصدر نفسه.

(٣٧) المصدر نفسه.

هم عارضوا «داعش» في تطرفها وطموحاتها في التوسع خارج الحدود. وقد أخبرني سوريون أن النصرة قد بدّلت من جلدها وأخفت جهاديتها ودفعت، بناء لنصيحة الجولاني، بسوريتها إلى الواجهة. وقد خلص صحافي، ومعه ثلاثة زملاء، بعد ست ساعات من اللقاء بالجولاني إلى أن الرجل مقبول. وأخبرني موسى العمر، الصحافي في قناة «الغد العربي» التلفزيونية، أن الجولاني معتدل ولا يشارك القاعدة أيديولوجيتها المتطرفة. وقد ذكّرت موسى إلى أن الجولاني حارب مع الزرقاوي، مؤسس «القاعدة في العراق» وخدم قائداً ميدانياً تحت إمرة البغدادي الذي خلفه، وأنه بايع أيمن الظواهري، زعيم القاعدة المركزية. ردّ موسى بأن الجولاني عقلاني ويدرك عن كثب تعقيدات المنطقة والسياسات الدولية. وأضاف، هو واقعي والأمور واضحة في رأسه[٣٨].

وفي آذار/مارس ٢٠١٥، وبعد النجاحات الكبرى لـ «داعش»، استكشفت مقالة في الفاينشال تايمز نيات النصرة في توحيد قوات المعارضة السورية في مسعى منها إلى هزيمة نظام الأسد وداعش في سورية في آن معاً. وشدد التقرير على أن «جوهر القوة المقاتلة في التنظيم هي من المقاتلين السوريين المحليين لا من المقاتلين الأجانب، كما أنها أبدت استعدادها للتحالف مع تنظيمات أخرى لا تشاركها أيديولوجيتها»[٣٩]. وفي الحقيقة، فقد حاولت النصرة نفسها تبرير علاقة الجولاني السابقة بداعش من خلال الزعم أن البيعة التي أعطاها الجولاني للبغدادي هي بيعة للقتال، وليس للخلافة، أي أنه كان تحالفاً عسكرياً مؤقتاً وليس أيديولوجياً طويل الأمد[٤٠].

وحين كشف البغدادي في نيسان/أبريل ٢٠١٣ حقيقة نشأة النصرة، ردّ الجولاني ليس فقط بإعلان البيعة للظواهري، أمير القاعدة، بل أعاد تأكيد ولائه في أيار/مايو ٢٠١٥ من على قناة الجزيرة، التي يشاهدها الملايين من السوريين والعرب، فقال علانية إنه يتلقى «تعليماته» من الظواهري[٤١]. كانت المقابلة برمّتها محاولة من الجولاني لإيضاح المكان الذي تقف فيه النصرة ولتمييزها من «داعش» البغدادي. كانت خطوة منه لإظهار التنظيم في مظهر أكثر اعتدالاً وربما لتأمين استمرار حصوله مستقبلاً على المال من مانحين خليجيين معينين[٤٢]. إلا أن الجولاني لم يوضح كيف يستطيع المواءمة بين هويته الجهادية العالمية ومقتضيات السيادة السورية. ومع أن المشروعين متعارضان، فإن الكثيرين في المعارضة السورية تجاهلوا الأمر بهدف الإفادة من قدرات النصرة العسكرية في حربهم ضد قوات النظام. لكن ذلك يعني أيضاً، أن الجولاني وبالرغم من

---

(٣٨) محادثة الكاتب مع موسى العمر.

(٣٩) Erika Solomon, «Fighters Flock Back to Resurgent Jabhat al-Nusra,» *Financial Times*, 30/3/2014, <http://www.ft.com/cms/s/0/b0cc7652-d61b-11e4-b3e7-00144feab7de.html?siteedition=intl#axzz3dVahQMdz>.

(٤٠) Turkmani, «ISIL, JAN and the War Economy in Syria».

(٤١) انظر فيديو قناة «الجزيرة» حول الجولاني والنصرة: Al Jazeera, 27 May 2015, <http://www.youtube.com/watch?v=-hwQT43vFZA>.

انظر أيضاً: «أمير جبهة النصرة أبو محمد الجولاني: حزب الله اللبناني زائل لا محالة بزوال نظام بشار الأسد في سوريا،» الجزيرة نت، ٢٧ أيار/مايو ٢٠١٥.

(٤٢) David Roberts, «Is Qatar Bringing the Nusra Front in from the Cold?,» BBC, 6 March 2015, <http://www.bbc.com/news/world-middle-east-31764114>.

هويته السلفية الجهادية، غير البعيدة من هوية داعش، قد أفلح ولأسباب مفهومة في تهدئة مخاوف المعارضة السورية لهذه الجهة.

حرص الناطقون باسم النصرة منذ بدء عملها في سورية، وقبل أن تتكشف حقيقة أنها امتداد لداعش، على تقديم صورة مختلفة للتنظيم وعلى القول تكراراً إنهم راغبون في تجنب الأخطاء التي ارتُكبت في الماضي. ففي مقابلة مع مجلة تايم في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، نفى أحد قادة النصرة الرئيسيين، أبو عدنان، أي صلة للتنظيم بـ «القاعدة في العراق»، قائلاً «لسنا كالقاعدة في العراق، لسنا منهم»(٤٣). ولا تنفك إعلانات النصرة في الترويج للرسالة نفسها. على سبيل المثال، أصدرت النصرة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٢ بياناً أعلنت فيه أنها لا تنوي فرض الشريعة في سورية، بل «العودة إلى حكم الله في أرضه». لكن الفارق بسيط في الواقع بين الأمرين. ورسم البيان صورة التنظيم الحامي للجماعة السنية ضد العدو «النصيري» (العلوي)(٤٤).

وفي آذار/مارس ٢٠١٢ نفذت النصرة هجوماً مزدوجاً بالسيارات المفخخة ضد مبنى استخبارات القوات الجوية في دمشق قتل فيه ٤٤ شخصاً. كانت المنطقة المستهدفة منطقة سكنية في الأساس وتضم عدة عائلات مسيحية. وما إن انتشرت أخبار التفجيرين والخسائر بين المدنيين حتى أصدرت النصرة بياناً قالت فيه إنها استهدفت فقط مقر الاستخبارات، وليس السكان المسيحيين، «نود التأكيد للنصارى (المسيحيين) أنهم غير مستهدفين في تفجير مبنى استخبارات القوات الجوية [في منطقتهم]. وكل الأضرار التي حدثت في المنطقة كانت من تداعيات ما بعد التفجير. نحن نرغب من الجميع في أن يتجنبوا السكن قرب المقار والمواقع الأمنية للنظام»(٤٥). وإلى ذلك، أبدت النصرة الرغبة بالتعاون مع الفصائل الإسلامية الأخرى كما مع «الجيش السوري الحر» في القتال ضد قوات النظام(٤٦). وفي تقرير لـ «مجموعة الأزمات الدولية» أن النصرة والجيش السوري الحر يتشاركان منشآت لصنع المتفجرات في دير الزور وإدلب، وينقل عن قائد للنصرة في دير الزور قوله «نلتقي يومياً تقريباً. لدينا أوامر واضحة من قيادتنا بأنه إذا احتاج الجيش الحر مساعدتنا نوفرها له. نحن نقدم لهم المتفجرات والسيارات المفخخة. مهارتنا الأساسية هي في عمليات التفجير»(٤٧).

---

(٤٣) Rania Abouzeid, «Interview with Official of Jabhat al-Nusra, Syria's Islamist Militia Group,» *Time* (25 December 2012), <http://world.time.com/2012/12/25/interview-with-a-newly-designated-syrias-jabhat-al-nusra> .

انظر أيضاً: ياسر الزعاترة، «الدولة الإسلامية في العراق والشام،» الجزيرة نت، ١١ نيسان/أبريل ٢٠١٣.

(٤٤) انظر: «جبهة النصرة لأهل الشام،» الجزيرة نت، ٨ أيار/مايو ٢٠١٢، <http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/24579ea8-bbf0-41d0-9ae5-5060f828db76>.

انظر أيضاً مناقشة لأول إصدار فيديو لجبهة النصرة في كانون الثاني/يناير ٢٠١٢: «Profile: Syria's al-Nusra Front,» BBC, 10 April 2013, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-18048033>.

(٤٥) جبهة النصرة، «البيان رقم ١: تبني عملية فرع الأمن الجوي وإدارة الأمن الجنائي بدمشق،» الشبكة الوطنية الكويتية، آذار/مارس ٢٠١٢، <http://www.nationalkuwait.com/forum/index.php?threads/229910>.

(٤٦) Sara Elizabeth Williams, «A Rebel Rift Is Brewing on Syria's Southern Front,» ViceNews.com, 25 May 2014, <https://news.vice.com/article/a-rebel-rift-is-brewing-on-syrias-southern-front>.

(٤٧) International Crisis Group, «Tentative Jihad: Syria's Fundamentalist Opposition,» *Middle Eastern Report*, no. 131 (12 October 2012).

مع ذلك، تحتفظ النصرة بأوراقها الاستراتيجية لنفسها، وتموضع وحداتها في خط تموين أساسي يمتد من حلب إلى تركيا ومن حلب إلى الحسكة إلى العراق. وتسللت النصرة أيضاً إلى مناطق شاسعة من الريفين الشرقي والشمالي، اللذين يوفران ممراً إلى المحافظات المنتجة للنفط وموارد غنية أخرى في الرقة والحسكة ودير الزور[٤٨].

في البدء، استهدفت النصرة البنى التحتية والمنشآت الحكومية السورية وتجنّبت الأهداف المدنية للحفاظ على صلة طيبة بالسكان المحليين. وتوفّر للنصرة بنتيجة ذلك ترسانة عسكرية ضخمة، بما فيها المعدات والذخائر. على سبيل المثال، ففي كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢ استولت النصرة وفصائل إسلامية أخرى على ثكنة الشيخ سليمان على مسافة ٢٥ كيلومتراً شمال غرب مدينة حلب[٤٩]. وفّرت الغنائم الحربية للتنظيم الجهادي الأرجحية الواضحة على الفصائل الأخرى المعارضة للنظام، مثل الجيش السوري الحرّ، الذي يعتمد على الدعم الأجنبي لجهة السلاح والمال. جلبت أرجحية النصرة في الميدان المزيد من تصدّر المشهد المعارض كما المزيد من المجنّدين السوريين، من فصائل الجيش الحرّ على وجه الخصوص. فكما قال أحد قادة الجيش ذاك لصحيفة الغارديان في أيار/مايو ٢٠١٣، فإن «المقاتلين يشعرون بالفخر بالانضمام إلى النصرة لأن ذلك يعني القوة والفاعلية... فنادراً ما ينسحب مقاتلو النصرة لشحٍ في الذخيرة أو المقاتلين ولا يتركون هدفهم إلا بعد تحريره». وأضاف، «هم يتسابقون إلى العمليات الاستشهادية»[٥٠]. ونفّذت فصائل أخرى في مناطق حماه وإدلب ودير الزور ودمشق، خطوات مشابهة[٥١]. وبحسب قائد في فصيل من الجيش الحرّ، «أسودُ التوحيد»، فقد تسللت النصرة إلى الجيش السوري الحر تحت أسماء مشبوهة وبهدف سحب مجنّديه إلى التنظيم[٥٢].

ما ميّز «الدولة الإسلامية في العراق ـ النصرة» من سواها من التنظيمات المسلحة المنافسة هو أداؤها العالي في ميدان القتال ضد القوات الحكومية، الأمر الذي دفع بها إلى صدارة

---

(٤٨) انظر: Hussein Jemmo, «Jabhat al-Nusra's Goals Extend beyond Syria,» Al-Monitor, 11 January 2013, <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2013/01/jabhat-al-nusras-goals-extend-beyond-syria.html>.

انظر أيضاً: «Islamic State Expels Rivals from Syria's Deir al-Zor-Activists,» Reuters, 14 July 2014, <http://uk.reuters.com/article/2014/07/14/uk-syria-crisis-east-idUKKBN0FJ1I020140714>.

(٤٩) «Syria Rebels Overrun Aleppo Military Base,» BBC, 10 December 2012, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-20666047>.

انظر أيضاً: «بيان إعلان السيطرة على قاعدة الشيخ سليمان،» اليوتيوب، ١٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، <http://www.youtube.com/watch?v=362OUioPVA&spfreload=10>.

«جبهة النصرة» تستولي على قاعدة الشيخ سليمان غرب حلب،» الخليج، ٢٠١٢/١٢/١١، <http://www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/b985449c-f1bb-4c93-84ee-173e8b2b0785#>.

(٥٠) Mona Mahmood and Ian Black, «Free Syrian Army Rebels Defect to Islamist Group Jabhat al-Nusra,» *Guardian*, 8/5/2014, <http://www.theguardian.com/world/2013/may/08/free-syrian-army-rebels-defect-islamist-group>.

(٥١) انظر: «FSA Brigade «Joins al-Qaeda Group» in Syria,» Al Jazeera, 21 September 2013, <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/09/2013920164342453621.html>.

(٥٢) المصدر نفسه.

المشهد المعارض وفي جذب المجنّدين المحليين والأجانب أيضاً. فمن خلال تنفيذها مئات الهجمات على المدن المهمة، استخدمت النصرة العمليات الانتحارية على نطاق واسع، وأثّرت مع المقاتلين الشيشانيين ذوي الشراسة الأسطورية، في الأعداء كما في الأصدقاء. وبعد مضي أقل من عام واحد على إنشائها، كانت النصرة قد فرضت نفسها كأحد أقوى التنظيمات المسلحة بين الجماعات المسلحة التي تقاتل النظام وسيطرت من ثم على شرائح واسعة من السكان. أقامت النصرة في أمكنة سيطرتها محاكم شرعية، تدار عادة على نحو مشترك مع فصائل معارضة أخرى، لفض النزاعات في البلدات والمدن التي تسيطر عليها أو تملك نفوذاً فيها، وفي محاولة منها كذلك لإيقاع القصاص بالأسرى، أو المتهمين بالتعاون، أو المتهمين بأفعال جرمية. قدّمت النصرة في المناطق التي سيطرت عليها نظاماً إدارياً رمت من خلاله إلى منافسة حكم الأسد، فقدمت لوناً من النظام والشرعية فيما كانت تملأ الفراغ الناتج من انتشار الحرب المدمّرة. قامت استراتيجية النصرة، ثم «داعش» من بعدها على «البناء أولاً ومن ثم الحديث في التداعيات»[٥٣]. فأسست مؤسسات شبيهة بمؤسسات الدولة، ووفّرت الخدمات الأساسية، وفرضت النظام العام. وبعد احتلال للرقة، ظهر في Vice News الوثائقي مشاهد لحضانات أنشئت لرعاية الأطفال في أثناء النهار[٥٤].

أكثر من ذلك، نظمت النصرة «أيام لهو» بهدف تسلية الأطفال الذين لوالديهم صلة بالتنظيم[٥٥]. وتضمنت هذه الأنشطة في حلب، على سبيل المثال، ألعاباً قتالية، ومسابقات للصبيان في تناول المثلجات بينما أيديهم مغلولة، وفي حفظ القرآن للبنات. وأظهر شريط فيديو آخر نشر في آب/أغسطس ٢٠١٣ معرضاً للعائلات نظّم في حلب كجزء من الاحتفالات بالعيد، حيث وُزّعت على الأطفال بعد الفراغ من تلاوة الآيات القرآنية ألعاب ألكترونية أو دمى (سبايدر مان)[٥٦].

لجأت النصرة إلى إنشاء موقع لها على الشبكة الإعلامية، «المنارة البيضاء»، تنشر من خلاله أعمالها البارزة في رسائل تهدف إلى شد عصب جمهورها السني كما الانخراط في الجماعات المحلية. وأسست الجبهة مؤسستها الخيرية الخاصة، قسم الإغاثة، بهدف تقديم الطعام والمساعدة إلى الناس الأكثر فقراً، في مبادرة أخرى لكسب ود الجماعات المحلية. ونشرت الجبهة في كانون

---

(٥٣) Cafarella, «Jabhat al-Nusra in Syria».

(٥٤) Vice News Documentary, «The Islamic State,» ViceNews.com, 26 December 2014, <https://news.vice.com/video/the-islamic-state-full-length>.

(٥٥) «Syria: Al-Qaeda Arm «Stages Fun Day»,» BBC, 23 July 2013, <http://www.bbc.co.uk/news/blogs-news-from-elsewhere-23420018>.

انظر أيضاً الفيديو: «Al-Qa'ida Holds Family Fun Day in War Torn Aleppo,» Liveleak, 24 July 2013, <http://www.liveleak.com/view?i=588_1374686964&comments=1>.

(٥٦) Max Fisher, «Al-Qaeda Faction in Syria Hands Out Teletubbies and Spiderman Dolls,» *Washington Post*, 13/8/2013, <http://www.washingtonpost.com/blogs/worldviews/wp/2013/08/13/al-qaeda-faction-in-syria-hands-out-teletubbies-and-spiderman-dolls>.

الأول/ديسمبر ٢٠١٢ شريطاً مصوراً ظهر فيها أعضاء يحضّرون الخبز لسكان دير الزور[٥٧]. وأنشأت الجبهة، بالإضافة إلى توزيع الخبز، عيادة طبية مجانية في الشدادة لتوفير العناية الطبية للسكان وأمنت إمدادات كهرباء مستقرة مجانية للمدينة[٥٨]. وأظهر شريط آخر على الشبكة جرّافة أسرتها الجبهة حديثاً مع شاحنة تجمع قمامة مدينة درعا، في عرض واضح لقدرة التنظيم على إدارة شؤون المدينة[٥٩]. وفي حماه افتتح التنظيم «جمعية استهلاكية خيرية» توفر الزي الإسلامي للنسوة مجاناً[٦٠].

كسبت النصرة قلوب السوريين أكثر فأكثر كحامٍ للسكان المحليين لا كعصابة إجرامية تمارس الانتهاكات كما تفعل فصائل أخرى. وفي عام واحدٍ تقريباً، رسّخت النصرة أقدامها كإحدى أقوى الفصائل الثائرة؛ وكسب قائدها (الجولاني)، شعبية واسعة وظهر كلاعب رئيسي داخل المعارضة المسلحة، ونال لقب «الشيخ الفاتح». وفي أحسن تجسيد لنجاحها، كانت النصرة في حدود ٢٠١٣ فاعلة في ١١ من أصل ١٣ محافظة سورية[٦١].

خامساً: الصراع على السلطة بين البغدادي والجولاني: صعود «داعش»

جلب صعود النصرة السريع، ونجومية الجولاني الصارخة، الخوف إلى البغدادي وحلقته الداخلية، فتحوّلوا بسرعة إلى محاولة إعادة السيطرة على التنظيم والرجل اللذين اعتقدوا خطأً أنهما مجرد واجهة لمشروع «الدولة الإسلامية» في سورية. ففي تسجيل صوتي يعود إلى نيسان/أبريل ٢٠١٣، كشف البغدادي علانية الصلة بين «الدولة الإسلامية في العراق» والنصرة، قائلاً إنها كانت مجرد امتداد لتنظيم «الدولة الإسلامية» وأن الهدف الاستراتيجي الذي أنيط بجبهة النصرة كان إقامة دولة إسلامية في سورية. وأعلن من ثم، ومن طرف واحد، دمج تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» و«جبهة النصرة» في تنظيم واحد جديد سمّاه «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش) وذلك في نيسان/أبريل ٢٠١٣[٦٢].

جلب إعلان البغدادي الخطر ليس فقط لقيادة الجولاني لجبهة النصرة، بل ولتنظيمات مسلحة أخرى في سورية. فقد أعلن البغدادي في بيانه ـ ومن دون مواربة ـ أن التنظيمات الإسلامية التي

---

(٥٧) «جبهة النصرة ـ لجنة الإغاثة ـ توزيع الخبز ـ الميادين،» اليوتيوب، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، <https://www.youtube.com/watch?v=IA1BKRyJLPI&feature=youtu.be>.

(٥٨) Gaith Abdul-Ahad, «Syria's al-Nusra Front-Ruthless, Organised and Taking Control,» *Guardian*, 10/7/2013, <http://www.theguardian.com/world/2013/jul/10/syria-al-nusra-front-jihadi?iframe=true&width=100%25&height=100%25>.

(٥٩) انظر: «تقرير عن خدمات المياه والصرف الصحي في درعا،» ج ٢، اليوتيوب، <https://www.youtube.com/watch?v=D-3roUVIAMk>.

(٦٠) انظر: «Al-Nusra Front Opened «Modesty Charity» Offers Free Islamic Clothing to the Women in Hama,» SITE Intelligence Group, <https://ent.siteintelgroup.com/Jihadist-News/al-nusra-front-opened-modesty-charity-offers-free-islamic-clothing-to-women- in-hama.html>.

(٦١) IHS Jane's Terrorism and Insurgency Center, «Analysis: Syria's Insurgent Landscape,» September 2013, <http://www.ihs.com/pdfs/Syrias-Insurgent-Landscape-oct-2013.pdf>.

(٦٢) Raqqa UMC, YouTube, 10 April 2013, <http://www.youtube.com/watch?v=6FdTjm4-6Lo>.

ترفض إعلان البيعة للدولة الإسلامية الجديدة ستعتبر معادية. إلا أن الجولاني، وبعد أقل من أربع وعشرين ساعة على بيان البغدادي، رفض أوامر الأخير، فاتحاً النار بل مطلقاً الرصاصة الأولى في ما سيغدو حرباً أهلية حقيقية بين التنظيمين السلفيين الجهاديين[٦٣].

أعلن الجولاني، رداً على بيان البغدادي، أنه لم يعلم بإعلان الدمج إلا من وسائل الإعلام، وأضاف «إذا كان البيان صحيحاً ففي وسعنا القول إننا لم نُستشر في الأمر ولا في المسألة المطروحة»[٦٤]. ثم أكّد مطمئناً حلفاءه السوريين المحليين، أن صلته بالقاعدة لن يكون لها أي تأثير أو تغيير في أولويات التنظيم وسياساته التي تبقى إسقاط نظام الأسد. إلا أن التطمين كان تكتيكياً ومؤقتاً، فقد أكد الجولاني في سياق مقابلة له مع قناة الجزيرة في أيار/مايو ٢٠١٣، ورداً على سؤال عمّا سيفعله إذا استمر استهداف الولايات المتحدة والتحالف الغربي لتنظيمه، فقال «التعليمات التي تلقيناها إلى الآن هي ضبط النفس والامتناع عن مهاجمة المصالح الأمريكية والغربية في سورية، تلك هي تعليمات الدكتور أيمن الظواهري... أما إذا استمر الوضع على ما هو عليه فأنا أعتقد أنه سيكون له تداعيات لن تكون في مصلحة الغرب ولا أمريكا»[٦٥].

تركت ردود الجولاني مسألتين اثنتين من دون إيضاح كافٍ: الأولى، علاقة النصرة بالقاعدة المركزية؛ والثانية، علاقة النصرة بالبغدادي. في هذا السياق، بات معروفاً أن النصرة كانت منذ البدء مولوداً جهادياً للبغدادي وحلقته الداخلية، ولكن مع إبقاء الأمر سرّاً إلى أن كُشف عنه في بيان البغدادي في نيسان/أبريل ٢٠١٣. وكان ردٌّ أيضاً من الظواهري الذي أعلن أن إعلان البغدادي قيام «الدولة الإسلامية في العراق والشام» «كان تمرداً علنياً على أوامر قيادة القاعدة... بعدم الإعلان عن أي وجود رسمي لها في سورية». ووصف، أكثر من ذلك، خطوة البغدادي بالكارثية لأنها ستجلب «الفتنة» إلى داخل المعسكر الجهادي: «لقد تسبب الإعلان بانقسام حاد داخل التنظيم الواحد وقاد إلى اقتتال داخلي... وإلى شلال من الدم»[٦٦].

يتضح من ذلك أن بيعة الجولاني للظواهري كانت نتاج التنافس الداخلي مع البغدادي، أكثر مما كانت تحولاً أيديولوجياً راديكالياً لديه. ورغم ذلك، أبدت فصائل مسلحة حليفة للنصرة دهشتها وقالت إنها فوجئت بالعلاقة بين النصرة و«الدولة الإسلامية في العراق»، وأعربت عن خشيتها من أن يكون لإعلان الجولاني الولاء للظواهري تداعيات سلبية على وحدة صفوف الثوار في سورية، وسنعود إلى هذا الأمر المهم لاحقاً[٦٧].

---

(٦٣) المصدر نفسه. انظر أيضاً: Thomas Joscelyn, «Al-Nusra Front Leader Renews Allegiance to al-Qaeda, Rejects New Name,» *Long War Journal* (10 April 2013), <http://www.longwarjournal.org/archives/2013/04/al_nusrah_from_lead.php>.

(٦٤) Raqqa UMC, YouTube, 10 April 2013, <http://www.youtube.com/watch?v=6FdTjm4-6Lo>.

(٦٥) انظر مقابلة الجزيرة مع الجولاني: «Nusra Leader: Our Mission Is to Defeat Syrian Regime,» Al Jazeera, 28 May 2015, <http://www.aljazeera.com/news/2015/05/nusra-front-golani-assad-syria-hezbollah-isil-150528044857528.html>.

(٦٦) Al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al-Sham [Greater Syria]».

(٦٧) الزعاترة، «الدولة الإسلامية في العراق والشام».

إلى ذلك، وبخلاف مزاعم الجولاني أنه فوجئ بإعلان البغدادي، يجدر التذكير بالموقع الغامض «ويكي بغدادي» الذي نشر لعام كامل، كما رأينا سابقاً، بدءاً من ٢٠١٣ أكثر من ألف تغريدة تحدّث الكثير منها عن التنافس الحاد الجاري بين الأميرين الطموحين. وبحسب ذاك الموقع، فقد مارس البغدادي ومساعدوه، وبخاصة الحاج بكر، ضغطاً شديداً على الجولاني لإجباره على إعادة ربط النصرة بـ «الدولة الإسلامية في العراق». بل نقل الموقع أن البغدادي والحاج بكر خططا لاغتيال الجولاني لمماطلته في طلب الاندماج. وأعقب ذلك حذر شديد من الجولاني حيال مقر قيادته وتنقلاته[٦٨].

بعد شهرين من إعلان البغدادي، ومن ردّ الجولاني بالولاء للظواهري، حاول الأخير رأب الصدع بين الأميرين المتقاتلين ووضع حد للتصعيد العسكري بينهما. وكان كلاهما قد راسلا الظواهري طالبَين تدخله وعدم الانحياز ومحاولة حقن الدم والحيلولة دون اتساع رقعة الفتنة الناشبة. فقد كشف الظواهري لاحقاً أن البغدادي اتصل به وحذّره من دعم «ما قام به هذا العميل [رفض الاندماج]»، وأن «حتى الإلحاح إلى الدعم سيسبب فتنة كبرى». وأضاف الظواهري أن البغدادي هدد صراحة من «أي دعم للنصرة أو التأخير في تنفيذ ما رآه «موقفاً صحيحاً» سيقود إلى شلال من الدم»[٦٩]. وقال الظواهري إن الناطق باسم النصرة، أبو محمد العدناني، كتب له أيضاً طالباً تدخله قبل أن يتسبب ذلك بالمزيد من الضرر على المشروع الجهادي في سورية. كتب الظواهري، عقب ذلك، رسالتين إلى البغدادي والجولاني أكد فيهما أن «هذا هو حكم قائد في مشكلة نشأت بين جنديين لديه، وليس حكماً قضائياً»، مستعرضاً بدوره قيادته للحركة الجهادية العالمية[٧٠].

كان حكم الظواهري الطلب بإلغاء الدمج والإبقاء على البغدادي والجولاني أميرين مستقلين على العراق وسورية، ما يعني ضمناً انحيازه إلى جانب النصرة ضد «داعش»[٧١]. رأى الظواهري لاحقاً أن خطوة البغدادي بإعلان الدمج من طرف واحد «أضرّت أكثر مما نفعت»، لأن «عناصر الدولة ليست متوافرة الآن في سورية». واعترف أكثر بأنه كتب إلى البغدادي موضحاً له بأنه «لو سألتنا رأينا قبل إعلانك الدولة، لما كنا وافقنا»[٧٢]. تسبب موقف الظواهري هذا بوضعه في مواجهة مباشرة مع البغدادي وحلقته الداخلية، وعن اندلاع صراع دموي منذ اللحظة تلك على قيادة الحركة الجهادية العالمية.

---

(٦٨) للاطلاع على كامل تغريدات wikibaghdady@، انظر: ««ويكيليكس البغدادي» تكشف «داعش» على حقيقتها... تغريدات «مؤلمة»،» زمان الوصل (٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)، <https://zamanalwsl.net/news/45122.html>.

(٦٩) Al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al-Sham [Greater Syria]».

(٧٠) المصدر نفسه.

(٧١) انظر تسجيل الظواهري الصوتي الذي أدان فيه دمج داعش بالنصرة ودعوته داعش لوقف القتال: <http://www.youtube.com/watch?v=s9KL6h1oQJI>.

انظر أيضاً: بسمة أتاسي، «الظواهري يلغي دمج «جهاديي» سوريا والعراق،» الجزيرة نت، ٩ حزيران/يونيو ٢٠١٣، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2013/6/9>.

(٧٢) أتاسي، المصدر نفسه.

دبّج البغدادي ردّين مطولين على «ادّعاء» الظواهري القيادة، فتحدى سلطته وأعلن أن «الدولة الإسلامية في العراق والشام» مستمرة في الوجود وستتوسع أكثر من ذلك. وأرسل البغدادي إلى مسؤول في القاعدة المركزية، لا إلى الظواهري نفسه، أبلغه أنه بعد التشاور مع مجلس شورى «داعش» تقرر أن «طاعة قائدنا تعني عدم طاعة الله وتدمير مجاهدينا. إننا نسعى لمرضاة الله وليس لمرضاة القائد»[٧٣]. وترافق إعلان البغدادي مع هجوم واسع لـ «داعش» على النصرة وحلفائها الإسلاميين في سورية، كرد فعل على قرار النصرة الاستمرار في مهاجمة جماعة البغدادي في سورية لمنع تمدد التنظيم هناك.

سادساً: «داعش» تتمدّد على حساب النصرة وحلفائها

مثّل إصرار الجولاني على استقلالية جبهة النصرة مصاعب عملانية جدية لـ «داعش». كان للنصرة في سورية استراتيجية مختلفة عن استراتيجية «داعش». وبفعل تحالفها مع تنظيمات أخرى مقاتلة للنظام السوري، وتعاونها مع المجتمعات المحلية (من حيث المبدأ)، أمكن للنصرة أن تتحول إلى قائد فعلي للتنظيمات الإسلامية المقاتلة ضدّ النظام. وعليه، فرفض الجولاني التعاون يعني مباشرة أن على «داعش» أن تحاول من الصفر بناء شبكتها داخل الصراع الجاري في سورية. ونتيجة لذلك تحوّل الاشتباك التنظيمي بين البغدادي والجولاني إلى صراع دموي بين التنظيمين قتل فيه الآلاف من المقاتلين الأكفاء، وتفاقم حتى الذروة بشن «داعش» حرباً شاملة على النصرة وحلفائها الإسلاميين وترسيخ انتصاراتها على الأرض. بدأ «داعش» بإعادة بناء قاعدة مستقلة له بمساعدة المقاتلين الأجانب الذين اختاروا بعد الانقسام نقل ولائهم من النصرة إلى «داعش». بدأ «داعش» بالتموضع في قلب المعارك الجارية ضد النظام، واستهدف خصوصاً المناطق الشمالية والشرقية من سورية التي هي أصلاً في يد النصرة. وكانت أولويتها من أجل ذلك قتال النصرة وحلفائها لا قوات النظام. ورغم إدانة التنظيمات الأخرى المقاتلة، نجحت استراتيجية «داعش» بالتمدد أولاً على حساب المناطق الطرفية للنصرة وحلفائها، وتوّج ذلك بخطفه بمساعدة مقاتلين سابقين في النصرة السيطرة على مدينة الرقة بعدما كانت استولت عليها النصرة وفصائل معارضة أخرى.

ففي آذار/مارس ٢٠١٣، كانت فصائل مقاتلة، وفي مقدمها النصرة وأحرار الشام، وهي ميليشيا متزمتة أخرى، قد تمكنت من انتزاع الرقة، المدينة الكبرى شمال شرق سورية التي تحتوي على مليون ساكن وكانت يوماً ما عاصمة للخلافة العبّاسية، من أيدي القوات الحكومية. وتحوّلت الرقة، بوصفها أول مدينة كبرى تقع في أيدي المتمردين، إلى «أيقونة الثورة»، وإن يكُ لفترة قصيرة. إلا أن النصرة سرعان ما سحبت معظم قواتها من المدينة واتجهت بهم نحو مدينة «الطبقة»، غرب الرقة. وحذت «أحرار الشام» حذو النصرة فحركت قواتها باتجاه تل أبيض، شمال الرقة. ومع هذين

(٧٣) المصدر نفسه.

التطورين، وبانغماس الجيش السوري الحر في معركة طويلة مع الفرقة ١٧ من الجيش السوري النظامي، دفع «داعش» بقواته فأطبق على الرقة وانتزعها من النصرة وحلفائها. وطرأ بعد ذلك تغيير درامي سريع في حياة المدينة. فمجموعات الشبّان الذين كان سمح لهم من النصرة بممارسة نشاطهم المدني والخيري طالما هم بعيدون من النشاط السياسي سرعان ما قمعوا واختفى أي نشاط سياسي أو مدني مستقل في المدينة الكبيرة.

أعدم «داعش» علانية وبعيد دخوله مباشرة ثلاثة رجال في مركز المدينة، وكان أحدهم يرتدي زياً عسكرياً. وكان ذلك إعلاناً للجميع عالي الصوت: الطاعة أو الموت[٧٤]. ومع نهاية الصيف، كان «داعش» قد طرد من المدينة باقي الفصائل الإسلامية الموجودة. ففي آب/أغسطس، على سبيل المثال، استهدف داعش محطة القطارات في المدينة التي كان يستخدمها تنظيم «أحفاد الرسول»، المقرّب من الجيش السوري الحر، مقر قيادة له. وكان الهجوم كافياً لإخراج التنظيم، الذي كان فاعلاً على جبهات قتال قوات النظام، من المدينة[٧٥]. حاولت النصرة في أيلول/سبتمبر أن تعود إلى الرقة[٧٦]، بمشاركة فصائل أخرى، لكن ذلك لم يدم غير أيام فقط، قُتل بعدها أبرز قيادي في النصرة أبو سعد الحضرمي[٧٧] الذي أُعدم في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، وأعاد «داعش» السيطرة على المدينة[٧٨].

وفي تلك الأثناء، كان تنظيم البغدادي يوسّع سيطرته أيضاً على مناطق أخرى شرق البلاد. في شباط/فبراير ٢٠١٤، حاولت النصرة، بمساعدة «أحرار الشام»، وقف تقدّم «داعش» في محافظة دير الزور وقتل في المعارك بين الطرفين قائد عسكري رفيع من داعش[٧٩]. لكن داعش استمر في ترسيخ أقدامه على الأرض والتوسع على حساب النصرة والفصائل الحليفة من خلال جلب المقاتلين من الرقة، وليشنّ في نيسان/أبريل هجوماً استمر شهرين ضد النصرة وأحرار الشام وأمكنه في النهاية السيطرة على دير الزور، مع تهجير واسع للسكان هناك[٨٠].

---

(٧٤) «The ar-Raqqa Executions-Confirmation of the Islamic State in Iraq and as-Sham,» *Pietervanostayen* (blog), 15 May 2013, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2013/05/15/the-ar-raqqa-executions-confirmation-of-the-islamic-state-in-iraq-and-as-sham>.

(٧٥) Firas al- Hakkar, «The Mysterious Fall of Raqqa, Syria's Kandahar,» *Al-Akhbar*, 8/11/2013, <http://english.alakhbar.com/node/17550>.

انظر أيضاً: «Syria: Islamist Infighting Sweeps Raqqa,» *Asharq al-Awsat*, 15/8/2013, <http://www.aawsat.net/2013/08/article55313705>.

(٧٦) Erika Solomon, «Hundreds of Syria Rebels Pledge Loyalty to Qaeda Groups: Activists,» Reuters, 20 September 2013, <http://www.reuters.com/article/2013/09/20/us-syria-crisis-qaeda-idUSBRE98J0DK20130920>.

(٧٧) «مصدر معارض لعربي برس: «النصرة» تتوعد بتصفية «داعش» شرق سوريا.. الرقة «إمارتنا الإسلامية»،» عربي برس، ٢٠١٥/١٠/٢٢، <http://arabi-press.com/article.php?id=841552>.

(٧٨) إعلان داعش عن الإعدام، متوفر على: <http://pbs.twimg.com/media/BdzBSZiCQAADbWz.jpg:large>.

(٧٩) «Activists Say ISIS Top Commander Killed in Syria,» Al-Arabiya, 8 February 2014, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/02/08/Activists-say-ISIS-top-commander-killed-in-Syria-.html>.

(٨٠) «Jabhat al-Nusra Losing Support among Rebels, Tribes in South Syria,» *Al-Monitor* (6 May 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/05/syria-isis-jabhat-nusra-south-deir-ez-zour.html>.

تمكن «داعش» في صيف ٢٠١٤ بالرغم من انشغاله بالقتال مع منافسيه، من استكمال السيطرة على ٩٥ بالمئة من الثروة النفطية في محافظة دير الزور[٨١]. وقد وفّر استيلاؤه على دير الزور، بأرضها الزراعية الخصبة ونفطها الخام، موارد مهمة وحساسة لتمويل حربه وإداراتها وشراء ولاء العشائر والجماعات المحلية العالقة في مناطق سيطرتها. وسمح له امتلاكه الآن ثمانين بالمئة من الحقول النفطية في سورية بتجنيد المزيد من المقاتلين المحليين والأجانب وتأمين الأراضي التي استولى عليها[٨٢]. ودفع احتكار داعش الموارد البترولية التنظيمات المسلحة الأخرى إلى الخضوع لمطالبه لحاجتها إلى الوقود والأمور الضرورية اليومية. حتى النصرة نفسها في ريفَي حلب وأدلب كانت بحاجة إلى النفط الخام من المناطق السورية الشمالية التي تسيطر عليها داعش، وكانت تسمح في المقابل لمقاتلي داعش باستخدام معبر «باب الهوا» على الحدود التركية مع حلب[٨٣].

أراد «داعش» في سورية، وهو يستكمل انتصاراته ويمزّق صفوف التنظيمات المنافسة له، أن يكتسب سمعة التنظيم المقتدر، القوي عسكرياً، المتشدد، والفعّال تنظيمياً. وبسبب طبيعته الإقصائية، لم يكن التنظيم مستعداً أو راغباً في التساهل مع أي منشق أو معارض أو منافس حتى لو كان من فصائل إسلامية تشبهه. ففي ما يشبه الملوك والسلاطين من قبل، اختار البغدادي وقادته الكبار السيف لفرض إرادتهم وسلطتهم مهما كانت النتائج. أثّرت هذه الاستراتيجية القائمة على الدم والإلغاء في الأعداء والأصدقاء معاً، وأقنعت العديد من المتمردين السوريين المترددين، كما الناشطين الأجانب، أن «داعش» هو الحصان الرابح. وقاد صعود داعش ومكاسبه على الأرض إلى توفير مجنّدين جدد للتنظيم، وغالباً من المجموعات المسلحة الأخرى. ويقول الذين تحوّلوا إلى داعش إنهم تأثروا بقوته العسكرية، ومرونته، والوفرة المالية لديه؛ بينما لم تكن تنظيماتهم السابقة بقادرة على توفير رواتبهم البسيطة على نحو منتظم رغم ما كانت تستلمه من مساعدات أجنبية ولا هي تمكنت أيضاً من بناء تنظيم مستدام أو هوية واضحة[٨٤]. أهمية هذه الشهادات الشخصية هي في إشارتها إلى العيوب البنيوية التي اعتورت عمل المتمردين السوريين، من الشللية، وقلة التبصّر إلى أمراء الحرب، وهي عيوب أسهمت في إضعاف قدرتهم على توفير بديل عملي من نظام الأسد، أو حتى الحاجات المادية لمقاتليهم.

---

(٨١) ««Islamic State» Expels Rivals from Syria City,» Al Jazeera, 15 July 2014, <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2014/07/state-expels-rivals-from-syria-city-201471413424823981 5.html>.

انظر أيضاً: Associated Press, «ISIS Militants Seize Another Oil Field in Syria's Deir el-Zour,» Al- Arabiya, 4 July 2014, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/07/04/Islamic-militants-seize-Syria-oil-field.html>.

(٨٢) «المعارضة السورية: ٨٠٪ من حقول النفط والغاز بيد تنظيم الدولة وأقل من ٨٪ بيد النظام،» القدس العربي، ٢٠١٥/٥/٣١، و Lauren Williams, «Islamist Militants Drive Free Syrian Army Out of Raqqa,» *Daily Star*, 15/8/2013, <http://www.dailystar.com.lb/News/Middle-East/2013/>.

(٨٣) Turkmani [et al.], «Countering the Logic of the War Economy in Syria; Evidence from Three Local Areas».

(٨٤) عصام، «هل تنظيم «الدولة الإسلامية» في سوريا امتداد لفصائل الثورة السورية؟».

ما ساعد على تحويل دفّة الأمور لمصلحة «داعش» هو أن قدرته على التعلم والتكيّف سمحت له بالوقوف في وجه المعارضات الشرسة له في الداخل والخارج. وأولى الدروس كانت من خبرته التي حصّلها في عقد كامل من القتال ضد قوات التحالف الأمريكي في العراق. وعليه؛ فقد أفلح في تشكيل نظام عسكري صلب من القيادة والسيطرة في كل من سورية والعراق. والأكثر أهمية، هو تأطيره للقتال في سورية والعراق في إطار الدفاع عن الهوية لا الأيديولوجيا، دافعاً إلى الواجهة بهوية سنّية شاملة، في نقيض متعمّد للهوية الشيعية الشاملة في دمشق وبغداد المدعومتين من إيران. وإلى ذلك، ظهر «داعش» بمظهر الذي يقرن الأقوال بالأفعال. فقد سمح له توحشه الخالص، وبخلاف التنظيمات السنية الأخرى في سورية، أن يحتكر تمثيل الهوية (التمييز الصارم للسنة من الشيعة)، ما عزز من جذبه للفئات الفقيرة والمهمشة[٨٥]. ظهر «داعش» أيديولوجياً وعسكرياً بمظهر القوة المقتدرة التي في وسعها أن توفّر للسوريين التخلّص من النظام الحالي وصولاً إلى فرض نظام حكم سنّي في دمشق، قفزة لم يبلغها أي تنظيم إسلامي منافس.

سابعاً: تحطيم الحدود بين العراق وسورية

بعد نجاحه في تحقيق مكاسب كبرى في سورية، بات «داعش» قادراً الآن على أن يركّز من جديد على العراق، حيث شنّ في كانون الثاني/يناير ٢٠١٤ هجمات استراتيجية في محافظة الأنبار. كانت عشائر الأنبار قد غدت على نحو متزايد أكثر استياء من حكومة بغداد، التي لم تفِ، برأيهم، بوعودها لتحقيق مطالب السكّان السنة. ففي مقابلة له هدفَ منها إلى تهدئة خواطر رؤساء العشائر والتخفيف من نقمتهم، أكّد المالكي، رئيس الوزراء العراقي يومذاك، إرادته منحهم ما يستحقونه من حقوق والاعتراف بالدور الذي يؤدونه في الحفاظ على أمن البلاد. قال المالكي إنه طلب شخصياً من مجلس الوزراء الموافقة على منح أفراد الصحوات[٨٦] التي كانت أهملت لفترة طويلة راتب ٤٣٠ دولاراً شهرياً والمزيد من الأسلحة والمعدات[٨٧].

إلا أن نقطة تحول كبرى كانت قد حدثت في حزيران/يونيو ٢٠١٤ حين استولى «داعش» على الموصل، مرسّخاً سيطرته أيضاً على أجزاء من حلب نحو الصحراء السورية وإلى محافظتي الأنبار ونينوى في العراق. وما كان بوسع داعش أن يحقق كل ذلك من دون الإفادة من التجارب السابقة واستغلاله بسرعة التوتر المتزايد بين الحكومة العراقية وقوات «الصحوة»، وتأثير التوتر في الجماعة السنّية في البلاد. ففي مقابلة أعقبت سقوط الموصل، حاول أثيل النجفي، محافظ نينوى يومذاك، أن يشرح لماذا كان الجو في الموصل مواتياً لتنظيمات مثل «داعش»، قال: «كان الناس تحت ضغط

---

(٨٥) المصدر نفسه.

(٨٦) قوات الصحوة هي تحالف لشيوخ العشائر ولضباط بعثيين سابقين في العراق تأسست عام ٢٠٠٥ لمنافسة القاعدة بين الجماعة السنية العراقية.

(٨٧) «المالكي يسعى لإعطاء دور أكبر لمقاتلي العشائر لمحاربة القاعدة في العراق،» الزمان، ٢٠١٤/١/١٣، <http://www.azzaman.com/?p=57782>.

كبير من الجيش والنظام. لم يكونوا يريدون الجيش وكانوا يحتاجون إلى من يحميهم منه. فقد كان الجيش والشرطة يتصرفان في أدائهم واجباتهم بطريقة طائفية»[٨٨].

بعد الاستيلاء على الموصل، وفي محاولة منه لامتصاص العناصر الأمنية المحلية، عرض «داعش» ما سمّاه «بطاقة توبة» التي تضمنت الأمان للذين لا يتحدّون سلطته[٨٩]. ودخل أيضاً، كما قيل، في مفاوضات مع «جيش رجال الطارق النقشبندي»، أو «الجيش النقشبندي» التنظيم المسلح المكوّن من بعثيين سابقين معارضين للحكومة. ففي مقابلة مع الناطق باسم الجماعة الثائرة على حكومة بغداد، غانم العابد، قال: «هناك مباحثات بين الجيش النقشبندي و«داعش» لانسحابه من الجانب الأيسر من المدينة، تمهيداً لانسحابهم الكامل من الموصل... النقشبندي هو الأقوى على الأرض وبين السكان، لأنهم سلميون وليست لديهم ثقافة العنف والانتقام»[٩٠].

أراد «داعش»، من خلال عرض التعاون مع الجماعات السنية المسلحة الموجودة هناك، أن يظهر إرادته في التعاون إلى أقصى حد مع الجماعات السنّية. وسمح في البدء أيضاً للقوات المحلية بالحفاظ على مناطق سيطرتها واستعراض قواتها علناً مقابل تخفيف وجوده العسكري في الشوارع. كان ذلك ما تعلمه كما يبدو من تكتيكات النصرة في سورية. وأنشأ أيضاً قوة «شرطة أخلاق»، تعرف بـ «الحسبة»، ومهمتها التثبت من احترام أحكام الشريعة في المدن التي احتلها التنظيم. كان للحسبة مهام متعددة، من التزام الرجال والنساء الدقيق بالزي الديني، إلى مراقبة الأسعار في المتاجر المحلية وفق القواعد التي تسنّ لتنظيم السوق.

كانت عودة «داعش» القوية إلى العراق مسبوقة بانتصاراته على النصرة في سورية. ومع استيلاء التنظيم على مدن سورية كبرى أصبح قادراً على تحطيم الحدود الدولية التي تفصل بين البلدين، فجعل الدولة الإسلامية في العراق وسورية حقيقة على الأرض. وبذلك نجح تكتيكه الذي أسماه «كسر الحدود». وكان ذلك منطلقاً لمحاولته التوسع أكثر في البلدان المجاورة. نجح التنظيم في العراق أيّما نجاح في استغلال العلاقات المتدهورة بين الحكومة المركزية والجماعة السنّيّة. فإخلال المالكي بوعوده للصحوات حمل أفراداً منهم على الالتحاق بالتنظيم والعمل ضد بغداد. وفي مقابلة معه، قال نائب الرئيس العراقي السابق طارق الهاشمي: «هناك أطراف عدة في «داعش». لا أنفي أن «داعش» موجود، أو أنه ليس مؤثراً. هو مؤثر، قوي جداً، وكانوا طليعة العمليات في

---

(٨٨) Fehim Tastekin, ««Sunni Project» Needed to Fight ISIS, Says Mosul Governor,» *Al-Monitor* (16 June 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/06/tastekin-isis-sunnis-mosul-iraq-turkey-syria-erbil-kirkuk.html#>.

(٨٩) «داعش سيطرت على تلعفر ومصفاة بيجي وتصدر «بطاقات توبة» في الموصل... والسعودية تحذر من «حرب أهلية»،» القدس العربي، ٢٠١٤/٦/١٨، <http://www.alquds.co.uk/?p=182210>.

(٩٠) Ma'ad Fayad, «Mosul: One Month On,» *Asharq al-Awsat*, 14/7/2014, <http://www.aawsat.net/2014/07/article55334237/mosul-one-month-on>.

الموصل والمحافظات الأخرى...لكنهم لا يمثلون كل التنظيمات... إذا تركنا الأمور تتفاقم على الأرض فهناك إمكانية لنشوب حرب طائفية شاملة»[٩١].

قاد سقوط سورية في حرب شاملة إلى جرمنة اقتصاد الحرب فيها (Criminilization)، حيث اندفعت التنظيمات المسلحة وأمراء الحرب إلى تحصيل المال من الخطف ومن ممارسات أخرى، مثل التهريب، والفساد، وتجارة المخدرات، والاتجار بالقطع الأثرية، ومن الرسوم على نقاط العبور، والحواجز، ومن النفط بالتأكيد، الذي وفّر شطراً كبيراً من مداخيل «داعش»[٩٢]. نشأت الأرباح من اقتصاد الحرب كما من مصادر أجنبية، استخدمتها بذكاء النصرة ثم داعش، حين أدركا أن توسعهما السريع اعتمد على قدرتهما ليس على إرهاب أعدائهما فقط بل على المتعاملين معهما من السنة أنفسهم، بمن فيهم الفقراء والعشائر، مستخدمين معها الإغراءات وشبكات الرعاية والتقديمات، مثل توفير نصيب من عائدات بيع النفط والتهريب شرق سورية. قدّم زعماء العشائر الدعم لـ «داعش» لأنهم شاركوها المغانم والجو الطائفي السياسي نفسه. على سبيل المثال، فقد قررت عشيرة البوعزّ الدين التحالف مع داعش في إثر تورطها في نزاع مع النصرة حول عائدات تهريب النفط[٩٣]. وكثمن لولاء العشائر، سمح داعش لهم بالاتجار بالنفط الخام وتكريره في مناطق التنظيم في الرقة ودير الزور والعراق[٩٤]. وكثير من العشائر كانت متحالفة سابقاً مع نظام الأسد وكانت بحاجة باستمرار للحماية كما للكسب المادي. وقد أدرك داعش أهمية العشائر ودعمها له من أجل ترسيخ مكاسبه الجغرافية. ويسبب من تلك الأهمية، أنشأ التنظيم قسماً خاصاً للعلاقة بالعشائر لتأمين التواصل مع زعماء العشائر والتوسط في نزاعاتهم[٩٥]. حاول داعش منذ البدء كسب تأييد الجماعات المحلية إلى جانبه مستخدماً لذلك كل الأساليب المتاحة، من الرشوة إلى الإكراه. وعلى ذلك، لا معنى للقول إن «داعش» استخدم قوته المادية فقط لبسط سيطرته على المناطق الشاسعة التي احتلّها، رغم أن التخويف والإرهاب موجودان دائماً. ويندرج انتزاع الرقة من النصرة في هذا السياق.

على نحو يشبه أداء طالبان في أفغانستان في تسعينيات القرن الماضي، أنشأ «داعش» بنى تحتية بدائية للإدارة والحكم في المناطق الخاضعة لسيطرته. هدفَ التنظيم من ذلك إلى توفير الخدمات الأساسية، الحراسة والحاجات اليومية مثل الخبز والماء والكهرباء وجمع القمامة والشرطة والمحاكم التي تطبّق الشريعة. يعترف سكان الرقة أن «داعش»، وكيما يقوم بذلك، احتفظ بموظفي الإدارة السابقين واعتمد على تقنيين أجانب أكفاء، وأن الناس تعاملوا بإيجابية مع الوضع السياسي

---

(٩١) Nick Tattersall, «Fugitive VP Says Iraq Violence Part of a Sunni Arab Revolt,» Reuters, 16 June 2014, <http://www.reuters.com/article/2014/06/16/us-iraq-security-hashemi-idUSKBN0ER28620140616>.

(٩٢) Omar Abdulaziz Hallaj, «The Balance- Sheet of Conflict: Criminal Revenues and Warlords in Syria,» *NOREF* (Norwegian Peacebuilding Resource Centre) (May 2015), <http://www.clingendael.nl/sites/default/files/Hallaj_NOREF_Clingendael_The%20balance-sheet%20of%20conflict_criminal%20revenues%20and%20warlords%20in%20Syria Apr%20 2015 FINAL.pdf>.

(٩٣) Weiss and Hassan, *ISIS: Inside the Army of Terror*.

(٩٤) Turkmani, «ISIL, JAN and the War Economy in Syria».

(٩٥) المصدر نفسه.

الجديد. وكي يستطيع المحافظة على تدفق التمويل الخارجي وعلى الدعم النسبي من المجتمعات المحلية في آن، فقد لجأ التنظيم إلى «نشر صورة متوازنة عنه باعتباره مانحاً كريماً لمجتمعاته المحلية من جهة، وتنظيماً عسكرياً ناجحاً ومن انتصار إلى آخر من جهة أخرى»[٩٦]. وكان «داعش» في ذلك الوقت قادراً على فعل ذلك بنجاح تام. ويفيد مواطنون من دير الزور، على سبيل المثال، أنه تلا احتلال داعش المدينةَ تحسُّنٌ كبير في الخدمات مثل إمدادات الكهرباء، التي كانت تنقطع قبل ذلك لأيام، بينما أصبحت تتوافر الآن بما لا يقل عن عشر ساعات في اليوم. ومد التنظيم أنابيب لمياه الشرب للقرى النائية التي لم تعرف تلك الخدمة منذ سنوات. إلا أن الخدمات تلك، وكما أفاد الأهالي، لم تعد منذ أواخر ٢٠١٥ مجانية، في إشارة إلى الضغوط المالية التي يتعرض لها التنظيم[٩٧].

اصطنع التنظيم تقسيماً للعمل بين عملياته العسكرية والمدنية، وعيّن موظفين مدنيين أكفاء للقطاعات الخدماتية، مثل التربية والصحة والاقتصاد والكهرباء والاتصالات[٩٨]. وبحسب مواطن معادٍ لداعش، فقد كان هناك تونسي يحمل دكتوراه في الاتصالات انضم إلى تنظيم داعش العسكري ثم جعله مسؤولاً عن قطاع الاتصالات[٩٩]. كان الجزء المدني من التنظيم يضم عدة أقسام إدارية: الدين والدعوة، التربية، القضاء الشرعي، وأجهزة الأمن. كان المكتب الديني (الدعوة) مسؤولاً عن إنشاء المؤسسات الشرعية والدورات القرآنية كما تنظيم الاحتفالات الدينية حيث كانت توزّع كتيّبات ومنشورات ذات صلة[١٠٠]، وغالباً مع تقديمات من الطعام ومواد غذائية عدة. كان القسم التربوي مسؤولاً عن إعادة هيكلة المنهاج التربوي بجعل العلوم القرآنية والدينية في قلب المنهاج والهدف، وفق كلمات البغدادي، «محو الأمية والجهل بعلوم الشرعية»[١٠١].

وقد أُخذت الخطوط الأساسية للمنهاج من مناهج السعودية السلفية والمحافظة جداً، وبخاصة المواد التي تدرّس في المدارس الرسمية المتوسطة والعليا، الصارمة والمتقشفة. وبحسب ناشط من الرقّة، فبعد السيطرة على المدينة، لجأ «داعش» إلى إلغاء مقررات كثيرة من المنهاج مثل الموسيقى

---

(٩٦) Hallaj, «The Balance- Sheet of Conflict: Criminal Revenues and Warlords in Syria».

(٩٧) Turkmani, Ibid.

(٩٨) Mariam Karouni, «Insight-In Northeast Syria, Islamic State Builds a Government,» Reuters, 4 September 2014, <http://uk.reuters.com/article/2014/09/04/uk-syria-crisis-raqqa-insight-idUKKBN0GZ0DD20140904>.

(٩٩) «البغدادي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة لإدارة الرقة.. ويستعين بموظفي النظام ومهاجرين،» الشرق الأوسط، ٢٠١٤/٩/٥، <http://archive.aawsat.com/details.asp?section=4&article=785995&issueno=13065#.Vv-sPfl97IU>.

(١٠٠) انظر الشريط الدعائي الذي يظهر داعش يوزع الكتيبات على الجمهور في سوريا: «عطش الناس في سوريا للدعوة والمنشورات الدعوية ـ الدولة الإسلامية في العراق والشام،» اليوتيوب، ٢٧ تموز/يوليو ٢٠١٣، <http://www.youtube.com/watch?v=E3dRIu5qVBM&spfreload=10>.

(١٠١) Ali Mamouri, «IS Imposes New Rules on Education in Syria, Iraq,» *Al-Monitor* (21 October 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/10/islamic-state-impose-education-program-iraq-syria.html#>, and Emile Nakhleh, «The Islamic State's Ideology Is Grounded in Saudi Education,» Inter Press Service News, 27 October 2014, <http://www.ipsnews.net/2014/10/opinion-the-islamic-states-ideology-is-grounded-in-saudi-education/>.

والفنون والتاريخ والفلسفة، وفرض على المدرسّين دورات تعلّم شريعة أسبوعية[١٠٢]. وفرض التنظيم منهاجاً مشابهاً في الموصل ومناطق أخرى يسيطر عليها وفصل ما بين الإناث والذكور في قاعات التدريس، بمن فيهم المدرسون والأساتذة الجامعيون. وبث «داعش» في أيلول/سبتمبر ٢٠١٣ شريطاً مصوراً لحوالى خمسين طفلاً يحضرون صفّاً إسلامياً في الرقة، وورشاً لحفظ القرآن في الموصل للأطفال والأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ و١٨ سنة. ويحصل الطلاب بعد التخرج على مكافآت وينضمون إلى مخيمات التدريب العسكري ما يعني غسل أدمغة الشباب وتحضير الجيل القادم من المقاتلين[١٠٣]. وغير بعيد عمّا فعلته النصرة قبل ذلك، وسّع «داعش» من سلطات القضاء الشرعي لتشمل الشؤون المدنية، مثل الطلاق والإرث والنزاعات العائلية. ويستطيع المواطنون، وفق ما أفيد، أن يملأوا استمارة شكوى ضد أفراد داعش أو حتى أمراء محليين منها[١٠٤]، أو حتى إنزال الحدّ، أي العقاب الشرعي[١٠٥]، الذي قد يصل حد الإعدام العلني. ولداعش، كما أسلفنا، شرطتها الخاصة التي تعمل على حفظ الأمن في الشوارع والسهر على تنفيذ أحكام القضاء الشرعي. ويعتمد الكثير من استراتيجية التنظيم الإدارية والتربوية في المدن التي يحتلها التنظيم على الدعم الذي توفّره المجتمعات المحلية.

النقطة الأساسية التي يجب أن يشار إليها هي أنه توفر لـ «داعش» «حاضنة اجتماعية»[١٠٦] بين فقراء السنّة والعشائر السنية، في سورية كما في العراق. وكان هناك عدة عوامل وراء تأييد السكان هذا التنظيم الجهادي. فقد لقيت سردية «داعش» آذاناً مصغية في المناطق الريفية النائية كما في أحزمة البؤس المدينية المنكوبة بالجفاف والحرب. أفاد البغدادي وقادته بقوة من التناقضات والصعوبات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تسم المجتمعين العراقي والسوري، وبخاصة الفقر المدقع وتهميش المناطق النائية ما قاد إلى فراغ في السلطة الشرعية. بكلام آخر، وكما تكرر غير مرة في الكتاب، استغل «داعش» ما يسمى «المظلومية» السنّية التي يشعر بها الكثير من السنّة والتي تسبب بها التحالف الغربي ـ الأمريكي من جهة وحكومة بغداد ذات الغلبة الشيعية من جهة ثانية. واستخدم بالتالي الغضب والتمرد السنّيين اللاحقين ضد السلطة جزءاً من مشروعه الأيديولوجي.

---

(١٠٢) أحمد العربي، «تنظيم الدولة يفرض مناهج دراسية جديدة في الرقة،» الجزيرة نت، ٣١ آب/أغسطس ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/8/31>.

(١٠٣) انظر الفيديو: «Al Furqaan Media Presents Messages from the Land of Epic Battles #5,» uploaded 6 November 2011, <https://archive.org/details/AlFurqaanMediaPresentsMessagesFromTheLandOfEpicBattles5FromQuraanMemorisationLes201311>.

انظر أيضاً: عمر الجبوري، «تنظيم «الدولة» يقيم دورات لتحفيظ القرآن للأطفال في مدينة الموصل،» القدس العربي، ٢٠١٥/٤/٢١، <http://www.alquds.co.uk/?p=330187>.

(١٠٤) Aymen Jawad Al-Tamini, «Announcement from Islamic State of Iraq and ash-Sham's Tel Abyad Islamic Court,» aymennjawaad.org, 9 March 2014, <http://www.aymennjawad.org/2014/02/announcement-from-islamic-state-of-iraq-and-ash>, and Vice News Documentary, «The Islamic State,» for court operations in al-Raqqa.

(١٠٥) الحدّ (جمعه حدود) هو العقاب المثبت في القرآن، والحديث، عقاب لجريمة التعدي على حقوق الله.

(١٠٦) الحاضنة الاجتماعية، هي تعبير عن الاحتضان الشعبي.

ويختلف «داعش» في ذلك جوهرياً عن القاعدة المركزية من خلال عمله على قيام حاضنة اجتماعية له متجذرة في الهوية السنية الشاملة والذي وفّر له مجنّدين وأتباعاً باستمرار.

سنّ داعش أيضاً أنظمة وعقوبات صارمة لمنع أي تعبئة جماهيرية ضد حكمه وليضمن الولاء المطلق. وبحسب منظمة العفو الدولية، كان لداعش في محافظتَي الرقة وحلب أمكنة توقيف جماعية يمارس فيها التعذيب والقتل من دون محاكمة وبلا تمييز[١٠٧]. وروى مقاتل سابق من داعش خدم لبضعة أشهر في أحد سجونه، لصحيفة إسلامية، قصص الرعب والإعدامات السريعة والتعذيب من فرق مختصة من دون مراعاة لأي اعتبار ديني أو قانوني أو أخلاقي. وبحسب المقاتل اليمني الذي يقول إنه فرّ من الاعتقال، فإن معظم الموقوفين هم من أفراد «داعش» الذين أوقفوا لانتقادهم الفساد أو الاستخدام السيىء للسلطة من قادتهم. وخاتمة شهادته صارخة، هي أن «داعش» «يعدم أي شخص لا يتفق معه». وبحسب السجّانين، فكل من يدخل سجن «داعش» هو كافر إلى أن يثبت العكس[١٠٨]. وتدعم شهادات من مصادر أخرى الوقائع أعلاه. فقد وثّقت منظمة العفو الدولية حالة رجل متزوج في أربعينياته أوقف من طرف داعش بتهمة ترويج عملات مزوّرة؛ وحين فتّشت عناصر داعش منزله وجدوا بطاقة ذاكرة (مموري كارد) تحتوي على صور، ما قادهم إلى اتهام إضافي له بالزنا. جرى تعذيب الرجل وحكم عليه بالموت من قاضٍ شرعي في الرقة. وكان رد الرجل أنه حفظ الصور تلك سنتي ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ قبل استيلاء داعش على المنطقة بسنوات[١٠٩].

أجبر «داعش» السكان في المناطق التي يحتلها أيضاً على التطبيق الصارم لأحكام الشريعة، بما فيه الزي الشرعي الدقيق وإقفال المحال التجارية في أثناء أوقات الصلاة ومنع التدخين[١١٠]. وأعلن جهاز «الحسبة»، وكان سابقاً من الرجال فقط، في شباط/فبراير ٢٠١٢ تأسيس قسم نسائي كامل سماه «قوة الخنساء». هدف القسم، الذي تتقاضى النساء فيه راتباً شهرياً يفوق ٢٠٠ دولار شهرياً، هو منع المعارضين والعملاء من التسلل إلى الأراضي التي يحتلها «داعش» من خلال التحقق من هوية النساء اللاتي يدخلن أراضي «داعش». توسّع الآن عمل «قوة الخنساء» ليشمل مراقبة التصرفات والآداب العامة، ويشمل التأكد من أن النساء يرتدين زيّ «داعش» النسائي الدقيق، وأنهن يخرجن من منازلهن بصحبة أقرباء من الذكور[١١١]. وفرض «داعش» أيضاً نظامه الضريبي في الرقة، بحيث يقتطع ٢,٥ بالمئة من أرباح المحال التجارية في شكل «زكاة» أو صدقات، ورسماً شهرياً

---

(١٠٧) انظر تقرير منظمة العفو الدولية: «Syria: Harrowing Torture, Summary Killings in Secret ISIS Detention Centres,» Amnesty International, 19 December 2013, <http://www.amnesty.org/en/articles/news/2013/12/syria-harrowing-torture-summary-killings-secret-isis-detention-centres>.

(١٠٨) «معتقل سابق يفضح أسرار وخفايا جماعة دولة العراق والشام «داعش»،» الإسلاميون، ٣ حزيران/يونيو ٢٠١٤، <http://islamion.com/news/show/15034>.

(١٠٩) Amnesty International, «Syria: Harrowing Torture, Summary Killings in Secret ISIS Detention Centres».

(١١٠) Karouni, «Insight-In Northeast Syria, Islamic State Builds a Government».

(١١١) «Al-Khansaa Brigade,» Terrorism Research and Analysis Consortium (2015), <http://www.trackingterrorism.org/group/al-khansaa-brigade>.

يتجاوز ٨ دولارات[١١٢]. سمح «داعش» للمسيحيين بالعيش في المدينة، شرط أن يؤدوا «الجزية» مرتين في السنة. ووفق التقارير، فقد أجبر حتى الذين هم في المعتقلات على الالتزام بالقواعد الإسلامية الصارمة. وبحسب «هيومن رايتس ووتش»، فقد روى طلاب أكراد كانوا اعتقلوا في كوباني في ٢٠١٤ أنه كان يجري ضرب الراسبين في الدروس الدينية التي كانت تعطى لهم[١١٣].

---

(١١٢) Sarah Burke, «How ISIS Rules,» nybooks.com, 5 February 2015, <http://www.nybooks.com/articles/archives/2015/feb/05/how-isis-rules/> .

انظر أيضاً: R. Al-Ali, «ISIS Applies Its Own Laws in Raqqa,» *Al-Monitor* (10 February 2014), <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/02/isis-islamic-rule-raqqa-syria.html>.

(١١٣) «Syria: ISIS Tortured Kobani Child Hostages,» Human Rights Watch, 4 November 2014, <http://www.hrw.org/news/2014/11/04/syria-isis-tortured-kobani-child-hostages>.

الفصل السابع

إخفاقات الربيع العربي والإحباط اللاحق

وفّرت الظروف الاجتماعية والسياسية في سورية والعراق لـ «داعش» فرصة ملائمة لاستغلال مظلومية السنّة في البلدين. لم يكن بوسع «داعش» أن يتوسع بالطريقة التي فعلها لولا انهيار مؤسسات الدولة والانقسام المتزايد داخل المجتمع، الذي كان ينخر طوال عقود النسيج الاجتماعي لبلدان المشرق العربي. وبالرغم من أن قلةً فقط انتمت إلى الأيديولوجيا السلفية الجهادية لـ «داعش»، الذي نصّب نفسه الحامي الوحيد للإسلام الحقيقي والممثل الوحيد للسنّة المظلومين، فقد نجح التنظيم في ملء الفراغ السلطوي والفكري الناتج من فقدان الهوية الوطنية الصلبة والأمن[1]. ومع أنه من المهم عدم إغفال أيديولوجية داعش وآرائه وأساليبه في التجنيد ومصادر تمويله، إلا أن القوة الدافعة خلف صعوده تكمن في الإخفاقات المتراكمة للسلطوية العربية السياسية على مدى أربعة عقود وفي المجالين السياسي والاقتصادي بوجه خاص.

على المستوى الأول، جلب طغيان الأنظمة السياسية الاختناق للمجتمع وزرع في المجتمعات بذور الحركات المتطرفة المدفوعة بهاجس الهوية. على المستوى الثاني، أخفقت الأنظمة العربية الاستبدادية في تطوير اقتصاداتها وفي الاستجابة لمطالب الفئات الشابة بين السكان، وتسببت بأزمة اجتماعية حادة تمثّلت في الفقر المدقع والبطالة العالية بين أولئك الشبّان. وعليه، تحوّل هذا التطابق بين الاستبداد السياسي والفشل الاقتصادي التنموي إلى الوقود الذي كانت تحتاج انتفاضات الربيع العربي إليه.

أولاً: تفسير رجعي للربيع العربي

مطلع ٢٠١١، نزل ملايين العرب في بلدانهم إلى الشوارع وطالبوا بالعدالة الاجتماعية والحرية والعيش بكرامة. وبالإجمال، كانت تلك التظاهرات الضخمة سلمية، وضمّت أناساً من كل الطبقات

---

(١) Anne Barnard and Tim Arango, «Using Violence and Persuasion, ISIS Makes Political Gains,» *New York Times*, 3/6/2015, <http://www.nytimes.com/2015/06/04/world/isis-making-political-gains.html?r=0>.

الاجتماعية، رجالاً ونساءً وأطفالاً. راقب العالم بكثير من الرومانسية والدهشة كيف كسرت «العربية المحجبة» عزلتها وصار لها كلمة. وبينما كانت التظاهرات العربية تندلع في شوارع تونس ومصر وليبيا واليمن والبحرين وسورية، لم يكن هناك من أثر لأعلام القاعدة ومثيلاتها[٢]. تمحورت المطالب التي تعالت من مختلف الميادين جميعها حول حقوق الإنسان، والاحترام، إلى تطلعات إنسانية أخرى، ليس بينها سياسات الهوية أو مصالح محدودة.

وبخلاف دعايات زعيمَي القاعدة، بن لادن والظواهري، مع أتباعهما، لم يكن لهم في الحقيقة وقْع خنصر في ما جرى من حراك للجماهير العربية. لم يؤدِّ السلفيون الجهاديون، ولا حتى الإسلاميون عموماً، دوراً بارزاً في الانتفاضات الشعبية الضخمة، مع أن ناشطي الاتجاه الإسلامي التقليدي انضموا لاحقاً إلى الانتفاضات وكان لهم رايات مشابهة. ورغم محاولات مؤيِّدي القاعدة، ومعارضيها، إقامة صلة بين اللحظة الثورية التي انطلقت في ٢٠١١ والتحوّل العنيف الذي عاد فحدث في بلدان ما بعد الربيع العربي، لم تكن الانتفاضات مدفوعة دينياً ولا ذات أساس إسلامي. وفي مثال على تلك المحاولات قول مايكل موريل، نائب مدير الـ «سي آي أي» في كتاب له نشر سنة ٢٠١٥ إن «الربيع العربي كان نعمة للمتطرفين الإسلاميين في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا... ومن منظار مكافحة الإرهاب، تحوّل الربيع العربي إلى شتاء»[٣]. وقال موريل إن «الاستخبارات الأمريكية أخفقت في تقييم حقيقة الثورات العربية حين قدّمت تقييمات إيجابية بأن تلك الثورات سوف تُضعف القاعدة بإضعافها سردية التنظيم»[٤].

وفي دليل إضافي، فقد صعق بن لادن والظواهري وأتباعهما بالزلزال السياسي الذي زلزل الأرض في الوطن العربي. وبعدما صحوا من صدمتهم سارعوا إلى الهتاف للانتفاضات العربية والترحيب بسقوط أعدائهم الأيديولوجيين من حكام عرب علمانيين مدعومين من الغرب في تونس ومصر وليبيا واليمن وسورية. وأملوا، أكثر من ذلك، بركوب موجة الثورات العربية بهدف السيطرة عليها. فقد وصف بن لادن، قبل شهر من مقتله في أيار/مايو سنة ٢٠١١، في واحدة من الوثائق التي عثر عليها في مخبئه، انتفاضات الربيع العربي بـ «الحدث الهائل»، وحثّ أنصاره على التقاط فرصة «الثورة» وتعبئة الشباب المسلم[٥]. اقترح بن لادن المباشرة بحملة إعلامية لإثارة «الناس الذين لم يتحركوا بعد وحضّهم على التمرد على حكامهم»، وقيادتهم بعيداً من «أنصاف الحلول» من

(٢) Nelly Lahoud with Muhammad al-'Ubaydi, «Jihadi Discourse in the Wake of the Arab Spring,» Harmony Program Combatting Terrorism Center at West Point (December 2013), <http://www.ciaonet.org/attachments/24119/uploads>.

(٣) Michael Morell, *The Great War of Our Time: The CIA's Fight against Terrorism-From Al Qa'ida to ISIS* (New York: Grand Central Publishing, 2015).

(٤) المصدر نفسه، ص ١٨٠.

(٥) انظر وثائق بن لادن المكتشفة: Office of the Director of National Intelligence, Bin Ladin's Bookshelf, 20 May 2015, <http://1.usa.gov/1ScFGXh>.

انظر أيضاً: Connie Cass and Robert Burns, «US Releases 100+ Bin Laden Documents,» Associated Press, 20 May 2015.

سياسات محلية ديمقراطية. وأعرب بن لادن في رسالته التي كشف عنها عن «سعادته» و«بهجته» بالتظاهرات قائلاً إن الأمة تنتظر منذ عقود هذه الثورة. وأضاف أمله بأن «تهب رياح التغيير على العالم الإسلامي بأسره»، فتحرره من «السيطرة الغربية». ودعا بن لادن أتباعه في رسالة أخرى غير مؤرخة إلى «أفضل استثمار للفرصة العظيمة» وإلى إبقاء شعلة الثورات «حيّة»[6]، مكرراً اعتقاده أن تلك التطورات فرصة يجب عدم تفويتها. وذهب بن لادن حد مخاطبة «أطفال أمتي الإسلامية، [أقول لكم] هذا مفترق طرق ولحظة تاريخية للتخلص من قيود العبودية. وعليه أحسِنوا استخدامها وحطّموا القيد الصهيوني. سيكون خطأ وإثماً تفويت تلك الفرصة المنتظرة منذ زمن طويل». وفي رسالة أخرى أيضاً، ومن بين تلك التي عثر عليها في مخبأه بعد مقتله، يكرر بن لادن الخطاب نفسه: «حين تندلع الثورات فيجب دعمها، وإلا تفوّت الفرصة»[7]. وفي رسالة إلى المصريين، قال، «ثورتكم لحظة فاصلة بين الكفر العالمي من جهة، والأمة الإسلامية من جهة ثانية»[8]. وفي نصوص أخرى أيضاً، كان بن لادن واضحاً حول ما يعنيه بـ «الفرصة»، رابطاً إياها بالصراع الوجودي الذي لطالما نظّر له بين الإسلام والغرب، العدو البعيد.

احتفى الظواهري، خليفة بن لادن، بـ «سقوط الفساد وعملاء أمريكا في تونس ومصر، ويهزّ عروش حكام ليبيا واليمن وسورية». وفي تأكيد لتوجيهات سلفه، أكد الظواهري دعمه انتفاضات اليمن وليبيا ودعا الشعب إلى عدم «الانخداع» بالدعم الأمريكي والغربي للانتفاضات، وبخاصة مهمة قوات الناتو في ليبيا. وفي محاولة منه للقفز إلى عربة الثورة، ذكّر الظواهري المصريين أنه وقبل فراره من البلاد «قد شاركت في تظاهرات واحتجاجات شعبية عدة»، بما فيها واحدة «في ميدان التحرير سنة ١٩٧١»[9] لم يشر الظواهري بالطبع إلى الفارق الأيديولوجي بين التظاهرات الجارية وتلك التي كانت في السبعينيات بقيادة الماركسيين واليساريين. وبعد عقود من استخدام أنور السادات الإسلاميين للتصدي للحركات اليسارية في السبعينيات، يعود الظواهري لامتداح «الإخوان الشرفاء» الذين شاركوا فيها[10]. ويظهر تجاوز الظواهري لتلك الفروقات الأيديولوجية انتهازيته حيال انتفاضات الربيع العربي. فقد أخبرني عدد من رفاقه القدامى، وبخلاف ما يقوله، أن الظواهري لم يؤمن يوماً بأهمية النشاط السياسي كوسيلة لقلب النظام المصري العلماني ولم يستخدم حتى الجامع للتعبئة السياسية. رفض الظواهري، منذ الصبا، رغم فترة الغليان الاجتماعي والاقتصادي والتغيير السياسي في مصر التي نشأ فيها أو عاصرها، العملية السياسية برمّتها وأعلن

---

(٦) انظر «رسالة إلى الأمة الإسلامية عموماً،» مكتب مدير الاستخبارات القومية: Bin Ladin's Bookshelf, 20 May 2015, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/arabic2/Message%20for%20 general%20Islamic%20nation%20-%20Arabic.pdf>.

(٧) انظر وثيقة غير مؤرخة لابن لادن: Bin Ladin's Bookshelf, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/arabic/Undated%20statement%20-%20Arabic.pdf>.

(٨) انظر وثيقة غير مؤرخة لابن لادن (٢): Bin Ladin's Bookshelf, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/english/Undated%20statement%202.pdf>.

(٩) Explanation of a speech by Zawahiri, 28 April 2014, <http://justpaste.it/f9jw>.

(١٠) المصدر نفسه.

حرباً دينية ضد الحكومة المصرية، وهي الحرب التي حملته من المدرسة الثانوية في الحي الراقي من القاهرة إلى ميادين القتل في أفغانستان وباكستان. ولكن تبيّن، وعلى غير ما كان يبشّر الظواهري، أن الحراك الشعبي نجح بالفعل في قلب النظام الاستبدادي، في حين فشلت المهمة التي استغرقت عمره كله في تحقيق شيء من ذلك بوسائله العنفية.

وبالوعي الضمني نفسه للفارق بين أيديولوجية القاعدة ومطالب المتظاهرين، يحاول أبو يحيى الليبي، اليد اليمنى للظواهري، سحب الانتفاضات إلى خط القاعدة، فيصف الانتفاضات بأنها امتداد لكفاح القاعدة الطويل لطرد النفوذ الغربي من العالم الإسلامي. هي حسب الليبي «خطوة بين جهود أخرى للهدف نفسه». امتدح الليبي في شريط فيديو سنة ٢٠١١ الثورات الجارية في مصر وتونس وليبيا ووصفها بأنها خطوة على طريق قتال «طاغوت العصر»، أمريكا، «مصدر الإرهاب والدمار»[(١١)]. وهو يزعم أن قتال المجاهدين جعل أمريكا أكثر ضعفاً بحيث كانت عاجزة عن وقف الانتفاضات ضد الطغاة مثل حسني مبارك في مصر[(١٢)].

وفي خطاب مختلف من أنور العولقي، اليمني ـ الأمريكي الذي قتل في غارة أمريكية بلا طيار سنة ٢٠١١، يعترف أن القاعدة لا تملك الكثير لتفعله بإزاء هذه التطورات التاريخية التي تعيد صنع المنطقة. فقد قال العولقي في مقالة تحت عنوان «تسونامي التغيير»، ظهر في مجلته إلهام (*Inspire*)، [الصادرة في اليمن باللغة الإنكليزية] في أيار/مايو ٢٠١١: «لا نعلم حتى الآن نهاية ما يجري، وليس علينا أن نعرف. ليس على ما ينتج في النهاية أن يكون حكومة إسلامية، يكفي بالنسبة إلينا أنها خطوة في الاتجاه الصحيح»[(١٣)].

ما تشير إليه تلك الشهادات هو أن بن لادن، الظواهري، والليبي، والعولقي، قد فوجئوا جميعاً بالعاصفة التي هبّت وغدت في ما بعد «الربيع العربي»، وحاولوا فهم أبعاد ما يجري وتأثيره. لقد احتفلوا بسقوط الحكام العرب، وأملوا أن يسمح فراغ القوة الناتج والصراع اللاحق على السلطة بدفع قضيتهم الجهادية إلى أمام. واليوم يحاول قادة القاعدة إعادة كتابة تاريخ الربيع العربي بالزعم أن التنظيم دعمها بل شجّع أفراد القاعدة أن يكونوا فاعلين فيها. ففي مقابلة من على قناة «الجزيرة»، في أيار/مايو ٢٠١٥، أعلن أبو محمد الجولاني صراحة أن رئيسه، الظواهري، نصح الأعضاء أن يدعموا انتفاضات الربيع العربي، وقد فعلنا ذلك.

سردية القاعدة حول الربيع العربي هي جزء من محاولتها إعادة كتابة التاريخ العربي ـ الإسلامي منذ مولد الإسلام وإلى يومنا الراهن. وإذا كان التنظيم سعى جاهداً إلى إقناع الجمهور بدعمه الانتفاضات وانخراطه فيها فسبب ذلك الأول والمطلق هو أنها تشكل الحركة الأكثر عظمة من أشكال المقاومة المدنية في المنطقة منذ زوال الاستعمار. أثبت الناس في تلك الثورات، أن في

(١١) «Sheikh Abu Yahya al-Libi Praising the Egyptian and Tunisian Revolution,» YouTube, 12 June 2011, <http://www.youtube.com/watch?v=aqXoizHpOvs>.

(١٢) المصدر نفسه.

(١٣) Anwar al-Awlaki, «Tsunami of Change,» *Inspire*, no. 5 (May 2011).

وسعهم، حتى ولو لم تكن ثوراتهم موحدة حول أيديولوجية سياسية أو دينية، إطاحة الأنظمة التي استبدت طويلاً، وبوسائل سلمية، بينما فشلت الحركات الإسلامية وطوال عقود في تحقيق ذلك. والناس في ذلك لم تسقط فقط التصورات الخاطئة حول «خنوع» المنطقة، بل هي سفّهت أيضاً وصف السلفيين الجهاديين أعمالَ المقاومة المدنية بالضعيفة وغير المؤثرة ولا أمل منها. لقد تعرّض تصور زعم القاعدة، ومعها التشكيلات السلفية الجهادية، أن الطليعة الإسلامية وحدها هي المهماز للتغيير الثوري في المجتمعات الإسلامية لتحدٍّ حقيقي، إذ أنجز ملايين العرب الذين احتلوا شوارع المدن العربية عملية سياسية بامتياز وحفروا مكاناً لتطلعاتهم ومصالحهم في العالم الحقيقي، وعلى نقيض القاعدة والتنظيمات السلفية الجهادية الأخرى الذين أصروا على مُثل طوباوية لعالم آخر غير الأرض. أثبت الناس وهم يجبرون الأنظمة الدكتاتورية على الانهيار أمام ثوراتهم أن القمع علامة ضعف لا علامة قوة. كذلك سفّهت الانتفاضات مزاعم عجز الإسلام عن التعايش مع الديمقراطية، وذلك بإظهارها أن «التلاؤم أو عدم التلاؤم بين الإسلام والديمقراطية ليست مسألة فلسفية تأملية، بل مسألة كفاح سياسي؛ هي ليست مسألة نصوص بل مسألة توازن قوى بين الذين يريدون حصراً ديناً استبدادياً وأولئك الذين يرغبون في نسخة منه تعددية وتقدمية»[14].

كانت الانتفاضات، وبالإجمال، سلمية، غير مؤدلجة، جامعة، وتضمّ تحالفاً من رجال ونساء من كل الأعمار والمشارب السياسية: وهم وسطيون ليبراليون، ديمقراطيون، يساريون، قوميون، إسلاميون من الاتجاه العام الغالب القابل بقواعد المشاركة السياسية. وبينما ظلت الطبقة الوسطى عماد التظاهرات، إلا أنها ضمّت أيضاً شغيلة، فلاحين، عمال مصانع، موظفين في الدولة، مثقفين، نقابات، أحزاباً سياسية، وفي بعض الحالات أفراداً من أجهزة الأمن والشرطة. خلق ذاك التنوع الاجتماعي والسياسي عملية سياسية مهمة ومنفذاً إلى الفضاء العام الذي احتوى تفاوضاً وإعادة تشكّل لمواقف المتظاهرين المتباينة، التي لم يجر الاعتراف بها سابقاً. كان النداء الأعلى في كل الميادين: «خبز، حرية، عدالة اجتماعية»؛ وقد تعالى في ساحات تونس ومصر واليمن والبحرين وسورية وفي كل مكان. هزمت التظاهرات الشعبية الضخمة الاستبداد والخوف وطلقات الرصاص ودعت إلى مواطنة حقيقية وإلى أنظمة سياسية واقتصادية أكثر تمثيلاً ومساواة[15].

ويربط الباحثون الأكاديميون بين تلكم الانتفاضات والتمردات والثورات (بلافتاتها المتعددة) وموجات نقاشات «العلمنة» المبكرة التي دارت في مجتمعات عربية منفتحة في سنوات القرن العشرين[16]. وفي المقابل، يُخرج آخرون أحداث الربيع العربي من سياقاتها المحلية، بالزعم أنها

---

(١٤) Asef Bayat, «No Silence, No Violence: A Post-Islamist Trajectory,» in: Maria J. Stephan, ed., *Civilian Jihad: Nonviolent Struggle, Democratization, and Governance in the Middle East* (New York: Palgrave Macmillan, 2010), p. 14.

(١٥) Fawaz A. Gerges, ed., *The New Middle East: Protest and Revolution in the Arab World* (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2014), p. 3.

(١٦) Dafna Hochman Rand, *Roots of the Arab Spring: Contested Authority and Political Change in the Middle East* (Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2013), pp. 20–25.

جزء من حركات عابرة للحدود تتضمن آليات متشابهة[١٧]. وأياً تكن مصادر الانتفاضات، الظروف المحلية أو العابرة للحدود، أو الاثنتان معاً، فإن انتفاضات الربيع العربي أدخلت رسمياً شعوب المنطقة في سردية المقاومة العالمية بواسطة الحركات المدنية. ما هو مشترك في تحليلات بعض الأكاديميين وجميع السلفيين لما أوصل إلى الانتفاضات، فهو ميلهم الواضح إلى إلغاء التاريخ، ودور العمليات السياسية الفعلية التي حدثت، ودور المقاومة المدنية في المنطقة. فالسلفيون الجهاديون، على وجه الخصوص، يصرّون على أن التغيير السياسي يأتي بالوسائل الثورية، وليس بالمقاومة المدنية أو عبر صندوق الاقتراع.

بشّر زعماء القاعدة باستمرار، بمن فيهم بن لادن والظواهري والزرقاوي وأبو بكر البغدادي، والجولاني، أن العنف وحده والكفاح المسلح خصوصاً هو ما يحقق حلمهم الطوباوي على الأرض؛ دول قائمة على أساس من القرآن والخلافة. وما محاولتهم اللاحقة في ادعاء أبوة انتفاضات ٢٠١١ وتملّكها إلا محاولة خطف سياسية تعسفية لا تنطلي على أحد. فأحد المفاهيم الأساسية التي ظهرت قوية جداً في خطاب الانتفاضة هو خطاب «الدولة المدنية». ورغم ما يحتمله المصطلح من مضامين قومية أو علمانية أو إسلامية عادية متباينة، إلا أنه يصطدم مباشرة بالرؤية الدينية الطوباوية للدولة في أيديولوجية القاعدة المركزية و«داعش». وإلى ذلك، فالصراع بين القوميين والإسلاميين حول تناسب وتملك الدولة المدنية يظهر أن مفهوم الدولة المدنية هو أفضل تموضعاً من مفهوم الخلافة لدى الجماهير العربية الإسلامية. وفي الحقيقة فإن جوهر مطالب المحتجين إنما كانت رؤية سياسية تقدمية جديدة للدولة، وإعادة هيكلة سياسية لها وفق خطوط جامعة وشفافة. ويشير إصرار المتظاهرين على العدالة الاجتماعية؛ ليس على المكاسب الفردية، وإنّما يريدون التخلّص من الحكم الاستبدادي، إلا أن مطالبهم لم تتضمن أجندة نيو ليبرالية. وعلى ذلك يجب فهم التظاهرات في سياق الكفاح ضد القمع، أكان علمانياً أو دينياً، والذي كان أقصى المواطنين من العملية السياسية، والقتال في سبيل الحقوق المدنية والمواطنة.

ثانياً: إجهاض التغيير

رغم الادعاءات المبالغ بها من زعماء القاعدة، فهم ليسوا من أطلق شرارة الانتفاضات العربية. ومع ذلك، فالسلفيون الجهاديون أفادوا بقوة من الفوضى التي تلت الربيع العربي، والتي كانت نتاج التلاقي بين القوى المضادة للثورة في الداخل والخارج، وقادت إلى إجهاض الانتقال من التسلط إلى التعددية. ولقد كتبت سنة ٢٠١٢ محذّراً من أنه «إذا أجهض التغيير في البلدان العربية، فقد تستغل الفروع المحلية من القاعدة الاضطراب الجاري فتنشب مخالبها في القريب والبعيد»[١٨].

---

(١٧) Anna M. Agathangelou and Nevzat Soguk, eds., *Arab Revolutions and World Transformations* (London: Routledge, 2013).

(١٨) Fawaz Gerges, «How the Arab Spring Beat Al Qaeda,» *Daily Beast*, 13/5/2012, <http://www.thedailybeast.com/articles/2012/05/13/fawaz-a-gerges-on-how-the-arab-spring-beat-al-qaeda.html>.

وكأي حركة رجعية، تغتذي القاعدة من التناقضات والإحباطات التي تولد في مناطق النزاع. فبدلاً من أن يستجيب الحكام العرب لمطالب الجماهير العربية المشروعة في العدالة الاجتماعية والحرية والمواطنة الفعلية، استخدم هؤلاء مع رعاتهم الخارجيين كل أنواع تكتيكات التأخير، والعنف، وسياسات التقسيم الطائفية، والإقليمية والعشائرية، والسرقات الموصوفة للمحافظة على الأمر الواقع السلطوي. لقد فوّتوا فرصة ثمينة لهيكلة الإصلاحات المطلوبة وإعادة بناء المؤسسات الفاشلة وإعطاء مواطنيهم سهماً في النظام الجديد. لم تجد هتافات الجماهير العربية لدى الحكام العرب غير آذان صمّاء؛ بل واجهوها في حالات عدة بالمزيد من القمع بدلاً من البدء بالإصلاح والتغيير الحقيقيين. وأدى القمع الوحشي للمتظاهرين في ليبيا واليمن، وبدرجة أقل في العراق، إلى عسكرة الانتفاضات التي كانت سلمية إلى حد كبير حتى ذلك الوقت، وتسبب ذلك بتفكك مؤسسات الدولة وانفلات حبل الأمن على الغارب. ووجدت القاعدة ومثيلاتها من الفصائل المحلية، تبعاً لذلك، بيئة مرحّبة بين الجماعات السنية الغاضبة في العراق وسورية واليمن، فحلّ التمرّد العسكري الجماعي بديلاً من العمل السلمي الجماعي. وقاد عجز فصائل المعارضة الرسمية عن الوحدة والانخراط في عمل مشترك مع التجمعات الشعبية خلف التظاهرات إلى فتح الباب أمام الدخول القوي للفصائل المسلحة والعنفية. ففي العراق، وعلى سبيل المثال، أدى عقد كامل من الاضطراب السياسي، والسياسات الرسمية الطائفية، والإقصاء السياسي للسنّة دوراً أساسياً في بروز مروحة من التنظيمات المتمردة (من السلفيين الجهاديين إلى القوميين) في المحافظات السنية، ما مهّد الطريق في النهاية لظهور «داعش»[19]. أظهرت الانتفاضات عجز الأحزاب المعارضة السياسية عن إسقاط السياسات القائمة على سيادة الدولة والانتقال بدلاً من ذلك إلى سيادة الشعب. وعليه، فليس من الموضوعية في شيء أن نردّ صعود «داعش»، كما يرغب منظّروه ومنتقدوه غالباً، إلى عامل الانتفاضات العربية فقط.

وفي الحقيقة، فقد حاول قادة «القاعدة» خطف التطورات الجارية وادّعاء الوكالة الشعبية. فبعدما تعسكرت انتفاضات الربيع العربي الضخمة السلمية في سورية والعراق وليبيا، بذلت القاعدة جهداً مركّزاً لاختراق أعمال التمرد المسلحة التي بدأت بالظهور والسيطرة العسكرية عليها كما في التقرّب من الجماعات السنية المحلية وكسب أفئدتها وتأييدها. استغل قادة القاعدة الصحوة العنيفة والاضطراب السياسي اللذين أعقبا الربيع العربي لنشر سرديتهم الأيديولوجية، سردية تستبعد أي نشاط سياسي لا عنفي باعتباره من دون قيمة وتصرّ على العنف أداة وحيدة لإطاحة الحكّام الاستبداديين. على سبيل المثال، ففي بداية الانتفاضات العربية سنة ٢٠١١، حذّر الليبي، الرجل القوي في قيادة القاعدة يومذاك، المتظاهرين من «إضاعة ثمار التحرير» بالمطالبة بالديمقراطية واصفاً إياها بـ «الطريق إلى جهنم»، طالباً بدلاً من ذلك تأسيس إمارة إسلامية قائمة على حكم

(١٩) Sinan Adnan and Aaron Reese, «Beyond the Islamic State: Iraq's Sunni Insurgency,» *Middle East Security Report* (Institute for the Study of War), no. 24 (October 2014), <http://www.understandingwar.org/sites/default/files/Sunni%20Insurgency%20in%20Iraq.pdf>.

القرآن. كما دعا في خطاب آخر له سنة ٢٠١١، إلى المساعدة على إطاحة نظام الأسد ليس فقط لطبيعته القمعية، بل للحاجة إلى «تأسيس حكم إسلامي» في سورية[٢٠]. وبعد بضع سنين سيكرر زعيم النصرة الرسالة نفسها في لقاء مباشر على قناة الجزيرة التلفزيونية. ادّعى الجولاني في المقابلة قصب السبق في دعم الانتفاضات العربية واصفاً السياسة والعملية السلمية بالعقيمة. وأضاف، وحدها التنظيمات المسلحة التي يشكلّها الشعب (التنظيمات الجهادية) تستطيع إطاحة الحكام[٢١]. وينسب جهادي آخر، أبو قتادة، الذي حاول وزراء بريطانيون متعاقبون ترحيله إلى بلده الأردن، ثورات الربيع العربي إلى الإرادة الإلهية ووصف الصراع الجاري بمصطلحات ثنائية، بين الإسلام وأعدائه. والإسلام هنا وفق تفسير الجهاديين حصراً[٢٢].

انتقد القادة الجهاديون من فصائل مختلفة بقسوة تيارات الإسلام التقليدي، مثل «الإخوان» في مصر، و«النهضة» في تونس، لأنهم يلعبون وفق قواعد اللعبة الديمقراطية فيشاركون في الانتخابات ويدخلون البرلمانات. وأعطت إقالة مرسي (أول رئيس منتخب ديمقراطياً في تاريخ مصر المعاصر، وعضو الإخوان المسلمين)، السلفيين الجهاديين فرصة تامة ليهاجموا التيار الإسلامي التقليدي باعتباره غير حقيقي، ووصفوا سياساته الانتخابية بأنها غير إسلامية. وبحسب البغدادي والجولاني والظواهري وأبو قتادة، لا يحصل التغيير إلا ببرميل من البارود، لا بصندوق الاقتراع. وأشار زعماء القاعدة إلى أحداث مصر، فحذّروا الناشطين الدينيين والجمهور عموماً من الانغماس في العملية السياسية أو المشاركة الديمقراطية. والجولاني نقطة في هذا السياق. فهو كما يُظن سلفي جهادي «معتدل»، ويستقي بعض أفكاره من مصادر تشبه ما للإخوان المسلمين. مع ذلك، يتهم الجولاني ـ مع اعترافه بما يجمعه إليهم ـ الإخوان المسلمين بهجر الجهاد وإيمانهم بالديمقراطية والبرلمان، اللذين هما برأيه غير إسلاميين. وبحسب الجولاني، فلا الجيش ولا القوة العظمى الراعية له سيسمحان للإسلاميين بالحكم. وقال إن وزير الدفاع (في ذلك الوقت) عبد الفتاح السيسي ما كان ليقوم بانقلابه ضد الإخوان المسلمين من دون ضوء أخضر أمريكي[٢٣].

بخلاف الجولاني والظواهري، اللذين اكتفيا من خلافهما مع الإخوان بالنقد العلني، أفتى «داعش» بقتل زملائهم الإخوان المسلمين باعتبارهم مارقين لأنهم قبلوا بالمشاركة في السياسات الانتخابية في كل من العراق ومصر وتونس. وفي بيان في نيسان/أبريل ٢٠١٥ اتهم «بيت المقدس»

---

(٢٠) «Sheikh Abu Yahya al-Libi Calling for Support for the Syrian Revolution with Money and Weapons,» 13 June 2012, <http://www.muslm.org/vb/showthread.php?483215>.

(٢١) انظر شريط فيديو الجزيرة حول الجولاني والنصرة: Al Jazeera, 27 May 2015, <http://www.youtube.com/watch?v=-hwQT43vFZA>.

انظر أيضاً: «أمير جبهة النصرة أبو محمد الجولاني: حزب الله اللبناني زائل لا محالة بزوال نظام بشار الأسد في سوريا،» الجزيرة نت، ٢٧ أيار/مايو ٢٠١٥.

(٢٢) «أبو قتادة: تنظيم الدولة إلى زوال،» حاوره محمد النجار، الجزيرة نت، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/11/12>.

(٢٣) «الجولاني: إخوان مصر انحرفوا.. وتنظيم الدولة «خوارج»،» الجزيرة نت، ٣ حزيران/يونيو ٢٠١٥، <http://goo.gl/N8mY2u>

التنظيم السلفي الجهادي (المعروف اليوم بـ «ولاية سيناء») الذي بايع «داعش»، الإخوان المسلمين «بالخزي والعار لأنهم تركوا طاعة قوانين الله، وأبدلوا الجهاد بالديمقراطية»[٢٤]. وجاءت إجراءات السلطات المصرية القسرية ضد الإخوان في مصر، بحسب «داعش»، تعبيراً عن «إرادة إلهية» لأنهم قدّموا عبادة «الديمقراطية» على عبادة قوانين الله»[٢٥]. وفي تأكيد إضافي، دعت «ولاية سيناء» بعد أشهر من بيانها أعلاه الإخوان والحركة السلفية إلى ترك «الوسائل السلمية» والانضمام إلى الجهاد. ففي تسجيل مصوّر قال ناطق باسم التنظيم ظهر مرتدياً «الجلابية» ويحمل السلاح، «ندعو المصريين جميعاً للقتال في سبيل الله. ندعوكم إلى حمل السلاح ضد الاستبداد»، وأضاف، «إن جنود الخلافة يثبتون يومياً أنهم مخلصون في مواجهة الطغاة»[٢٦].

كان الهدف من نقد السلفيين الجهاديين الإخوان المسلمين التشهير علانية بفشل المشاركة في العملية الديمقراطية مقارنة بنجاح خططهم العسكري في الميدان. فمع اشتداد الاضطراب الاجتماعي وانتشار الفوضى في سورية والعراق، أمر البغدادي والجولاني والظواهري المسلمين في كل مكان بالانضمام إلى الجهاد في البلدين. وفي الحقيقة فقد لقي النداء استجابة من الكثيرين. وللمقارنة، لم يكن لدى القاعدة في ذروة قوتها سنة ٢٠٠١ أكثر من ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتل، بينما للبغدادي الآن جيش صغير متزايد يضم ما بين ٣٠ ألف مقاتل و١٠٠ ألف. ومن خلال تحوله ومثيله إلى المستفيد الأكبر من انهيار مؤسسات الدولة في بلدان المشرق العربي، بات في وسع «داعش» وأخواته من فروع القاعدة خطف دعوات الناس إلى الحرية والعدالة والكرامة وتحويل آراء الكثير من الناس والمثقفين ضد انتفاضات الربيع العربي.

فقد رأى العديد من الناس ومن أطياف سياسية مختلفة أن الربيع العربي بات معادلاً لـ «داعش» ولإطلاق حرب طائفية تهدد الدولة والمجتمع على حد سواء. وبرأي الكثير من النقاد في المنطقة، ومن ناشطي المجتمع المدني، كما من المراقبين في الخارج، فقد تحوّل الربيع العربي إلى شتاء. لقد كانت تلك اللحظة، برأيهم، «فايروس» ولعنة أصابا المنطقة وسمّما مجتمعاتها ودمّرا مؤسساتها الهشّة، وأطاحا استقرارها السياسي. ومن هؤلاء، على سبيل المثال، الشاعر أدونيس، المثقف العلماني المعروف، فإذا به يتهم انتفاضات الربيع بالفارغة والفاقدة للرؤية أو لخطط التغيير في المجتمعات العربية. يقول: «المهم النتائج، وليس البدايات»، ويضيف متهماً القوى الإقليمية الرجعية مثل تركيا والسعودية وقطر مع الإسلاميين، بتخريب الانتفاضات العربية. ولا يتردد أدونيس في معرض نقده باللجوء إلى نظرية المؤامرة لتفسير ما حدث من عنف لاحق

(٢٤) «تنظيم الدولة يهاجم «سلمية» الإخوان بعد حبس مرسي،» القدس العربي، ٢٠١٥/٤/٢٣، <http://www.alquds.co.uk/?p=330911>.

(٢٥) «تنظيم موالٍ لـ «الدولة الإسلامية» في مصر ينتقد «الإخوان»: انتهجوا الديمقراطية بدل الجهاد فأذلهم الله،» القدس العربي، ٢٠١٥/٤/٢٣، <http://www.alquds.co.uk/?p=331162>.

(٢٦) Adham Youssef, ««Sinai Province» Denounces Brotherhood's «Peaceful Methods» of Applying Islamic Sharia,» *Daily News* (Egypt), 26/1/2015.

للانتفاضات[٢٧]. وأدونيس صديق لضفتَّي اليسار واليمين في الوطن العربي. إلا أن مثل هذا النقد لا يعترف أن الفشل في تغيير المجتمع والسياسات في البلدان العربية نتجَ لا من النقص في التماسك بين المواطنين في المجتمعات، بل من النقص في انخراط المواطنين العاديين والمثقفين والنخب في العملية السياسية.

وفي الخط نفسه، يسعى الذين يأملون بإعادة عقارب الساعة إلى الوراء، ودعم النظام القديم، إلى الزعم أن التحركات الجماهيرية الضخمة إنما كانت بمؤامرة من القوى الغربية، مع عملائهم الإسلاميين في الداخل، لتقسيم الشعوب العربية إلى قبائل وجماعات متقاتلة[٢٨]. وتضم جماعة نظرية المؤامرة مؤرخين ونقاداً ثقافيين ومفكرين معروفين، من مثل المؤرخ المصري أسامة الدسوقي الذي حكم بأن «الثورات العربية هي صناعة أمريكية خالصة»[٢٩]. ووصف كتّاب آخرون الربيع العربي بأنه «سايكس ـ بيكو ثانية»[٣٠]، في إشارة إلى معاهدة سايكس ـ بيكو قبل مئة عام التي قسمت أراضي السلطنة العثمانية في المشرق بعد الحرب العالمية الأولى بين إنكلترا وفرنسا. لكن خطورة نظرية المؤامرة لا تكمن فقط في تحويلها الإرادوي لأحداث التاريخ، بل أيضاً في إعفائها الضمني للأنظمة القديمة من أي مسؤولية في إفقار المجتمعات العربية وتركها من ثم نهباً للمتطرفين. على سبيل المثال، ففي كتابه الإسلام والصحوة العربية يقترب المؤلف طارق رمضان، الفيلسوف والأكاديمي المسلم، حد القول، إن الانتفاضات كانت مؤامرة أجنبية خُطط لها من الخارج بهدف تسهيل السيطرة الغربية على الوطن العربي. آراء كتلك، ومن قلم كاتب مسلم مؤثر، تُشعرك بالصدمة والأسف لمشاركتها الخطرة مواقف كثيرة قاصرة في الوطن العربي والإسلامي تأخذ بنظرية مؤامرة «الخارج» كتفسير للمأزق الراهن في الوطن العربي، متجاهلة المسؤولية الأخلاقية والسياسية للفاعلين المحليين[٣١]. ما يجمع أولئك جميعاً، في اليسار أو اليمين، هو عدم ثقتهم بالحركات الشعبية. إن الزعم بمؤامرة أجنبية خلف كل الحراك الشعبي الذي حدث، ورغم أسبابه المحلية الظاهرة، هو قبول ضمني بفكرة أن العرب، نجحوا في تحدي الأنظمة الاستبدادية أم لم ينجحوا، ليسوا قوة فاعلة أو قادرة على أن تقوم بمهام التغيير السياسي والاجتماعي؛ وهو خطاب كانت تروّج له دون كلل السرديات الاستعمارية القديمة التي سعت إلى تعميم مفهوم أوتوقراطي للسلطة. أما كتّاب عصر التنوير الأوروبي فكانوا على نقيض ذلك يمتدحون الإرادة والوكالة الشعبيتين باعتبارهما الحامل الحقيقي للتغيير.

---

(٢٧) «أدونيس: لا تتحقق الديموقراطية ما دام الدين هو مرجع القيم،» السفير، ٢٠١٥/٦/١٥، <http://assafir.com/Article/1/426167>.

(٢٨) حسين العودات، «دفاعاً عن «الربيع العربي»،» السفير، ٢٠١٥/٦/١٣، <http://assafir.com/Article/217/425000>.

(٢٩) «شيخ المؤرخين عاصم الدسوقي لـ «الوفد»: الربيع العربي مؤامرة أمريكية لخدمة إسرائيل،» حوار صابر رمضان، الوفد، ٢٠١٤/٥/١٢.

(٣٠) Leo Messi, «Nabil al-Awadi, International Conspiracy against Syria,» YouTube, uploaded on 21 August 2011, <http://www.youtube.com/watch?v=um6eCDFpHlM>.

(٣١) Tariq Ramadan, *Islam and the Arab Awakening* (New York: Oxford University Press, 2012), pp. 6–22.

لم تحدث الانتفاضات العربية في فراغ. فالملايين من العرب كانوا قد بلغوا نقطة الانكسار الكلي بعد عقود من الطغيان السياسي وفشل التنمية، فتمرّدوا على الظروف التي خنقتهم. كان نظام الدولة العربية قد انهار منذ زمن، وقبل اندلاع الثورات العربية. وعليه فمن الخطأ تحميل المؤامرات الأجنبية مسؤولية التشققات التي أصابت أسس الأنظمة القديمة، لأنه يتجاهل كفاحات الشعوب التي ظهرت ومطالبها المحقة التي رفعت. كما أن النظريات تلك تخلط ما بين السبب والنتيجة؛ فهم يجمعون بين لحظة انتهت وعملية تغيير عنيف يجري ولم يتم فصولاً بعد. هم يتبنون رؤية خطّية مبسّطة للتغيير، مستبعدين عناصر مصاحبة لكل تغيير مثل العنف والفوضى وحتى الانتكاسات. كما أن القيمة الأخيرة للانتفاضات العربية التي جرت أو تجري لا يمكن أن تقاس بمقاييس زمنية ضيّقة. لقد تعرضت انتفاضات الربيع للتخريب بالفعل من فاعلين عدة، من بينهم الحكام المستبدون أنفسهم وحلفاؤهم الإقليميون، ومن أجهزة الأمن في كل من البلدان التي شهدت انتفاضات، ومن «فلول» النظام القديم، ومن السلفيين الجهاديين لفروع «داعش». كان لكل أولئك مصلحة مشتركة في قطع الطريق على التغيير السياسي السلمي.

ورغم المزاعم والادعاءات، فقد كانت القاعدة و«داعش»، والتنظيمات السلفية الجهادية الأخرى، قوى رجعية مضادة للثورة بامتياز. كان زعماء التنظيمات السلفية الجهادية، من الزرقاوي إلى البغدادي، مصرّين على أن لا يتركوا لبْساً حول لجوئهم الممنهج إلى الإرهاب والوحشية الزائدة لقمع أو منع أي معارضة لهم أو الحيلولة دون قيامها. فالخلافة التي أعلنها «داعش» من تلقاء ذاته إنما هي يوتوبيا تحاول تكرار تجربة قصيرة جرت قبل أربعة عشر قرناً، في منطقة مختلفة، وفي زمن مختلف، وفي ظل تعقيدات وظروف غير متشابهة. ويجعل «داعش» الأمور أكثر تعقيداً بفرضه قبول الخلافة قسراً وبقوة السيف والإرهاب وأساليب وحشية لم تخطر ببال التجربة الأولى القديمة. كما أن اليوتوبيا الميثولوجية الجديدة لـ «داعش» تغدو أكثر رجعية حين يحاول فرضها على المجتمع والثقافة الإسلاميين بمضمون استبدادي، غير تاريخي، وبموقف مضحك متناقض من الحداثة: الرفض العلني التام لمضمونها والاستخدام المفرط لتقانتها اللوجستية والدعائية.

لا يتسامح «داعش» في المناطق الواقعة تحت سيطرته في قليل أو كثير مع من يخالفه الرأي أو يظهر تنوع سكانها، ولطالما انخرط في عمليات تطهير ثقافي في كل من العراق وسورية. هو يدفع بكل الوسائل الإكراهية نحو قيام مناطق من لون فكري واحد ولون اجتماعي واحد ويعاقب كل من يخرج على الأحادية تلك. وهو يرسّخ سلطته، ليس فقط بإعادة كتابة التاريخ وإنما أيضاً، بالتعديل السوسيو ـ مكاني الذي يصاحب إنشاءه مؤسسات بدئية، وفرص عمل، وهرمية مجتمعية جديدة. وتقدمه العسكري على الأرض كان يسبقه غالباً جهد دعائي كثيف من خلال أدوات التواصل الاجتماعي، والإذاعة، والتلفزيون، أو قنوات الإنترنت والمنتديات والمختصرات، يحاول من خلالها تصوير نفسه كقوة تحضيرية تهدف إلى «توعية» الناس أو تنويرهم بالمعنى الحقيقي للإسلام. أما هدفه الاستراتيجي الأخير فهو إقامة نظام شمولي من لون واحد متجذر في تفسيره

الرجعي للشريعة. فهو ينظر إلى أي شخص لا يشاركه تفسيره الخاص للشريعة بوصفه «مرتداً»، وهذا خطيئة عقوبتها الموت. ولا يخفي الناطقون باسم التنظيم علانية أن قوتهم العسكرية الغالبة، أو السيف، تعطيهم الحق بفرض ميثاقهم على الأمة[٣٢]. ويعود ذاك التفسير فيبرر لهم إقامتهم نظاماً أحادياً جديداً باسم التغيير جاعلاً الدين الأداة التامة للحصول على السلطة والمحافظة عليها.

يقول أحد المفتين الرئيسيين في «داعش»، عثمان بن عبد الرحمن التميمي، إن الجهاديين الذين أفرزتهم ميادين القتال يملكون القول الفصل لأنهم يملكون السيطرة العسكرية ومتأقلمون على نحو أفضل مع شروط الأرض، وعلى نحو مانوي ـ هوبسي صارخ[٣٣]. وعليه، فبرميل البارود أكثر أهمية من إرادة الشعب، وعلى النقيض من روح الربيع العربي.

أكثر من ذلك، لقد أحيا «داعش» و«النصرة»، ومعهما الفصائل المشابهة، من جديد الإشكالية القديمة حول «حاكمية» الله التي اقترحها أبو الأعلى المودودي، عالم الدين الهندي ـ الباكستاني، وسيّد قطب، المنظّر الرئيسي للإسلام الثوري. تعني الحاكمية أن الله هو وحده الحاكم، لا الحكام البشر؛ والقوانين والدول والسلطة السياسية في العالم إنما هي لتطبيق مبادئ الشريعة المقدسة. وفي دستوره المختصر معالم في الطريق، يرى سيّد قطب أن العالم بإسره، بمن فيه المسلمون، يعيشون في «الجاهلية،» عالم ما قبل الإسلام[٣٤]. بحسب قطب، «الإسلام ... معركة مع الجاهلية وما جاورها»[٣٥]. وعليه، فهو يؤكد الحاجة إلى قتال الجاهلية تلك، «وإلى أن ينتهي الإسلام الحاكم الأرفع الأوحد»، ما يعني الحاكمية عند سيّد قطب[٣٦].

وكما حدث مع الجاهلية، يرى قطب أنّه لا بد من استخدام القوة ليتحقق هدف الحاكمية. وكان المودودي، الذي أسس «الجماعة الإسلامية» سنة ١٩٤١، قد سبق سيّد قطب إلى المفهوم نفسه في مواجهة المجتمع الجاهلي، وإلى أن تعاليم القرآن و«السنّة» تتقدّم على كل دستور أو قانون. وبحسب المودودي، «فما من فرد، أو أسرة، أو طبقة، أو حزب، أو أي فرد يعيش في الدولة له حق «الحاكمية»، فالله هو الحاكم الحقيقي وصاحب السلطة الحقيقية»[٣٧]. لذلك، كان المودودي ضد فصل السلطات، لأنها يجب أن تفهم كجزء من حقوق الله. ويقابل قطب حكم الله، بحكم الجاهلية، والمتضمن برأيه كل أنظمة الحكم القائمة على قوانين البشر. ومن سجنه في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، دعا قطب إلى إبدال الجاهلية بالحاكمية، وبالقوة حين يكون ذلك ضرورياً، وإلى طليعة إسلامية تأخذ على عاتقها مهمة وضع الأساس للدولة

---

(٣٢) «What Is «Islamic State»?,» BBC, 8 October 2015, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-29052144>.

(٣٣) عثمان بن عبد الرحمن التميمي، إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام ([د. م.]: مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، ٢٠٠٨)، ص ١٢ ـ ١٣، <http://www.slideshare.net/yaken0/ss-5927504>

(٣٤) سيد قطب، معالم في الطريق، ط ٦ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩)، ص ١٧.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٣٨.

(٣٦) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(٣٧) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسي (دمشق: دار الفكر، ١٩٦٧)، ص ٢٩.

الإسلامية. وتردد صدى دعوة قطب قريباً وبعيداً وسجّلت بداية حقبة الحركة الجهادية الإسلامية. وبالرغم من بعض الفروق الجزئية، فالجهاديون جميعاً يشتركون في التزامهم العلني ببناء الحاكمية كمبدأ للحكم، والتخلص من ثم من القوانين والمؤسسات التي وضعها البشر، من مثل الانتخابات والبرلمانات والديمقراطية بعامة[٣٨]. إلا أن «داعش» تبقى، ومن بين كل التنظيمات الجهادية، الوحيدة التي أعلنت قيام الدولة الإسلامية، ثم الخلافة، ومشروعها التوسعي الطموح الذي تعزز بسيطرة التنظيم على أجزاء من أراضي العراق وسورية تعادل مساحة بريطانيا، وبسكّان يبلغون ما بين خمسة وتسعة ملايين ساكن. وعلى خلاف ما يزعم البعض من أن تطورات الربيع العربي هي التي أعطت «داعش» عصا القيادة؛ فالتقييم الدقيق هو القول إن التنظيم الإسلامي التقط الفرصة وأمكنه التسلل إلى عملية الانتقال الجارية وعسكرتها من ثم، وذلك في محاولة منه لخطف الإرادة الشعبية.

وإلى ذلك، وفّرت الحرب الباردة الإقليمية الجديدة بين زعيمة الإسلام السنّي العربي (السعودية)، وزعيمة الإسلام الشيعي (إيران)، الذخيرة التي تحتاج تنظيمات مثل القاعدة و«داعش» إليها حرف الصراع بعيداً من مساره الاجتماعي والسياسي نحو تنافس جيوستراتيجي وطائفي. وغدت سورية والعراق وليبيا واليمن مسارح قتال بالوكالة عن حروب إقليمية وعالمية أوسع بين السعودية وإيران، ومعهما تركيا وقطر ومصر وآخرون، يسعون إلى السيطرة من خلال تمويل وتسليح الجماعات المتحاربة، بما فيها السلفيون الجهاديون. وكما ذكرنا في المقدمة، لم يكن بوسع «داعش» أو «النصرة» التوسع من دون وجود حلف غير مقدس بين الحكام العرب الاستبداديين ورعاتهم الإقليميين والدوليين، بهدف الحفاظ على النظام القديم. وعملت إيران والسعودية على وجه الخصوص كقوتين مضادتين للتغيير وحاولتا اجتثاث موجة التغيير في الداخل والجوار. وفي حالة مشابهة، أبدت الولايات المتحدة، التي دعمت لفظياً التغيير في تونس ومصر وليبيا واليمن وسورية، تردداً في دعم احتجاجات البحرين كي لا تغضب حلفاءَها العرب الخليجيين. وهكذا أمدّت الحرب بالوكالة الجارية في المنطقة، مع إجهاض القوى المضادة لثورات الربيع العربي، تنظيمات مثل النصرة وداعش وشبيهاتهما بالوقود الذي تحتاج إليه للتوسع أكثر. لقد استغلت التنظيمات المسلحة تلك الفوضى والنزاع المسلّح الجاري الذي أعقب فشل الانتفاضات العربية السلمية في المنطقة العربية من أجل الحصول على التمويل والسلاح والغطاء

(٣٨) حذّر سيّد قطب، في كتاب معالم في الطريق المسلمين من مقاطعة العلوم الاجتماعية الغربية إلا إذا جرى إفسادها وجعلت ضد المعتقدات والتقاليد الجهادية، حيث كان هو شخصياً. ومن المفيد العودة بالتفصيل إلى قطب لبيان كيف ترك العلمانية إلى الدين والتشدد الديني.. «إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة. كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية.. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره. فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً إلى جانب ذلك الرصيد الضخم ـ وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك ـ وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها وعلى قزامتها... وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وأدائها كذلك! وعَلِم علْم اليقين أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي!». انظر: قطب، المصدر نفسه، ص ١٣١.

الديني من البلدان السنّية المجاورة[٣٩]. وكان ذلك رأس مال مادي واجتماعي حيوي لصعود السلفيين الجهاديين أولئك ونجاحهم.

ثالثاً: «داعش» وصراع الهويّات

بين كل العوامل التي أسهمت في تعزيز قوة «داعش» ومثيلاتها من الجماعات السلفية الجهادية في العراق وسورية، يأتي عامل العمل ضد الشيعة وضد إيران في الدرجة الأعلى. فقد شكّل «داعش» بنجاح سردية متجذّرة في الهوية السنّية الشاملة وفي موقع الدفاع ضد ما صوّره التنظيم ضمنياً هجوماً أيديولوجياً وتوسعياً شيعياً يتهدد العالمين العربي والإسلامي. وكانت الورقة تلك، أي ضد الشيعة وضد إيران، أقوى الأوراق التي لعبها «داعش» في العراق وسورية في كل المجالات، وفي تجنيد عناصره على وجه الخصوص. فمنذ الغزو والاحتلال الأمريكيين للعراق سنة ٢٠٠٣، وبفعل السياسات التي تلت ذلك، حدث انشطار سنّي - شيعي خطير في الهوية العراقية، والمجتمع العراقي بالتالي. وقد نجح «داعش» أيّما نجاح في استغلال النزاع الناشئ إلى الحد الأقصى. وأصبح ذاك الصراع خارجاً عن السيطرة بعد إجهاض ثورات الربيع العربي وغرق سورية والعراق في مستنقع الحرب والفوضى. وكان هذا النزاع الداخلي على الهوية داخل الإسلام، والحرب الأهلية التي تلت، ما يحتاج «داعش» إليه ليقفز إلى صدارة المشهد المحلي المعارض. وجاء سقوط الموصل في حزيران/يونيو ٢٠١٤ المناسبة التي كان يحلم بها «داعش» فأعلن الدولة الإسلامية وليعلن الناطق باسم التنظيم قيادة «داعش» للأمة وأهل السنّة، دافعاً إلى الوراء كل التنظيمات والأحزاب المنافسة الأخرى. وفي السياق نفسه يندرج نقد البغدادي وحلقته الداخلية لقيادة السعودية، أرض ظهور الدعوة الإسلامية والقائد التقليدي للعالم الإسلامي السنّي. فقد قدّم البغدادي، في إعلاناته القليلة التي تلت تنصيب نفسه خليفة على المسلمين، «داعش» بوصفه حامي المصالح السنية في كل مكان، وليس في العراق وسورية فقط. ففي تسجيل صوتي له في أيار/مايو ٢٠١٥ استغرق أربعاً وثلاثين دقيقة، قال: «لقد فشل حكام الجزيرة العربية ولحقهم العار وفقدوا شرعيتهم المفترضة». ودعا بدلاً من ذلك السعوديين إلى الالتفاف حول الدولة الإسلامية ضد «الحكام الطغاة المرتدين»، الذين أخفقوا في الدفاع عن الإيمان والجماعة السنيين ضد «الروافض» (في تعبير عن المسلمين الشيعة). ويضيف أن الخلافة وحدها تستطيع إعادة المسلمين «إلى المجد، والشرف، والحقوق، والزعامة»[٤٠].

---

(٣٩) Omar Abdulaziz Hallaj, «The Balance-Sheet of Conflict: Criminal Revenues and Warlords in Syria,» *NOREF* (Norwegian Peacebuilding Resource Centre) (May 2015), <http://www.clingendael.nl/sites/default/files/Hallaj_NOREF_Clingendael_The%20balance-sheet%20of%20conflict_criminal%20revenues%20and%20warlords%20in%20Syria Apr%20 2015 FINAL.pdf>.

(٤٠) انظر نص رسالة البغدادي وتسجيله الصوتي: «Islamic State: Al-Furqan Media Releases New Audio and Transcript Allegedly of Baghdadi,» Carol Ann Grayson (Radical Sister) Blog, 14 May 2015, <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-baghdadi>.

وبالحطّ من دور السعودية وإخفاقها حسب زعمه، إنما هدف البغدادي إلى تبرير شرعي لسلطته المستجدة على الجماعة السنية ومحاولة استبدال القيادة التقليدية للعالم السنّي بالخلافة السنية التي أعلنها. باختصار، فقد كانت السياسات المتصلة بالهوية هي السلّم الأسرع الذي استخدمه «داعش» للتوسّع والصعود إلى أعلى.

تقوم، نظرياً وعملانياً، فوارق مهمة عدة بين القاعدة المركزية و«داعش»، رغم انتمائهما إلى الجذع السلفي الجهادي نفسه. فبن لادن والظواهري لم يملّا من النظر إلى أمريكا باعتبارها العدو الحقيقي ومن تذكير أتباعهما بأن «التركيز يجب أن يكون على قتل ومحاربة الشعب الأمريكي وممثليه». وبحسب وثائق ورسائل عثر عليها في مخبئه حيث قتل في أيار/مايو ٢٠١٥، يحث بن لادن مسؤوليه وضباطه على تجنب حرف الجهاد بعيداً من العدو البعيد (الولايات المتحدة) نحو العدو القريب (الحكام العرب والشيعة). يقول في واحدة من الرسائل تلك التي كشف عنها، «يجب أن نوقف العمليات ضد الجيش والشرطة في كل المناطق، خصوصاً اليمن»، وحصرها فقط في حالات الدفاع عن النفس. وهو يكمل أن الوسيلة الأكثر تأثيراً من أجل هزيمة الحكام العرب والمسلمين هي في قلب السياسة الخارجية الأمريكية وتبديل مسرح اللعب في المنطقة. وهو ما لا يمكن الوصول إليه، حسب بن لادن، من دون «الهجوم [المستمر] على أمريكا لإجبارها على التخلي عن هؤلاء الحكام وترك المسلمين وشأنهم». من الواضح، إذاً، أن بن لادن والظواهري وقادة كباراً آخرين يفضلون مهاجمة أمريكا وحلفائها الأوروبيين على قتال المسلمين الداخلي. وفي رسالة له، ينصح بن لادن قادة وضباط القاعدة وفروعها في شمال أفريقيا، بـ «اقتلاع الشجرة السيئة بالتركيز على جذعها الأمريكي»[41]. والمنطق الاستراتيجي لتركيز بن لادن والظواهري على الولايات المتحدة، هو أنها الضامن للأمر الواقع السياسي في المنطقة العربية. وعليه، فالطريق إلى القاهرة والرياض والجزائر والقدس لن يكون مفتوحاً ما لم يجرِ طرد النفوذ الأمريكي من هذه المنطقة.

وتظهر مراسلات الظواهري مع الزرقاوي، مؤسس «القاعدة في العراق»، التباين بين رأييهما. فبينما حثّ الظواهري الزرقاوي على مهاجمة التحالف الأمريكي وتجنب مهاجمة الشيعة والمصالح الإيرانية، كان الأخير يزيد من وتيرة هجماته تلك. فحتى ٢٠٠٦، سنة مقتله، كان الزرقاوي يضاعف من عدد هجماته على الشيعة ويؤجج من الحرب الأهلية في العراق. فقد نظر الزرقاوي وخليفته أبو بكر البغدادي إلى الشيعة وإيران، بخلاف نصيحة الظواهري، باعتبارهما العدو الأول. وبحسب الجولاني في مقابلته على قناة الجزيرة، فالزرقاوي هو الأب الروحي لـ «داعش» وهو الذي خطط لنقل التركيز من العدو البعيد (الولايات المتحدة) إلى العدو القريب (الشيعة وإيران). ويضيف أن الزرقاوي استدرج إيران عامداً إلى ميادين القتل في العراق من طريق هجماته المتكررة على الشيعة.

---

(٤١) Bin Ladin's Bookshelf, Office of the Director of National Intelligence, <http://www.dni.gov/index.php/resources/bin-laden-bookshelf>.

انظر أيضاً: Cass and Burns, «US Releases 100+ Bin Laden Documents».

ومن الطريف أن يقارن الجولاني، الذي قاتل مع الزرقاوي وكان أحد أعضاء حلقته الداخلية، استراتيجية الأخير تجاه إيران باستراتيجية بن لادن تجاه الولايات المتحدة. فكما استدرج الزرقاوي إيران، برأيه، إلى رمال العراق المتحركة كذلك بن لادن الذي استدرج الولايات المتحدة إلى ميادين القتل في أفغانستان والعراق؛ وهو ما يتعارض تماماً مع موقفي القائدين الجهاديين. فسياسات الزرقاوي والبغدادي وتوجهاتهما إنما يدفع إليهما صراع الهوية الجاري بين السنّة والشيعة، الصراع الذي أملا منه أن يمنحهما الشرعية والقبول في أوساط الجماعة السنّية المقموعة والمحبطة. وقد أثبتت التطورات أن البلدان التي تملك تعددية عرقية ودينية، مثل سورية والعراق، هي هشّة تحديداً لمثل ذاك الصراع، بعد عقود من الدكتاتورية والحكم الفاشل، وهو ما لم يفت مخططي «داعش». وهكذا تحوّل إجهاض الربيع العربي، وليس فشله، إلى نعمة كان السلفيون الجهاديون، وبخاصة «داعش» في انتظارها وتلقّفها.

الفصل الثامن

إعادة تعريف الجهاد
والتحوّل من العالمي إلى المحلّي

يميل مؤيدو «داعش»، ومنتقدوه في آن، لإسقاط إطار الحاضر على الماضي، وذلك لتفسير الصعود الصارخ الراهن للتنظيم في العراق وسورية. وبالرغم من أن النهج ذاك قد غدا سردية معتمدة تقريباً، إلا أنه يتجاهل في الواقع الصعوبات البنيوية والظروف الاجتماعية المعقدة التي واجهها سلفه «الدولة الإسلامية في العراق» بين ٢٠٠٦ و٢٠١١. وتضمنت الصعوبات آنذاك الجوّ العام السنّي العراقي المعادي له؛ والتعاون القائم بين العشائر السنّية الأساسية والولايات المتحدة؛ والاقتتال الداخلي بين الفصائل السنّية المسلّحة؛ والنضوب المتزايد للمجنّدين الأجانب. وكما أسهبنا آنفاً، فقد أجبرت هجمات قوات مجالس «الصحوات»، المؤلفة من العشائر السنية المدعومة والممولة من الولايات المتحدة، تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» على التراجع من مناطق سنّية كثيرة ووضعته على شفا الانهيار الكلي. وحين غادر آخر جندي أمريكي العراق في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١، كان تنظيم «الدولة» قد صار هزيلاً جداً، ولم يكن ليدور في خلد أحد أنه سيولد من جديد بعد أقل من ثلاث سنوات كأقوى تنظيم سلفي جهادي على سطح الكوكب.

لذلك، فواحد من أهداف هذا الكتاب هو شرح الأسباب الاجتماعية والسياسية وطبيعة القوى التي كانت خلف إعادة ولادة تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» وتحولّه أخيراً إلى «الدولة الإسلامية في العراق والشام» ـ «داعش». وكانت الفصول السابقة من الكتاب قد عمدت إلى تفسير صعود التنظيم السريع في سياق سوء أداء النظام السياسي العراقي وتعميق الانقسامات الطائفية في البلاد بعد الغزو والاحتلال الأمريكيين سنة ٢٠٠٣، وانحلال مؤسسات الدولة، وعسكرة الانتفاضة الشعبية السورية التي كانت بدأت سلمية إلى حد كبير، والحروب الإقليمية بالوكالة التي صبّت الوقود على النيران المشتعلة في سورية والعراق وليبيا واليمن وأمكنة أخرى.

كذلك، لا حاجة إلى تكرار حقيقة أن الصعود الصارخ لـ «داعش» وجماعات إسلامية متمردة أخرى عموماً، يرتبط بالأزمة العضوية للدولة العربية، أزمة الفشل السياسي والاقتصادي وطوال عقود في إقامة الدولة العربية الحقيقية. إلا أنه يبقى من الأهمية بمكان أن نقارن، إلى ذلك، بين «داعش» و«القاعدة المركزية في العراق». وسيوضح ذلك كيف كسر «داعش» المقاربات التقليدية للحركة السلفية الجهادية، ليتحول بعدها إلى أقوى التنظيمات السلفية الجهادية المتمردة، وأغناها، مع فروع وأذرع له في المنطقة عموماً وما جاورها.

مع ذلك، يجب أن لا يغيب عن بالنا أبداً أن القاعدة و«داعش» ينتميان إلى العائلة نفسها ـ السلفية الجهادية ـ وأنهما يتشاركان الأفكار الرئيسة نفسها. أولى الأفكار تلك يوتوبيا إسلامية هي في قلب الأيديولوجيا السلفية الجهادية، وتهدف إلى استبدال حكم الدولة بحكم الله. والخيط الجامع للعالم السلفي الجهادي بأسره، بما فيه القاعدة و«داعش»، هو الإيمان بإمكان تأسيس الدولة المستندة إلى القرآن ورفض الدول التي هي من صنع البشر. هذا أمر مركزي جامع في الفكر السلفي الجهادي. أما الفارق فهو أنه بينما تقوم القاعدة كتنظيم سرّي، عابر للحدود، وخارج كل حدود، يتميّز «داعش» بانغماسه في الجماعات السنية المحلية وبالعمل داخل مفهوم الدولة. وإلى ذلك، فـ «داعش» متجذّر بقوة في الانقسام السني ـ الشيعي، الذي عدنا إليه أحياناً بمصطلح «الجيوطائفية»، كتعبير عن التنافس الإقليمي الحاد بين السنة بهيمنة سعودية والشيعة بهيمنة إيرانية[1]. ويُذكر أن القاعدة، ورغم أنها تنظيم يقع في قلب السلفية الجهادية، قد حذّرت أعضاءها وأفرعها من مغبة استهداف الشيعة. أما «داعش»، وعلى نقيض القاعدة، فهو ليس مجرد تنظيم إرهابي أو متمرد، وإنما أقرب إلى كيان دولة، ويطمح إلى بناء دولة إسلامية شاملة، خلافة، وذلك بتمزيق الحدود «الاستعمارية» التي رسمتها القوى الأوروبية بعد انهيار السلطنة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى. أكثر من ذلك، يقدّم أبو بكر البغدادي بديلاً للدولة العربية «المتضخّمة» وللإرث الضخم من المرارة الذي خلفته «الطوائف الحاكمة» طوال أربعة عقود[2]. وعليه، يظهر «داعش»، ليس كتهديد إرهابي فقط، بل كتحد لأسس النظام ما بعد الكولونيالي ويميّز نفسه من باقي الجماعات الجهادية بطموحاته المتصلة مباشرة بالأراضي وتأسيس الدولة[3].

أولاً: القاعدة المركزية مقابل «داعش»: التغيير والاستمرارية

تساعدنا المقارنة بين القاعدة المركزية و«داعش» على فهم التشابهات والفروقات الدقيقة الموجودة بين التنظيمين الجهاديين، ما سيضيء بدوره على أفكار «داعش» وسلوكه. وتظهر المقارنة

(١) Kamran Bokhari, «Sectarian Spill,» *Tribune* (New York), 12/10/2013, <http://tribune.com.pk/story/617156/sectarian-spill/>.

(٢) من أجل السياق، انظر: Nizih N. Ayubi, *Over-Stating the Arab States: Politics and Society in the Middle East* (London: I. B. Tauris, 1995).

(٣) Emile Nakhleh, «Why Is the Islamic State So Resilient?,» LobeLog, 5 June 2015, <http://www.lobelog.com/why-is-the-islamic-state-so-resilient>.

التكتيكات والاستراتيجيات التي استخدمها «داعش» وسمحت له انتزاع السردية الأيديولوجية من القاعدة المركزية ويتقدم نحو قيادة الحركة الجهادية العالمية. كذلك، فتفحّص الفروقات العملانية والبنيوية والأيديولوجية بين التنظيمين والانقسام الناتج داخل الحركة السلفية الجهادية سوف يسهم في الإضاءة على سؤال الديمومة «داعش» على المدى البعيد. ووجهة نظري هي أن «داعش» يمثّل جيل ما بعد القاعدة المسكون بنزاعات الهوية وبعيداً جداً من أولويات الجيل السابق. وهناك أيضاً فوارق رئيسية في التكتيكات بما يشي بفوارق أخرى في تقدير التهديدات والفرص الجيوسياسية المبنية على فوارق في البيئة والسياق اللذين يعمل من خلالهما التنظيمان. على سبيل المثال، فعندما بدأ «داعش» بمواجهة ضغط عسكري ثقيل في العراق وسورية نهاية ٢٠١٥ تحوّل على نحو متزايد نحو الأهداف الأجنبية، بما فيها عمليات مشهدية صارخة في داخل الغرب كما لمصالحهما؛ وآخرها عمليات باريس (كانون الثاني/يناير وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥) وبروكسل (آذار/مارس ٢٠١٦)، حيث سقط في الأولى ١٣٠ قتيلاً وفي الثانية ٣٠ قتيلاً، بالإضافة إلى مئات الجرحى.

ثانياً: عمليات الخلافة

استهدف أسامة بن لادن وأيمن الظواهري، من وجهة عملانية، الولايات المتحدة وحلفاءها الأوروبيين (العدو البعيد) بعد غزو أفغانستان سنة ٢٠٠١ لكنهما لم يسيطرا على أراض أو سكّان، بل وزّعا خلاياهما تحت الأرض في مسارح عدة. استمرت القاعدة، وإلى اليوم، حركة عابرة للحدود، سرّية، ونفّذت عمليات ضد أهداف أمريكية وأوروبية ولكن على طريقة «اضرُب واهرُب». وعلى نقيض ذلك تماماً، استخدم «داعش»، وسلفه «تنظيم الدولة في العراق»، ومنذ البدء تكتيكاً يقوم على الاستيلاء على الأرض وتأسيس موطئ قدم له في المناطق السنّية من العراق وسورية. ورغم أن «داعش» والقاعدة المركزية يتشاركان الهدف الاستراتيجي نفسه في تأسيس الخلافة، إلا أن بن لادن والظواهري نصحا بالصبر وعدم التسرّع في الدولة الإسلامية أو الخلافة. فالغرب برأيهما سوف يئد هذا الطفل قبل أن يشبّ ويصبح قادراً على الدفاع عن نفسه[٤].

وفي الأساس، فبعد طرد الولايات المتحدة للقاعدة من معقلها في أفغانستان، فإن فكرة تأسيس خلافة غدت بالنسبة إليها هدفاً بعيد التحقق وبخاصة بعد توزّع ناشطيها في مجموعات صغيرة في أمكنة قصيّة من العالم الإسلامي. لقد فضّل التنظيم الجهادي سلامة قادته الجسدية قبل سلامة القيادة العملانية للحركة ككل، وفقد بالتالي سيطرته المباشرة على فروع القاعدة المختلفة، من مثل «القاعدة في العراق» الذي سيغدو لاحقاً «الدولة الإسلامية في العراق».

---

(٤) انظر وثائق بن لادن على الإنترنت: Office of the Director of National Intelligence, «Message for General Islamic Nation (Arabic),» Bin Ladin's Bookshelf, 20 May 2015, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/arabic2/Message%20for%20general%20Islamic%20nation%20-%20Arabic.pdf>.

انظر أيضاً: Ayman al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al- Sham [Greater Syria],» Pietervanostaeyen (blog), 3 May 2014, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/05/03/dr-ayman-az-zawahiri-testimonial-to-preserve-the-blood-of-mujahideen-in-as-sham>.

بخلاف «القاعدة المركزية، كان «القاعدة في العراق» و«القاعدة في العراق والشام» يتموضعان في بيتهما في العراق واستنبتا جذوراً لهما من خلال استغلال الصراع الجيوستراتيجي بين إيران والسعودية. فبالرغم من المعارضة الجدية من داخل الجماعة الجهادية لتأسيس الدولة الإسلامية في العراق، بمن فيهم بن لادن والظواهري، تجاهل سابقو البغدادي مواقف المعارضين وأعلنوا دولتهم سنة ٢٠٠٦، فارضين على منتقديهم قبول القرار كأمر واقع (راجع الخلفية والسياق في الفصل الثاني). أكثر من ذلك، فالبغدادي ومساعدوه، وبمواجهة المقاومة المسلحة من الداخل والخارج، أعلنا إقامة الخلافة على مستوى العالم، وليس فقط في العراق وسورية، في حزيران/يونيو ٢٠١٤[٥]. وكما قيل من قبل، فبعد عام واحد من إعلان الخلافة، لا يزال «داعش» يحتل مساحة كبيرة من الأرض في العراق وسورية، وبحجم مساحة المملكة المتحدة، وسكّان يقدّر عددهم بما فوق الخمسة ملايين[٦].

ورغم أن استعادة الخلافة المفقودة هي أيضاً هدف القاعدة المطلق، إلا أن بن لادن والظواهري أرادا تحقيق ذلك من خلال مقاربة تدريجية. رأى قائدا القاعدة أن إقامة الخلافة يجب أن تكون في التوقيت الصحيح، ويجب أن تلي إزالة الأعداء الدوليين وتأسيس دولة إسلامية آمنة وواعدة. رأى الرجلان أن إقامة الخلافة يجب أن تكون الخطوة الأخيرة، ولا الأولى، في تطور الدولة الإسلامية أو الحكم الإسلامي. وفي رسالة لأتباعه سنة ٢٠١٠ وقبل نصف عام من مقتله، حذّر بن لادن من تكرار خطأ إقامة إمارات إسلامية قبل أن تنضج الظروف لذلك، وقبل أن تتولى الولايات المتحدة، في مثال واحد، تدميرها؛ وهو يعطي طالبان وحماس والدولة الإسلامية في العراق أمثلة على ذلك[٧]. رأت القاعدة أن وجود الخلافة يجب أن لا يكون فرضياً وذلك يتطلب أن تكون له سلطة على أراضٍ توفر له وجوداً وديمومة. وفي الحد الأدنى يمكن القول إن القاعدة المركزية أخفقت في الاستيلاء والاحتفاظ بأراض وإقامة خلافة فيها، بينما نجح «داعش» في الهدفين. وفي وسع البعض القول إنّ إصرار القاعدة على المقاربة التدريجية في إعلان الخلافة كان سببه العجز عن الاستيلاء على الأرض والاحتفاظ بها، بينما نجح «داعش» في ذلك في العراق وسورية. حجم القدرة، لا الأيديولوجيا، هو ما يقف خلف تردد «القاعدة» إعلان دولة إسلامية.

ألهبَ المصطلح، الخلافة الإسلامية، مخيِّلة بعض المسلمين السنّة الذين نظروا إليه كأداة خلاص وكهدف مقدّس يستحق الجهاد في سبيله. ولهذا السبب جلب إعلان «داعش» إقامة

---

(٥) انظر: «مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي تقدم: «هذا وعد من الله» الشيخ أبو محمد العدناني الشامي (حفظه الله)،» اليوتيوب، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٤، <http://www.youtube.com/watch?v=Uen14MVYNqk>.
انظر أيضاً النسخة باللغة الإنكليزية: Abu Mohmmed al-Adnani, «This Is the Promise of Allah,» 19 June 2014, <http://triceratops.brynmawr.edu/dspace/bitstream/handle/10066/14242/ADN20140629.pdf?sequence=1>.

(٦) Patrick Cockburn, «War with ISIS: Islamic Militants Have Army of 200,000, Claims Senior Kurdish Leader,» *Independent*, 6/11/2014, <http://www.independent.co.uk/news/world/middle-east/war-with-isis-islamic-militants-have-army-of-200000-claims-kurdish-leader-9863418.html>.

(٧) Office of the Director of National Intelligence, «Message for General Islamic Nation (Arabic),» Bin Ladin's Bookshelf,

الخلافة آلاف الأتباع والمجندين المحليين والأجانب للتنظيم، وجلب أيضاً إعلان البيعة والطاعة من فروع القاعدة في مصر وليبيا والصومال ونيجيريا وأمكنة أخرى[8]. بل وجد «داعش» أيضاً ممراً ليتسلل منه إلى اليمن، معقل فرع القاعدة القوي «القاعدة في شبه الجزيرة العربية»، وإلى حماس التي تسيطر على قطاع غزة، كما بدأت بتحدي طالبان في أفغانستان وقد بادرت شخصيات مهمة عدة من فصائل تتبع القاعدة في منطقة الحدود الأفغانية ـ الباكستانية بإعلان البيعة للبغدادي. وقد أعلنت في كانون الثاني/يناير ٢٠١٥ تأسيس مجلس لمقاطعة خراسان الاسم التاريخي للأراضي التي تغطي المناطق التي تحتلها أفغانستان وباكستان والجوار اليوم.

رغم ما يبدو من أن «داعش» قد فاز بالشطر الأكبر من دعم الجماعة المسلمة السنّية في العراق، وإلى درجة أقل في سورية، فإن كثيراً من الفصائل السلفية الجهادية المنافسة كانت قلقة حيال الخلافات المتفاقمة في ما بينها. ففي رد فعل على محاولة «داعش» التمدد إلى أفغانستان وباكستان والجوار، حذّرت طالبان في رسالة نادرة وجهتها إلى «داعش» بضرورة البقاء «خارج أفغانستان» واعترفت بطريقة غير مباشرة بالتهديد الذي بات يمثّله «داعش» على قيادتها للتمرد هناك والمستمر منذ خمس عشرة سنة. يحذّر الرجل الثاني في التنظيم، المُلّا محمد منصور، من أن وحدة التنظيم هي نجاحه الأكبر، وقال «إذا كانت هناك محاولات لخلق جبهات جهادية جديدة فسيكون ذلك سبباً للقتال والانقسام في صفوف المجاهدين»[9].

وفي نيسان/أبريل ٢٠١٥، نشرت طالبان سيرة قائدها الذي ظل سرياً لخمسة عشر عاماً، المُلّا محمد عمر، في خطوة اعتبرت للفت نظر قادة المجاهدين في أفغانستان وباكستان الذين كانوا بدأوا بالإصغاء إلى جاذبية «داعش» وقيادته[10]. إلا أنه مع الإعلان اللاحق لوفاة عمر في تموز/يوليو ٢٠١٥، الوجه التاريخي الجامع لتشكيلات التنظيم المختلفة طوال عشرين سنة، تعرضت طالبان لخطر احتوائها من «داعش». ثم كان هناك، كما قيل، معارضة عنيفة ومن أعلى وزن من مسؤولين سياسيين وعسكريين في طالبان لاختيار منصور خليفة للمُلّا عُمر. وجرى النظر إلى عمر كعميل لباكستان وبفعل تفضيله التفاوض مع الحكومة الأفغانية. وعليه يغدو التحدي الكبير أمام القائد الجديد هو قدرته على توحيد الأطراف المتباينة داخل طالبان ووقف تحوّل قادتها الميدانيين

---

(٨) Shuaib Almosawa, Kareem Fahim, and Eric Schmitt, «Islamic State Gains Strength in Yemen, Challenging Al Qaeda,» *New York Times*, 14/12/2015, and Kevin Sieff, «2,000 Miles from Syria, ISIS Is Trying to Lure Recruits in Somalia,» *Washington Post*, 24/12/2015.

(٩) Mujib Mashal, «Taliban Are Talking Peace, Though Not with Afghan Government,» *New York Times*, 21/6/2015, and Fazul Rahim, Mujeeb Ahmed, and Mushtaq Yusufzai, «Taliban Splinters as ISIS Makes Inroads in Afghanistan,» NBC News, 21 June 2015, <http://www.nbcnews.com/news/world/afghan-taliban-splits-isis-makes-inroads-n378456>.

انظر أيضاً: Fazul Rahim and F. Brinley Bruton, «Taliban Warns ISIS to Stay Out of Afghanistan,» NBC News, 16 June 2015, <http://www.nbcnews.com/news/world/taliban-warns-isis-stay-out-afghanistan-n376311>, and Mushtaq Yusufzai, «ISIS in Pakistan and Afghanistan: Taliban Fighters Sign Up, Commanders Say,» NBC News, 31 January 2015, <http://www.nbcnews.com/news/world/isis-pakistan-afghanistan-taliban-fighters-sign-commanders-say-n296707>.

(١٠) «Taliban Publish Mullah Omar's Biography,» *Pakistan Today* (April 2015).

نحو «داعش». فإذا فشل منصور في ملء كرسي عمر ـ الذي نشر نَسَباً له سنة ١٩٩٦ يعود به إلى نسب النبي محمد (ﷺ) بهدف الحصول على شرعية دينية ـ وفي تعزيز سلطته، فالتسلل الخجول الجاري من طالبان إلى «داعش» سيغدو طوفاناً[١١].

وعلى نحو مماثل، تواجه حماس مشكلة في قطاع غزة مصدرها أنصار «داعش»، الذين أفادوا كالعادة من ظروف البؤس التي يعيشها القطاع فزاد عددهم. ورغم محاولة حماس التهوين من تحدي «داعش» في القطاع، إلا أن تقارير أخرى أشارت إلى حدوث صدامات مسلحة مع عناصر «داعش» وتوقيف بعضهم[١٢]. وزاد حدة تحدي حماس في غزة التمرّد الذي أثاره السلفيون الجهاديون في سيناء وربما في الداخل أيضاً بعد عزل مرسي. وفي جهد منه لإسكات معارضيه من العلماء المتعاطفين مع القاعدة المركزية، أرسل «داعش» مرسليه لأكثر من دزينة من أعلى العلماء المسلمين يدعوهم إلى الانضمام إلى الخلافة، حيث سيتمكنون من العيش بسلام وبحبوحة مالية[١٣].

جرى إعلان ما يسمى «الخلافة» في لحظة أزمة نظام الدولة الهش في الوطن العربي، الذي فشل في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية المتزايدة. وطالما استمر «داعش» في السيطرة على الأراضي والسكان، فسيستمر التنظيم في جذب شريحة ما من المسلمين في كل مكان، وليس فقط الناشطين الراديكاليين الذين تخيلوا أن تأسيس الخلافة سيفتتح عصراً ذهبياً لتجديد النهضة الإسلامية. فـ «داعش» يخاطب أفراد الجماعات المحلية بأدلجة ماض يجري تفسيره بالعودة حصراً إلى تاريخ خاص يدعو إلى استعادته. ومن أجل ذلك، رأينا البغدادي، ومساعده أبا محمد العدناني، يكرران منذ إعلان الخلافة الطلب إلى المسلمين الأكفاء، وبخاصة الكفاءات التقنية، مثل الأطباء والمهندسين، القدوم إلى الخلافة والمساعدة في الدفاع عنها. وفي العدد الثاني من المجلة الصادرة عن التنظيم باللغة الإنكليزية دابق دعا التنظيم المسلمين إلى الهجرة إلى أراضي الخلافة، وإلا فهم سيُسألون عن ذلك في يوم الحساب، «هبّوا إلى ظلال الدولة الإسلامية مع والديكم، وأحفادكم، وأزواجكم وأطفالكم»[١٤]. ولقيت النداءات هذه آذاناً مصغية ومرحبة من آلاف الرجال والنساء في عشرات البلدان، فترك الكثيرون منهم بلدانهم وعائلاتهم وهاجروا إلى سورية والعراق لبناء يوتوبيا إسلامية. و«داعش» عموماً تنظيم شاب. ويصعب على الغربي أن يفهم لماذا يقدّم شخص يعيش آمناً في الخارج وفي ظروف مريحة نسبياً على الانضمام إلى تنظيم متطرف مثل «داعش» والمخاطرة

---

(١١) The Prospect Team, «Does Mullah Omar's Death Spell the End for the Taliban?,» *Prospect Magazine* (31 July 2015); Matthew Rosenberg, «Mullah Muhammad Omar's Life Ends with Little Clarity,» *New York Times*, 30/7/2015; «Split Emerged over Successor, as Son Disclosed Mullah Omar's Death,» *Daily Times*, 1/8/2015, and «Internal Dispute over Taliban Succession Hints at Rift s,» Associated Press, 2 August 2015.

(١٢) «حوارات حماس مع «المجاهدين» الذين دعموا الدولة الإسلامية،» القدس العربي، ٢٠١٥/٦/٢١.

(١٣) Shiv Malik [et al.], «How ISIS Crippled al-Qaeda: The Inside Story of the Coup that Has Brought the World's Most Feared Terrorist Network to the Brink of Collapse,» *Guardian*, 10/6/2015.

(١٤) «The Flood,» *Dabiq* (al Hayat Media Centre, 2014), p. 3, <http://media.clarionproject.org/files/09-2014/isis-isil-islamic-state-magazine-Issue-2-the-flood.pdf>.

بروحه. إنه سحر الخلافة الذي يعيد تشكيل أحلام المجنّدين أولئك؛ ليكونوا جزءاً من مهمة تاريخية بهدف استعادة الوحدة الإسلامية وجلب الخلاص والحرية للأمة. هو يمنحهم إحساساً قوياً بالهوية الجمعية، والخبرة الجديدة، وبخاصة للشباب المسلم الذي لا يشعر بالاندماج في المجتمعات الغربية أو يشعر بالإقصاء فيها[١٥].

بعد عمليات باريس الإرهابية، في كانون الثاني/يناير وتشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥ حيث قتل أو جرح المئات فيها، ارتفع سؤال أساسي فحواه: لماذا يقدم بعض الشباب المسلم الغربي على الانضمام إلى عقيدة «داعش» ويرغب في التمرد على بلدانه وقتل مواطنيه؟ ومع أنه لا جواب واحداً أخيراً عن ذاك السؤال، فمن الممكن القول إنَّ التجارب الشخصية لشاب مسلم في بلد غربي معيّن هي ما يسهم أساساً في تزويده ـ أو عدم تزويده ـ بالدافع للانضمام إلى أيديولوجيا التنظيم استجابة لدعايته على وسائل التواصل، أو إعلامه الحربي على وجه الخصوص. ويملك «داعش» من أدوات التواصل ـ الفيديو، الفايسبوك، التعليق، اليوتيوب، الانستغرام، الصور وخلافه ـ نتاجات عالية التقانة والجذب والمهارة في مخاطبة عقول الشباب وأفئدتهم. فهو لا يقوم بالتبشير، بل يقدّم للشباب المسلم، وبخاصة العاطل من العمل والغاضب أو اليائس أو المشوّش دينياً، قضية تستحق، كما يصورونها، أن يمنحها حياته في ظلال الخلافة. وتختلف استجابة الشاب المسلم بالتأكيد من بلد غربي إلى آخر. ووفق تحليلات أمريكية، فالولايات المتحدة لا تعاني مشكلة إسلامية بالقدر الموجود في بعض البلدان الأوروبية، لذلك لم يسجّل غير انضمام عدد بسيط جداً من الشباب المسلم الأمريكي إلى نداءات الجهاد. لكن المشكلة تبقى أكثر تعقيداً من ذلك، كما أوضحها في تموز/يوليو ٢٠١٥ جايمس ب. كومي، مدير أف بي أي، حين قال في «منتدى أسبن الأمني» في كولورادو أن من بين كل التنظيمات المسلحة، يمثّل «داعش» أخطرها على الإطلاق داخل البلاد. وأوضح محاولات «داعش» إقامة «موجة جماعية» إرهابية وذلك بخلق موجة جماعية على وسائل التواصل الاجتماعي تحجب الأشخاص المحتملين الذين يقاربون التنظيم. يقول كومي، «هم يستمرون في البحث مثل الشيطان على كتفك، يصرخون طوال النهار «اقتل، اقتل، اقتل». بعد بضعة أيام كرر النائب العام الفكرة نفسها من على ABC News، «هم جادون جداً، وربما أكثر خطراً من القاعدة»[١٦].

مع ذلك، فالخطر الذي يواجه أوروبا أكبر مما يواجه الولايات المتحدة. إذ إن الكثير من الشباب الأوروبي من بلجيكا وفرنسا والمملكة المتحدة وألمانيا والسويد، على سبيل المثال، غادروا إلى

---

(١٥) انظر مناقشة نيويورك تايمز: «Homegrown Terrorists and the West,» with Ghaffar Hussein, Jocelyn Cesari, Raffaello Pantucci, Jamie Bartlett, and Patrick M. Skinner, *New York Times*, 29/8/2014, <http://www.nytimes.com/roomfordebate/2014/08/28/how-to-stop-radicalization-in-the-west/challenge-radicals-loudly-and-clearly>, and Shiraz Maher, «The Roots of Radicalisation? It's Identity, Stupid,» ICSR, 23 June 2015, <http://icsr.info/2015/06/icsr-insight-roots-radicalisation-identity-stupid/>.

(١٦) Eric Schmitt, «ISIS or Al Qaeda? American Officials Split over Biggest Threat,» *New York Times*, 4/8/2015.

سورية من أجل الجهاد. والجزء الأكبر من الذين جاءوا من أوروبا للانضمام إلى «داعش» هم من بلجيكا وفرنسا، إلى جانب خلايا متطرفة محلية صغيرة نائمة. ولم يكن بوسع «داعش» أن ينفّذ هجمات متزامنة معقدة في باريس تضمنت سبعة مفجرين انتحاريين، أو في بلجيكا مستهدفاً المطار ومحطة مترو بانتحاريين وآخرين، لو لم يكن له موطئ قدم في فرنسا وبلجيكا. وتظهر هجمات باريس وبروكسل مدى هشاشة بعض الشبّان المسلمين في فرنسا وبلجيكا لدعوات «داعش» الصريحة بقتل من يحيط بهم. فبإزاء الضغوط العسكرية المتزايدة التي يضعها التحالف الدولي على «داعش» في الميدان، اتجه مخططو التنظيم إلى تخصيص موارد أكثر للقتال في الخارج من خلال دعوة أنصاره لتولي ذلك بأنفسهم. وبعد بدء غارات التحالف الغربي على «داعش» في خريف ٢٠١٤، طلب المتحدث باسم التنظيم واليد اليمنى للبغدادي، العدناني، من المسلمين في الغرب قتل مواطنيهم؛ قال: «إذا كان بوسعكم قتل كافر أمريكي أو أوروبي ـ أو فرنسي حاقد قذر خصوصاً ـ أو أسترالي أو كندي، اتكلوا إذاً على الله واقتلوه بكل وسيلة متاحة ومهما تكن»[١٧].

لم تفلح تماماً محاولة البلدان الغربية مواجهة رسالة «داعش» الدموية من خلال استراتيجيات «مواجهة التطرف العنيف» في أن تجذب إليها كلياً الجماعات الإسلامية في الغرب، وبخاصة في أوروبا وأستراليا. فمن أجل أن تتجاوب الجاليات تلك مع خطة «شاهد شيئاً، قل شيئاً»، على هؤلاء أولاً أن يشعروا بأنهم جزء متكامل مع مجتمعاتهم التي يحيون فيها. ويتطلب ذلك جهداً مستداماً لدمج الجماعات المسلمة المهمّشة في أوروبا. وفي حين يبدو أن ذلك تحقق نسبياً في الولايات المتحدة، فذلك لا يبدو سهلاً مع الأسف في البلدان الأوروبية. ويكمن سبب آخر لانضمام الشباب المسلم في الغرب إلى «داعش» لشعورهم بالخداع إزاء تأييد البلدان التي يقيمون فيها للحكام المستبدين في بلدانهم الأصلية. وهم عاجزون عن فهم خطاب البلدان الغربية المتكرر حول حقوق الإنسان من جهة ودعمهم من جهة ثانية للدكتاتوريين في العالم الإسلامي، تناقض تستخدمه «داعش» لتعزيز رسالتها للشباب المسلم في الغرب ولتبرير انضمامه إلى القضية السلفية الجهادية. إن الخطورة المحتملة للسلفيين الجهاديين على المجتمعات التي يعيشون فيها تعتمد على ما إذا كانوا يريدون ممارسة العنف في بلدهم وليس بعيداً في سورية أو العراق. ومصطلح «الذئب الإفرادي» مقصود به الجهادي المحتمل الذي لسبب ما لا يستطيع السفر إلى الشرق، ويتحول بالتالي إلى التعاون مع دعوة «داعش» «للقتل أينما كنتم». ويمكن ملاحظة أن المجموعات الباقية في المجتمعات الجديدة أو الخلايا النائمة فيها نفّذت فعلاً عمليات كبرى في أكثر من مكان، من مثل هجمات باريس ٢٠١٥ أو بروكسل ٢٠١٦، والهجومان في تونس سنة ٢٠١٥ قتل فيهما أكثر من ٦٠ شخصاً، بعضهم سيّاح أجانب، في متحف باردو الوطني في العاصمة، وفي استراحة

---

(١٧) انظر: أبو محمد العدناني الشامي، «إن ربك لبالمرصاد،» ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، <https://archive.org/details/bilmirssad>.

ورد أيضاً في: David D. Kirkpatrick, Ben Hubbard, and Eric Schmitt, «ISIS' Grip on a Libyan City Gives It a Fallback Option,» *New York Times*, 28/11/2015.

شاطئية في سوسة، حوالى ٨٠ ميلاً جنوب تونس العاصمة؛ وهجوم سان برناردينو في كاليفورنيا الذي نفّذه زوجان في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥ وترك وراءه ١٤ قتيلاً[١٨].

سمحت هذه العمليات، التي يرتبط منفذوها بأعضاء في التنظيم إما بعامل القرابة وإمّا بالصداقة، لـ «داعش» ولفروع من القاعدة بالضرب في قلب أوروبا وما وراءها مع تداعيات خطيرة سياسية واجتماعية. ومع خطورة التهديد الذي يمثله «داعش» على أمن البلدان والمجتمعات الغربية، إلا أن ذلك يجب أن لا يصل إلى حد المبالغة والهلع أو يخرج عن السيطرة، كما يحلو لبعض الكتّاب أو السياسيين أن يفعلوا، الذين يرفعون تهديداً أمنياً محدوداً إلى مرتبة الخطر «الوجودي»، باعثين الرعب والهلع لدى الرأي العام.

جهاد بالإكراه

بعد تأسيسه الخلافة، واستخدامه الواسع للعنف الزائد، خطف «داعش» جزءاً كبيراً من نجومية القاعدة المركزية. وعليه، بدا «داعش»، التنظيم الذي لا يمكن وقفه أو هزيمته، وجهة الجهاديين الإلزامية أو المرجوة الجديدة. فقد روّج التنظيم صوراً عسكرية خيالية لقدراته حيث الأفعال، لا الكلمات، هي التي تتحدث، فتصنع سمعة جهادية عالية للتنظيم ما يجعله يستحق وفق دعايته أن يكون طليعة الأمة وفخرها وجالب الخزي لأعدائها. وليس المقصود باستعراضه عنفه الوحشي إرهاب أعدائه فقط بل جعل صورته القوية جاذبة للجامعة الإسلامية، ومحرّضاً الشباب المسلم في سورية والعراق والعالم الإسلامي عموماً الباحث عن هوية، ومغامرة، ودماء، وفرص عدالة أفضل، على الانضمام إلى صفوفه. ويظهر «داعش» عنفه الوحشي بالتالي عنفاً عادلاً، مقدساً، ضد أعداء الإسلام الحقيقيين أو المتخيَّلين. ولا يخرج «داعش» في ذلك عن نهج استخدام العنف الذي تتوسله التنظيمات الجهادية كافة توخياً للنتائج السياسية والنفسية المتوقعة منه. فبن لادن، على سبيل المثال، استمر حتى أيامه الأخيرة يدعو أتباعه إلى تنفيذ هجمات كبرى ضد أمريكا شبيهة بهجمات ٢٠٠١/٩/١١. ووفقاً للوثائق والرسائل التي عثر عليها في مخبأ بن لادن والتي سرّبتها السلطات الأمريكية، يتبيّن صعوبة تنفيذ هجمات واسعة النطاق، تنفيذاً لنصائح بن لادن، لا لنقص في الشجاعة، بل بسبب التنصت والضغط المستمرين من الطائرات الأمريكية بلا طيّار[١٩].

بالرغم من أن قاعدة بن لادن هي التي جلبت أعظم الخسائر المادية والبشرية في قلب الأراضي الأمريكية، إلا أن عنف «داعش» الوحشي، «المقدّس»، فاق سابقه من حيث النوع، لما أظهره من جرائم سادية وبنائه حقبة شاملة من الإرهاب. فللبغدادي ومساعديه، الإقناع والإكراه وجهان لعملة

---

(١٨) «Islamic State Unfriended,» *The Economist* (12 December 2015), <http://www.economist.com/news/middle-east-and-africa/21679805-there-are-signs-islamic-states-propaganda-machine-losing-its>.

(١٩) بعض نوابه مثل أبو مصعب السوري، منظّر معروف، يعتقدون أن الهجمات الصغيرة هي أكثر نزيفاً اقتصادياً للغرب. انظر وثائق بن لادن على الإنترنت: <http://1.usa.gov/1ScFGXh>.

انظر أيضاً: «Bin Laden Bent on Spectacular US Attack until the End: Files,» Agence France Presse, 20 May 2015.

واحدة، والطريق للولاء والطاعة يمرّ بالخوف والقوة العارية. يحيل «داعش» على عقيدة تقوم على الحرب الشاملة، ومن دون حدود أو قيود. فهو، وعلى سبيل المثال، لا يوفّر السنّة الذين يظهرون المعارضة أو عدم الولاء من العقاب الوحشي الشديد. ويتدرج العقاب من حرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة إلى صلب الإسلاميين المعارضين له. فالتنظيم في حالة حرب مستمرة، جامعاً قواعد حروب القرن الميلادي السابع إلى التكنولوجيا وأدوات التواصل الحديثة. ويبدو العنف المشهدي أداة لتطهير الأرض من أعداء الإسلام، وإحداث خلل رئيسي يمهّد للمهدي «المنتظر» أن يظهر في اليوم الأخير ليجلب النصر إلى المسلمين. هذا التفكير الماورائي الأخروي هو في صلب أيديولوجية خلافة البغدادي. ورغم أن فكرة الجهاد المتواصل ليست غريبة عن فكر القاعدة إلا أنها لم تصل إلى حد الحرب الشاملة المفتوحة وبأوسع المعايير.

وما يزيد خصوصية «داعش» هو امتناعه عن أي نوع من التنازل أو المساومة، حتى مع فصائل سنّية منافسة مثل جبهة النصرة في سورية. وبخلاف القاعدة المركزية لا يلجأ «داعش» إلى «ذريعة إسلامية» ليبرر بها أفعاله العنيفة؛ بل يذهب دعائيوه إلى حد الحطّ من آراء علماء دين معروفين من مثل أبو محمّد المقدسي، المقيم في الأردن والمرشد الروحي للزرقاوي، باعتبارها «مضللة» وخادعة[٢٠]. في العدد السادس من مجلته دابق، نشر التنظيم صورة للمقدسي وأبي قتادة (داعية سلفي جهادي آخر)، مع عنوان «علماء مضللون». ووضعت المجلة آراءهما في سياق «البدع» (أو الجريمة في حق الله) التي لطالما حذر الرسول منها ومن «الأئمة المضللين»[٢١].

وفي أيار/مايو ٢٠١٤ نشر المقدسي فتوى ضد «داعش» قال فيها «إن البغدادي، وقادته، وإن مفتيه الدينيين، «منحرفون» إنما يعصون قادتهم وكبار علمائهم». وهو نصح جنود «داعش» بالانشقاق والانضمام إلى النصرة[٢٢]. وردّ مسؤول دعاية البغدادي وساعده الأيمن، العدناني، في تسجيل صوتي بث في ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠١٥ محذّراً الجنود المسلمين من أن يأخذوا على محمل الجد «فتوى قرود المعرفة»، في إشارة إلى علماء سلفيين جهاديين مثل المقدسي ممن يدعمون القاعدة المركزية[٢٣]. وفي التسجيل يصبّ العدناني جام غضبه وسخريته على المقدّسي مشنّعاً في سمعته والعلماء الراديكاليين من أمثاله. ولعله من المفيد أن نورد نصاً طويلاً من بيان العدناني لإظهار المدى الذي يبلغه «داعش» في عدم قبول أي نقد أو معارضة، يقول:

---

(٢٠) «Al-Qa'ida of Waziristan: A Testimony from Within,» *Dabiq*, no. 6 (December 2014).

(٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) ورد في: Malik [et al.], «How ISIS Crippled al-Qaeda: The Inside Story of the Coup that Has Brought the World's Most Feared Terrorist Network to the Brink of Collapse».

(٢٣) انظر بيان أبو محمد العدناني على اليوتيوب: <http://www.youtube.com/watch?v=484gfZ2Yodw&spfreload=10>.

انظر أيضاً نص البيان (بالصوت) باللغة الإنكليزية: Abu Mohemmad al-Adnani, «O Our People Respond to the Caller of Allah,» Pietervanostaeyen (blog), 23 June 2015, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2015/06/23/o-our-people-respond-to-the-caller-of-allah-audio-statement-by-shaykh-abu-muhammad-al-adnani-as-shami/>.

«لا تدعوا صيتهم يخدعكم، حتى لو كان لهم تاريخ طويل في الكتابة والمرجعية؛ لأنهم لم يتركوا حضن الطواغيت ولا مشوا إلى الجهاد. لقد قضوا حياتهم مع النساء في غرفهن، يتصيدون هنّات المجاهدين أو أخطائهم. وإذا رابطوا، فعلى التويتر، وإذا قاتلوا ففي مقابلة على محطة أو قناة تلفزيونية. لم يطلقوا رصاصة واحدة دفاعاً عن قضية الله، ولا كانوا مع المجاهدين في معركة واحدة»[٢٤]. والأهمية المضافة في نص العدناني هي في إظهاره أن الأولوية هي للعمل (الجهاد العنفي) وليس للنظرية (الدين)، وهي خصوصية أخرى لـ «داعش». يقول العدناني أكثر من ذلك. ففي ردّ منه سنة ٢٠١٣ على مطالبة فصائل إسلامية منافسة في سورية «داعش» العودة إلى حكم الشريعة. في خلافه مع الفصائل الأخرى، قال العدناني، «الشريعة الوحيدة التي أنتسب إليها هي شريعة الغاب». وبحسب الإسلاميين السلفيين الجهاديين، فكلام نجس ملوّث كهذا، بحسب تعبير المقدسي، يجب أن لا يصدر عن مسلم عادي، فكيف عن سلفي جهادي.

وبحسب المقدسي وعلماء دين رفيعي المركز في الحركة السلفية الجهادية، فإن أفعال «داعش» المغالية لا طائل تحتها، بل تضرّ بسمعة الإسلام الراديكالي. وبدلاً من تفحّص الدوافع والأهداف التي تقف خلف توحش «داعش»، يكتفي المقدسي وأبو قتادة بوصف قادة «داعش» بـ «الخوارج» والطارئين على الإسلام، إذ كانوا سابقاً جزءاً من نضال البعثيين وقتلهم للمسلمين[٢٥]. ومن جانبه، يرى الظواهري أن العيب في البغدادي ربما يكون في شخصيته، وهو ما دفع بن لادن، حسب الظواهري، ليتحفظ عن اختيار البغدادي على رأس «الدولة الإسلامية في العراق» سنة ٢٠١٠[٢٦]. وفي كل الحالات، فالعنف الزائد المستخدم من «داعش»، ورفضه كل تنوع أو تعددية دينية، عملا مباشرة على خلق انشقاق متزايد بين «داعش» وباقي الفصائل السلفية الجهادية.

ثالثاً: تطور الانشقاق السلفي الجهادي

شنّ علماء الدين القدامى، وبسبب من قلقهم على مستقبل الحركة الجهادية العالمية، هجوماً مضاداً عنيفاً على «داعش»؛ فقللوا من شأن البغدادي وأركان تنظيمه واتهموهم بالجهل لاهوتياً ودينياً، ووصفوهم بالمبتدئين، والمدّعين، والكذبة من دون توقف. وبدلاً من مواجهة واقع الحركة الجهادية وتشظيها والظروف التي ساعدت على صعود «داعش»، انصرف الظواهري والمقدسي وأبو قتادة وآخرون إلى دفن رؤوسهم في الرمل غاسلين أيديهم من مسؤولية أعمال القتل الجماعي التي يرتكبها «داعش» باسمهم. ودعاة القاعدة الكبار صامتون حيال التراجع الذي أصاب سرديتهم

---

(٢٤) Al-Adnani, «O Our People Respond to the Caller of Allah».

(٢٥) انظر: «الملكة رانيا تقود مسيرة تهدد «داعش» بالموت... ودور كبير للمقدسي في مكافحة التنظيم،» القدس العربي، ٢٠١٥/٢/٦، <http://www.alquds.co.uk/?p=291697>.

انظر أيضاً: «المقدسي يتهم تنظيم الدولة بـ «تشويه الإسلام»،» الجزيرة نت، ١٦ آب/أغسطس ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/8/16>.

(٢٦) Al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al- Sham [Greater Syria]».

والتمرّد الذي يظهره جهاديو جيل ما بعد القاعدة، تمرّد كان بدأه الزرقاوي سنة ٢٠٠٤، واشتدّ مع خليفته البغدادي الذي آل إليه إرث القاعدة المرّ منذ ٢٠١٠.

وصلت سيطرة القاعدة على حركة الجهاد العالمي واحتكارها إلى نهايتها. ومع ذلك، ترفض النخب الجهادية القديمة التسليم بالوقائع. ولا يزال الأمل يحدو الكثير منهم بإمكان استعادة قاعدة بن لادن وإحياء خطابها. فـ«داعش» هو مجرد «فقاعة»، حسب أبي قتادة عالم الدين المعروف بلغته النارية. وهو يتهم المؤسسات الإعلامية وأجهزة الاستخبارات الغربية بالمبالغة في تصوير أهمية «داعش» ورفعها إلى مستويات لا تتفق مع ما هو عليه التنظيم حقاً. وبحسب تصريح أبي قتادة لقناة الجزيرة، فإن «داعش» برمّته من تصميم غربي والهدف منه «الإجهاز على المشروع الجهادي الذي لقي قبولاً لدى الرأي العام». ووفق هذا المنطق، لجأ الغرب، بعد انتصارات جبهة النصرة، إلى تسليط الضوء على «داعش» البغدادي لوضع حد لتقدم المشروع الجهادي في سورية. ووفق مفردات أبي قتادة، الذي رحّلته السلطات البريطانية إلى الأردن سنة ٢٠١٣ لاتهامات متصلة بالحثّ على الإرهاب، «لقد سقطنا في فخ الغرب الذي ضخّم قوة «داعش»، في استراتيجية عنوانها بناء الأعداء كجزء من صنع النصر»[٢٧]. والمعنى الواضح لآراء أبي قتادة، والمقدسي بدرجة أقل، هو أن «داعش» ظاهرة إعلامية، وتجربة في العلاقات العامة لخداع رفاقه الإسلاميين، أكثر مما هو قوة حقيقية يبنى عليها.

وبعد عام على إعلان الخلافة، بدّل المقدسي وأبو قتادة (الشخصيتان الأكثر حضوراً إعلامياً من رموز الطليعة الجهادية القديمة)، قليلاً من نغمتهما السابقة ليتّهما «داعش» بأنه «انقلاب» على القاعدة المركزية بهدف تدميرها من الداخل وحرف «المشروع الجهادي الإسلامي» عن هدفه الأصلي الذي لطالما سعيا من أجله. لم يعد «داعش»، لهما، مجرد ظاهرة إعلامية صنعها الغرب. ففي حزيران/يونيو ٢٠١٥، وفي الذكرى الأولى لإعلان الخلافة، تحدّث العالمان الإسلاميان الراديكاليان وعدد من أتباعهما إلى الغارديان مطوّلاً، فاتّهما «داعش» بالخيانة وأنه «سرطان ينمو» داخل الحركة الجهادية. وعبّر كلاهما عن دهشتهما من كيفية استخدام «داعش» أفكارهما الراديكالية للدفع بأجندته الخاصة على حساب جهاد القاعدة المركزية العالمي. يقول المقدسي «أخذ «داعش» مؤلفاتنا الدينية كاملة. كلها كتبنا، أفكارنا». أما أبو قتادة فقال، «هم لا يحترمون أحداً»، وكما لو كان «مديراً عاماً» يطالب بحقوق الملكية الفكرية والاحترام لمركزه السامي داخل المؤسسة الجهادية[٢٨]. وقد أسف الرجلان لغياب بن لادن، إذ لو كان لا يزال حيّاً لما تجرأ أحد، برأيهما، على تحدي سلطته؛ فيما لا يملك خليفته الظواهري، برأيهما، القيادة أو السيطرة العملانية لإبعاد خطر «داعش».

---

(٢٧) «أبو قتادة: تنظيم الدولة إلى زوال،» حاوره محمد النجار، الجزيرة نت، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/11/12>.

(٢٨) Malik [et al.], «How ISIS Crippled al-Qaeda: The Inside Story of the Coup that Has Brought the World's Most Feared Terrorist Network to the Brink of Collapse».

كلام المقدسي وأبي قتادة صحيح جزئياً. فتهديد «داعش» لا يصيب فقط نظام الدولة العربية الفاشلة بل هو يستهدف أيضاً القاعدة المركزية والنخبة الجهادية القديمة، بمن فيهم الظواهري والمقدسي وأبو قتادة. و«داعش»، التنظيم الذي ورث القاعدة في العراق، يُظهر علانية رغبته بمهاجمة الحدود الاستعمارية الموروثة وإزالتها، وتولّي قيادة حركة الجهاد العالمي. وعليه، لا يتردد «داعش» في إعلان القطيعة العمرية والأيديولوجية مع الجيل السابق من السلفية الجهادية. لكن الأمر ليس مجرد «مؤامرة» أو افتراق صغير بين الظواهري والبغدادي؛ لقد استغرق ذلك عقداً كاملاً. وكانت الطلقة الأولى في الحرب الداخلية تلك للزرقاوي ضد القاعدة المركزية سنة ٢٠٠٤، وفي خلال حياة بن لادن. لم يحطّ الزرقاوي من قيادة بن لادن فقط، بل هو أسّس لتنظيم محلي منفصل يتمحور جهاده في إطار سياسات الهوية القائمة على الانقسام السني ـ الشيعي. ويحيل الكلام عن بن لادن والظواهري على الزرقاوي لأن تنظيمه «القاعدة في العراق» تجاوز سلطة التنظيم الأم وقبض على النجومية الإعلامية أيضاً. ومع أن كليهما تجنّبا نشر خلافاتهما في وسائل الإعلام، لكن الكتابة كانت واضحة على الجدار خلفهما. وكما بيّنا في الفصل الثاني، كان للزرقاوي وخليفته أبو عمر البغدادي ثم أبو بكر البغدادي اليد العليا على «القاعدة في العراق» ودفعوا بأجندتهم الخاصة إلى الأمام وعلى غير ما اشتهى زعيما القاعدة بن لادن والظواهري وتنظيمهما. أفاد الزرقاوي وأتباعه من بيئة ما بعد الحكم البعثي في العراق التي اتسمت بالفوضى والعنف. أما بن لادن ومساعدوه فكانوا حرصاء أن يظلوا تحت مستوى الرادار في باكستان، بعيداً من أعين أجهزة الاستخبارات، وكانوا عاجزين بالتالي عن ترك أي أثر مهم لهم على الأرض. وفي النتيجة تحوّلت أجزاء كبيرة من الرأي العام المسلم والعربي تدريجاً ضد المشروع الإسلامي الراديكالي، ما دفع بن لادن إلى الاعتذار علناً عن المذابح الجماعية التي نفذها الزرقاوي في العراق. لكن، لا الاعتذار، ولا توسلاته كان لها الأثر المطلوب في تنظيم «القاعدة في العراق» الذي استمر على سياساته الانفصالية المستقلة. وهكذا يجمع المقدسي وأبو قتادة الرمزي إلى الواقعي وهما يرثيان بن لادن، قائلين، «لا أحد يجرؤ على الحديث ضده»[٢٩].

وفي الحقيقة فإن الزرقاوي والبغداديَّين من بعده هجروا جميعاً قيادة بن لادن، رغم استمرارهم في تقديم الطاعة شكلاً لقيادته حركة الجهاد العالمي. وتظهر وثائق مخبأ بن لادن في أبوت آباد، باكستان، التي أفرجت عنها السلطات الأمريكية أنه وكبار قادته كانوا قلقين حول تمرد قيادة فرع القاعدة في العراق. وقد توسلت قيادات تنظيمات جهادية في العراق بن لادن ونوّابه أن يتدخلوا ويوقفوا الأساليب المدمّرة التي تستخدمها «الدولة الإسلامية في العراق»، والتي أضعفت المقاومة ضد التحالف الغربي، وفق قول بن لادن[٣٠].

---

(٢٩) المصدر نفسه.

(٣٠) انظر مكتب مدير الاستخبارات القومية، «رسالة إلى الأمة الإسلامية عموماً». ويدحض سيمون هيرش رواية إدارة أوباما حول مقتل بن لادن. انظر: Seymour Hersh, «The Killing of Osama bin Laden,» *London Review of Books*, vol. 37, no. 10 (21 May 2015), <http://www.lrb.co.uk/v37/n10/seymour-m-hersh/the-killing-of-osama-bin-laden>.

وأبو عبدالله محمد المنصور العيساوي، قائد جيش المجاهدين، التنظيم السلفي الجهادي، حالة أخرى في هذا السياق. ففي كتابه الدولة الإسلامية بين الحقيقة والوهم؛ يفنّد العيساوي، الراديكالي الجهادي المحترم في أوساط المجاهدين، مزاعم «داعش» حول قيام الدولة الإسلامية ويلوم القاعدة المركزية لعدم معاقبة التنظيم العراقي ونزع الشرعية عنه. وهو يلوم الظواهري تحديداً للغته المزدوجة حيال «الدولة الإسلامية في العراق» وعدم إصغائه لآراء تنظيمات عراقية مسلحة عدة حضّته على إدانة سلوك التنظيم[31]. ويذهب رفاق للعيساوي المذهب نفسه في خطورة منهج الانقسام والقتل الذي تمارسه «الدولة الإسلامية في العراق» داخل الحركة الجهادية. ففي رسالة لبن لادن بتاريخ أيار/مايو ٢٠٠٧، من «جبهة الجهاد والإصلاح» (فصيل جهادي عراقي)، ينبّه الفصيل بن لادن لـ «الأخطاء الكارثية والقاتلة الجارية» التي ترتكبها «القاعدة في العراق»، السابقة لـ«الدولة الإسلامية في العراق والشام» التي تعصي أوامر القاعدة بهجماتها على رفاقها من السنّة: «إذا كان لا يزال في وسعكم، فهذه هي الفرصة الأخيرة لتفادي انهيار الجهاد الذي هو على وشك أن يحصل»[32].

لكن التحذيرات تلك لم تجد عند بن لادن، الذي وازن بين حسنات ردعه لتنظيم «الدولة» وسلبياته، غير آذان صمّاء. كان امتناعه عن الدخول في أي مواجهة مع التنظيم استراتيجياً لأنه لا يملك على الأرض الإمكانات التي تسمح له بذلك. فالغارات المتواصلة من الطائرات الأمريكية بلا طيار من باكستان على القاعدة المركزية قتلت مَنْ قتلت من قادتها وعناصرها، ودفعت قيادتها إلى تحت الأرض، وقطعت تواصلها مع فروعها في الخارج. بل غدت القاعدة المركزية نفسها معتمدة على فروعها المحلية في الخارج، من مثل «الدولة الإسلامية في العراق»، و«القاعدة في شبه الجزيرة العربية واليمن»، من أجل التمويل والمتابعة. وقد رأينا في الفصل الثاني كيف حضّ الظواهري الزرقاوي أن يرسل له ١٠٠ ألف دولار أمريكي للنفقات، طلب يوضح تلقائياً كيف غدا توازن القوة بين المركز والفروع.

كان قادة «الدولة الإسلامية في العراق» قادرين على توفير معظم تمويلهم من الخزان المالي للجهاد العالمي عبر تقديم أنفسهم المدافعين الوحيدين عن الجماعة السنّية «ضد الشيعة وأسيادهم الفرس». كما وفّرت «القاعدة في شبه الجزيرة العربية واليمن»، التي كانت قد تحوّلت إلى تنظيم قوي، للقاعدة المركزة تمويلاً ثابتاً. كانت القاعدة المركزية، وبفعل تحول ميزان القوة نحو الفروع المحلية، قد غدت عاجزة عن تمويل نفقاتها الأساسية فكيف بتمويل عمليات عسكرية. وبالرغم من أن بن لادن ونوابه كانوا يحتجون سرّاً على ذبح تنظيم الدولة العشوائي للمسلمين في العراق، إلا أنهم أبقوا علناً أفواههم مطبقة. ففي مذكرة للمتحدث غالباً باسم القاعدة آدم غادان، المعروف

---

(٣١) أبو عبد الله محمد المنصور العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم ([د. م.: د. ن.]، ٢٠١٤)، ص ١٥٤ ـ ١٦٠.

(٣٢) انظر: مكتب مدير الاستخبارات القومية، «رسالة إلى الأمة الإسلامية عموماً». انظر أيضاً: Corina Cass and Robert Burns, «US Releases 100+ bin Laden Documents,» Associated Press, 20 May 2015.

بـ «الأمريكي»، وكشف عنها أخيراً، عبّر الرجل عن تبرّمه من قلة احترام تنظيم الدولة الإسلامية في العراق أوامر القيادة المركزية، وانتقد ضمناً ردودها السلبية. ففي رسالة منه إلى بن لادن في كانون الثاني/يناير ٢٠١١، يسأل غادان كيف يُسمح لتنظيم الدولة أن يلوّث سمعة القاعدة وذلك بقتله من دون تمييز المسلمين ومن دون أن يتلقى أوامر أو حتى يتواصل مع قيادة التنظيم. يقول غادان، «ربما يكون من الأفضل ألا يكونوا في صفوف المجاهدين، لأنهم مثل البقعة الملوّثة يجب أن تُنزع وتُطهّر وتُنظّف من بين الصفوف»[٣٣].

وبخلاف ما يشيعه المقدسي وأبو قتادة، فإن تمرد تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق» على القاعدة المركزية حدث في خلال حياة بن لادن، وقبل أن يقرر التنظيم الطلاق مع والديه سنة ٢٠١٤. كان موت بن لادن مناسبة للتنظيم ليتخلص نهائياً من ارتباطه بالقاعدة، وبخاصة مع تسلم الظواهري مكان بن لادن، والمعروف بضعفه وسياساته التقسيمية. لكن الحقيقة هي أن لا بن لادن ـ ولا خليفته الظواهري ـ عاد يملك من الأوراق أو الشجاعة لوضع حد لسلوك قيادة الفرع في العراق خوفاً من خسارة موقع لهم في الساحة الجديدة في قلب الوطن العربي. وربما هي ليست مسألة شجاعة في النهاية. فكلاهما ما عادا يملكان الإمكانات لمقاومة تنظيم الدولة في العراق أو إجباره على أي شيء، في الوقت الذي ينجح التنظيم في العمل مستقلاً واحتلال الأراضي وتملّك الموارد. لذلك استمر كلاهما يكيلان المديح للتنظيم رغم عصيانه أوامرهما واستمراره في سياسات القتل ضد رفاقه من السلفيين الجهاديين أو المدنيين العراقيين. وفي نقاش على موقع الشباب الإلكتروني، الجهاز الدعائي للقاعدة، نفى الظواهري علناً وجود أي خلاف مع تنظيم الدولة بل امتدح على نحو مخادع التنظيم لشرعيته الدينية، القائمة على الشورى والبيعة من المجاهدين والعشائر العراقية، الزعم الذي لا يستند إلى أساس وكذّبه من قبلُ كلام العيساوي، قائد «جيش المجاهدين». وليزيد الإهانة إلى الجرح، وإظهار انحيازه، ناشد الظواهري الجهاديين المنافسين لتنظيم الدولة في العراق الانضمام إليه وتجنب الحرب الداخلية بين الفصائل المتمردة[٣٤]. وفي كل الأحوال كانت تلك محاولات من بن لادن والظواهري لحفظ ماء الوجه بعدما خسرا فرع القاعدة في العراق كلياً.

إلا أن الظواهري، وبعدما شنّ تنظيم الدولة حملته الشاملة على شركائه في سورية ٢٠١٣ ـ ٢٠١٤، عاد إلى الهجوم على «داعش» بالقول إن بن لادن لم يكن محبذاً لإقامة «الدولة الإسلامية في العراق» ونصح سرّاً ضباطه المحليين في العراق بمعارضته. إلا أن قادة القاعدة الكبار

---

(٣٣) ورد في: Malik [et al.], «How ISIS Crippled al-Qaeda: The Inside Story of the Coup that Has Brought the World's Most Feared Terrorist Network to the Brink of Collapse».

انظر أيضاً: مكتب مدير الاستخبارات القومية، «رسالة إلى الأمة الإسلامية عموماً».

(٣٤) للاطلاع على آراء الظواهري، انظر: «اللقاء المفتوح مع الشيخ أيمن الظواهري ـ الجزء ٤»، <https://www.youtube.com/watch?v=2f2XLkCG3Ls>.

وللاطلاع على إجابة العيساوي، انظر: العيساوي، الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم، ص ١٥٤ ـ ١٦٠.

كانوا أمام أمر واقع لا يملكون بإزائه خيارات كثيرة. وأضاف أنه لم يكن له ولبن لادن يد في اختيار البغدادي أميراً للدولة الإسلامية في العراق، وأنهما حين سألا عن ذلك، أجيبا بأنه اختيار مؤقت نظراً إلى المخاطر الأمنية الموجودة في العراق[٣٥]. إلا أن حجج الظواهري غير كافية لتفسير لماذا دعم الرجلان تنظيم القاعدة في العراق مع معرفتهما بأجندته الخاصة والمستقلة عن التنظيم الأم. وتفاقم التناقض أكثر من ذلك، حين تطور تنظيم الدولة في العراق إلى تنظيم «الدولة الإسلامية في العراق والشام». وظل الرجلان يدعمان فصائل إسلامية متمردة متنافسة في إشارة واضحة إلى ضعفهما الزائد وعجزهما عن تكوين قرار مستقل ملزم للفصائل المتمردة كافة في العراق.

سيكون من الخطأ الاعتقاد أن بن لادن والظواهري قد انطلى عليهما إظهار تنظيم الدولة الولاء لهما. فوثائق مخبأ بن لادن التي أفرج عنها أخيراً تظهر أنه ومساعديه كانوا ينتقدون سرّاً تنظيم «القاعدة في العراق» بسبب تمرده ووحشيته. إلا أنهما مع ذلك، حلّلا الموقف جيداً وأدركا أنهما لأسباب واقعية عاجزان عن مواجهة التنظيم المتمرد، ومعظمها يتصل ببقاء التنظيم والكفاح ضد العدو البعيد ـ أمريكا. كان الرجلان مصممين، في ظل الهجوم الأمريكي على الحركة الجهادية، على الاحتفاظ بالمشروع الجهادي العالمي وتجنُّب الانقسامات الداخلية مهما كان الثمن. كانت الأولوية عندهما وحدة المجاهدين بمعزل عن مسألتي تطابق الأيديولوجيا والولاء، حتى بعد هزيمة تنظيم الدولة أمام الأمريكيين بين سنتي ٢٠٠٦ و٢٠١٠. فالوثائق المفرج عنها تظهر أن القائد الذي كان يزداد ضعفاً بدا قلقاً جداً من أن القتال الداخلي بين الفصائل المجاهدة سوف يضعف الجميع ويمكن أن يقضي على الحركة الجهادية[٣٦]. وقد أضحت القاعدة نفسها ـ بعدما فرّت من أفغانستان وتوزّعت في دول عدّة ـ تنظيماً ضعيفاً ومن دون مركزية. وأدّى التوزع إلى الضعف والانحلال. لم تعد القاعدة المركزية قادرة على أن تفرض إرادتها على أفرعها وأفرادها. لقد أضحت بقايا موزّعة متفرّقة، ركام أمكن لـ «داعش» أن ينهض منه[٣٧].

اكتسبت الفروع المحلية أو الإقليمية للقاعدة، مثل قاعدة الزرقاوي في العراق، الكثير من الصيت والسلطة، تاركة بن لادن والظواهري في الظل. لم يكن في وسع بن لادن ومساعديه المعزولين جغرافياً في منطقة نائية على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، والمطارَدين باستمرار من طائرات بلا طيار، أو من القوات الخاصة الأمريكية، ممارسة سيطرة عملانية على الشبكة المتهالكة. لقد انتقل مركز النشاط والتمويل الجهاديَّين من الأطراف إلى قلب الوطن العربي، العراق واليمن وسورية. وغدا تنفيذ الأوامر المركزية رهناً بتقدير القادة المحليين وإرادتهم. لقد غدت القاعدة المركزية، وبفعل حاجتها المادية الماسة وصعوباتها العملانية، تحت رحمة الطليعة المحلية الصاعدة وطموحاتها الشخصية، بعيداً من التراتبية القيادية أو الالتزام الأيديولوجي. وكما رأينا من

(٣٥) Al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al-Sham [Greater Syria]».

(٣٦) مكتب مدير الاستخبارات القومية، «رسالة إلى الأمة الإسلامية عموماً».

(٣٧) «Al Qaeda in 2007: The Continuing Devolution,» Stratfor, 28 December 2006, <https://www.stratfor.com/sample/analysis/al-qaeda-2007-continuing-devolution>.

قبل، فبينما كان الزرقاوي يظهر الطاعة شكلاً لقيادة بن لادن، كان عملياً يتمرد على قيادته وينفذ أجندته الخاصة في العراق، مفتتحاً حقبة من التمرد على القاعدة الأم. لقد حدث تمرّد «داعش» على القاعدة المركزية تحت سمع بن لادن وبصره.

رابعاً: تعميق الحرب الداخلية

كان مقتل بن لادن، القائد الكاريزمي التاريخي، سنة ٢٠١١ القشة التي قصمت ظهر «القاعدة»؛ فقد أدى غيابه إلى الحطّ من سلطة الحركة الجهادية العالمية في عيون القادة الطموحين مثل البغدادي، الذين كانوا يتحيّنون الفرصة ليضربوا ضربتهم النهائية. ولم يكن من فرصة أفضل للبغدادي من هذه: موت بن لادن، واضطراب اجتماعي وسياسي في المشرق وشمال أفريقيا وخارجهما. وقدّم الأمران معاً الأرض الخصبة لـ «الدولة الإسلامية في العراق» للبروز أكثر والتمدد خارج موطنه العراقي. أما بعد تمدده نحو سورية سنة ٢٠١٢ فميزان القوى كان قد أصبح في صالح تنظيم «الدولة» كلياً. ولم يحمل ذلك لتنظيم القاعدة المركزية إلا أقصى التحدي والحطّ من مركزها وسلطتها. فالظواهري، وبخلاف بن لادن، وحسب جهاديين يعرفونه من قرب، كان ضعيفاً وعاجزاً بالتالي عن استعادة ولاء الفروع للقاعدة الأم، وكان إلى ذلك تقسيمياً دخل في الخلافات الداخلية الفقهية والسياسية للفصائل الجهادية طوال ثلاثة عقود. وإذا أضفنا إلى ذلك حرب الولايات المتحدة الشاملة على التنظيم وإجباره على التفكك والنزول تحت الأرض، اكتملت صورة التنظيم العاجز المعزول عن القادة المحليين. وعليه غدا الظواهري، تبعاً للظروف المستجدة، شخصية عامة أكثر مما هو قائد أركان فعلي، وغدت «نصائحه» مجرد وجهة نظر يمكن إرادياً قبولها أو رفضها، ومن دون أي سلطة وازنة. ومن الخطأ بالتالي الذهاب إلى ما ذهب إليه البعض، من مثل المقدسي وأبي قتادة، من أن التغيير في رأس القاعدة المركزية هو الذي أطلق يد «داعش». أما الصحيح فهو ما جهد الكتاب لإبرازه من أن أسباباً بنيوية أكثر أهمية كانت خلف صعود «داعش» وأفول «القاعدة».

غدا الاصطدام في المقاربات والفارق في الموارد بين «داعش» والقاعدة أكبر حجماً وعمقاً عمّا كان سابقاً في صفوف المجاهدين. وإلى الصراع الشخصي الشرس على السلطة بين البغدادي والظواهري، كان هناك خط انقسام آخر أكثر عمقاً يتصل بهوية الحركة السلفية الجهادية ومستقبلها. ومع أن التنظيمين ينتميان إلى الأسرة السلفية الجهادية ويتشاركان المواقف الرئيسية نفسها، إلا أنه كان لهما تفسيران مختلفان للأيديولوجية عينها. فالبغدادي، ومعه جيل الجهاديين القدامى، يعارضون حرب الإبادة ضد الشيعة كما القتل العشوائي للمسلمين. كرر بن لادن والظواهري باستمرار أنهما لا يدينان الشيعة العاديين وحذّرا من إراقة دم المسلمين. وفي موضوع تأسيس الدولة الإسلامية، رأت القاعدة المركزية وبخلاف رأي «داعش» ضرورة المقاربة التدريجية للمسألة والنظر إلى الخلافة باعتبارها الهدف الأخير، وليس الآني. عدّلت القاعدة قبل عامين في الكثير من مواقفها الحادة القديمة وباتت تدعو ناشطيها إلى الاندماج في المجتمعات المحلية وتجنب إثارة

الرأي العام الإسلامي[٣٨]. وفيما يدين «داعش» حركات الإسلام التقليدي التي تشارك في السياسات الرسمية لمجتمعاتها، مثل الأخوان المسلمين في مصر، و«النهضة» في تونس، وحماس في غزة، ذهب الظواهري إلى عكس ذلك تماماً ونظر إليهم باعتبارهم مجرد مشتبه عندهم ويمكن أن يكونوا حلفاء محتملين. وبالإفادة من دروس الماضي، وبخاصة تجربة العراق في أيلول/سبتمبر ٢٠١٣، نشر الظواهري سلسلة وصايا جعل فيها الأولوية للجهاد ضد «الرأس العالمي للكفّار» (الولايات المتحدة) و«زبانيتها المحليين» وأفتى بعدم جواز القتل العشوائي للمدنيين غير المقاتلين، بمن فيهم الشيعة والأقليات عموماً[٣٩]. كانت تلك محاولة من القاعدة المركزية لوضع حدود ومعايير لاستخدام العنف، في إثر النقد الواسع النطاق لعمليات القتل العشوائي، وفي محاولة من التنظيم لاستعادة ثقة الجمهور دعمه وانتزاع موقع له بين الأوساط المحلية، الأمر الذي أولاه الظواهري الكثير من الجهد على أمل بعث الحياة في عروق تنظيمه.

وعلى النقيض، رأى متشددو «داعش» أن الظواهري إنما يخون بذلك تراث القاعدة وشهدائها الذين قضوا في ذاك الطريق. بل طلبوا إليه، في رسالة حادة من العدناني، التكفير عن خطاياه ضد الجماعة السلفية الجهادية. صبّ العدناني في رسالته جام غضبه على الظواهري، فاتهمه بالفتنة بين الجهاديين، وطلب إليه التكفير عن الآثام التي ارتكبها والاعتذار عن أرائه اللاإسلامية. وبينما يؤكد العدناني أن الظواهري كان قد كفّر كل الشيعة، والجيوش العربية، والتنظيمات الإسلامية التي تقبل بقواعد العمل السياسي، يذهب أبعد من ذلك بالسؤال عن صدقية التزام الظواهري بقاعدة بن لادن، ويشير إلماحاً إلى أن الظواهري ربما يكون قد ترك هويته الجهادية. وينهي العدناني بموافقة الظواهري في أن الخلاف بين القاعدة و«داعش» ليس خلافاً على الأرض أو السلطة، بل خلاف في العمق حول توجهاتهما الفلسفية والأيديولوجية[٤٠]. تضيء الخلافات والفروقات العميقة التي ذُكرت على الصراع الحاد الجاري على قيادة الحركة الجهادية العالمية.

لم يكن الجهاديون في أي يوم من الأيام على مثل ما أصبحوا عليه من خلافات داخلية وفي ميادين القتال، وفي استعراضهم على الملأ لتناقضاتهم الأيديولوجية والعملانية. وفيما يصرّ الطرفان علناً على التزامهما بالوحدة الإسلامية وإظهار ما بينهما من وشائج رفاقية، إلا أنهما كانا يتصرفان عملياً كقبائل ترفع راياتها. على سبيل المثال، بينما يعلن «داعش» والنصرة تعهدهما وحدة الأمة،

---

(٣٨) مع ذلك، فالقاعدة، وحتى حين كانت لها اليد العليا في التسعينيات ومطلع العشرينيات، لم تتصرف في أفغانستان وباكستان بعقلانية أو على نحو سلمي في المناطق التي كان في وسعها ممارسة السلطة فيها مع حلفاء محليين.

(٣٩) أيمن الظواهري، «إرشادات إلى الجهاديين،» <http://www.arrahmah.com/arabic/as-shab-tqdm-twjyhat-aamt-llml-al-jhady-llshykh-al-amyr-aymn-az-zwahry.html>

(٤٠) أبو محمد العدناني الشامي، «عذراً أمير القاعدة،» مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٤، <https://justpaste.it/othran>.

انظر أيضاً: «مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي تقدم: «هذا وعد من الله» الشيخ أبو محمد العدناني الشامي (حفظه الله)،» اليوتيوب، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٤، <http://www.youtube.com/watch?v=Uen14MVYNqk>.

والنسخة الإنكليزية: Al-Adnani, «This Is the Promise of Allah».

ومحو الحدود «الاستعمارية» التي أقامتها القوى الأوروبية قبل مئة عام تطبيقاً لاتفاقية سايكس - بيكو، نرى التنظيمين اللذين يحتلان أراضي في العراق وسورية يقتتلان بعنف في ما بينهما بدعوى تدمير تلك الحدود، وعلى نحو لم يفعله النظامان البعثيان في الاحتفاظ بالحدود تلك. لقد غدا القتال بين البغدادي والجولاني أكثر دموية من الصراع الذي كان نشأ بين صدّام حسين وحافظ الأسد. وحين أعلن البغدادي من طرف واحد دمج «داعش» مع النصرة، ردّ الجولاني بالرفض وأصرّ على الاحتفاظ بالسيادة على «إقطاعيته» السورية.

وجاء القتال اللاحق بين «داعش» والفصائل المتحالفة مع القاعدة المركزية وفق خطوط إقليمية وقبلية وإثنية وحتى قومية. يعكس التنافس الجهادي - الجهادي الجاري صورة التنافس البعثي - البعثي سنوات السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، ولكن تحت لافتات ومرجعيات دينية بدلاً من العلمانية والقومية التي كانت من قبل. وبالرغم من خطاب الوحدة والتضامن الإسلاميين، يبدو السلفيون الجهاديون على العكس منخرطين في اقتتال داخلي، تماماً كما كان أعداؤهم القوميون من قبل. ومن باب التكتيك والخداع، يخفي هؤلاء صراعاتهم المتعددة خلف مفردات دينية ووجودية كبيرة. وعلى سبيل المثال، يستخدم البغدادي وقادته الخلافة كسلاح اختاروه ضد رفاقهم الجهاديين الجوّالين. هم يحاولون إسكات أي معارضة أو تعدد في الرأي بزعمهم أنهم حرّاس الإيمان والمدافعون عن الأمة، إضافة إلى ما يقال من استبعاد البغدادي غير العراقيين عن القيادة في «داعش»[41]. كذلك، سجّل قتال داخل «داعش» في الرقّة ودير الزور والموصل بين «الأنصار» (المقاتلون الأجانب) والسوريين والعراقيين الذين يشعرون أن لهم الأفضلية على الأجانب في تولي كل المراكز القيادية في إدارة المناطق المحررة من بلديهما.

وإلى ذلك، يجب أن نتذكر دائماً أن الحركة الجهادية العالمية عانت، تاريخياً، تناقضات أيديولوجية وانقسامات اجتماعية، ما أضعف على الدوام من وحدتها وسمعتها. وأحد الأفكار المفتاحية لكتابي المنشور سنة ٢٠٠٥ العدو البعيد: لماذا أصبح الجهاد عالمياً[42]؟ هو أن القاعدة إنما نشأت، ولو جزئياً، كردّ على محاصرة الحركة الجهادية في التسعينيات وهزيمتها من ثم على أيدي الأنظمة العربية. أضاء «العدو البعيد»، وبخلاف ما يعتقده معظم الأكاديميين والمعلقين الذين ينظرون إلى الجهاديين كجسم واحد من دون شقوق، على التناقضات والخلافات الكامنة والممزقة لصفوف الجهاديين والتي ظهرت إلى العلن أواخر تسعينيات القرن الماضي. وعلى سبيل المثال، فُبعيد اغتيال الجهاديين المصريين أنور السادات سنة ١٩٨١، انقسم هؤلاء وهم في السجن إلى

---

(٤١) انظر: «"ويكيليكس البغدادي" تكشف "داعش" على حقيقتها... تغريدات "مؤلمة"،» زمان الوصل (٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)، <https://zamanalwsl.net/news/45122.html>.

انظر أيضاً: Christoph Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State,» *Der Spiegel*, 18/4/2015.

(٤٢) Fawaz Gerges, *The Far Enemy: Why Jihad Went Global*, 2nd ed. (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2009), (1st ed. 2005).

جماعتين متنافستين: «الجماعة الإسلامية» و«تنظيم الجهاد». وبلغت خلافاتهما الفقهية والعملانية حدّ تنازعهما حول ما إذا كان في وسع عالِم أعمى أن يكون زعيماً للحركة.

وللخلافات تلك داخل الحركة الجهادية برمّتها، وداخل كل تنظيم فيها، تاريخ طويل دار وراء أبواب مغلقة قبل أن يظهر إلى العلن. فخلال تسعينيات القرن الماضي والعقد الأول من القرن الحادي والعشرين، انخرط المسلحون الجزائريون بقيادة «الجماعة الإسلامية المسلحة»، التي غدت لاحقاً «الجماعة السلفية للدعوة والقتال»، في اقتتال داخلي دموي، وبخلل بنيوي، ما سمح للحكومة الجزائرية أن تقضي عليهم. كذلك، واجه الظواهري تمرداً من داخل «تنظيم الجهاد» حين أمر سنة ٢٠٠١، وكأمير للتنظيم، بدمجه مع قاعدة بن لادن، تحت اسم «قاعدة الجهاد». وأحد الأسئلة التي جرى الانقسام حولها هو حول أي عدو يجب استهدافه. فكثيرون من مسؤولي التنظيم لم يوافقوا على الانضمام إلى الحلف المقدس الجديد ضد العدو البعيد لأنهم يشعرون أن ضرب أمريكا قد يتسبب بزوال الحركة. أما «الجماعة الإسلامية» فنأت بنفسها عن تنظيم قاعدة الجهاد وحذّرت أتباعها من الانخراط فيه. وهكذا يبدو جلياً أنه حتى القاعدة، وفي أيام بن لادن، كانت قد أصيبت أيضاً بوباء التوترات والانقسامات.

صرف بن لادن الكثير من وقته وجهده محاولاً تهدئة خواطر مقاتليه ورأب الصدع بين بعض أركانه. فقد شكا المقاتلون السعوديون ومقاتلو شمال أفريقيا من هيمنة المصريين على قرارات بن لادن. ورغم أنهم أقلية في التنظيم، لكنهم شكلوا أكثرية في الحلقة الداخلية لـ بن لادن. وكان المصريون وآخرون ينتقدون قرار بن لادن عدم شن ضربات كبرى داخل السعودية، ناسبين معارضته إلى كونه سعودياً. كذلك لم يكن هناك من ودّ بين المقاتلين العرب وطالبان، وكانت الشكوك متبادلة. خشي قادة طالبان، باستثناء أميرها المُلّا عمر، من أن القاعدة تتصرف كدولة داخل الدولة، وتخرّب علاقات أفغانستان الدولية، وخصوصاً بالسعودية والولايات المتحدة. في المقابل، كان المقاتلون العرب ينظرون باحتقار إلى زملائهم الأفغان لقصورهم، برأيهم، في فهم الإسلام الحقيقي (العربي)، كما أن ارتباط بعضهم بالمزارات يصدم حساسيات السلفيين العرب[٤٣].

بالإضافة إلى التناقضات والخلافات التي أصابت المشروع الجهادي العالمي منذ نشأته في سبعينيات القرن الماضي، أضافت ولادة تنظيم القاعدة في العراق بعد الغزو الأمريكي للبلاد سنة ٢٠٠٣ مساحة إضافية للتنافس الداخلي الحاد بين السلفيين الجهاديين. وبينما كان الزرقاوي، مؤسس الدولة الإسلامية في العراق، هو من أطلق الرصاصة الأولى في هذه الحرب الأهلية (راجع الفصل الثاني)، فإن ورثته ذهبوا أبعد كثيراً من ذلك بقطعهم حبل الصرّة الذي كان يربطهم بالجهاديين القدامى وإظهارهم التصميم على وراثة أخطاء تنظيم بن لادن والظواهري. ففي أواخر سنة ٢٠١٣، شنّ «داعش» حربين شرستين للاستيلاء على الحركة الجهادية وتحويل هويتها. ولا عودة، كما يبدو، إلى الوراء. فقد سال دم كثير والعداوة في أوجها. وبات كل طرف ينظر إلى الصراع الجاري باعتباره

---

(٤٣) المصدر نفسه، الفصلان الثاني والثالث.

حرب وجود. وبمفردات أبي قتادة، «هم [«داعش»] يدمرون الحركة الجهادية الأوسع وهم ضد الأمة بأكملها»[٤٤]. ويصف «داعش» الصراع أيضاً بمفردات وجودية أخروية ـ شرع الله مقابل شرع البشر ـ ويصنّف منافسيه من الإسلاميين كعملاء وآثمين يضحّون بالجهاد على مذبح الطموحات والمصالح البشرية[٤٥].

لقد بات واضحاً الآن أن القاعدة المركزية انتهت كفدرالية للفروع العالمية التي تدين بالولاء لقيادتها. انكسرت الحلقة التي تصل الجميع، وباتت هي الأضعف بين الحلقات جميعاً، وانشطرت الحركة إلى معسكرين متحاربين ـ بقايا القاعدة القديمة من جهة و«داعش» الصاعد من جهة ثانية. وبحسب التقرير السنوي لوزارة الخارجية الأمريكية الصادر في حزيران/يونيو ٢٠١٥، فـ«داعش» هو من يختطف اللحظة الراهنة على حساب التنظيم الأم، «كزعيم فرض نفسه قسراً على الحركة الجهادية من خلال توسعه السريع وإعلانه تأسيس الخلافة»[٤٦]. حاول الظواهري منذ البدء عرقلة صعود «داعش» العاصف الذي بات يهدد مركبه بالغرق. رأى بأم العين انشقاق قادته الميدانيين وانضمامهم إلى «داعش» ولم يكن له القدرة على وقف نزيف تنظيمه. كان البغدادي في الحقيقة يكمل ما بدأه الأمريكيون ـ حلّ القاعدة المركزية من خلال تدميرها من الداخل. ولم يبقَ للظواهري ومساعديه بعد ذلك غير رجاء «وقف إراقة الدم المسلم الحرام» وليضحي بحقه في الخلافة ويركّز فقط على العراق. دعا الظواهري البغدادي ليتبع خطى حفيد رسول الله، الحسن، الذي تنازل عن حقه بالخلافة ليحفظ دماء المسلمين: «ألا يكفي هذا المدّ المفرح؟ ألا يفرحكم أن تأخذوا قراراً يجعل لكم الله الدنيا والآخرة؟...أيها الشيخ الجليل، اتبع جدّك وكن خير خلف لخير سلف وستفوز في الدنيا والآخرة»[٤٧].

مع ذلك، لم تجد نداءات الظواهري إلا آذاناً صمّاء. فقيادة الحركة الجهادية العالمية هي الموضوع، وليس مجرد خلاف بين الجولاني والبغدادي. وخطة البغدادي الكبرى هي أن يكون القائد بلا منازع، الخليفة، على كل العالم الإسلامي كما على الحركات الجهادية العابرة للحدود. وقد رأينا مطالبة العدناني، المتحدث باسم البغدادي، كل الجماعات الجهادية (في كل العالم الإسلامي، وليس فقط في سورية والعراق)، بما فيها قاعدة الظواهري، بتقديم الطاعة لدولة البغدادي الإسلامية، لأن «شرعية» منظماتهم باتت معدومة. قال العدناني لمقاتلي «داعش»: «إذا أراد أي كان كسر صفوفكم فاقطعوا رأسه بالرصاص وأخرجوا جوفه، كائناً من كان»؛ وهو تهديد واضح بأن أي معارضة أو مقاومة لـ «داعش» مصير صاحبها الموت[٤٨].

---

(٤٤) ورد في: Malik [et al.], «How ISIS Crippled al-Qaeda: The Inside Story of the Coup that Has Brought the World's Most Feared Terrorist Network to the Brink of Collapse».

(٤٥) أبو محمد العدناني الشامي، «عذراً أمير القاعدة،» مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي.

(٤٦) US Department of State Publication Bureau, Bureau of Counterterrorism, «Country Reports on Terrorism 2014,» June 2015, <http://www.state.gov/documents/organization/239631.pdf>.

(٤٧) Al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al- Sham [Greater Syria]».

(٤٨) أبو محمد العدناني الشامي، «عذراً أمير القاعدة،» مؤسسة الفرقان للإنتاج الإعلامي.

أما بشأن طلب الظواهري من «داعش» الانسحاب من سورية والتركيز فقط على العراق، فيرد العدناني أن ذلك «مستحيل» لأن «داعش» يطبّق شرع الله هناك، قائلاً إن تسليم سورية على طبق من فضة للمعارضة قد يرضي القاعدة لكنه لن يرضي الله (في إهانة مباشرة لشرعية الظواهري الدينية). وذكّر العدناني الظواهري أن «داعش» لم يتدخل في تونس ومصر وليبيا، لكن القاعدة لم تفعل شيئاً لوقف انزلاق تلك الدول نحو السياسات الانتخابية والبرلمانية، وهي غير إسلامية برأي الجهاديين. وفي إهانة إضافية يسأل العدناني الظواهري عن ملاءمته ليكون زعيماً للحركة الجهادية العالمية بينما يدعوه بعض أتباعه بأمير القاعدة المركزية «الجبان». ويتهم العدناني، باسم «داعش»، الظواهري بحرف القاعدة المركزية عن أهدافها وتحويلها إلى تنظيم سياسي مدجّن لا يجمعه شيء مع مؤسسها بن لادن[٤٩]. والنقاط الأساسية في خطابه هي أن قاعدة الظواهري قد فقدت تفويضها، كجماعة جهادية مقاتلة، وسبب وجودها، وأن «داعش» هو من ورث تراث بن لادن كطليعة للسلفية الجهادية العابرة للحدود. وهو يقلب انتقادات معارضي «داعش»، مثل المقدسي وأبي قتادة، على رؤوسهم. فهو يتهم الظواهري بعدم الإخلاص لمواقف القاعدة الأصلية ثم الانزلاق في مهاوٍ حادة بدل اتباع بن لادن في طريقه الصاعد؛ وهو اتهام يهدف إلى النيل من سمعة الجهادي القديم أمام جنوده وضباطه. ولتبرير ثورتهما، يرى البغدادي والعدناني أن القاعدة المركزية التي كانا قد بايعاها الولاء لم تعد موجودة وقد ماتت بموت بن لادن.

خامساً: «داعش» يتربّع على القمة

يعرف الظواهري أنه في موقف دفاعي. فـ «داعش» في صعود متزايد، وباتت له اليد العليا في العراق وسورية، وهو يهدد أيضاً سلطة «القاعدة» في اليمن ومصر وليبيا والمغرب، وأفغانستان وباكستان، وغيرها. وإلى ذلك، خطف «داعش» السردية الأيديولوجية من قاعدة الظواهري وفاز بأفئدة الشباب المسلم السنّي المتحمس وعقولهم[٥٠]. فرسالة «داعش» الأيديولوجية إلى العرب السنّة أكثر وضوحاً وتحديداً وقوة من الناحية الاستراتيجية من رسالة القاعدة المركزية وفروعها المحلية مثل النصرة في سورية، والقاعدة في شبه الجزيرة العربية واليمن، والقاعدة في المغرب الإسلامي التي تنشط في الصحراء والساحل. و«داعش» يقدّم نفسه باعتباره المدافع الأوحد عن السنّة ضد أعداء الإسلام وهو لا يتراجع أو يساوم على رسالته الاستراتيجية وذلك بتحييد نفسه كلياً عن القوى الإقليمية. ففي سورية والعراق، على سبيل المثال، لا يقاتل «داعش» الحكومات المركزية ذات القاعدة الأقلية بل كذلك الكرد، الذين يتطاولون على أراض يسكنها العرب السنّة ويوسّعوا من أراضيهم لإعلان دولة منفصلة خاصة بهم. وعليه، فقد سمحت رسالة «داعش» المستهدفة، كحام

---

(٤٩) المصدر نفسه.

(٥٠) وائل عصام ورائد الحامد، «بعد عام على سقوط الموصل: التنظيم يتفوق على منافسيه بالصراع على العقول قبل الميادين،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٤، <http://www.alquds.co.uk/?p=367479>.

للعرب السنّة ضد الشيعة والكرد، للتنظيم ببناء جمهور موال له في المناطق التي يحتلها بينما هو يطرد الآخرين[٥١].

وكما ذكرنا من قبل، جذب إعلان الخلافة الجهاديين التقليديين أو الطارئين وقلل من قدرة قاعدة الظواهري على منافسة «داعش» أو إيقاف انشقاق قادته ومقاتليه نحو منافسه. وإلى تاريخه، وبعيداً من مكاسبه العسكرية، يأتي استهداف الولايات وقوات التحالف اليومي للتنظيم لتزيد من قوة سرديته الأيديولوجية كحامٍ للسنّة ضد العدو القريب والعدو البعيد سواء بسواء[٥٢]. ومع أن «داعش» في الأصل حركة مدفوعة بصراع الهويات، وضمنياً ضد الشيعة، إلا أن البغدادي ومساعديه باتوا يخصصون موارد أكبر، مع بعض الجهد العسكري، لمحاربة العدو البعيد ـ القوى الغربية وحتى روسيا. ففي ٣١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥، اتُّهم «داعش» بزرع متفجرة في طائرة ركاب مدنية روسية انفجرت فوق سيناء وقتل فيها ٢٢٤ راكباً. وفي ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥، نفّذ «داعش» بالتعاون مع عملاء محليين له في فرنسا وبلجيكا، سبع هجمات انتحارية في قلب باريس قتلت وجرحت المئات. وقبل ذلك بيوم واحد ضرب «داعش» منطقة تجارية في ضاحية بيروت الجنوبية بانتحاريين اثنين فقتل وجرح المئات من المدنيين أيضاً. وفي آذار/مارس ٢٠١٦، نفذ «داعش» هجومين انتحاريين متزامنين على مطار العاصمة البلجيكية وعلى محطة مترو في العاصمة، أسفر عن مقتل ما لا يقل عن ١٣٠ شخصاً وجرح أكثر من ٢٦٠ آخرين. تمثل هذه الهجمات نقلة تكتيكية في أسلوب عمل «داعش»، وليس في أولوياته الاستراتيجية. فالأولوية لا تزال لقتال العدو القريب، وهدفه الرئيسي ترسيخ أقدامه في الأراضي التي احتلها في سورية والعراق. إلا أن مخططي هجمات «داعش» ما عادوا يكتفون بالعراق وسورية، بل هم جادون في تنفيذ هجمات يكون لها صدى كبير ضد أهداف أجنبية لحرف الانتباه عن النكسات العسكرية التي بات يعانيها (وآخرها خسارته مدينة تدمر السورية الأثرية الاستراتيجية التي كان احتلها قبل ثمانية أشهر)، بالإضافة إلى تعزيز سردية التنظيم الذي لا يُقهر. وعلى سبيل المثال، ففي أواخر كانون الثاني/يناير ٢٠١٥، نشر التنظيم شريط فيديو هدد فيه مقاتل يتحدث بالفرنسية بشنّ هجمات «ستجعل الغرب ينسى» هجمات ٩/١١ وتفجيرات باريس[٥٣].

ووفق تقارير ومسوحات متزايدة من سورية والعراق، يتزايد عدد السنّة الذين يعتقدون أن الهجمات الجوية للولايات المتحدة والتحالف تستهدف كما يبدو المسلمين السنّة العرب وليس «داعش». وقد عزز البغدادي، في تصريح مسجّل له في أيار/مايو ٢٠١٥، الانطباع السائد بين السنّة

---

(٥١) عبيدة الدليمي وعبد الله المصري، «بعد عام على سقوط الموصل: العشائر ترفض عودة الشيعة والأكراد،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٤، <http://www.alquds.co.uk/?p=367477>.

(٥٢) رائد الحامد، «عام على إعلان دولة الخلافة: هجمات التحالف على تنظيم الدولة في سوريا رفعت من شعبيته،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٤، <http://www.alquds.co.uk/?p=367475>.

(٥٣) انظر: «French-Speaking Militant Executes «Apostates» in ISIS Video,» Al Arabiya English, 31 January 2016, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2016/01/31/French-speaking-militant-executes-apostates-in-ISIS-video.html>.

بقوله، «وإذا كان الصليبيون يزعمون اليوم أنهم يتجنبون الجمهور المسلم ليتفرغوا للمسلحين من بينهم، فستشاهدونهم سريعاً يستهدفون كل مسلّم وفي كل مكان». وأضاف، «هذه الحرب هي ضدكم فقط وضد دينكم»[54]. يتضح إذاً أن البغدادي، ودعائييه، يحاولون سحب البساط من تحت أقدام الظواهري وانتزاع آخر ورقة لديه وهي قتال القوى الغربية، بما فيها الولايات المتحدة. والشبّان الناشطون يجذبهم «داعش» برسالته الأيديولوجية الصافية الصارمة، كما بلهجته العالية الخطاب. ووفق مراسلين مستقلين متابعين في سورية والعراق، فإن «داعش» ربح الحرب الدعائية قبل أن يربح في ميدان القتال[55].

وفي صراع السرديات الدعائية تلك، كانت قاعدة الظواهري هي الخاسرة، إذ بدت شاحبة، مائعة، وغير دقيقة. يبدو «داعش» للناشطين المتدينين الشباب جاذباً بحرارة مقارباته، وخطابه العالي، وتكتيكاته العنيفة؛ على نقيض القاعدة المركزية التي لم تعد تلبي عطش الشباب أولئك للمغامرة والانتقام والدم. ومشكلة الظواهري ليست فقط في المسافة الشاسعة التي تبعده من ميادين القتال، كما يحلو لمؤيديه أن يقولوا، وإنما في النقص في قدراته كما في سرديته الدعائية، التي لم يعد في وسعهما تعزيز خطاب الهوية أو التعبئة لحروب الهوية الرائجة على امتداد العالم العربي - الإسلامي. لقد تحركت الأرض من تحت أقدام الظواهري، وهو يجد نفسه تحت رحمة قوى تفوقه إمكانات وقوة. لا تزال القاعدة تخوض حروب الأمس، بينما حروب اليوم محلية ويقودها صراع الهويات، مع أن «داعش» بات أخيراً يستهدف الأهداف الأجنبية ما يلغي الفارق بين العدو القريب والعدو البعيد. ولا أُجانب الصواب إذا قلت إن قاعدة الظواهري تعاني الآن أزمة هوية. فالتنظيم في حقبة ما بعد بن لادن، وفي محاولة للبقاء موحداً، يبدو ممزقاً بين الجهاد الهجومي والهجوم الدفاعي، كما بين العدو البعيد والعدو القريب. وكما ذكرنا سابقاً، نشر الظواهري في أيلول/سبتمبر ٢٠١٣ جملة وصايا أو توجيهات لأتباعه سمحت بالمرونة التكتيكية وبالتعقل، وفي محاولة اكتساب المزيد من المريدين[56]. إلا أن تلك المرونة سرعان ما استخدمها أخصام التنظيم للنيل من الظواهري شخصياً.

فقد صوّر دعائيو «داعش» مرونة الظواهري كضعف وانهزام، بينما هم يقدّمون بدلاً منها مشاهد الذبح لمن يصفونهم بأعداء الإسلام - سردية دعائية أشد جذباً للقاعدة الجهادية محت كلياً الفارق بين الجهاد الهجومي والجهاد الدفاعي، كما بين العدو البعيد والعدو القريب. ويلجأ البغدادي هنا إلى الآيات القرآنية ليدعم موقفه من أن الجهاد دائماً هجومي وملزم لكل المسلمين في كل

---

(٥٤) انظر نسخة البغدادي بالصوت: Abu Bakr Al-Baghdadi, «March Forth Whether Light or Heavy,» Carol Ann Grayson (Radical Sister) Blog, 14 May 2015, <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-baghdadi/>.

انظر أيضاً: Rukmini Callimachi, «ISIS Releases Recording Said to Be by Its Reclusive Leader,» *New York Times*, 14/5/2015.

(٥٥) عصام والحامد، «بعد عام على سقوط الموصل: التنظيم يتفوق على منافسيه بالصراع على العقول قبل الميادين».

(٥٦) الظواهري، «إرشادات إلى الجهاديين».

الأوقات، يقول: «أيها المسلمون، لم يكن الإسلام يوماً دين سلم. الإسلام دين حرب. ونبيكم عليه السلام إنما أرسل بالسيف»[٥٧] ويذهب البغدادي إلى أقصى مدى بالزعم أن الإسلام الهجومي دائم، لا يتوقف، وأبدي، ما يلغي أربعة عشر قرناً من تاريخ الإسلام ومجتمعاته. يذكّر البغدادي المسلمين بأن صحابة الرسول وأنصاره قد مارسوا منذ البدء الجهاد الهجومي ومن دون كلل أو تعب، «هم لم يهدأوا أو يتركوا الحرب، إلى أن امتلكوا الأرض، وقهروا الشرق والغرب، ودانت له الأمم، والأراضي التي احتلها، بحد السيف. وسيبقى ذلك هو الشرط لأتباعه وإلى يوم الحساب»[٥٨]. ولا يخفى استخدام البغدادي ذاك الخطاب العالي النبرة كأداة تعبئة وبخاصة للناشطين المتدينين المتحمسين كما للمجنّدين الشباب.

وقد تعلّمت، مثلاً، درساً بالغ الأهمية من مقابلاتي طوال عقدين مع الناشطين المتدينين الراديكاليين وهو أنه بالإمكان «تربية» الشباب على ثقافة التضحية والدم والشهادة ـ ما يتناسب تماماً مع رؤية «داعش» الاستعراضية للحرب ضد الكل وفي كل الأوقات. ولا غرابة بالتالي في الشواهد المتزايدة التي تظهر دفقاً مستمراً للشباب باتجاه «داعش» على حساب القاعدة المركزية، ومعززاً صفوفه بمفجّرين انتحاريين محتملين.

في هذه الأثناء، كان الظواهري وداعموه الأساسيون، مثل المقدسي وأبي قتادة، يحاولون تحطيم صورة البغدادي الدينية من خلال تصويره «منحرفاً» و«جاهلاً بالدين». وفي محاولة منه لتعزيز دعواه ضد البغدادي، يؤكد الظواهري أن الأول استمر حتى سنة ٢٠١٣ على ولائه له، وكان يعود إليه بمفردات من مثل «قائدنا وشيخنا المحترم». ويشير الظواهري أيضاً، إلى أنه بعد مقتل بن لادن سنة ٢٠١١، أرسل إليه البغدادي رسالة يجدد فيها تأكيد قسم الولاء له شخصياً وللقاعدة عموماً[٥٩]. هدفَ الظواهري بكشفه حنث البغدادي بقسمه إلى أن يؤثّر في الإسلاميين بإظهاره البغدادي رجلاً لا يمكن الوثوق به، وهو أمر ليس بالسهل نظراً إلى انشداد القاعدة الجهادية للبغدادي بفعل أدائه العسكري وتوسعه الميداني. وغير بعيد من هذا الخط، شنّت فروع القاعدة في غير مكان، وفي محاولة منها لكسب القاعدة الجهادية، هجمات كبرى ضد الغربيين، واستهدفت مراكز تسوّق وفنادق في مالي وبوركينا فاسو وأمكنة أخرى. وفي آخر تسجيل صوتي له مطلع ٢٠١٦، بدا الظواهري متشدداً كخصمه، البغدادي، طارحاً جانباً وصاياه للعام ٢٠١٣، وداعياً أتباعه إلى جهاد شامل لتأسيس دول إسلامية[٦٠].

(٥٧) Al-Baghdadi, «March Forth Whether Light or Heavy,» and Callimachi, «ISIS Releases Recording Said to Be by Its Reclusive Leader».

(٥٨) Al-Baghdadi, Ibid.

(٥٩) Al-Zawahiri, «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al- Sham [Greater Syria]».

(٦٠) انظر: «أيمن الظواهري: آل سعود قتلة المجاهدين،» موقع الرحمة، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٦، <http://www.arrahmah.com/news/2016/01/15/tfrygh-aal-swd-qtlt-al-mjahdyn-llshykh-aymn-az-zwahry.html>.
انظر أيضاً: عبد الله سليمان علي، «الظواهري يهدّد آل سعود ويغمز «أحرار الشام»،» السفير، ٢٠١٦/١/١٥، <http://assafir.com/Article/466914/MostRead>.

كان بإمكان الحملة التي شنّها الظواهري ضد البغدادي أن تكون فاعلة؛ إلا أن الظروف كانت قد تغيّرت وأصبحت في غير صالح القاعدة في هذه المنافسة. فحملة الولايات المتحدة العسكرية المستمرة منذ ١٥ عاماً ضد قاعدة الظواهري حدّت من قدراتها العملانية، وأضعفتها من الخارج. وجاء داعش ليكمل التدمير من الداخل، الطاعون الذي يكمل الآن عمليات أمريكا في تدمير القاعدة، رغم إصرار جماعة الأمن القومي في الولايات المتحدة أن القاعدة لا تزال تمثّل خطراً جدياً. وتحذّر الوكالات الاستخبارية الأمريكية من أن ناشطي القاعدة في اليمن وسورية قد يستغلون الفوضى في البلدين في التخطيط لهجمات تفضي إلى «إصابات بالجملة»، بما فيها إسقاط طائرات مدنية تحمل مئات المسافرين[٦١].

ورغم ذلك، استمرت القاعدة المركزية تنسج استراتيجياتها بما يلائم مصالح قادتها المحليين. والنقاش الدائر في الأوساط الغربية هو حول درجة سيطرة القاعدة المركزية على فروعها المنتشرة حول العالم، مثل «القاعدة في شبه الجزيرة العربية واليمن»، و«النصرة في سورية»، و«القاعدة في بلاد المغرب»، و«الشباب» في الصومال. والسؤال الأكثر حساسية هو، إلى أي حد يعتمد بقاء القاعدة المركزية على مشيئة ودعم فروعها المحلية، التي ذكرناها قبل هنيهة؟ في هذا الإطار، أثارت تقارير نشرت في الصحافة العربية سنة ٢٠١٥ جدالات ساخنة بين دعاة الحركة الجهادية وأيديولوجييها حول انفصال ودّي بين القاعدة المركزية وفروعها المحلية، وبخاصة النصرة، كأداة لتغيير نظرة الجمهور إلى التنظيم الجهادي في سورية[٦٢].

غدت فكرة الطلاق الحبّي بين النصرة والقاعدة حرباً بالوكالة بين الدول الإقليمية، دافعة بها إلى الواجهة ومحدثة تمزقاً إضافياً في شرعية القاعدة. فقطر وتركيا تدفعان بقوة في اتجاه الانفصال بين النصرة وقاعدة الظواهري، ما يسمح للنصرة بأن تكون حرّة أكثر في علاقاتها ويسمح لها بتلقي مساعدات عسكرية أجنبية. وقد أنفق البلدان الكثير من الجهود والموارد لبناء تحالف واسع لقوى المعارضة، بما فيها (بشكل غير مباشر) «النصرة»، المدرجة كتنظيم إرهابي من الولايات المتحدة[٦٣]. إلا أن الجولاني زعيم النصرة، وعلى غير رغبة قطر وتركيا، لم يقطع علاقاته بالقاعدة. ففي سلسلة مقابلات له مع قناة الجزيرة وسواها لاحقاً، اعترف الجولاني علناً أن تنظيمه هو جزء من القاعدة ويتلقى أوامره من الظواهري[٦٤]. يستند قرار الجولاني الالتصاق بالقاعدة، في

---

(٦١) Schmitt, «ISIS or Al Qaeda? American Officials Split over Biggest Threat».

(٦٢) انظر: حازم الأمين: «إعلان «النصرة» انفصالها عن «القاعدة» سيعني انتحاراً... والظواهري ما كان ليعترض،» الحياة، ٢٠١٥/٦/٢٣؛ «تركيا ضغطت على «النصرة» للانفصال عن «القاعدة»،» الحياة، ٢٠١٥/٦/٢٣، و«رغبة تركية في اندماج «النصرة» و«أحرار الشام» أفشلها رفض «أمراء» أردنيين،» الحياة، ٢٠١٥/٦/٢٤. انظر أيضاً: صهيب عنجريني، «فك الارتباط عن «القاعدة»: اليوم «عبد الله عزام» وغداً «النصرة»،» الأخبار، ٢٠١٥/٤/٧.

(٦٣) الأمين، «تركيا ضغطت على «النصرة» للانفصال عن «القاعدة»». انظر أيضاً: Ben Hubbard, «Al Qaeda's Branch in Syria Denies Planning Attacks Abroad,» *New York Times*, 27/5/2015.

(٦٤) انظر فيديو الجزيرة حول الجولاني والنصرة: Al Jazeera, 27 May 2015, <http://www.youtube.com/watch?= v=-hwQT43vFZA>.

هذه الآونة على الأقل، إلى حسابات الربح والخسارة. فما يعنيه بالدرجة الأولى هو معركته مع «داعش» وكيف سيؤدي طلاقه من القاعدة إلى التشكيك بهويته الجهادية وتقوية أخصامه، وفي مقدّمهم «داعش». وما يخشاه الجولاني بقوة هو رحيل المقاتلين الأجانب المهرة إلى «داعش»، وهم عماد التنظيم إذ يمثلون ٤٠ بالمئة من عديد مقاتليه، فيما اعترف الجولاني علانية بـ ٢٠ بالمئة لا أكثر. وهكذا تبدو النصرة عالقة بين الجهاد المحلي والآخر العابر للحدود، وهي تترجح بين الاثنين. وفي مقابلة غير مسجّلة للجولاني مع الصحافي العربي موسى العمر، في قناة «الغد العربي»، اعترف الجولاني أن قطع صلاته بالقاعدة سيكون مكلفاً للنصرة، وسيجعله أكثر اعتماداً على القوى الإقليمية[٦٥]. والخط الفاصل داخل النصرة يشطر المواقف بين جناح ديني - وطني، يقوده الأعضاء السوريون مدعومين من قوى إقليمية، والذي يدعو إلى انخراط كامل في المعارضة السورية الإسلامية، وجناح آخر عابر للحدود، يقوده المقاتلون الأجانب، وبخاصة الضباط الأردنيون الكبار، الذين يخوضون المعركة في سورية بينما أفئدتهم وعقولهم في مكان أبعد من ذلك. ورغم أن الجولاني نجح حتى الآن في وأد النزاع والاقتتال داخل النصرة، إلا أن الصراع يبدو أكثر صعوبة على الحل. وبعض مظاهر الصعوبة تلك، طرد النصرة السنة الماضية عدداً من مسؤوليها لعدم الانصياع لأوامر القيادة وتحولهم إلى متمردين عليها، أو لدعمهم «داعش»، ومن بينهم واحد من المؤسسين السبعة، أبو محمد صالح الحموي، والعراقي أبو ماريا القحطاني، الدعوي المعروف، وقائد عسكري معروف، هو أبو سمير الأردني[٦٦].

في الوقت الذي كان «داعش» يتجاوز كل الحدود في وحشيته وخارج الوعي الإسلامي العادي، كانت النصرة تقدم نفسها كجناح «عقلاني» في الحركة الجهادية العالمية وتنخرط في تيارات الإسلام التقليدي وفصائله المتمردة في سورية. وقد جلب الجولاني كبريات محطات التلفزة العربية إلى مقر قيادته في إدلب، مخاطباً الجمهور الأوسع في وقت الذروة. ورغم أنها من العائلة السلفية الجهادية نفسها وتتشارك وسائر شقيقاتها المواقف نفسها، بدت النصرة تنظيماً معتدلاً، مقارنة بـ «داعش»، وطامحة لوراثة منافسيها في سورية. وفي سياق هذه المقارنة، ذهب أبو قتادة، الداعي السلفي الجهادي الأردني المعروف، إلى أن «داعش» «فقاعة» وقادتها «مضللون». وهو يراهن على النصرة في سورية، وشقيقاتها في شبه الجزيرة واليمن وشمال أفريقيا لجلب النصر

= انظر أيضاً: «أمير جبهة النصرة أبو محمد الجولاني: حزب الله اللبناني زائل لا محالة بزوال نظام بشار الأسد في سوريا،» الجزيرة نت، ٢٧ أيار/مايو ٢٠١٥؛ عبد الله سليمان علي، «الجولاني يتوحّش بين العزلة والعزل والاغتيال،» السفير، ٢٠١٥/١٢/١٤، و«الجولاني: روسيا لن تجرؤ على التدخل البري،» الجزيرة نت، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2015/12/12>.

(٦٥) مقابلة المؤلف مع موسى العمر.

(٦٦) Abdullah Suleiman Ali, «Internal Divisions Lead to «Hemorrhaging» of Jabhat al-Nusra Leaders,» *Assafir*, 21/7/2015, <http://assafir.com/Article/50/432729/AuthorArticle>.

انظر أيضاً: «إلامَ يقود الانفصال بين النصرة والقاعدة،» السورية نت، ٨ تموز/يوليو ٢٠١٥، وعبد الله سليمان علي، ««النصرة، تهاجم «داعش الخوارج» في القلمون،» السفير، ٢٠١٥/٥/١٢، <http://assafir.com/Article/1/419062/AuthorArticle>.

إلى الأمة. وأبو قتادة، والمقدسي، والحرس القديم من السلفيين الجهاديين لا يزالون مخلصين للقاعدة المركزية، بقيادة الظواهري، الذي أبدى أخيراً مرونة حيال التنظيمات الإسلامية المعتدلة ونصح أتباعه بعدم الابتعاد عن الجماعات المحلية. وأعرب أبو قتادة بعد خروجه من السجن في الأردن سنة ٢٠١٤، عن ثقته بمستقبل الحركة الجهادية وأنه لم يكن في يوم متفائلاً بمستقبل الحركة الجهادية كما هو اليوم، وأضاف «رغم كل التعقيدات الموجودة في "الأمة"، أعتقد أن النصر هو في متناول اليد»[٦٧]. وحصان أبي قتادة الذي يعتقد أنه رابح (القاعدة المركزية)، لا يختلف جوهرياً عن «داعش»، خلا مستوى العنف الذي جعله «داعش» مقدساً ولجوئه إلى الإرهاب حيال أعدائها والذين يجذبان شريحة من المجندين الشباب إليها.

وبدعم أو تحريض من الدول الإقليمية، ناشد مؤيدو القاعدة المركزية الظواهري حلّ القاعدة المركزية وترك الفروع المحلية تذهب في طريقها المستقل، ما يعكس مرة أخرى حجم الأزمة الوجودية التي يعيشها تنظيم القاعدة الأم[٦٨]. وظهرت أصوات حتى من داخل النصرة تدعو إلى قطع الصلات بقاعدة الظواهري. وبحسب المقدسي، الذي يقول إنه صديق للظواهري، فإن زعيم القاعدة المركزية لن يعارض أن تختار النصرة طريقها الخاص، لكن يتخوّف من أن يكون «داعش» هو المستفيد من هذه الخطوة. وهو السبب الذي دفع بالظواهري، برأي المقدسي في حديثه إلى جريدة الحياة، إلى قبول تجديد الجولاني قسَم الولاء له وللقاعدة المركزية. وفي رأيه، أن «الأكثرية داخل النصرة تشعر أنها تنتحر إذا اختارت قطع صلاتها بالقاعدة، رغم أن الظواهر لا يمانع في ذلك»[٦٩].

يكشف هذا التنسيق الاستراتيجي بين النصرة والقاعدة في مواجهة «داعش» مقدار الضياع الذي باتت عليه القاعدة. فقرار الجولاني الإبقاء على صلاته بالقاعدة قرار طوعي، لا إلزامي، ما يوضح فقدان السلطة لدى أعلى قيادات القاعدة المركزية، بمن فيهم الظواهري نفسه. ورغم أن قسَم الولاء في الثقافة الجهادية شيء مقدس، وحين يحصل يصبح إلزامياً، لا اختيارياً، لكنه بات لا يجد طريقه إلى التنفيذ. أضف إلى ذلك، أن القاعدة المركزية لم تعد تمارس السيطرة على القادة المحليين الموزّعين الذين يستخدمون الشارة تلك في خدمة أجنداتهم الخاصة. والزرقاوي، مؤسس تنظيم الدولة الإسلامية في العراق، كان واحداً من أولئك القادة الذين أقسموا يمين الولاء للقاعدة ولكن سرعان ما تحوّل إلى أجندته المستقلة، وبخاصة في تأجيج الحرب السنية ـ الشيعية، وعلى الضد من رغبات بن لادن. وحافظ خلفاء الزرقاوي على الإرث الدموي نفسه، وعلى الخط نفسه في تطبيق أجندات خاصة بهم على غير رغبة زعماء القاعدة المركزية رغم قسَم الولاء لهم. والبغدادي تخصيصاً، الذي بايع بن لادن ٢٠١٠ والظواهري ٢٠١١، سرعان ما قصم ظهر الظواهري بشقه

---

(٦٧) «أبو قتادة: تنظيم الدولة إلى زوال،» حاوره محمد النجار، الجزيرة نت.

(٦٨) كميل الطويل، «الظواهري يتجه إلى حل "القاعدة"،» الحياة، ٢٠١٥/٤/٣

(٦٩) الأمين، «تركيا ضغطت على "النصرة" للانفصال عن "القاعدة"».

القاعدة من الداخل، وذهب أبعد من ذلك بطلبه من مسؤولي دعاية «داعش» النيل علناً من الجهادي القديم. وفي هذه اللحظة، تبدو قاعدة الظواهري كما لو كانت تجذف ضد التيار في بحر شديد الاضطراب. بينما تبدو الريح منذ سنة ٢٠١٣ مواتية لأشرعة «داعش» فتجعلها تنتشر يمنة ويساراً. وبات مشروعها الحالم الطوباوي يجذب شباناً متحمسين، حتى من روسيا والصين، رغم أنه مع كتابة هذه الأسطر تبدو الضغوط شديدة على التنظيم وتجعله في موقع الدفاع في كل مجال، وعلى كل الجبهات.

ورغم أن الظروف الراهنة السياسية والاجتماعية في الوطن العربي اليوم ليست في مصلحة القاعدة إلا أنه من المبكر القول إنّها اضمحلت. ولا يزال من المبكر القول بانتهاء المعركة. وللزمن في النهاية مفهوم خاص لدى جهاديي القاعدة في تشكيلاتهم المختلفة؛ فهو يقاس بالعقود لا بالسنين أو الشهور. وهو رهان الظواهري في أن يحمل الزمن القادم سقوط البغدادي. وبخلاف حذر الظواهري وانحسار ظل قاعدته، يستعرض «داعش» فائض قوته ويخوض معارك عدة في الوقت نفسه، الأمر الذي لن يستطيع تحمله إلى ما لا نهاية. وبات «داعش» في هذا الوقت في موقف دفاعي في سورية والعراق، وقد خسر نحو ٤٠ بالمئة من الأراضي التي كان احتلها في صيف ٢٠١٤ في العراق وبين ٥ و٢٠ بالمئة في سورية، بما فيها كوباني وبلدات أخرى مهمة على الحدود السورية التركية، وهو ما يهدد بقطع خطوط مواصلاته إلى الداخل التركي، ومن قدرته بالتالي على استقبال مجنّدين أجانب. وحدثت خسائر جسيمة للتنظيم في العراق، في تكريت وبيجي في المثلث السنّي شمال بغداد، وفي الرمادي عاصمة الأنبار والمدينة الأكبر في المحافظة الواقعة غرب العراق. هزّت الخسائر الكبيرة تلك من صورة التنظيم الذي لا يُقهر، وأظهرت هشاشة «الخلافة»[٧٠]. وإذ تدور دواليب الحظ في غير مصالحه، تضعف تدريجاً صورة التنظيم الذي لا يقهر التي لطالما قدّمت إلى الجمهور السنّي. والصعوبات المالية التي بات يعانيها أجبرت التنظيم على التخفيف من نفقاته ومن رواتب مقاتليه من جهة، وعلى فرض ضرائب ثقيلة جديدة على السكان تحت سيطرته من جهة ثانية. وإذا كانت هجمات التنظيم ضد الأهداف الغربية والروسية والشرق الأوسطية قد نجحت في شيء، ففي توحيدها العالم بأسره ضد «داعش». فسماوات سورية تعجّ بالمقاتلات الغربية والروسية تطارد قادة «داعش» من المراتب العليا والوسطى، وتدمّر حقول نفطه ومصدر دخله الرئيسي. وقد نفّذ التحالف الغربي في شهر تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥ وحده ٣٠٠٠ غارة جوية ضد «داعش» في العراق وسورية، و١٠٠٠٠ غارة كحصيلة إجمالية[٧١].

كذلك، يدعم التحالف منذ فترة تنظيماً متمرداً كردياً في سورية، قوات سوريا الديمقراطية، ويضم مقاتلين أغلبهم من الكرد مع بعض العرب، وهدفهم المباشر إخراج «داعش» من الرقة، المدعوة عاصمة للخلافة، والتي إذا حدثت فستكون بداية نهاية التنظيم. ومع تحوّل المدّ ضد «داعش»،

(٧٠) Falih Hassan and Sewell Chan, «Iraqi Victory over ISIS in Ramadi Could Prove Pivotal,» *New York Times*, 28/12/2015.

(٧١) «Islamic State Unfriended,» *The Economist* (12 December 2015).

يشهد التنظيم الآن نزيفاً مستمراً ويعاني ضغوطاً متزايدة في سورية والعراق. وما ضغطه لنفقاته وخفض الرواتب والانسحاب من بعض مواقعه غير مظاهر لأزمة واحدة. ومع أنه لا يزال مبكراً للحكم بنهاية «داعش»، إلا أن الثابت هو أنه لم يعد يتطابق مع شعاره، «ليبقى ويتمدد». لقد بدأت الكتابة على جدار تنظيم بدأ يفقد جاذبيته الشعبية.

هناك من دون شك صلة سببية ما بين إنجازات «داعش» في الميدان وجاذبية مشروعه الطوباوي، وشعار «لا شيء ينجح مثل النجاح» ينطبق تماماً على «داعش». فاستمرارية قصة «داعش» وتطورها مرتبطة عضوياً باستمرار قدرته على الإمساك بالأراضي وبالسكان تحت سيطرته في سورية والعراق. ويحتمل تفكك الخلافة في اللحظة التي تتراخى أو تنكسر قبضة التنظيم على الأراضي والسكان أولئك، وهو أمر يجب الاحتفاظ به دائماً في الذهن وبخاصة حين يكون التنظيم في ذروة قوته. والتفكير في ما لا يرغب التنظيم بالتفكير به، سقوط الدولة الإسلامية، ربما لا يكون داهماً إلا أنه محتمل في مستقبل ليس بالبعيد.

ومن المضحك أن الظواهري، الرجل الذي طاردته المصالح الأمنية البعيدة والقريبة منذ سبعينيات القرن الماضي، يضع آماله كلها الآن، ربما، على التحالف الأمريكي - الأوروبي لقصم ظهر «داعش» قبل أن يتولى هو لاحقاً لملمة بقايا التنظيم. وفي أثناء ذلك، هو يلعب اللعبة التي تحتاج إلى الوقت الطويل، ويتسلى باستعراض هجمات فروع قاعدته على الأهداف الغربية وتوسعة مساحة الأراضي التي يسيطرون عليها في سورية واليمن وسواهما. ولمنافسة أخصامهم («داعش»)، تبنّى تابعون للقاعدة مسؤولية هجوم باريس في كانون الثاني/يناير ٢٠١٥ الذي أودى بحياة ١٢ شخصاً، بمن فيهم صحافيون من جريدة فرنسية ساخرة، وهجوماً آخر في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥ على أوتيل «راديسون بلو» في باماكو، عاصمة مالي، حيث احتجز مسلحون ١٧٠ رهينة، قتل منهم عشرون على الأقل. وقد هاجم فرع القاعدة الشمال الأفريقي (القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، مع ميليشيات متحالفة معه)، الرمز الغربي في العاصمة المالية بعد أيام من ادعاء «داعش» مسؤولية هجوم باريس الذي قتل فيه ١٣٠ شخصاً. وأعلن الفرع المغربي للقاعدة مسؤوليته أيضاً عن الهجوم على فندق فخم في بوركينا فاسو في كانون الثاني/يناير ٢٠١٦ أودى بحياة ٢٩ شخصاً. وفي محاولة منه لاستباق أي تقدم لـ «داعش» على الأرض، سيطر الفرع اليمني من القاعدة على أجزاء كبيرة من محافظة حضرموت، أكبر محافظات اليمن، واحتل مدناً مهمة جنوب محافظة أبين، حيث كان أسس إمارة إسلامية سنة ٢٠١١ وله فيها أتباع ومؤيدون[(٧٢)].

وفي حين يخوض الظواهري حرباً شاملة ضد البغدادي و«داعش»، فهو لا يكف عن إعلان استعداده للتعاون معه في الحرب ضد التحالف الغربي الذي تقوده الولايات المتحدة. ففي تسجيل صوتي يعود إلى ربيع ٢٠١٥، وأذيع في أيلول/سبتمبر ٢٠١٥ يقول الظواهري، «نحن لا نعترف

(٧٢) Hugh Naylor, «Reclaiming the Title «King of Jihad» Means Al-Qaeda Will Target the West,» *Washington Post*, 27/12/2015, and «IS-Claimed Bombing Kills Yemeni Governor, 6 Guards in Aden,» Associated Press, 6 December 2015.

بخلافة أبي بكر البغدادي». ويضيف في رسالة أخرى له نشرت سنة ٢٠١٥، محتكماً فيها إلى القاعدة الجهادية، أن البغدادي تسبب بفتنة داخل صفوف المجاهدين؛ يقول: «لقد نالنا الكثير من الأذى من أبي بكر البغدادي وإخوانه، وقد فضّلنا ألا نردّ إلا في حدود ضيّقة قدر الإمكان، لحرصنا على إطفاء نار الفتنة». ويضيف، «لكن البغدادي وإخوانه لم يتركوا لنا أي خيار، إذ طلبوا من كل المجاهدين أن يتخلوا عن يمين ولائهم، وأن ينقلوا الولاء لما أسموه «الخلافة»». إلا أن الظواهري في النهاية، وفي لفتة يظهر فيها رحابة صدره، وترفّعه عن العداوات السابقة، وتسامحه ونسيانه، يدعو إلى الوحدة ضد العدو المشترك. يقول، «رغم الأخطاء الكبرى [من الدولة الإسلامية]، فلو كنت في العراق وسورية لتعاونت معهم في قتل الصليبيين والعلمانيين والشيعة، مع أني لا أعترف بدولتهم لأن المسألة أكبر من ذلك بكثير»[٧٣]. وإذا لم يخطفه الموت قبل أوانه، فسيكون للظواهري على الأرجح الكلمة الأخيرة في معركته مع البغدادي.

(٧٣) «بالفيديو..الظواهري: لا أعترف بـ«داعش» ولا نرى البغدادي أهلاً للخلافة،» شبكة الإعلام العربية (محيط)، ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، <http://goo.gl/LldEjH>.

انظر أيضاً: Missy Ryan, «Al-Qaida Says ISIS Is Poaching Militants,» *Washington Post*, 10/9/2015.

الخلاصة: مستقبل «داعش»

«داعش» حتى هذه اللحظة في صعود. والتنظيم، وكما بيّن هذا الكتاب، هو في آن نتاج تحطّم مؤسسات الدولة في قلب الوطن العربي، من جهة، وصراع الهويات بين المسلمين السنّة والشيعة، من جهة ثانية. أتاحت الأزمة المزدوجة، الاجتماعية والطائفية، لـ «داعش» أن يتقدم إلى أمام مالئاً الفراغ في الحكم، ومقدّماً نفسه الحامي الأوحد للسنّة المضطهدين. «داعش» إذاً هو نتاج للفوضى الاجتماعية والسياسية التي ضربت المشرق العربي، والتردي اللاحق للخدمات والشأن العام، وخصوصاً البطالة، كما للأيديولوجيا السلفية الجهادية التي وضعت شعاراً لها إحياء الخلافة في الإسلام. وإلى ذلك، فحبل صرّة «داعش» مربوط بالحروب الأهلية التي اندلعت في العراق وسورية وليبيا واليمن وغيرها، واقتصاد الحرب الأسود الذي سمح للتنظيم بأن يتصرف كدولة مصغّرة لجهة الخدمات وأن يلقى القبول من الجماعات المحلية الفقيرة.

وإذا صحّت هذه القراءة، فمعناها هو أن الطريقة الأكثر فاعلية لنزع شرعية «داعش» تقوم في قدرة المجتمعات العربية، مع القوى الإقليمية والدولية، على توفير حلّ سلمي للنزاعات الأهلية ولدعم إعادة بناء الدولة العربية ومؤسساتها وفق قواعد شفافة وشرعية. وهناك، إلى ذلك، حاجة ملحّة إلى تسوية الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني، الذي لطالما كان التعزيز الأيديولوجي للقوى العاملة من خارج الدولة في المنطقة، بمن فيهم السلفيون الجهاديون. فاستمرار مأساة الفلسطينيين هو المصدر الثابت للتعبئة والتجنيد لجماعات القاعدة بكل أطيافها، بما فيها «داعش». ومن جديد، يتعامل السلفيون الجهاديون مع القضية الفلسطينية باعتبارها ذروة مشروعهم الجهادي، فيعدون بمساعدة الفلسطينيين حالما ينتهون من إطاحة الحكّام المرتدّين في بلدانهم.

على سبيل المثال، مع اشتداد الهجوم على «داعش» من قوى محلية مدعومة من التحالف الدولي نهاية ٢٠١٥، نشر البغدادي تسجيلاً صوتياً يعيد فيه تأكيد التزامه مدّ حدود الدولة الإسلامية لتشمل فلسطين؛ يقول: «يعتقد اليهود أننا نسينا فلسطين وأنهم أبعدونا عنها... كلّا على الإطلاق، لم ننسَ فلسطين للحظة، وبعون الله لن ننساها... وطلائع المقاتلين الجهاديين سيحيطون بكم في

يوم ترونه بعيداً ونحن نراه قريباً. ونحن أقرب إليه كل يوم»[1]. يعني ذلك بوضوح أن لا حلّ قريباً لأزمة «داعش». والحلّ هو في تطوير استراتيجية سياسية مركّبة وطويلة الأمد تتضمن الرهان على الزمن، والمصالحة، والتنازلات، والقيادة الرشيدة على المستويات المحلية والإقليمية والدولية، والتي لا يتوافر منها غير القليل اليوم.

أولاً: القاعدة الاجتماعية

بدلاً من تقديم وصفة سياسات جاهزة، فالمقاربة الأكثر فائدة تكون برسم لوحة وصفية بنقاط القوة البنيوية في «داعش» كما بنقاط ضعفه. تسمح القراءة الدقيقة للعلاقة الحيوية بين التنظيم وجمهوره المستهدف بفهم متكامل لحدود ديمومة «داعش» على المدى الطويل كما لهشاشته[2]. بين كل أسباب التأزم الحادة في الوطن العربي، يبدو الانقسام السنّي ـ الشيعي العميق والمتسع أكثر ما وفّر لـ «داعش» الحاضنة الاجتماعية في أوساط السنّة المضطهدين، وبخاصة بين فقراء الأرياف والمدن. لقد كانت الطائفية هي ما أمدّ تمرّد «داعش» بالوقود المطلوب. وغدا «داعش» جوهرياً هو القوة الدافعة للحركة الجهادية وتوسعها، وبخاصة في جناحها الأيديولوجي الأكثر تعصّباً وضيقاً. فإعادة ولادة التنظيم في العراق وتمدده إلى سورية مرتبطان عضوياً بالاستقطاب المجتمعي داخل الجماعة السنية والتصور المنتشر لديها بالإقصاء المتمادي لها من حكومة بغداد المركزية. ووفّر اندلاع الحرب الأهلية في سورية فرصة ذهبية للتنظيم ليمدّ من نفوذه إلى البلد العربي المجاور ولينتزع مواقع استراتيجية له فيها. ومن خلال الاستغلال التام للانقسام السني ـ الشيعي في العراق، والتطييف المتصاعد للصراع في سورية، نجح البغدادي وأركان حربه في التقرّب من جماعات سنّية متمردة عدة يتملكها الشعور بالإقصاء والتهميش من نظامَي حكم بغداد ودمشق. وجاء دعم إيران الكامل للنظامين ليعطي الموقف أعلاه دفعة إضافية. وعليه، كانت استراتيجية البغدادي منذ ٢٠١١ وحتى إعلان الدولة الإسلامية في ٢٠١٤ هي انغماس التنظيم بين الجماعات المحلية وبناء قاعدة تأييد شعبية له.

يساعد وجود هذه الحاضنة الشعبية إلى حد كبير على تفسير بقاء «داعش» موجوداً وقوياً رغم الهجمات التي تستهدفه من الداخل والخارج. ومع أنه من المستحيل قياس مستوى الدعم السني للتنظيم بدقة (لغياب الدراسات الضرورية)، فمن الممكن الزعم أن الدعم ذاك هو حتى الآن قوي وحيوي ومستمر في العراق، وإلى درجة أقل في سورية. فجذور التنظيم في العراق أكثر عمقاً؛

---

(١) أبو بكر البغدادي، «إصدارات الخلافة: فتربصوا إنا معكم لمتربصون،» مدونة دولة الخلافة الإسلامية، ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، <https://goo.gl/kbS0N0>.

انظر أيضاً: Josie Ensor, «Islamic State Leader Baghdadi Goads West in Rare Audio Statement,» *Telegraph*, 26/12/2015.

(٢) Audrey Kurth Cronin, *How Terrorism Ends: Understanding the Decline and Demise of Terrorist Campaigns* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010).

فهو رافق التمردات السنية الأولية على الغزو والاحتلال الأمريكيين للعراق سنة ٢٠٠٣ وما بعدها. والدليل على ذلك، هو أن لا مقاومة مسلحة لسيطرة التنظيم على المناطق التي يسيطر عليها في العراق خلا مقاومة الصحوات المحدودة[٣] في أجزاء من الأنبار، مع أن ذلك قد يحدث ويشتدّ في اللحظة التي تزداد خسائر التنظيم ونكساته العسكرية، وتظهر إلى العلن[٤]. والكثيرون يترددون حتى الآن في محاربة التنظيم لأنهم لا يرون حكومة غير طائفية ومتوازنة في بغداد تستحق أن يقاتلوا من أجلها[٥]. وليس مفاجئاً، إذاً، أن لا ينهار «داعش» حتى الآن كمنزل من كرتون رغم الحملة الجوية الأمريكية العنيفة والهجمات البرية التي تشنّ عليه من أعدائه المتزايدين على الأرض. وقد قاومت المناطق السنية التي يسيطر عليها «داعش» بقوة ونجاح، عدا استثناءات قليلة، كل الهجمات البرية التي تعرّضت لها. ففي معركة الرمادي في أيار/مايو ٢٠١٥، على سبيل المثال، جرى تسجيل تقديم العشائر هناك المال والسلاح والمعلومات لـ «داعش»، وهو ما سمح بتوازن القوى بينه وبين القوات العراقية الحكومية. كذلك في الفلّوجة، فالدعم الذي يلقاه التنظيم هناك من العشائر والسكان السنّة هو ما سمح له بالاستمرار في مقاومة الهجمات العنيفة التي تشنها القوات الحكومية وحلفاؤها على المدينة. في المقابل، حين حاول «داعش» التقدم من مناطق ذات أغلبية سنّية باتجاه مناطق أخرى ذات أغلبية مختلفة، كالمناطق الكردية في العراق وسورية وأمكنة تنظيمات متمردة أخرى، كانت الهزيمة في انتظاره[٦].

لقد نشأ للتوّ نمط من الموقف الاحتجاجي، نموذجه «داعش»، نظر إليه السنّة، في أغلبهم على الأقل، بوصفه عدواً لأعدائهم، وبخاصة الحكومة المركزية التي يهيمن عليها الشيعة. وفي حين هناك مقاومة سنّية لـ «داعش»، أبرزها ما بين ٧٠٠ و١٠٠٠ مقاتل من العشائر السنّية قاتلوا مع القوات الحكومية والحشد الشعبي[٧] ضد «داعش» في تكريت[٨]، فإن عمليات الانتقام التي

---

(٣) تحالف من شيوخ القبائل وضباط بعثيين سابقين تأسس في العراق سنة ٢٠٠٥ كقوة منافسة للقاعدة في المناطق السنية مثل الأنبار.

(٤) Borzou Daragahi, «The Front-Line Fight against ISIS,» *Financial Times*, 6/3/2015, <http://www.ft.com/cms/s/0/cfe12b08-c2ae-11e4-a59c-00144feab7de.html>

(٥) Anne Barnard and Tim Arango, «Using Violence and Persuasion, ISIS Makes Political Gains,» *New York Times*, 3/6/2015, and Tim Arango, «With Fall of Ramadi, Plight of Iraq Sunnis Worsens,» *New York Times*, 19/5/2015.

(٦) وائل عصام: «لماذا تراجع تنظيم «الدولة الإسلامية» في كوباني وتل أبيض؟،» القدس العربي، ٢٠١٥/٦/١٩، و«كيف ستنجح أمريكا في القضاء على «تنظيم الدولة» الذي فشلت قوات المارينز في مواجهته قبل عشر سنوات؟،» القدس العربي، ٢٠١٥/٥/٢٢؛ رائد الحامد، «عام على إعلان دولة الخلافة: هجمات التحالف على تنظيم الدولة في سوريا رفعت من شعبيته،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٤؛ عبيدة الدليمي، «دعم سكان الفلوجة لتنظيم الدولة مكنه من التصدي للقوات الحكومية،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٢٥؛ Erin Banco, «Iraqi Sunni Sheikhs in Anbar Pledge Allegiance to ISIS, Aid Militant Group,» *International Business Times*, 4/6/2015, and Richard Spencer, «What We Have Learned about Islamic State after Its Victories in Ramadi and Palmyra,» *Telegraph*, 21/5/2015.

(٧) «الحشد الشعبي»، هو تحالف للميليشيات الشيعية لمحاربة داعش، بدعم من القوات المسلحة العراقية.

(٨) Omar Al-Jawoshy and Tim Arango, «Iraqi Offensive to Retake Tikrit from ISIS Begins,» *New York Times*, 2/3/2015, <http://www.nytimes.com/2015/03/03/world/middleeast/iraq-tikrit-isis.html?r=0>.

شنّتها الميليشيات الشيعية بعد هزيمة «داعش» وانسحابه من المدينة ضد سكّان المدينة جاءت لتعزز المخاوف والشكوك السنّية ولتجعلهم وعلى نحو متزايد مترددين في مواجهة «داعش»[9]. ورغم جهود التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة لدمج السنّة في تحالف واسع معادٍ لـ «داعش» فإن الانقسام القائم بين السنّة والشيعة لا يزال يحول دون ذلك. وليس هناك حتى الآن سياسة متكاملة للحكومة المركزية في كيفية معالجة الانقسامات الإثنية والدينية في العراق، بل يزيد منها شكل الحكم الضعيف والضغوط الطائفية المتنافسة. وفي صيف ٢٠١٥، أعلن زعماء بعض القبائل الأكثر نفوذاً في الرمادي والموصل والفلوجة، وللمرة الأولى منذ إعلان «الدولة الإسلامية» ولاءهم رسمياً للبغدادي[10].

ولزيادة الأمور تعقيداً، تدور حرب أهلية سنّية في العراق أفاد منها «داعش» والتنظيمات المشابهة له كما زادت من الانقسام داخل المجموعة السنية. أفاد «داعش» من الانقسام السني ـ السنّي بتقديم نفسه المخلّص لسكان الأنبار من فساد النخبة الحاكمة وصراع القوة بين زعماء القبائل المتنافسة. على سبيل المثال، يقف في محافظة الأنبار أفراد من العشيرة السنية نفسها في خطوط متقابلة في الميدان، والكثير منهم تحت راية «داعش» وليس بالضرورة لإيمانهم بالأيديولوجيا السلفية الجهادية[11].

ولا يزال السنّة وبالمقدار عينه على شكوكهم العميقة بالحكم المركزي في بغداد رغم التغيير في رأس الحكومة من نوري المالكي إلى حيدر العبادي، ولا يرون فيها إلا لعبة في أيدي طهران[12] والكثير من السنّة في العراق وسورية يشكون، أيضاً، من أن التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة لا يستهدف إلا «داعش» بينما هو يغض الطرف عن نظام الأسد كما عن الميليشيات الشيعية في العراق. لقد ساعدت أعمال الولايات المتحدة في العراق في سنة ٢٠٠٣ وما بعدها في انتشار مشاعر الكراهية والإقصاء لدى الكثير من السنّة في العراق وسورية، وتفاقمت أكثر بالاستهداف الجاري لـ «داعش» من غارات التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة. وبحسب الشيخ أبي سليمان الحسن، أحد الزعماء الأوائل للانتفاضة السورية، فإن «التحالف الأمريكي لا يستهدف

---

(٩) انظر تقارير هيومان رايتس ووتش: «After Liberation Came Destruction: Iraqi Militias and the Aftermath of Amerli,» Human Rights Watch, 18 March 2015, <http://www.hrw.org/report/2015/03/18/after-liberation-came-destruction/iraqi-militias-and-aftermath-amerli>, and «Ruinous Aftermath: Militias Abuses Following Iraq's Recapture of Tikrit,» Human Rights Watch, 20 September 2015, <http://www.hrw.org/report/2015/09/20/ruinous-aftermath/militias-abuses-following-iraqs-recapture-tikrit>.

(١٠) انظر: «مجلس عشائري بالأنبار يعلن مبايعته لـ «الدولة»،» القدس العربي، ٢٠١٥/٦/٤؛ معتصم الدوري، «لماذا تزايدت بيعات عشائر الأنبار لتنظيم الدولة؟،» القدس العربي، ٢٠١٥/٦/١٥؛ «بيعة العامة للبغدادي من كبار القبائل العراقية في الموصل،» العربي ٢١، ٢٠١٥/٤/١؛ عمر الجبوري، «والي الموصل: نعد بإطلاق سراح من أعتقلتهم الشرطة،» القدس العربي، ٢٠١٥/٤/٣، و Banco, «Iraqi Sunni Sheikhs in Anbar Pledge Allegiance to ISIS, Aid Militant Group».

(١١) سلام الربيعي، «العراق: تناحر عشائر الأنبار يؤخر هزيمة «داعش»،» الأخبار، ٢٠١٥/٧/١.

(١٢) الدوري، المصدر نفسه؛ Nour Malas and Ghassan Adnan, «Sunni Tribes in Iraq Divided over Battle against Islamic State,» *Wall Street Journal*, 22/5/2015; Ben Hubbard, «Offering Services, ISIS Digs in Deeper in Seized Territories,» *New York Times*, 16/6/2015, and «Iraq Struggles with Sectarian Politics after Ramadi Fall,» Associated Press, 19 May 2015.

في سورية والعراق إلا السنّة، وأدّى ذلك إلى خلق تأييد شعبي لـ «داعش» لأن الرأي العام يقف تلقائياً مع من تستهدفه الولايات المتحدة»[13]. هذا التأييد السنّي، العلني أو الضمني، هو ما يوفّر لـ «داعش» الأوكسجين الاجتماعي الذي يمدّ من عمره. وبحسب ناشط عراقي يعيش في الأنبار ولا يدعم «داعش»، «يمثّل «داعش» للسنّة العاديين خط الدفاع الأخير عن وجودهم وهويتهم وأملاكهم»[14]. وعليه فالطريقة الوحيدة لمنع «داعش» من أي تمدد إضافي ودفعه إلى الوراء إنما تكون بحرمانه أية حاضنة شعبية. ويتضمن ذلك مقاربة المظلوميات الشرعية للسنّة من خلال إعادة تكوين الدولة وفق أحكام القانون والمواطنة والاندماج، لا الطائفة أو العرق أو العشيرة. مع نهاية ٢٠١٥، انضمّت أعداد متزايدة من السنة في سورية والعراق للأحلاف المعادية لـ «داعش»، تغيير يشي بالواقعية كما بالرغبة في إعادة الانخراط في العملية السياسية.

ثانياً: الحكم

إضافة إلى استغلال «داعش» للمظلومية السنّية التي أحسن استغلالها، فهو عمل على صورة له تشّد الشباب السنّي إليه؛ وتبقى مسألة مهمة أخرى أيضاً وهي نجاحه في التعاون مع الجماعات المحلية لملء الفراغ في الحكم وتوفير الخدمات العامة والأسعار الجيّدة[15]. وبينما كان العالم مشغولاً بوحشية «داعش» ومؤسسته الحديثة في تجارة الجنس، كان التنظيم يبني على الأرض قدرته في أن يحكم في المناطق التي سيطر عليها منغمساً على نحو أكثر عمقاً داخل النسيج الحياتي للمجتمع الذي مزّقته الحرب في العراق وسورية. فمع تعمّده إقامة سلطة حاكمة واقعية بديلة من الدولة المنسحبة، كان «داعش» يجعل السكان يعتمدون عليه حصراً لتوفير الخدمات الأساسية التي يحتاجون إليها، زارعاً فيهم بالتالي فكرة أنهم محكومون. وطالما بقي التنظيم قادراً على توفير الخدمات العامة الأساسية للناس فسيكون من الصعب عليهم الانفكاك عنه. وبحسب ساكنين محليين في الرقة ودير الزور والموصل والفلوجة وغيرها من المدن، فقد أقام «داعش» حكماً بديلاً، وإدارة، ومؤسسات في المناطق تلك؛ ووفّر فيها القانون والنظام ـ ولو بالقوة الزائدة ـ وفرصاً أيضاً في اقتصاد الظل الناشئ. أفاد المواطنون أولئك أن «داعش» وفّر للسكان الخدمات الأساسية مثل المخابز والشرطة، ونظاماً قضائياً فقهياً سريعاً، وبطاقات هوية، وشهادات ميلاد، وحماية للمستهلك،

---

(١٣) الحامد، «عام على إعلان دولة الخلافة: هجمات التحالف على تنظيم الدولة في سوريا رفعت من شعبيته،» و Barnard and Arango, «Using Violence and Persuasion, ISIS Makes Political Gains».

(١٤) وائل عصام ورائد الحامد، «بعد عام على سقوط الموصل: التنظيم يتفوق على منافسيه بالصراع على العقول قبل الميادين،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٤، <http://www.alquds.co.uk/?p=367479>.

انظر أيضاً: عبيدة الدليمي وعبد الله العمري، «بعد عام على سقوط الموصل: العشائر ترفض عودة الشيعة والأكراد،» القدس العربي، ٢٠١٥/٧/٤، <http://www.alquds.co.uk/?p=367477>.

(١٥) Reem Turkmani, «ISIL, JAN and the War Economy in Syria,» *Security in Transition* (London School of Economics) 30 July 2015, <http://www.securityintransition.org/wp-content/uploads/2015/08/ISIL-JAN-and-the-war-economy-in-Syria1.pdf>.

وجمع القمامة، وعيادات طبية، ومستشفيات نظيفة وفعّالة، وأساتذة للمدارس، مع أن هؤلاء ليسوا بالكفاءة التربوية العالية وليسوا أحراراً في عملهم[١٦].

والنمط الوحشي في العمل الذي غدا ملازماً لـ «داعش» هو لجوؤه عند السيطرة على منطقة جديدة إلى موجة قتل للمدنيين المشتبه بهم ولأفراد الشرطة والأجهزة الأمنية والقوى المسلحة. وتلي ذلك محاولة مفضوحة منه لكسب تأييد السكان من خلال خفض سعر الخبز وإعادة الكهرباء بسرعة إلى المنطقة ودعوة الموظفين للالتحاق بأعمالهم على الفور[١٧]. على سبيل المثال، فبعد استيلاء «داعش» على الموصل في حزيران/يونيو ٢٠١٤، لجأ التنظيم فوراً إلى حملة تنظيف، وفتح طرقات، وإنارة المدينة، وهو ما عجزت عنه الحكومات العراقية المتعاقبة في الفترة الأخيرة[١٨]. ولجأ التنظيم أيضاً إلى الموظفين المدنيين السوريين والعراقيين السابقين لإبقاء الخدمات الأساسية متوافرة وبنجاح نسبي. ففي الرقة يتولى موظف رفيع المستوى من نظام بشّار المنسحب من المدينة إدارة مرفق إهراءات القمح والمطاحن وتوزيع الطحين على المخابز[١٩].

وحين احتل التنظيم المدينة، أُبقي على موظفي سدّ الرقّة الذي يؤمن الكهرباء والماء للمدينة في مراكزهم. وساعد خبراء أجانب وفدوا من شمال أفريقيا وأوروبا على تأمين الخدمات العامة. وقد عيّنت إدارة البغدادي مثلاً تونسياً يحمل الدكتوراه في الاتصالات ليدير شبكة اتصالات الرقة[٢٠]. كما أفاد التنظيم من خبرات ضباط بعثيين سابقين في النظامين العراقي والسوري[٢١]. ويأتي ذلك تطبيقاً لدعوة البغدادي، في أول خطاب له في حزيران/يونيو ٢٠١٤ بمناسبة تنصيب نفسه خليفة، للمسلمين في أقطار العالم كافة للهجرة إلى الدولة الإسلامية والخدمة فيها. وفي

---

(١٦) Tim Arango, «ISIS Transforming into Functioning State that Uses Terror as Tool,» *New York Times*, 21/7/2015; Hubbard, «Offering Services, ISIS Digs in Deeper in Seized Territories,»; «IS Offers a Mix of Brutality, Charity during Ramadan,» Associated Press, 10 July 2015; Atika Shubert, «How ISIS Controls Life, from Birth to Football,» CNN.com, 21 April 2015, <http://www.cnn.com/2015/04/21/middleeast/isis-documents/index.html>, and Mariam Karouny, «In Northeast Syria, Islamic State Builds a Government,» Reuters, 4 September 2014, <http://www.reuters.com/article/us-syria-crisis-raqqa-insight-idUSKBN0GZ0D120140904.

انظر أيضاً ورقتنا العمل: Rim Turkmani with Ali A. K. Ali, Mary Kaldor and Vesna Bojicic Dzelilovic, «Countering the Logic of the War Economy in Syria; Evidence from Three Local Areas,» *Security in Transition* (London School of Economics) (July 2015), <http://bit.ly/1NcvHgH>, and Turkmani, «ISIL, JAN and the War Economy in Syria.»

(١٧) Charles C. Caris and Samuel Reynolds, «ISIS Governance in Syria,» *Middle East Security Report* (Institute for the Study of War), no. 22 (July 2014).

(١٨) Khales Joumah, «Mosul Is «Safe, Clean» ... and Run by ISIS,» *Daily Beast*, 15/6/2015.

تم الحصول على هذا المقال من موقع «نقاش»: <http://www.niqash.org/en/article/security/5029/Extremists'-Mosul-Is-A-Safe-Clean-City-Full-Of-Bearded-Men-Veiled-Women.htm>, and Zenia Karam [et al.], «Inside Islamic State Group's Rule: Creating a Nation of Fear,» Associated Press, 18 June 2015, and Shubert, «How ISIS Controls Life, from Birth to Football».

(١٩) Karouny, «In Northeast Syria, Islamic State Builds a Government».

(٢٠) المصدر نفسه.

(٢١) Liz Sly, «How Saddam Hussein's Former Military Officers and Spies Are Controlling ISIS,» *Independent*, 5/4/2015.

محاولة من التنظيم لإثبات كفاءته في الحكم والإدارة، يعلن مخططو «داعش» دورياً عن تدشين مشروعات أو مؤسسات جديدة، من مثل افتتاح مدرسة طب في سورية والعراق، وإنجازات أو تطويرات تكنولوجية حديثة جداً، وافتتاح الغراند أوتيل في الموصل، مع الكثير من الدعاية المصاحبة[٢٢].

وفي الحقيقة، لا يمثّل «داعش» للسكان الذين عاشوا عقوداً طويلة على الكفاف، وعانوا عنف الدولة وقمعها، أمراً استثنائياً في أي مجال، وبخلاف الصورة الموجودة في الخارج. فهم يتركون وشأنهم ما داموا هم لا يعبرون خطوط التنظيم ويطيعون قواعده. وفي كل الأحوال فمن الثابت أنه في مناطق النزاع التي يشتد فيها الضغط على الجماعات المحلية، فما يعنيها أكثر من سواه يصبح الخبز والزبدة والأمن والحكم والأجور العادلة[٢٣]. وبحسب بعض اللاجئين السوريين المعدمين في تركيا، فالوسيلة الوحيدة لإعالة أسرهم هي العودة إلى الرقّة أو دير الزور وإعلان الولاء لـ «داعش» مقابل الحصول على وظائف كمدرّسين أو موظفين في قطاع الخدمات العامة. ومعدل الراتب الشهري لهذه الوظائف، وفق شهادات شخصية، مئة دولار في الشهر لا تؤمن إلا كفاف العيش. وقبل المباشرة بوظائفهم على العائدين أن يخضعوا لدورات تثقيف ديني لدمجهم في أيديولوجية التنظيم المتشددة، وكذلك للتدريب العسكري[٢٤].

ووفق ناشطين عدة ظلوا في المناطق التي أعلنت فيها «الخلافة»، فقد بنى «داعش» اقتصاد حرب نشطاً ومتنوعاً من أجل تمويل حربه الجارية ونفقات إدارته، وتتكون مداخيله عموماً من مبيعات النفط والرسوم والضرائب وتجارة المخدرات والخطف والسرقة وبيع التذكارات الفنية الثقافية والدينية. وقد جمع التنظيم عشرات ملايين الدولارات من فديات حصل عليها مقابل إفراجه عن رهائن غربيين أو عرب.

وبحسب دراسة تومسون رويترز المنشورة سنة ٢٠١٥، يسيطر التنظيم الإرهابي على أصول تساوي أكثر من ٢ تريليون دولار أمريكي، مع دخل سنوي يبلغ ٢,٩ مليار دولار أمريكي. وفي كانون الثاني/يناير ٢٠١٥، أخبر أبو سعد الأنصاري حاكم «داعش» على الموصل صحيفة عربية أن ميزانية التنظيم تبلغ ٢ مليار دولار في السنة، مع أن مراقبي الأمم المتحدة ومراقبين مستقلين يقدرون

---

(٢٢) «داعش يفتتح أول مؤسسة للدراسات الإسلامية في الموصل،» القدس العربي، ٢٠١٥/٥/٧؛ ««تنظيم الدولة» يُنشئ مستشفى تعليمي ضخم وعدة معامل أدوية في الموصل،» القدس العربي، ٢٠١٥/٩/١؛ «داعش يعلن طبع مناهج دراسية جديدة في الموصل ويوعز بتوزيعها قبل بداية العام الدراسي الجديد،» القدس العربي، ٢٠١٥/٩/١؛ فراس الهكار، «كليتا طب ومصنع أطراف صناعية: «داعش» للمتفوقين!،» الأخبار، ٢٠١٥/٨/٢٩، و Heather Saul, «ISIS Opens 262-Room Luxury Hotel in Mosul,» *Independent*, 6/5/2015.

(٢٣) عصام والحامد، «بعد عام على سقوط الموصل: التنظيم يتفوق على منافسيه بالصراع على العقول قبل الميادين».

(٢٤) ياسر العيسى، «في سوريا.. الوظيفة مقابل البيعة،» الجزيرة، ١١ حزيران/يونيو ٢٠١٥، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2015/6/11/%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B8%D9%8A%D9%81%D8%A9-%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%A8%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%B9%D8%A9>.

الموازنة الآن في حدود نصف المبلغ أعلاه[٢٥]. وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، قال آدم زوبين، مساعد وزير الخزانة الأمريكي للإرهاب والمعلومات المالية، إن احتواء «داعش» صعب لأن جزءاً صغيراً فقط من مداخيله يأتي من مانحين أجانب. وبحسب زوبين، فقد ولّد التنظيم أكثر من ٥٠٠ مليون دولار من مبيع النفط في السوق السوداء في سورية والعراق، ونهب من ٥٠٠ مليون إلى ١ مليار دولار من الودائع المصرفية في المناطق التي سيطر عليها، إضافة إلى ملايين الدولارات من السوريين والعراقيين الذين يعيشون تحت سلطته[٢٦]. والتنظيم بسيطرته على شرق سورية، وبخاصة دير الزور والرقة، والمناطق العراقية المحاذية، فهو يضع يده على جزء كبير من حقول نفط وغاز سورية (١٦٠ حقلاً)، وعلى سد كهربائي مائي، وأراض خصبة، وثلث موارد البلاد من القمح. في العراق، يسيطر التنظيم على ١٣ حقلاً نفطياً، وثلاثة مصافي تكرير، و٥ مصانع إسمنت، ومنجم ملح[٢٧]. وفي السنة ونصف السنة الماضية باع التنظيم نفطاً بـ ٥٠٠ مليون دولار من حقوله في سورية والعراق إلى رجال أعمال أتراك وعراقيين وإلى مناطق تحت سيطرة الحكومة السورية أو المعارضة[٢٨]. والبغدادي ومسؤولوه المختصون يتبادلون التجارة مع أي كان، حتى مع أعدائهم وبما يناسب مصالحهم. وفي تقرير لـ النيويورك تايمز سنة ٢٠١٥، مدعماً بإحصاءات من مؤسسة راند، أن التنظيم حصل على ١٠٠ مليون دولار ذلك العام مقابل مبيعات نفطية، مع أن الخبراء المعنيين يقدرون مداخيل النفط بأكثر من ذلك كثيراً[٢٩].

وبحسب المعلومات التي توافرت نهاية صيف ٢٠١٥، فإن تصاعد القصف الجوي من التحالف الذي تقوده الولايات المتحدة، وكذلك القصف الروسي، دمّر معظم المصافي النفطية التي يديرها

---

(٢٥) Sarah Almukhtar, «ISIS Finances Are Strong,» *New York Times*, 19/5/2015, <http://www.nytimes.com/interactive/2015/05/19/world/middleeast/isis-finances.html?r=0>; Jean-Charles Brisard and Damien Martinez, «Islamic State: The Economy-Based Terrorist Funding,» *Thomson Reuters Report* (October 2014), <https://risk.thomsonreuters.com/sites/default/files/GRC01815.pdf>; «Islamic State: Unfriended,» *The Economist* (12 December 2015), and Colum Lynch and David Francis, «The Islamic State Has Gotten Rich from Extortion, Heists, and Smuggling: But How Long Can the Extremist Group Continue to Bankroll Jihad?,» *Foreign Policy* (15 December 2015).

(٢٦) Lynch and Francis, Ibid.

(٢٧) «Islamic State: Unfriended».

(٢٨) Sam Jones, Piotr Zalewski, and Erika Solomon, «ISIS Sells Smuggled Oil to Turkey and Iraqi Kurds, Says US Treasury,» *Financial Times*, 23/10/2014; David Blair, «Oil Middleman between Syria and ISIL Is New Target for EU Sanctions,» *Telegraph*, 7/3/2015; Eric Schmitt, «ISIS or Al Qaeda?: American Officials Split over Biggest Threat,» *New York Times*, 4/8/2015, and Hermela Aregawi, «Operation Inherent Resolve: A Year of Fighting ISIL,» Al Jazeera America (14 August 2015).

(٢٩) Almukhtar, «ISIS Finances Are Strong».

في سنة ٢٠١٥، على سبيل المثال، قدّرت حكومة الولايات المتحدة العمليات النفطية الشهرية لداعش في حدود ٤٠ ـ ٥٠ مليون دولاراً، إلا أن محللين مستقلين يعتقدون أن الرقم قد تناقص منذ بدء الضربات الجوية ضد داعش من التحالف بقيادة الولايات المتحدة في نهاية سنة ٢٠١٥. ووجد تحليل مماثل أجرته IHS Global Strategies، أن مداخيل داعش بلغت أواخر سنة ٢٠١٥ حوالى ٨٠ مليون دولاراً شهرياً يمثّل النفط حوالى ٤٣ بالمئة منها. انظر: Jason Abbruzzese, «Here's How ISIS Makes-and Spends-Its Money,» *Mashable*, 8 December 2015, <http://mashable.com/2015/12/08/isis-makes-its-money-like/#HvksJ1koXEq6>.

«داعش» ووسائل نقل النفط في شرق سورية، ومنها نحو ١٠٠٠ صهريج كانت تستخدم في نقل النفط إلى العراق وتركيا. كذلك، استصدرت البلدان الغربية قرارات من مجلس الأمن ومؤسسات دولية أخرى لمنع «داعش» من تحريك الأموال من خلال النظام المالي العالمي(٣٠). ومع أن لهذه الخطوات المزدوجة أثراً ثقيلاً على ميزانية «داعش»، إلا أنها لن تؤدي إلى إفلاسه.

وهناك أدلة متزايدة على أن القصف الجوي أدّى إلى تقلص رئيسي في إنتاج النفط، وإلى ارتفاع أسعاره وهبوط في المعنويات والرواتب. فقد قلّص التنظيم حديثاً رواتب مقاتليه من ٤٠٠ دولار في الشهر إلى ٣٠٠ دولار، كما فرض رسوماً وضرائب إضافية على السكان. ويفيد ناشطون وعاملو إغاثة أن برامج العون للأكثر حاجة بين السكان تعرّضت لتخفيضات رئيسية، ما تسبب ببؤس إضافي ونقص في أدوية الحالات الحادة أو الأمراض المزمنة، كما باتت انقطاعات الكهرباء أطول زمناً. وتلقى «داعش» ضربة قوية صيف ٢٠١٥ عندما توقفت حكومة بغداد عن دفع رواتب موظفيها المقيمين في مناطق سيطرة الميليشيات، وخصوصاً الموصل، ما يعني أنه لم يعد بوسع التنظيم استخدام هؤلاء الموظفين مجّاناً تقريباً(٣١).

مع ذلك، لا يزال التنظيم يملك ملاءة مالية جيّدة، رغم مئات الضربات الجوية من التحالف التي هدفت إلى تدمير إنتاج النفط والغاز في مناطق سيطرته وتجفيف وارداته من الاتجار بالمشتقات النفطية(٣٢). فالتنظيم، كما أوضحنا في الكتاب، أنشأ اقتصاد حرب مجرمن متعدد الأشكال ولا يقوم على مصدر واحد. وبحسب دراسة لـ IHS Global Strategies، عرضنا لها قبل هنيهة، فإن ٥٠ بالمئة من واردات التنظيم تأتي من الضرائب والرسوم، وتزيد عمّا يتأتى من النفط. فهو يسيطر على كل جزء من الحياة العامة لما بين ٥ و٨ ملايين ساكن في مناطق سيطرته، ويحتكر كل أنواع النشاط الاقتصادي فيها. وكما مرّر كاتب من الموصل باسم مستعار، قال: «كل شيء في المدينة تحت سيطرة «داعش» بلا استثناء؛ ولو كانت لديهم القدرة على السيطرة على الهواء الذي يتنفسه السكان لفعلوا ذلك»(٣٣).

سمحت سيطرة «داعش» الكاملة على السكان باقتطاع رسوم، وأخذ نصيب من الأرباح، وفرض ضرائب، تأخذ غالباً شكل الابتزاز. مع تدمير قصف التحالف ولو جزئياً لمهنة «داعش» النفطية، لجأ التنظيم إلى تحصيل المزيد من الأموال من المنازل والأعمال القائمة في «الخلافة». وبحسب تقرير من ناشط في الرقة معادٍ للتنظيم بعنوان «الرقّة تُذبح بصمت»، يقول «أحد أهم واردات «داعش» هي

(٣٠) Lynch and Francis, «The Islamic State Has Gotten Rich from Extortion, Heists, and Smuggling: But How Long Can the Extremist Group Continue to Bankroll Jihad?».

(٣١) «Islamic State: Unfriended»; «What It Will Take to Bankrupt ISIS,» *New York Times* [editorial], 3/12/2015, and Hugh Naylor, «Islamic State Money-Making Streams Take a Hit as It Loses Territory,» *Washington Post*, 4/12/2015.

انظر أيضاً: «تنظيم الدولة يخفض إلى النصف رواتب مقاتليه في سوريا والعراق،» القدس العربي، ٢٠١٦/١/٢٠، <http://www.alquds.co.uk/?p=468538>.

(٣٢) Erika Solomon and Sam Jones, «ISIS Inc: How Oil Fuels the Jihadi Terrorists,» *Financial Times*, 14/10/2015, <http://www.ft.com/cms/s/2/b8234932-719b-11e5-ad6d-f4ed76f0900a.html#axzz45RSPPb19>.

(٣٣) موريس ملتون، «عام على احتلال «داعش» للموصل: ماذا تغير وكيف؟،» السفير، ٢٠١٥/٦/٢٥.

الضرائب التي تُفرض على المواطنين في الرقّة»[٣٤]. ويروي قصصاً مماثلةً من دير الزور والموصل، حيث يفرض «داعش» رسوماً ثقيلة على المحاصيل، وخطوط الهاتف، والماء، والكهرباء، وجمع القمامة، ما يستنزف السكان المستنزفين في الأصل ويزيد معاناتهم. وبحسب الناشطين في تلك المناطق، فهدف «داعش» من مضاعفة الصعوبات هو جعل الناس معتمدين في حياتهم كلياً على إدارة التنظيم للبقاء في قيد الحياة، وإجبار الشبّان على الانضمام إلى تشكيلات التنظيم العسكرية لإطعام عائلاتهم. وهي مقامرة قد تنعكس سلباً عليه في المستقبل[٣٥]. وبعد حوالى العام من سيطرة «داعش» على ثلث أراضي سورية والعراق، بدأ المواطنون القاطنون هناك يشكون ارتفاع كلفة المعيشة وأنهم مجبرون على تمويل كلفة العمليات العسكرية. على سبيل المثال، ارتفع سعر ربطة الخبز في الرقة، المدينة الزراعية الغنية بالمحاصيل، خمسة أضعاف، وبلغت وفق تقارير محلية رقماً قياسياً لم تبلغه من قبل[٣٦].

وكما يبدو بوضوح، فإن إقفال قنوات تمويل «داعش» وموارده ليس بالأمر السهل؛ فما دام التنظيم ينوّع في اقتصاده الحربي القذر، وقادراً على سدّ النقص في خزائنه، فسيظل قادراً على تعزيز قبضة حكمه. وما دامت المسمّاة «الدولة الإسلامية» قادرة على دفع رواتب وتكاليف مقاتليها (٧٠ بالمئة من إجمالي نفقاتها)، وإدارييها، وموظفيها المدنيين، ولو على غير انتظام وتقليص متزايد، فستكون قادرة بالتالي على الانغماس «أعمق في نسيج الجماعات التي تسيطر عليها»[٣٧]. وعليه، فالتحدي للمجموعة الدولية إنما يكون في قدرتها على قطع أوكسجين «داعش» الاجتماعي (الحاضنة الاجتماعية) وتجفيف منابع موارده المالية؛ وهما مهمتان يزيدهما تعقيداً معرفتنا أن هناك ملايين الناس تعيش تحت سلطة «داعش». وسيظل التنظيم، في ظل اقتصاده الحربي القذر وعمليات ابتزازه، قادراً على توفير المال اللازم ليدير آلته الحربية، مع أنه خيار مكلف له وقد يحيل السكان في المستقبل من موقف الصمت إلى موقف المعارضة. ووفق تقارير موثوق فيها، فهناك انشقاق لعدة مقاتلين أجانب عن التنظيم. والشبّان يتجنبون حضور صلاة نهار الجمعة الجامعة خوفاً من أن يجري تجنيدهم بالقوة. وتبقى، مع ذلك، الوسيلة الأكثر تأثيراً في إبطاء زحف «داعش» هي عزله عن حاضنته الاجتماعية في البلدات والمدن، وإقفال قنوات تمويله، رغم علمنا بصعوبتها لأن التنظيم يتعامل بالمال نقداً وخارج شرعية النظام المصرفي الذي كان في وسع الحكومات الغربية

---

(٣٤) انظر موقع الجماعة: <http://www.raqqa-sl.com/>، و Erika Solomon, «The ISIS Economy: Meet the New Boss,» *Financial Times*, 5/1/2015.

(٣٥) Joanna Paraszczuk, «The ISIS Economy: Crushing Taxes and High Unemployment,» *Atlantic* (2 September 2015), and Alessandria Masi, «Life for Residents of ISIS Caliphate Is So Expensive It Could Be Its Downfall,» *International Business Times*, 20/5/2015.

(٣٦) Joumah, «Mosul Is «Safe, Clean» ... and Run by ISIS»; Hubbard, «Offering Services, ISIS Digs in Deeper in Seized Territories»; Masi, Ibid., and Karam [et al.], «Inside Islamic State Group's Rule: Creating a Nation of Fear».

انظر أيضاً: ياسر العيسى، «بيع الكهرباء.. نشاط جديد لتنظيم الدولة بدير الزور،» الجزيرة، ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١٥، وفراس الهكار، «داعش يبيع الكهرباء،» الأخبار، ٢٠١٥/٤/٢٤.

(٣٧) Hubbard, Ibid.

متابعته. وقد بدأت الولايات المتحدة بقصف ما يحتمل أن يكون أماكن تخزين أمواله النقدية، في مسعى إلى حرمانه من ميزته القوية. وبخلاف القاعدة المركزية، لا يعتمد «داعش» على المانحين الأجانب، ما يبعد شبح الإفلاس القريب عنه. ولكن يبقى التنظيم، مع ذلك، هشّاً لخوضه معارك متعددة معاً وضد أعداء متعددين، بينما هو يحاول في الوقت عينه بناء نواة دولة، الأمر الذي يتطلب، وفق زوبن، مساعد وزير الخزانة الأمريكي لشؤون مكافحة الإرهاب والمعلومات، «مصادر تمويل ثابتة ومتجددة»[٣٨].

ثالثاً: «الحكم الإسلامي»

بالرغم من انهماك البغدادي ومساعديه في حروبهما الدائرة، إلا أنهم يخصصون بعض الموارد لعملية بناء الدولة، أو ما يدعونه «الحكم الإسلامي». فثلث موازنة «داعش» السنوية يُنفق على الدعاية والشؤون الحكومية المحلية والوطنية، بما فيها الإعلام وطبع المنشورات والكتب، وشق الطرقات، وإدارة المستشفيات، وإبقاء المدارس مفتوحة. ومخططو التنظيم يعترفون أن الهيمنة والقوة لا يضمنان رضا الناس وتأييدهم على المدى البعيد. وعليه، يعمل قادة «داعش» على المزج بين العنف والإقناع للحصول على القبول بسلطة الدولة الإسلامية[٣٩]. وهدف «داعش» الاستراتيجي هو تعزيز فرص إطالة العمر السياسي لـ «الدولة». وتظهر مئات الوثائق المسرّبة حديثاً من التنظيم أن «داعش» منخرط بوعي في عملية بناء دولة، من خلق فرص العمل وشق الطرق إلى حضانات الأطفال والفنادق والمتاجر، ومن الفرات إلى دجلة. وواحدة من الوثائق تلك التي وصلت إلى الغارديان البريطانية تظهر بجلاء أن «الدولة تعني نظاماً إسلامياً في العيش، ودستوراً قرآنياً، وآلية لتطبيقه»، رغم أن النظام الإسلامي هذا يجب أن لا يأتي على حساب التخطيط والتنظيم العقلانيين. ويضيف المخططون: «لن يكون هناك قمع لدور الكفاءة، ومهارات المتخصصين، وتدريب الجيل الحالي على إدارة الدولة»[٤٠].

وبينما ينهمك الإعلام الغربي والعربي بالتوسّع في إظهار كيف يقوم «داعش»، في ما يسميه «خلافة إسلامية»، ببناء بنية سياسية شبيهة بحكومة حديثة، لا يقال إلا القليل حول الطابع الثوري لطريقة حكم التنظيم. فقد نشر التنظيم وبعد ثلاثة أيام فقط من سقوط الموصل بياناً (مانيفستو) أسماه «عهد المدينة»، تضمن ست عشرة مادة وضع التنظيم فيها الأرضية لحكم سياسي. تقول المادة ١٦ من الوثيقة: «أيها الناس، لقد جربتم كل أنواع الحكم العلماني، من ضمنها الملكي، الجمهوري، البعثي، والصفوي [في إشارة إلى حكومة بغداد المركزية المدعومة من إيران]، وآن

(٣٨) Lynch and Francis, «The Islamic State Has Gotten Rich from Extortion, Heists, and Smuggling: But How Long Can the Extremist Group Continue to Bankroll Jihad?».

(٣٩) Barnard and Arango, «Using Violence and Persuasion, ISIS Makes Political Gains»; Hubbard, Ibid., and Karouny, «In Northeast Syria, Islamic State Builds a Government».

(٤٠) Shiv Malik, «The ISIS Papers: Behind «Death Cult» Image Lies a Methodical Bureaucracy,» *The Guardian*, 7/12/2015.

الآن أوان الدولة الإسلامية»[٤١]. ويوضح النص المختصر هذا هندسة المشروع الاجتماعي للتنظيم ومعنى «الحكم الإسلامي». ولتبيّن المعنى الكامل لما يعنيه التنظيم بالحكم الإسلامي تجب مراقبة ما يفعله «داعش» في الموصل والرقة ودير الزور والفلوجة والمدن الأخرى. يحاول قادة «داعش» في هذه المدن اجتثاث النظام الاجتماعي القائم وإبداله بنظام أخلاقي وديني جديد يجمع القواعد الفقهية التي طبّقت في شبه الجزيرة العربية في القرن السابع الميلادي إلى مجتمع القرن الحادي والعشرين الحالي. يوضح التنظيم في المادة السادسة عشرة من بيانه أن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع والقوانين ودستور الدولة الإسلامية. ورغم أن التنظيم يلحظ أن «السنّة النبوية» هي المصدر الثاني للتشريع إلا أنه لا يأخذ حين يأتي إلى القوانين والتشريعات المطلوبة للخلافة إلا بالتفسيرات المتطرفة للنصوص القرآنية[٤٢].

بعد أقل من عام واحد من احتلال «داعش» للموصل، أسس التنظيم نظاماً موازياً لنظام الدولة ـ الأمة العلماني مع القوانين والقواعد الاجتماعية التي تحدد علاقات الدولة ـ المجتمع. تكشف مئات الوثائق المسرّبة التي عرضنا لها أعلاه عن خريطة طريق استراتيجية طموحة لاكتفاء ذاتي في المستقبل من خلال «تنشئة جيل إسلامي قادر على تحمل مسؤولية «الأمة الإسلامية» ومستقبلها من دون الحاجة إلى خبرات الغرب»[٤٣]. ونشر كاتب مجهول من الموصل، أخذ اسم موريس ميلتون، سلسلة مقالات تصف حياة الناس والتغييرات التي طرأت عليها بمناسبة مرور سنة على احتلال «داعش» للمدينة[٤٤]. يصف ميلتون كيف جرى استبعاد الموصليين الأصليين، وكيف صار الاحتكام «للسيف» تحقيقاً للقبول والطاعة، وكيف جرى كنس أفكار الوسطية والاعتدال، والتكييف القصدي للناس مع العنف المنظّم. ومع أن الزمن قد يشفي الجراح الجسدية الناتجة من وحشية «داعش»، كما يقول، إلا أن ما يفرضه التنظيم على سكان المدينة من قواعد اجتماعية وأخلاقية جديدة يترك جراحاً عميقة لن تشفى بسهولة. فالمادة ١٦ من «عهد المدينة» يمنع على المواطنين نشر أو إذاعة أي معلومات لا تصدر رسمياً عن التنظيم وكذلك منع رفع أي راية في المدينة خلا راية الدولة الإسلامية. ومنذ اليوم الأول، عمل «داعش» بقوة لإعادة تشكيل صورة المدينة. فبحسب شاهد العيان ذاك، سعى «داعش» إلى التخلص من تاريخ المدينة، وتنوعها، وانفتاحها على خارجها، وثقافتها، وأن يفرض بدلاً من ذلك الأحادية والطاعة لمجموعة من القواعد الفظة. لقد خلق باختصار نظاماً دينياً شمولياً. وأريد لهذا النظام أن يغيّر من الثقافة السياسية للعراق وسورية بحيث يستنسخ نموذج «داعش» ويستمر إلى ما لا نهاية. ويعد مراقبة قريبة لمخططي «داعش» على مدى

---

(٤١) انظر: «وثيقة المدينة»، <https://azelin.files.wordpress.com/2014/06/islamic-state-of-iraq-and-al-shc481m-charter-of-the-city.pdf>.

انظر أيضاً: ملتون، «عام على احتلال «داعش» للموصل: ماذا تغير وكيف؟».

(٤٢) المصدران نفسهما.

(٤٣) Malik, «The ISIS Papers: Behind «Death Cult» Image Lies a Methodical Bureaucracy».

(٤٤) موريس ملتون: «عام على احتلال الموصل: نظاما القضاء والحسبة،» السفير، ٢٠١٥/٧/٢، و«عام على احتلال «داعش» للموصل: ماذا تغير وكيف؟».

عام كامل، يخلص كاتب الموصل إلى أن هؤلاء قد قرأوا بكل تأكيد الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، وبخاصة حواراته في القيم والأخلاق، وذلك بتأسيسهم لقيم وقواعد جديدة من وحي الأيديولوجيا السلفية الجهادية وفرضها بكاملها على المجتمع. يجري فرض «الحكم الإسلامي» بواسطة شريحة اجتماعية جديدة من المناطق الريفية، تعمل كشرطة أخلاقية أو حرس ثوري للتنظيم. تشير المشاهدات على نحو متزايد أنه يغلب على عضوية «داعش» التكوين الريفي والمديني الفقير، رغم أن قادتها هم عموماً من الطبقة الوسطى. ويفيد مواطنون وناشطون في «الخلافة» أن التنظيم يعزز من قوة القرويين والعناصر الريفية ويضعهم في مراكز المسؤولية في العراق وسورية، مفسحاً في الطريق لانشطار اجتماعي بين طرائق الحياة المدينية وطرائق الريف[٤٥].

هذا «التريف» للمدن العراقية والسورية، وبخاصة الموصل التي تعوّدت التنوع والانفتاح الثقافيين، سيكون له آثار اجتماعية مستدامة في البلدين. والأكثر أهمية، أنه يجري استخدام الطليعة الريفية لـ «داعش» كأداة جاهزة للقمع والهيمنة. ومن خلال دفعه إلى أمام بالقرويين والعناصر الريفية، الذين ارتبطت مصالحهم بـ «داعش»، بات للتنظيم جمهوره الخاص الموالي، الحاضر والراغب في تنفيذ ما يطلب منه. وفي حين يركّز العالم على الأدوار العملانية والقيادية للضباط البعثيين في جيش وشرطة نظام صدّام السابق داخل التنظيم، لا يعطى غير اهتمام طفيف للعناصر الريفية التي تقوم بإرهاب الناس وتفرض قوانين «داعش» الصعبة بالقوة. ومع ذلك، فهؤلاء المنخرطون حديثاً في الأيديولوجيا الجهادية هم سيف ذو حدّين لـ «داعش»، لأنهم مدفوعون في هذه الحال كما في الحالات الأخرى بمصالحهم لا بعقيدتهم. وحين سيتراجع «داعش» عسكرياً، فلن تجد الشريحة الريفية والفقيرة أعلاه أي حرج في تبديل ولائها، كما تعوّدوا أن يفعلوا في الماضي.

رابعاً: الأيديولوجيا والسلطة

تشكل العقيدة والقدرة العسكرية عاملين رئيسيين آخرين خلف قوة «داعش» واستمراره في المستقبل. فمن خلال تسليح مقاتلي التنظيم بعقيدة رسالية، والإيمان بأنهم يقومون بإحياء الخلافة، يغدو هؤلاء خارج عالم الخوف[٤٦]. وأحد أعظم أسباب قوة «داعش» هو الإيمان الداخلي بصحة قضيتهم، والإيمان الأعمى بمبادئ «الحاكمية» (حكم الله على الأرض مقابل حكم الناس)،

---

(٤٥) «بين الفقراء والمسلمين: المغالطات الأربع الشائعة حول ظاهرة الإرهاب في العالم،» مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥، والياس فرحات، «التكتيك العسكري لـ «داعش»،» النهار، ٢٠١٤/١١/٢٥، <http://newspaper.annahar.com/article/192432-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%83%D8%AA%D9%8A%D9%83>.

انظر أيضاً: ملتون: «عام على احتلال الموصل: نظاما القضاء والحسبة،» و«عام على احتلال «داعش» للموصل: ماذا تغير وكيف؟،» وهشام الهاشمي، تنظيم الدولة (داعش) بين احتمالية البقاء والتفكك،» مركز الجزيرة للدراسات، ١٠ آب/أغسطس ٢٠١٥، <http://studies.aljazeera.net/ar/issues/2015/08/201581085853684278.html>، و Joumah, «Mosul Is «Safe, Clean» ... and Run by ISIS».

(٤٦) Graeme Wood, «What ISIS Really Wants,» *Atlantic* (March 2015).

و«الولاء والبراءة» (البيعة للإيمان والجماعة السنّية ونفي الآخر). ومقاتلو البغدادي تملؤهم الثقة بأن الميت في الدفاع عن المبادئ تلك سوف يكون «شهيداً في سبيل الله»، والطريق إلى الجنّة[٤٧].

وبمعزل عن مضمون الإيمان ذاك، إلا أنه عامل أساس في بناء الروح القتالية لدى مقاتلي «داعش»، ويجعلهم يتحملون صعوبات الحرب، وتزويدهم بالدافع والإلهام. هذه القناعة العقيدية الصارمة هي التي تفسّر وفرة المفجّرين الانتحاريين في صفوف «داعش». باختصار، لقد نجح «داعش» في تحويل المفاهيم السلفية الجهادية وقائع على الأرض ما سمح له بأن يتقدم الإسلاميين في المشرق في السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة. وساعد على صعود سمعة التنظيم الصف الطويل من الانتحاريين لديه الذين ينتظرون دورهم لتنفيذ عمليات انتحارية، أو «استشهادية» وفق التوصيف السائد. لقد نفّذ المئات منهم عمليات كهذه وكانت أحياناً حاسمة لتقدّم «داعش» في العراق وسورية[٤٨]. ومع أن مفهوم القتال في سبيل الوجود يبدو مشتركاً للمنخرطين في القتال من قوات عراقية وسورية وكردية، إلا أن لا أحد ينافس «داعش» في مفهوم العمليات الاستشهادية إلا التنظيمات الشيعية، في التصميم وإرادة القتال (وغير بعيد من إيمانهم بعدالة قضيتهم وبعودة المهدي، المتحدر من نسب الرسول، والذي كما يعتقدون سيظهر في ذروة حربهم فيحقق الانتصار يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما مُلئت ظلماً وجوراً)[٤٩].

ومن جديد يمتدح البغدادي وجهاز دعايته مقاتلي «داعش» لتضحياتهم وإخلاصهم في وجه قوى كبرى. ففي تسجيل حديث يخاطب البغدادي مقاتليه كما يلي، «ابقوا ثابتين، وكم أرغب لو أضحّي أنا مكانكم»[٥٠]. ولا يكفّ قادة «داعش» عن تذكير مرؤوسيهم بأنهم إنما يتبعون خطى الرسول وحملته التي كانت نجحت في إقامة أول دولة إسلامية. ويجري وصف مقاتلي «داعش» بـ«جنود الخلافة»[٥١]، الذين يقاتلون أعداء الإسلام ويجلبون الفخار والنصر والريادة للجماعة السنّية. هم دائماً قيد التعبئة الأيديولوجية ما يحوّلهم إلى آلات بشرية مبرمجة. صحيح أن هناك مقاتلين سوريين وعراقيين انضموا إلى التنظيم، لا لأسباب عقائدية بل لأسباب تتصل إما بالكسب الاقتصادي أو لأسباب سياسية، إلا أن العقيدة للآخرين، وبخاصة المقاتلون الأجانب وبقايا جهاديي القاعدة في العراق، تبقى المرهم الذي يجعلهم ملتصقين بـ«داعش» ومخلصين له. هؤلاء المقاتلون المملؤون بالانتماء العقائدي هم من يعطي «داعش» الأسبقية ويمنحها الفارق في ميادين القتال.

---

(٤٧) المصدر نفسه.

(٤٨) عبد الله سليمان علي، «عام «الخلافة» الثاني: دول جديدة في دائرة الاستهداف،» السفير، ٢٠١٥/٦/٢٩، <http://assafir.com/Article/5/427805/AuthorArticle>.

(٤٩) Mariam Karouni, «Apocalyptic Prophecies Drive Both Sides to Syrian Battle for End of Time,» Reuters, 1 April 2014.

(٥٠) انظر نص وتسجيل البغدادي الصوتي: Abu Bakr Al-Baghdadi, «March Forth Whether Light or Heavy,» *Carol Ann Grayson (Radical Sister) Blog*, 14 May 2015, <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-baghdadi>.

(٥١) جملة تتردد دائماً في دعاية داعش وأشرطته ومنشوراته وتعني مقاتلي داعش.

ويحسب قادة أكراد، فبعض المقاتلين الأجانب كانوا يتحركون كأفراد مرعوبين حول الأراضي التي يحتلها التنظيم[52].

يدرّب مخططو «داعش» مقاتليهم على أن يكونوا جميعاً قادة وأن يحاربوا جنباً إلى جنب ويموتوا جنباً إلى جنب، وهو ما يفسّر النسبة العالية من القادة القتلى أو المصابين في معارك التنظيم. وحده «داعش»، ومن بين كل الفصائل المتمردة في سورية والعراق، يفعل ما يقول أو ما يدعو إليه، وشعاره الجاذب القوي لمقاتليه كما لأنصاره هو: «آمنوا بدعوتنا، وأمامكم الشهداء من قادتنا». الإيمان، لا الرتب والهرمية القيادية، هو ما يوحّد مقاتلي «داعش» معاً. ويحسب ناشطين في المناطق تلك، فإن الوحدة الإيمانية بين مقاتلي «داعش» وقادتهم هي الفارق الحاسم الذي يمنح التنظيم القوة والبقاء ويساعده على التمدد في المناطق التي يغلب عليها الطابع السنّي[53].

إحدى النتائج المستخلصة في عام ونصف العام، هي أن التنظيم يملك تماسكاً وحيوية عقائدية ونجاحاً عملانياً. وليس غريباً بالتالي أن التنظيم لم ينهز تحت الضربات التي وجّهت له من التحالف ومن عدد آخر من الأعداء. فبعد عشرين ألف غارة جوية أمريكية على «داعش»، وخسارته عشرين ألف مقاتل بين قتيل وجريح، وفق أرقام أمريكية رسمية، لا يزال التنظيم واقفاً على قدميه بل ويظهر قدرة على التعويض والتكيف. ورغم أن الغارات الأمريكية والهجمات البرية في سورية والعراق قد أضعفت التنظيم، إلا أنه لا يزال قوة يحسب لها حساب، وقادراً على شن هجمات مميتة في البلدين وحتى الرجل الأخير[54]. فبعد سنة ونصف السنة من إعلان الخلافة، يستمر «داعش» في الدفاع عن الأراضي التي يقف عليها في مسارح عدة، وضد أكثر من عدو، بما فيها القوات العراقية والميليشيات الشيعية القوية، والمقاتلون الأكراد الأشدّاء والتصميم في العراق وسورية، وكذلك الجيش السوري وحلفاؤه وبخاصة حزب الله. وانضمت أخيراً روسيا في نهاية ٢٠١٥ إلى المعركة ضد «داعش» من خلال التدخل العسكري في سورية وتنفيذها غارات جوية ضد التنظيم وقوات المعارضة الأخرى في آن. وعند الانسحاب الجزئي للطيران الروسي من سورية في آذار/ مارس ٢٠١٦، كان هؤلاء حسب إحصاءات روسية رسمية قد نفّذوا ١٠٠٠٠ غارة جوية في سورية، ثلثها أو أكثر ضد «داعش». وإلى ذلك، يقاتل «داعش» في سورية التنظيمات الإسلامية المنافسة مثل «جبهة النصرة»، «أحرار الشام»، و«جيش الإسلام». وعليه، يستمر «داعش»، رغم كل شيء، في إفهام الصديق قبل العدو أن الدولة الإسلامية «وجدت لتبقى وتتمدد»، وفق شعار التنظيم، وأنها لا تقهر ولا تُهزم. ومن دون شك، فالثغرة القائمة بين أهداف أمريكا وأدواتها وتلك التي لروسيا في

---

(٥٢) Eric Schmitt and Ben Hubbard, «Islamic State Leader Delegates His Powers in Case He Is Killed,» *New York Times*, 21/7/2015.

(٥٣) لبحث إضافي لهذه النقطة، انظر: الحامد، «عام على إعلان دولة الخلافة: هجمات التحالف على تنظيم الدولة في سوريا رفعت من شعبيته».

(٥٤) Missy Ryan and Greg Jaffe, «With Fight against the Islamic State in Iraq Stalled, U.S. Looks to Syria for Gains,» *Washington Post*, 21/9/2015, and Liz Sly, «Russia's Move into Syria Upends U.S. Plans,» *Washington Post*, 26/9/2015.

سورية والعراق هي ما عزز قوة سردية «داعش» وتصويره بأنه لا يهزم. فالسردية تستمر في جذب معجبين وأتباع جدد في الشرق الأوسط وخارجه، وتبعاً لنجاح التنظيم حتى الآن في الالتزام مادياً وعسكرياً بتنفيذ ما يدعو إليه في دعايته، رغم أن ذلك ما عاد يصحّ تماماً بعد خسارة «داعش» مناطق عدة وهزائمه في سورية والعراق، وآخرها خسارته لمدينة تدمر الأثرية السورية أواخر آذار/مارس ٢٠١٦ بعد استيلائه عليها من الجيش السوري قبل ثمانية اشهر.

وتنشأ قدرة التنظيم غير المسبوقة في تعويض خسائره البشرية وتجنيد متشددين جدد من نجاحه في استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لتقديم إعلانات أيديولوجية قوية وعرض نجاحات عسكرية ميدانية باهرة. ولن تستطيع الأيديولوجيا منفردة أن تكون مهمة كما هي الآن، لو لم يقرنها «داعش» بعرض للقوة إلى أقصى حد وتحويلها إلى حقيقة عملية يركنُ إليها.

وهكذا، تجتمع معاً العقيدة الصلبة، والإيمان الأعمى، مع آلة عسكرية فاعلة، لتمنح «داعش» القوة الحربية. وتناميه وتفوقه على تنظيمات إسلامية جهادية أخرى مشابهة له، من مثل النصرة، عائدان على الأرجح لجذوره العميقة والراسخة. وعلى وجه العموم تتألف طواقم قيادته في العراق وسورية من مجاهدي القاعدة في العراق الذين نجوا من هجوم القوات الأمريكية والقوات العراقية؛ كما من ضباط سابقين في جيش صدّام حسين وشرطته، وخبراء في التنظيم، والاستخبارات، والأمن الداخلي؛ ومن قادة شيشان مجرّبين مع مهارات في حرب الغوار.

وعليه، فقد نجح البغدادي وأركان حربه، مع هذا الجيش المتنوع والمجرّب، في تكوين جيش محترف صغير يستطيع أن يخوض الحرب التقليدية كما حرب الغوار. ومن خلال استخدام الحرب السيكولوجية والتخطيط المتقن، نجح قادة «داعش» الميدانيون في بزّ أعدائهم في الميدان بذكائهم وقدرتهم على المناورة، كما في تقديم أشكال خداع استراتيجية مقرونة بالتصميم. وقد ظهرت آثار تدفق الضباط السابقين في الجيش العراقي إلى صفوف التنظيم في الانتصارات العسكرية المبكرة سنتي ٢٠١٣ و٢٠١٤ في العراق وسورية. وخطوة البغدادي المهمة في إحاطة نفسه بضباط الجيش العراقي من زمن صدّام، كانت هي على الأرجح النقلة الحاسمة التي سمحت بالنهوض العسكري بعد الهزائم الساحقة التي منيت بها «القاعدة في العراق» على أيدي مجالس الصحوات السنية بين ٢٠٠٧ و٢٠١٠[(٥٥)]. وبغض النظر عن مدى نفوذ ضباط الجيش العراقي السابقين ووزنهم في صنع القرار داخل «داعش»، فإن دورهم العسكري كان أساسياً في رسم خطط المعارك والرؤية

---

(٥٥) Liz Sly, «The Hidden Hand behind the Islamic State Militants? Saddam Hussein's,» *Washington Post*, 4/4/2015; Joel Rayburn, *Iraq after America: Strongmen, Sectarians, Resistance* (Stanford, CA: Hoover Institute Press, 2014), and Christoph Reuter, «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State,» *Der Spiegel*, 18/4/2015.

هناك رسم بياني لـ الواشنطن بوست لأدوار الضباط البعثيين السابقين في قيادة داعش في العراق وفي سوريا: «Most of Islamic State's Leaders Were Officers in Saddam Hussein's Iraq,» *Washington Post*, 4/4/2015, <https://www.washingtonpost.com/world/most-of-islamic-states-leaders-were-officers-in-saddam-husseins-iraq/2015/04/04/f3d2da00-db24-11e4-b3f2-607bd612aeac_graphic.html>.

الاستراتيجية لماجريات الحرب. لقد كان ذلك تحديداً ما سمح للبغدادي بتحويل شبكة لها شكل المافيا إلى قوة عسكرية مقاتلة محترفة.

بالرغم من النجاح الجزئي الذي تحقق لـ «داعش» في تدمر سنة ٢٠١٥ (التي عاد فخسرها لاحقاً)، فقد شهدت تلك السنة خسارة التنظيم لأربعين بالمئة من الأراضي التي كان قد سيطر عليها في العراق، ولما بين ٥ و٢٠ بالمئة في سورية، منذ إعلان الخلافة في حزيران/يونيو ٢٠١٤[٥٦]. وعليه فالتنظيم الذي توسّع فوق استطاعته بات اليوم في وضع دفاعي ويقاتل كي يستمر موجوداً. إلا أنه ليس خلواً من نقاط القوة، فهو يمتلك عمقاً تنظيمياً، وحيوية، وإيماناً أعمى وإرادة قوية[٥٧]. وبالإفادة من تجارب تنظيمات مماثلة في باكستان واليمن حيث قتلت قياداتهم بغارات جوية متكررة من طائرات أمريكية بلا طيار، منح البغدادي قادته المحليين في العراق وسورية سلطات واسعة، بحيث يستمر التنظيم في حال مقتله والقيادات العليا الأخرى. فالقادة أولئك يملكون، إلى أوامر عمليات العامة الواضحة، من الاستقلالية والمرونة ما يكفي لتسيير عملياتهم[٥٨]. وكخيار أخير، أرسل البغدادي ومخططوه قادة موثوقين من سورية والعراق إلى ليبيا فأسسوا هناك قاعدة للتنظيم في «سرت»، المدينة الساحلية على المتوسط والتي لا تبعد، بحسب مسؤولين غربيين وفي الأمم المتحدة، أكثر من ٦٥٠ كم عن جنوب صقلية[٥٩].

ورغم تعرض التنظيم لنكسات عسكرية مهمة في سورية والعراق، ولخسائر بشرية جسيمة، فهو لا يزال يقاتل حتى النهاية المرّة ولم ينفّذ أي تراجع متسرّع. بل إن التنظيم بدا قادراً بعد كل نكسة عسكرية على الردّ بعملية هجومية، كما حدث أواسط سنة ٢٠١٥ في شمال غرب سورية وفي تدمر كما في الرمادي في العراق، مفاجئاً أخصامه وجالباً البهجة لأنصاره. إلا أن نهاية العام ٢٠١٥ جلبت كما يبدو حداً أخيراً لقدرته على المبادرات الهجومية. ويمتلك مخططو «داعش» العسكريون نظام إجراءات يصبح قيد التطبيق، وشبكات من السيطرة العملانية، يسمحان للتنظيم بالإفلات حتى الآن من الضربات المميتة للتحالف بقيادة الولايات المتحدة. فهو، وكما سجّل، يقوم باستبدال دوري لمقاتليه في العراق وسورية بعد كل مقتلة يتعرض لها هؤلاء على أيدي الولايات المتحدة وحلفائها هناك. وما كان باستطاعة التنظيم ليفعل ذلك لولا وجود دفق من المجنّدين باستمرار. ففي أيلول/سبتمبر ٢٠١٥ نشر محللو الاستخبارات الأمريكية نتائج تقييم موثوق خلص إلى أنه منذ سنة ٢٠١١ انتقل نحو من ثلاثين ألف مقاتل إلى سورية والعراق من مئة دولة حول العالم،

---

(٥٦) «Daesh Lost 30 Percent of Its Territory,» Associated Press, 6 January 2016, and Columb Strack, «Islamic State Territory Shrinks by 9.4% in First Six Months of 2015,» *IHS*, 27 July 2015, <http://www.janes.com/article/53239/islamic-state-territory-shrinks-by-9-4-in-first-six-months-of-2015#.VbeipBweRs.twitter>.

(٥٧) Joseph Rago, «Inside the War against Islamic State,» *Wall Street Journal*, 26/12/2014, <http://www.wsj.com/articles/joe-rago-inside-the-war-against-islamic-state-1419636790>, and Ryan and Jaffe, «With Fight against the Islamic State in Iraq Stalled, U.S. Looks to Syria for Gains».

(٥٨) Schmitt and Hubbard, «Islamic State Leader Delegates His Powers in Case He Is Killed».

(٥٩) David D. Kirkpatrick, Ben Hubbard, and Eric Schmitt, «ISIS' Grip on Libyan City Gives It a Fallback Option,» *New York Times*, 28/11/2015, and Kevin Sieff, «2,000 Miles from Syria, ISIS Is Trying to Lure Recruits in Somalia,» *Washington Post*, 24/12/2015.

بمن فيهم ٥٠٠٠ من بلدان غربية. وكان التقييم نفسه قد ذكر العام الماضي أن نحواً من ١٥٠٠٠ مقاتل قدموا إلى سورية والعراق من ثمانين بلداً. وعليه، فلا يزال التنظيم، وبالرغم من كل الغارات الجوية والهجمات البرية التي تشنّ عليه، قادراً وفق التقديرات أن يستقبل حوالى ألف مجنّد جديد كل شهر، الأمر الاستثنائي الذي يوضح بجلاء مدى فاعلية شبكة التجنيد الدولية في «داعش»[٦٠].

ورغم زعم الأمريكيين أنهم قتلوا نصف ضباط «داعش» الميدانيين وقادته الإقليميين، إلا أنهم يعترفون أن التنظيم كان يستبدل بسرعة أولئك الذين قتلوا بقادة جدد مهرة. ونتيجة لإخفاق الضربات الجوية التقليدية في تقليص قوة التنظيم، أجازت إدارة أوباما لـ «سي أي آي»، وللقوات الخاصة الأمريكية بتنفيذ عمليات مشتركة لاصطياد القياديين من ناشطي «داعش» في سورية كجزء من برنامج قتل محدد الأهداف. وتنفّذ حملة الاصطياد الطموحة بواسطة طائرات من دون طيّار، وفق المسؤولين الأمريكيين، باستقلال عن حملة القصف الجوي التي ينفذها التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة ضد «داعش»[٦١].

وتحاول الإدارة تكرار تجربة اصطياد الطائرات من دون طيّار الأمريكية لناشطي القاعدة المركزية على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية، التي كان لها آثار مدمّرة على ناشطي القاعدة وإلى درجة شلل التنظيم. ومع أن الغارات الجوية الأمريكية ضد قيادات «داعش» حصدت فعلاً لائحة طويلة من الضحايا، إلا أنها لم تكن بالنتائج المدمّرة التي حدثت للقاعدة المركزية على الحدود الأفغانية ـ الباكستانية. فالدولة الإسلامية، وبخلاف القاعدة المركزية، تمتد على مساحة واسعة جداً من الأرض، ويقيم تحت سيطرتها خمسة ملايين مدني على الأقل، كما أن عدد ناشطي التنظيم أكثر مما كان للقاعدة وبعضهم كانوا ضباطاً في جيش وشرطة صدّام حسين. وعليه، يملك «داعش» القدرة على التعويض عن الناشطين الذين يخسرهم، مع أن خسارة القيادات أضعف من دون شك التنظيم.

إلى ذلك، تشير تقارير موثوقة واردة من سورية والعراق إلى أن «داعش»، وتنظيمات إسلامية أخرى، أنشأت معسكرات لتدريب الأطفال في الرقّة والموصل ومناطق أخرى، وباعتبار أولئك الجيل القادم من المقاتلين، أو ما يدعوهم «داعش» «أشبال الخلافة». وتشير الوثائق المسرّبة التي مررنا بها أن التنظيم خطط بوعي أن الأطفال يجب أن يتلقوا التدريب على السلاح الخفيف والتنشئة الدينية، وأن «المتفوقين بينهم» سوف يعطون مسؤوليات أمنية كإدارة نقاط التفتيش[٦٢]. ويقول «المرصد السوري لحقوق الإنسان»، ومركزه في بريطانيا ويمتلك شبكة معلومات داخل سورية،

---

(٦٠) هناك تقارير موثوقة في الصحافة العربية توثّق تقنيات تجنيد داعش الفعّال في سورية والعراق وجذبه للشباب السنّي. لا يتسع المكان لذكرها هنا. للاطلاع على وجهات نظر المسؤولين الأمريكيين والخبراء الاستراتيجيين، انظر: Eric Schmitt and Somini Sengupta, «Thousands Enter Syria to Join ISIS Despite Global Efforts,» *New York Times*, 26/9/2015; Schmitt, «ISIS or Al Qaeda?: American Officials Split over Biggest Threat,» and Shellie Nelson, «State Dept. Says ISIS, Not al Qaeda, Is World's Leading Terrorist Group,» CNN.com, 20 June 2015, <http://edition.cnn.com/2015/06/19/politics/isis-report-state-department-terror/index.html>.

(٦١) Greg Miller, «U.S. Launches Secret Drone Campaign to Hunt Islamic State Leaders in Syria,» *Washington Post*, 1/9/2015.

(٦٢) Malik, «The ISIS Papers: Behind «Death Cult» Image Lies a Methodical Bureaucracy».

أنه وثّق حتى تموز/يوليو ٢٠١٥ انضمام ١١٠٠ ولد تحت السادسة عشرة من العمر إلى «داعش»، وقد جرى إرسال بعضهم للقتال في سورية والعراق(٦٣). وهناك دلائل موثّقة أن «داعش» يذهب بعيداً في تنشئة الطلاب وفق قواعده بعد احتجازهم، ويجبرهم على حضور مخيمات التدريب ومشاهدة لقطات قطع الرأس وغيرها من الحالات العنيفة في محاولة منه لهندسة الجيل الجديد من الجهاديين(٦٤). ويقول ناشطون من الموصل والرقّة إن بعض الأهل توقفوا عن إرسال أولادهم إلى المدارس خوفاً من خطف «داعش» لهم وتنشئتهم عسكرياً. ويعرض التنظيم في دعايته دورياً مشاهد أطفال، حتى في العاشرة من عمرهم، لتنفيذ إعدامات بحق الضحايا، أو كمقاتلين، أو كأفراد في جمهور صارخ مبتهج خلال حالات الإعدام العلنية(٦٥).

وما دام «داعش» مسيطراً على الأرض والناس، فسيبقى قادراً على تجنيد الناس بالقوة ودفعهم إلى المعارك، ومن خلال استخدام صارم وحشي لتقنية العصا والجزرة. ويقول أناس شبّان يائسون في الرقة ودير الزور إنهم كانوا مجبرين على تقديم الولاء لـ «داعش» لإعالة عائلاتهم والاستعداد بالتالي للانضمام إلى صفوفه العسكرية. وعلى ذلك، فمفتاح حرمان «داعش» من مدّه بالبشر هو فك سيطرته على الأراضي التي يحتلها في العراق وسورية وإقفال الحدود التركية مع سورية، من حيث يعبر معظم المجنّدين الأجانب. ومع صعوبة أن يتحقق ذلك من دون «جنود على الأرض»، تبقى تلك الطريقة الفاعلة الوحيدة التي تسمح بتجفيف موارد التنظيم من اللحم الحيّ والمال.

خامساً: نقاط هشّة

١ ـ الفراغ الفكري

رغم عنصر القوة الواضح والإنجازات التي يمتلكها أو يحققها «داعش»، إلّا أنه يعاني قصوراً بنيوياً: افتقاده برنامج عمل إيجابياً في الحكم، بالإضافة إلى فراغ ووهن في الأفكار. وإذا استثنينا الخطاب العقائدي والأخلاقي، لم يقدّم التنظيم إلى الجماعات السنّية في العراق وسورية برنامج عمل أو رؤية إيجابية للحكم. فقد وعد «داعش» السكّان القاطنين تحت سلطته بالخبز والزبدة،

(٦٣) «Behead the Doll, Children Told in ISIS Training Camp,» *Syrian Observatory for Human Rights* (20 July 2015), <http://www.syriahr.com/en/2015/07/behead-the-doll-children-told-in-isis-training-camp>.

(٦٤) Chas Danner, «How ISIS Abducts, Recruits, and Trains Children to Become Jihadists,» *New York Magazine* (19 July 2015) <http://nymag.com/daily/intelligencer/2015/07/how-isis-abducts-recruits-and-trains-children.html#>.

(٦٥) من أجل عينة من التقارير بالعربية والإنكليزية، انظر: «In IS Camp, Beheading Lessons Start with Doll and Sword,» Associated Press, 19 July 2015, and Danner, Ibid.

انظر أيضاً: أحمد السباعي، «إعدامات تنظيم الدولة.. الأطفال يتصدرون المشهد،» الجزيرة، ٤ آب/أغسطس ٢٠١٥؛ صهيب عنجريني، ««معسكرات الأشبال»: جيل من «الأنصار والمهاجرين» يستعد لـ «غزو العالم»،» الأخبار، ٢٠١٥/٨/٢٢؛ «منظمة حقوق الإنسان: داعش جند ما بين ٥٠٠ إلى ٨٠٠ طفل عراقي،» القدس العربي، ٢٠١٥/٦/٢١، و«تنظيم الدولة يخرج ٦٠ طفلاً من دورات شرعية في الفلوجة،» القدس العربي، ٢٠١٥/٦/١٣.

إلا أنه لم يحقق الكثير في هذا المجال، ولا في توفير رأس مال اجتماعي للبنية التحتية للحكم. وهذا القصور البنيوي شائع ومشترك لدى كل السلفيين الجهاديين الذين يعطون الأولوية للحرب لا للرفاه الاجتماعي. هم يركّزون على القوة المادية والعسكرية، دافعين إلى الخلف بالسلطة الناعمة والنظرية السياسية باعتبارهما إفساداً وتجديفاً على سلطة الشريعة وحكم القرآن. وكل اجتهاد نظري أو تفلسف فكري خارج حدود الشريعة ممنوع ويجرّم باعتباره غير إسلامي. ونقول ثانية، إن السلفيين الجهاديين لم ينجحوا في تحويل وعدهم بالإنقاذ إلى واقع مادي عملي، ثغرة توضح خواء أفكارهم وفقرها.

وهو عين ما عانته القاعدة من قبل. فالعالم بالنسبة إلى «داعش» حرب دائمة ضد أعداء حقيقيين أو متخيّلين. والمجتمع في تعبئة مستمرة، وعلى شفا حرب دائماً، لدحر الأعداء في كل مكان وإفشال المؤامرات ضد «الدولة الإسلامية». ووفق هذه الرؤية، لا يمكن طلب الاستقرار إلا حين يقبل الأعداء أو يجبرون على الاعتراف بالرسالة المقدسة التي يمتلكها التنظيم. وإلى أن يتوافر ذلك، فالمجتمع الإسلامي لمخططي «داعش» هو غابة برّية وتصبح غاية التنظيم «إدارة التوحش» فيها. والتناقض والفوضى اللذان يحكمان العالم من حولنا هو ما يبحث عنه «داعش» والسلفيون الجهاديون ليثبتوا أنهم على حق، وأنهم مدعوون بالتالي، وفق أحد منظّريهم، واسمه الحركي أبو بكر الناجي، إلى إبداع إدارة للفوضى تلك وترسيخ سلطتهم. في توحّش الغاب ذاك، على «داعش» أن يدير المسلمين كحيوانات فلا يقدّم لهم إلا الكفاف من البضائع والخدمات. وكل شيء آخر هو للدفع إلى الأمام بالمشروع الجهادي الأقصى[٦٦].

وفي موضوع الحرية، يستبدل «داعش» دكتاتورية النظامين السياسيين السوري والعراقي بالطغيان الديني، ويتحكّم بأدق تفاصيل حياة الناس تحت سيطرته، بدءاً مما يرتدون وصولاً إلى كيف يعيشون. هو نظام سياسي شمولي استبدادي، يتشارك فيه السلفيون الجهاديون بكل أطيافهم. فوفق زعم «داعش» والسلفيين الجهاديين الآخرين، القرآن هو دستورهم أو وثيقتهم التأسيسية، والمصدر الوحيد للتشريع. وهم في ذلك لا يقدّمون القراءة الكلاسيكة المعتمدة للقرآن الكريم، بل قراءتهم الأيديولوجية الخاصة أو تفسيرهم الخاص الضيّق، والمتعصب، والإقصائي. لكن ذلك لا يخدمهم إلى نهاية الشوط. فبمقدار استخدامهم إياه كسلاح أيديولوجي تعبوي لمصلحتهم، فهو يتحوّل ضدّهم حين يخفقون في العيش أو التصرّف وفق أحكامه، أو على غير ما تعوّد المجتمع الإسلامي الكلاسيكي أن يعيش ويتصرّف.

ورغم أن المجتمع السنّي في العراق وسورية قد يتقبّل الصعوبات والتضحيات التي تفرضها الحرب، إلا أنه يصبح معادياً لـ «داعش» حين يفرض عليه نمط عيش متطرف غير اعتيادي، أو حين يتحوّل ما هو مقبول كأمر مؤقت إلى نمط عيش دائم، وهو ما يفعله التنظيم في مناطق سيطرته.

---

(٦٦) أبو بكر ناجي، إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة ([د. م.]: مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، [د. ت.])، <https://pietervanostaeyen.files.wordpress.com/2015/02/idarat_al-tawahhush_-_abu_bakr_naji.pdf>.

والكتابة على الجدار بدأت فعلاً. فوفق ناشطين في الرقّة ودير الزور والموصل، هناك عدم رضا واسع وغضب مكبوت بين السكّان من الأوضاع الاجتماعية المزرية السائدة وفقدان الحريات الشخصية، مثل حرية التنقل والتدخين. لم يقدّم «داعش» إلى السنّة أي برنامج عملي إيجابي: المستقبل الغامض فقط. ما هو ظاهر وجليّ فقط هو نمط العيش اليومي الذي يفرضه «داعش» على السكّان تحت سيطرته من دون استثناء، والذي ينتزعهم ومن دون مقدمات من حضارة العصر، بل ممّا رست عليه الحضارة العربية ـ الإسلامية الحديثة، إلى ظلمات تفسير هذا الأيديولوجي الظلامي أو ذاك. وبحسب مفكر إسلامي معروف، فهمي هويدي، «نمط «داعش» لا مستقبل له لأنه ليس بربرياً فحسب، بل يقدّم أسوأ ما كان في الماضي ويسعى لتدمير الحاضر والمستقبل»[٦٧].

وبينما يؤيد سنّة كثيرون، علانية أو ضمنياً، «داعش» في حربه على الحكومتين المدعومتين من إيران في دمشق وبغداد، إلا أنهم لا يوافقونه على عنفه أو على تفسيره الفظ للشريعة. وهناك أدلة موثوقة كثيرة أن أيديولوجيا التنظيم السلفية الجهادية لا تلقى قبول الكثير من العراقيين والسوريين، وأن اليوتوبيا الحالمة التي يرفعها هي أكثر قبولاً لدى المقاتلين الأجانب الشبّان منها لدى السكّان الأصليين. وانعكس ذاك الاختلاف الواضح مناوشات بين المقاتلين الأجانب والمحليين في تلّعفر في العراق، وفي صدامات بين المقاتلين المحليين والأجانب في سورية، وبسبب الأفضليات التي تمنح للأخيرين[٦٨].

وبحسب مفكرين جهاديين بارزين، من مثل أبي قتادة والمقدسي، فإن قواعد سلوك «داعش» المتطرفة وعنفه الزائد ستدفع بالمسلمين العاديين بعيداً من المشروع الجهادي. فمشروع «داعش»، لأبي قتادة، سرطاني ويهدد بقاء الحركة الجهادية، ورمزها الراهن عنده القاعدة المركزية[٦٩]. وكل من الأيديولوجيين يحذّر من أخذ شعبية «داعش» بين المسلمين كأمر مسلّم به؛ فالأمر لا يتعدى، برأيهما، انشداد الشبّان لقوة «داعش» العسكرية وانتصاراته الميدانية. ويؤكد ذلك تكراراً ما قلناه سابقاً من أن «داعش» هو حركة شبابية، وأكثر من أي تنظيم سلفي جهادي آخر. وعليه فجاذبية «داعش» للشباب هي في أدائه الحربي، لا في توفيره فرص العمل، أو الأمل بالمستقبل، من دون ذكر المؤسسات الحديثة التي دمّرها ليقيم على أنقاضها دولته الإسلامية.

وعليه، فالتنظيم قوة سلب، لا إيجاب. قوة تدمير لا بناء. ولا يبدو أن التنظيم يملك من الفكر أو الممارسة، أي مشروع لبناء نظام عقلاني مستقر، أو أي أفكار خلّاقة حول كيفية النهوض بالاقتصاد

---

(٦٧) فهمي هويدي، «إذ تصبح سيناء عنواناً للإرهاب في مصر،» السفير، ٢٠١٥/٧/٧، <http://assafir.com/Article/1/429365>.

(٦٨) Jessica Stern and J. M. Berger, «Thugs Wanted- Bring Your Own Boots: How Isis Attracts Foreign Fighters to Its Twisted Utopia,» *Guardian*, 9/3/2015; Liz Sly, «Islamic State Appears to Be Fraying from Within,» *Washington Post*, 8/3/2015, and «Islamic State: Unfriended.

(٦٩) Shiv Malik [et al.], «How ISIS Crippled al- Qaida,» *Guardian*, 10/6/2015, <http://www.theguardian.com/world/2015/jun/10/how-isis-crippled-al-qaida>.

المنهار، وبالنظام التعليمي المتهالك، وبما يمنح أملاً للناس بالمستقبل. نقاط الضعف البنيوية تلك تتحوّل كلها عوامل قاتلة ضد التنظيم حين يميل الميزان العسكري في المستقبل في غير صالحه.

لم يأتِ «داعش»، بخلاف الموجات السلفية الجهادية السابقة بما فيها القاعدة المركزية، بأي شيء جديد في موضوع المانيفستو الذي نشره بُعيد أخذه الموصل. هو يستعير فقط أفكار منظّرين يمثّلون التفكير الأكثر تطرفاً داخل الحركة الجهادية. وكما مرّ سابقاً في الكتاب، فأولئك الدعاة والمنظّرون السلفيون الجهاديون المتطرفون، من أمثال الناجي وأبو عبد الله المهاجر والدكتور فضل، يركّزون على التفسيرات الدينية المتطرفة للحياة اليومية وعلى الرؤية الأخروية، لا على برنامج العمل المطلوب للحكم الفعلي أو المخططات الطويلة الأمد. بل إن المقدسي، الذي غالباً ما تكون كتاباته مرجعية للجهاديين، يأخذ على «داعش» اجتزاءه في الأفكار التي يأخذها من كتاباته وكذلك عدم وجود علماء دين معترف بهم لديه لتوجيهه دينياً.

وفي الحقيقة فالتنظيم لا يجد نفسه بل لا يستطيع أن يعمل إلا في مناخات اليأس والاستقطاب الطائفي وانهيار الدولة والحرب. أما إذا تغيّرت المناخات هذه فلن يجد التنظيم بعدها لا القبول ولا قوة الجذب، وما سيبقى منه هو الجراحات العميقة التي تسبب بها في وعي الشباب العربي والمسلم. لم ينجح تنظيم جهادي واحد في العمل أو التقدم بوجود دولة ناجحة وتؤدي الوظائف المتوقعة منها، هم يتحركون بخلاف ذلك في ظروف الفوضى وعدم الاستقرار. لكن «داعش» يبزّ الآخرين في أمر إضافي، وهو أنه إذا حدث وأجبر على الانكفاء العسكري فهو لن يترك وراءه أية أفكار أو نظريات أو تراث فكري. فهو فارغ دينياً وفكرياً، وتنقصه القاعدة الفكرية التي يمكن أن تميّزه أو تكتب لمشروعه البقاء على المدى البعيد. وهو ما يطرح أسئلة مبررة حول مدى قدرته على شرعنة وجوده وبناء شخصية متميزة له خلا اعتماده الهيمنة والقوة. فالبقاء والاستمرارية، للدول وللحركات خارج الدولة، إنما يتأمنان بامتلاك مجموعة من الأفكار والمرجعيات التي تستقطب شريحة واسعة من الناس وتلقى القبول بالتالي بالرضى والاقتناع لا بالإكراه. لا يمكن لأيديولوجية تقوم على حرب إبادة للشيعة أن تشكل قاعدة لشرعية التنظيم، وخصوصاً حين، أو إذا، توقفت الأعمال العدائية بين القوى الإقليمية المتنافسة؛ كما لا تستطيع فكرة الخلافة، المتعارضة مع وقائع حياة الشعبين السوري والعراقي، أن تكون خياراً جدياً اليوم إلا للسلفيين الجهاديين وأنصارهم.

وكما أسلفنا، يجنح الخيال والمثال لدى البعض إلى الخلافة باعتبارها أداة خلاص كلما أخفق نظام الدولة الحديثة في الاستجابة لما هو متوقع منها، أي لتوقعات الناس وآمالهم. إلا أن «داعش» لا يملك، خارج الخطاب الديني، أي معان أو مضامين إيجابية تتصل بحاجات الناس الفعلية أو بآمالهم ومستقبلهم. بل ليس من عالم مسلم جاد يذهب مذهب «داعش» في هذه المسألة. وحتى الدعاة المعروفون للحركة السلفية الجهادية أدانوا إعلان «داعش» للخلافة واعتبروها مجرد «فقاعة»، واتهموا البغدادي وحلقته الداخلية بمجرد استعراض القوة في تنافسه مع التنظيمات الإسلامية الأخرى، جالباً أكثر من ذلك الدمار لمفهوم الدولة الإسلامية وسمعتها. وبينما يجد مفهوم الخلافة

الإسلامية، ربما، بعض التأييد من شريحة معينة في المجتمع العربي، إلا أن إعلان «داعش» للخلافة لم يقترن بأي استقبال جاد لها في العالمين العربي والإسلامي، أو حتى من الإسلاميين على وجه التحديد، وفي ذلك ما يكفي من عدم الثقة. إلا أن ما فعله «داعش»، ومن دون أن يدري، هو أنه ورغم القضاء على «خلافته» مستقبلاً كما يرجّح، فقد أعاد مفهومَي الخلافة والدولة الإسلامية إلى الضوء وهو ما يجب أن يتوجه نحوهما نقاش الإسلاميين كما المفكرون من ألوان أيديولوجية مختلفة.

٢ ـ إجادة فن صنع الأعداء!

أتقن البغدادي وحلقته الداخلية فن صنع الأعداء، القريب منهم والبعيد. ورغم أن «داعش» يؤدي على نحو جيّد في ميادين القتال، فإن حساباته وطرائق تفكيره السياسية والاستراتيجية الخاطئة لا حدّ لها ولا تخدم مستقبل التنظيم. فمع «داعش» لا خطوط منحنية ولا مناطق رمادية، فقط أتباع أو أعداء: فإما أن تبايع البغدادي وأيديولوجيته الولاء وإمّا يجري تصنيفك كعدو ويمكن قتلك. ما من مساحة محايدة بين الخير والشر؛ والامتناع أو السكوت ضرب من الردّة. اللون الإلزامي الواحد هذا في أفكار التنظيم ومواقفه جعله ضد العالم، بمن فيهم مؤسسو فكر الحركة السلفية الجهادية أنفسهم. ورغم محاولات البغدادي ومساعديه الحثيثة سنتي ٢٠١٣ و٢٠١٤ انتزاع اعتراف المشايخ والمنظّرين السلفيين، فقد باءت محاولاتهم بالإخفاق. فقد دعت المؤسسة السلفية الجهادية المتشددة البغدادي إلى أن يمارس ضبط النفس وأن يحلّ خلافاته مع رفاقه الإسلاميين في سورية وفق التقاليد المعمول بها في الفقه الإسلامي. لكنه قابل ذلك بآذان صمّاء. بل ردّ بأن شنّ هجوماً شاملاً على النصرة، الفرع الرسمي للقاعدة المركزية في سورية، فقمع التنظيم الإسلامي المنافس له وطرده تقريباً من محافظتين في سورية. وحين اشتدّت الحرب الأهلية بين السلفيين الجهاديين مطلع ٢٠١٤، تحوّلت المؤسسة السلفية الجهادية ضد البغدادي وجماعته وعلى سبيل الثأر أو الانتقام.

وكما أسلفنا، فقد أفتى أعلى علماء السلفية بلاشرعية «داعش»، ودعوا المنضوين إليها للانشقاق عنها وحذّروا من آثارها السلبية على مستقبل الحركة الجهادية. ويلفت حقاً كيف حوّل «داعش» سلفيين جهاديين من وزن عالٍ إلى أعداء لدودين له، معمّقاً من عزلته، ومضعفاً من قدرته على المقاومة والاستمرار في تحوّل الميزان العسكري في غير صالحه. وحين لا ينجح «داعش» في نيل تأييد حرّاس المعبد السلفي الجهادي فسيحتاج التنظيم إذّاك إلى معجزة ليشق طريقه في أوساط الإسلام العادي السائد أو بين علماء الدين. ومع حرمانه الشرعية الدينية، يلجأ «داعش» على نحو متزايد إلى العنف إلا أن ذلك لا يستطيع أن يكون بديلاً من الشرعيّة العقيدية. وبينما تتجمع نُذُر العاصفة من حوله، يغدو «داعش» أكثر هشاشة وسيواجه سريعاً يوم الحساب. ويعكس الفكرة السائدة داخل المنطقة وخارجها، فقد يستمر «داعش» في السياق السياسي والعسكري الجاري تنظيماً لا يُهزم، لكن التشققات في جسد التنظيم ظاهرة للعيان ولا يمكن إغفالها، ما يجعل مستقبله على المدى البعيد أمراً غير مؤكد.

وتركيا مثال من الدرجة الأولى لنتائج استراتيجية «داعش» في إعلان الحرب على العالم كله وفي تحويل بلدان إقليمية محايدة وأصدقاء محتملين إلى أعداء. فلسنة كاملة، قاوم الرئيس التركي أردوغان الطلبات المتكررة من حليفه الرئيسي، الولايات المتحدة، في الانضمام إلى التحالف الدولي ضد «داعش». وكان أردوغان يتهرّب من المطالبات بمحاربة «داعش» بإعلانه تكراراً أن محاربة نظام الأسد هو في أهمية محاربة التنظيم الإرهابي. لم تكفّ البلدان الغربية عن حثّ تركيا على اتخاذ إجراءات عملية لحراسة حدودها الطويلة مع سورية لمنع تسرّب المقاتلين الأجانب والمعدات لـ «داعش»، بل اتهمتها إياها بغض النظر عن أعمال التنظيم. وكانت حكومة أردوغان قد نجحت بعد مفاوضات مباشرة مع «داعش» في تأمين إفراج التنظيم عن ستة وأربعين دبلوماسياً تركياً مع عائلاتهم كانوا اعتقلوا بعد غارة للتنظيم على القنصلية التركية في الموصل في إثر احتلاله المدينة في حزيران/يونيو ٢٠١٤. ورغم أن تفاصيل الاتفاق مع «داعش» ظلت سرّية، إلا أن الصفقة اعتبرت خرقاً لدولة البغدادي الإسلامية. وكان في وسعها أن تكون نقطة تحول لو أحسن البغدادي ومخططوه التوظيف السياسي لها. إلا أن «داعش» وبدلاً من أن يبني على الاتفاق أعلاه ويحتفظ بتركيا محايدة، فقد أقدم على تنفيذ تفجيرات انتحارية ضد أهداف كردية داخل البلاد، منتهكاً سيادة تركيا ومصعّداً الضغط على أردوغان. وعليه، فقد حوّل التنظيم تركيا وبسرعة من قوة إقليمية محايدة إلى قوة معادية وأجبر أردوغان على الموافقة على «تنسيق العمليات» مع الولايات المتحدة ضد التنظيم. وردّ «داعش» بشريط فيديو بما هو أكثر سوءاً، داعياً الشعب التركي إلى الثورة وإطاحة «الشيطان»، والمقصود أردوغان، الذي جعل بلاده «مطية للصليبيين»[٧٠].

كانت تركيا، ويبن بلدان المنطقة كافة، الأقل عداء لـ «داعش» وقد طالبت التنظيم بإظهار ضبط النفس وإعطاء فرصة للعمل الدبلوماسي. لكن «داعش» وإمعاناً في التهوّر نفّذ نهاية العام ٢٠١٥ هجمات قاتلة ضد أهداف أجنبية، بما فيها الطائرة الروسية، ومناطق سكنية في بيروت وباريس، مخلّفة وراءها مئات القتلى والجرحى من المدنيين. أثارت الهجمات تلك الدول الكبرى، وبخاصة فرنسا وروسيا، ودفعهما ذلك إلى التنسيق ومضاعفة الجهود لإلحاق الهزيمة بـ «داعش». وبدلاً من أن يبادر البغدادي ومخططوه إلى اتخاذ إجراءات دبلوماسية ترسّخ مزاعم الدولة لديه، ذهب في الاتجاه المعاكس تماماً وموحّداً العالم ضده. وكان «داعش» بذلك يرفض، على نحو ما، خيار نظام الدولة مفضّلاً عليه نمطاً ثورياً بديلاً مستنداً إلى الهوية الإسلامية وليس إلى مبدأ سيادة الدولة. كان تصرّف «داعش» انتحارياً في الواقع. وكان لديه تجاهل لا يصدّق للفارق الكبير في القدرات العسكرية والاقتصادية المحدودة بين «داعش» وتلك التي تملكها لائحة القوى الدولية الكبرى التي اتحدت ضد التنظيم، من بينها القوى العسكرية الكبرى في النظام العالمي (الأمريكيون والروس

---

(٧٠) انظر المدخل إلى تسجيلات داعش الصوتية، «إعلان الحرب على أردوغان والتهديد بمهاجمة تركيا،» منشور على موقع اليوتيوب، ١٧ آب/أغسطس ٢٠١٥، <https://www.youtube.com/watvh?v=mhHqz_QAUdA>.

انظر أيضاً: Adam Withnall, «Isis Video Urges People of Turkey to Rise Up and Overthrow «Satan» President Recep Erdogan,» *Independent*, 18/8/2015.

والأوروبيون). وعليه يمكن الاستنتاج، أنه مع فارق القدرات مع أعدائه أولئك، وموارده القليلة المستهلكة، فمن المشكوك فيه أن يتمكن «داعش» من الاحتفاظ بالمدن الكبرى التي سيطر عليها بعد حرب استمرت لسنوات. والسيناريو الأكثر احتمالاً هو أنه مع اشتداد الضغط العسكري على «داعش» في المستقبل القريب، فمن المحتمل أن يتسرب قادته من الفئتين الوسطى والعليا إلى المناطق المدينية ويشنّون من هناك حملة تفجيرات إرهابية على نحو ما كانت عليه «القاعدة في العراق» بين ٢٠٠٧ و٢٠١١. وتعود «الدولة الإسلامية» إذّاك إلى بدايتها الأولى، كتنظيم سلفي جهادي عسكري سرّي. وكما شرحنا قبل قليل، فالنجاح الذي تحقق لـ «داعش» حتى الآن، إنما نتج من استغلاله الانقسام المجتمعي العميق في المنطقة وهشاشة بنى الدولة في العراق وسورية، كما للتناقضات داخل التحالف الدولي الذي تقوده الولايات المتحدة والنقص في القوات المحلية الفاعلة على الأرض. وإلى ذلك، فآلة البغدادي العسكرية و«دولته» يحتاجان إلى دفق متجدد من الرجال من أعمار تصلح للقتال، وإلى أسلحة، وذخائر، ومال، وباتت جميعها نادرة لديه. ومع أنه لا يزال ينضم إلى التنظيم في سورية مجنّدون جدد من الخارج، وإن بنسب متدنية عمّا كانت عليه من قبل، إلا أن تقارير موثوقة واردة من مناطقه أفادت أن أعداداً متزايدة من المقاتلين يفرّون من «داعش» ويتركون التنظيم. وتسرّب المقاتلين الأجانب إلى سورية ينضب تدريجاً بعدما بدأ الأمريكيون والأتراك يعملون معاً منذ نهاية ٢٠١٥ على ضبط متزايد للحدود مع سورية والتي يبلغ طولها ٥٠٠ ميل، وهي التي كانت حتى وقت قريب شريان حياة «داعش»[٧١].

ويفيد قاطنون أيضاً أن «داعش» يعاني سلسلة صعوبات مالية وأنه يضغط تبعاً لذلك على السكان المحليين ليوفروا له الموارد المالية والمجنّدين الشبّان. وتظهر مئات الوثائق المتسربة في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٥ أن التنظيم اتخذ فعلاً سلسلة إجراءات في هذا السياق، من بينها التعبئة العسكرية، والحذر من العملاء بين ظهرانيه. ومع صيرورته أكثر عصبية، أصدر التنظيم عفواً عن الفارين عسكرياً بسبب حاجته إلى الجنود[٧٢]. وسيكون التحدي أمام «داعش» في المستقبل القريب مدى استطاعته الاحتفاظ بعمارته العسكرية الضخمة وقدرته على تمويلها وتأمين حاجاتها في ظل مناخ إقليمي وعالمي شديد العداء له.

في لحظة يتزايد فيها أعداؤه ويندر أصدقاؤه، يقف البغدادي وأركان حربه وحدهم في عين العاصفة التي تتجمع ضدّهم، وأكثر ضعفاً مما يريدنا دعائيو التنظيم أن نعتقد. فأسس «الدولة الإسلامية» تهتز، ويضاعف من مأزقها حماقات مخططيها وتهوّرهم. والبغدادي وحلقته الداخلية هم

---

(٧١) Martin Williams, «Dozens of Fighters Are Defecting from the Islamic State: Here's Why,» *Washington Post*, 21/9/2015, and Schmitt and Sengupta, «Thousands Enter Syria to Join ISIS Despite Global Efforts».

انظر أيضاً: Jeremy Diamond, «Congressional Report: U.S. Has «Failed» to Stop Flow of Foreign Fighters to ISIS,» CNN.com, 30 September 2015, <http://edition.com.com/2015/09/29/politics/foreign-fighters-isis-congressional-task-force-report/index.html>; Erin Cunningham, «The Flow of Jihadists into Syria Dries Up as Turkey Cracks Down on the Border,» *Washington Post*, 1/8/2015, and David Brunnstrom, «U.S., Turkey Working to Finish Shutting Northern Syria Border: Kerry,» Reuters, 17 November 2015.

(٧٢) Malik, «The ISIS Papers: Behind «Death Cult» Image Lies a Methodical Bureaucracy».

أسوأ أعدائها. وبينما لا يجوز الاستهانة بقدرات «داعش» العسكرية، ولا من قوة عقيدتها، وعصبية ناشطيها الأساسيين، إلا أنه من المبالغة قبول سردية «داعش» التي تصوّر التنظيم قوة لا تقهر، ولا تُهزم، ومتمددة أبداً. وبالمقارنة التاريخية، يبدو «داعش» أقرب إلى طالبان في أفغانستان منه إلى الحركات الثورية العظمى مثل الثورة البولشفية والثورة الصينية الشيوعية. والقول إنَّ «داعش» لا يقهر هو محض خرافة. وقد رأينا أن الأكراد في سورية والعراق، مدعومين بغارات التحالف الدولي الجوية، قد مرّغوا أنف التنظيم في التراب، ووجهوا للبغدادي وأركان حربه صفعة قوية. وكذلك القوات الحكومية العراقية، مدعومة من حلفاء سنّة وشيعة، وطيران أمريكي، تمكنت سنة ٢٠١٥ من استعادة المدن والبلدات الكبرى من «داعش» مثل تكريت وبيجي وسينجار والرمادي. وفي سورية، تمكنت قوات كردية محلية ومعها تنظيمات عربية متمردة، تحت اسم قوات سوريا الديمقراطية، وبمساعدة طيران التحالف بقيادة الولايات المتحدة، من تحقيق مكاسب رئيسية في النصف الثاني من سنة ٢٠١٥، وشارفت على قطع آخر منفذ لـ «داعش» إلى الحدود التركية ومهددة بالتالي شريان استقباله للمقاتلين الأجانب. وإلى ذلك، سمحت الدخول الجوي الروسي وغاراته المكثّفة على مواقع المعارضة للجيش السوري أن يستعيد مناطق عدة من التنظيم، رغم أن معظم الغارات الروسية استهدفت التنظيمات الأخرى، لا «داعش»، المتمردة على النظام. وغدا الفرنسيون، بعد هجمات باريس في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٥، مع قوى أوروبية أخرى، أكثر فاعلية في قتال «داعش»، وموفّرة عوناً لوجستياً وعسكرياً للقوات المحلية في العراق وسورية.

وقبل أيام من طرد قوات الأمن العراقية لـ «داعش» من قلب مدينة الرمادي في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، أذاع البغدادي تسجيلاً صوتياً، الأول له في سبعة أشهر، اعترف فيه أن تنظيمه يواجه لحظة خطرة داعياً جنوده إلى التضحية والثبات. قال البغدادي في الشريط المسجّل محاولاً رفع معنويات جنوده أن «الصليبيين واليهود» لم يجرأوا على محاربة قواته، وفسّر النكسات العسكرية كتجربة من الله يختبر بها إيمان رجاله. قال، «كونوا واثقين أن الله يمنح النصر لعباده، واسمعوا الأخبار الحسنة عن أداء دولتنا. وكلما اشتدت الحرب ضدها، كلما صفت أكثر وباتت أكثر قوة»[٧٣]. ويأتي هذا الاعتراف النادر من البغدادي بصعوبة الموقف العسكري والنكسات التي منيت بها قواته في العراق وسورية، ليس فقط للتخفيف من أهميتها ورفع معنويات جنوده، بل ليردّ على الخلاف والتفكك المتزايدين في صفوف تنظيمه. وللمرة الأولى يعترف البغدادي أن بعض «الإخوة المجاهدين» تحوّلوا ضد «داعش»، الأمر الذي يظهر برأي قائد جهادي بداية تشظي الدولة الإسلامية وانحلالها. فكلما ازدادت معاناة التنظيم عسكرياً كلما ظهر الميل لدى أفراده، برأي أبي قتادة، إلى فتح الباب والانشقاق عنه[٧٤].

---

(٧٣) البغدادي، «إصدارات الخلافة: فتربصوا إنا معكم لمتربصون،» مدونة دولة الخلافة الإسلامية. انظر أيضاً: Ensor, «Islamic State Leader Baghdadi Goads West in Rare Audio Statement».

(٧٤) «مستجدات أقطاب التيار الجهادي السلفي الأردني: أبو قتادة يتوقع تفكك «خلافة» البغدادي... والمقدسي يخشى اغتيالها له... والطحاوي في السجن بسبب تأييدها،» القدس العربي، ٢٠١٥/١٢/٢٩، ورائد الحامد، «التحولات في موازين القوى العسكرية في العراق وسوريا،» القدس العربي، ٢٠١٦/١/٢.

ومع أن ذلك هو مجرد أمل من عدو جهادي منافس لـ «داعش»، إلا أن الدروس المستفادة من التطورات الميدانية الأخيرة أظهرت أنه بالإمكان هزيمة التنظيم حين تواجهه قوات محلية مصممة وجيّدة التنظيم، رغم أن ذلك يبقى أبعد احتمالاً في المناطق الطرفية المهمّشة في سورية والعراق وذات الأغلبية السنّية. وإلى أن يتوافر ذلك، فالتنظيم سيستمر ما استمرت العناصر والقوى والظروف التي ساعدت في العراق وسورية وسواهما على صعوده.

٣ ـ أولوية السياسة

ينتهي «داعش» حين تتوافر لهذه المهمة الصعبة المركّبة استراتيجيات سياسية واجتماعية بإمكانها منع الأوكسجين عنه، وهو ما كان سمح ببقائه حتى الآن. لم يكن ممكناً لـ «داعش»، أن يحقق ما حققه لولا انهيار مؤسسات الدولة في سورية والعراق ولولا البروز القوي للانقسام الطائفي. وكلاهما نتاج عقود من الدكتاتورية والحكم الفاشل، فضلاً عن التدخل الأجنبي والمأساة الفلسطينية النازفة. وباستثناء تجربة الحكم التعددي الوليدة في تونس، فالاستبداد والطائفية إلى صعود في مختلف أرجاء الوطن العربي. فحكم القانون مهزلة، وحقوق المواطنين منتهكة وبلا حصانة. ورغم أن انتفاضات الربيع العربي قد هزّت جذور السلطوية العربية، إلا أنها لم تنجح في التحول إلى عقود اجتماعية وسياسية ترسّخ حكم القانون وتعزز وجود الفرد وحقوقه. على العكس من ذلك، قاتلت القوى المضادة للثورة، مدعومة من «فلول الدولة السابقة»، للاحتفاظ بالنظام الاستبدادي؛ وكانت الحركة السلفية الجهادية أحد المستفيدين الأساسيين من هذا التطور السلبي. و«داعش» في النهاية حركة رجعية، قمعية، وعدمية. وهي، خارج استعراضات الصوت والصورة وطقوس الموت، لا تملك أي شيء إيجابي لتقدّمه للعرب والمسلمين. ولكن سيظل كثيرون في الوطن العربي يعتقدون أن الأنظمة العربية الفاشلة ليست في المقابل جنة الحريات الموعودة، ولا أرض الديمقراطية والبحبوحة. وفي اللحظة هذه على الأقل، يسير هذان الاتجاهان معاً. بكلام آخر، فشدة صعود الإسلام المتشدد توازي مباشرة درجة ترسّخ الاستبداد السياسي في الوطن العربي.

«داعش» هو نتاج أزمة عضوية في السياسة العربية. وعليه، فانحدار التنظيم وزواله يعتمدان على إعادة بناء مؤسسات الدولة الهشّة وعلى المصالحات بين الجماعات الإثنية والدينية المتقاتلة، مهمة صعبة ومعقدة ويحتاج تحققها إلى سنوات من العمل. وإلى أن يتحقق ذلك، فسيستمر جهاديو «داعش» في ملء المقعد الفارغ. وحتى لو جرى دفع «داعش» عسكرياً إلى الوراء، فسيتحول إلى تنظيم سرّي وسيختفي تحت الأرض ـ كما فعل سابقه تنظيم «القاعدة في العراق» بين سنتي ٢٠٠٧ و٢٠١١ ـ وينتظر اللحظة المناسبة ليخرج ولو بعد سنوات ويفتتح جولة جديدة. الرهان إذاً على تجفيف حاضنة «داعش» الاجتماعية واستعادة الحياة السياسية السليمة التي توقفت منذ عقود. هو أمر يسهل قوله، ولكن يصعب تحقيقه بالتأكيد، وبخاصة

مع ميل الأنظمة الاستبدادية نحو المزيد من الترسّخ وكما كانت دائماً. لن تكون هناك من فرصة لأفول «داعش» والتنظيمات السلفية الجهادية الأخرى مثل النصرة، من دون استعادة النظام السياسي وتأسيس السلطة الشرعية. والسلطة يجب أن تكون شفّافة وجامعة، قائمة على حكم القانون والمواطنة، لا على الزبونية والطائفية أو الهيمنة. السياسة، لا الدين ولا الفقه، هي المفتاح لنزع شرعية السلفيين الجهاديين. ومع أن «داعش» يعد بالإنقاذ والخلاص من خلال إحياء الخلافة، تبقى أيديولوجية التنظيم الدينية مهمة بمقدار ما تسمح لـ «داعش» باستغلال البيئة السياسية والاجتماعية المسمومة، وتقديم بديل إسلامي (الدولة الإسلامية) للسلطوية السياسية العلمانية. والسوريون والعراقيون ما كانوا ليمحضوا أيديولوجية «داعش» الإسلامية تأييدهم لو جرت مقاربة صحيحة لمطالبهم السياسية والاجتماعية المشروعة. وكثيرون ممن يحاربون تحت راية «داعش»، إنما يفعلون ذلك بسبب الغضب الذي تراكم لديهم ضد الحكومة المركزية في كل من بغداد ودمشق، وليس بسبب إيمانهم بالأيديولوجيا السلفية الجهادية. وبالطبع، يريدنا البغدادي وأيديولوجيوه أن نعتقد أن دعوتهم إلى إحياء الخلافة يتردد صداها القوي بين المسلمين القريبين والبعيدين كافة، زعم مبالغ فيه إلى حد كبير.

مع ذلك، فمن السذاجة الاستهانة بأهمية أيديولوجية «داعش» الإسلامية والسلفيين الجهاديين عموماً. فالأيديولوجيا تلك استمرت حيّة، من مكان إلى آخر، وتحوّلت بمرور الزمن إلى حركة اجتماعية قوية، مع قادة تاريخيين، ومؤيدين في أمكنة كثيرة، ومنظّرين، ودعاة، وشبكة من المجنّدين والمسهّلين. وبغض النظر عمّا سيحدث لـ «داعش»، فالأيديولوجيا تلك هي هنا لتبقى وستظل جاذبة للأتباع في مجتمعات عربية وإسلامية شديدة الاستقطاب سياسياً واجتماعياً. وبالرغم من الحرب الأهلية الدائرة بين «داعش» والقاعدة المركزية، وبخاصة في سورية، يستمر السلفيون الجهاديون في كسب التمدد وفي كسب مجنّدين جدد. وفي الحقيقة فالأيديولوجيا تلك جاذبة، ومستمرة. وخطاب السلفيين الجهاديين يملؤه الحس بانتصار أيديولوجيتهم ويخيّل لهم أنهم على شفا اختراق تاريخي. وخارج اعتبارهم «داعش» مجرد لغم على الطريق، فالشخصيات السلفية الأبرز، من مثل الظواهري والمقدسي وأبي قتادة، تنظر إلى تقدّم الحركة الجهادية في المشرق، قلب الوطن العربي، كحراك سيغيّر كل شيء في المنطقة[٧٥]. وهم يعتقدون أن ذروة ذلك الحراك كانت انطلاق انتفاضات الربيع العربي واندلاع الحروب الأهلية في سورية والعراق وليبيا واليمن. ووفق تعبير أبي قتادة الفظ والصريح، فقد استغل السلفيون الجهاديون الفراغ الأمني الذي خلّفه ضعف الأنظمة السلطوية العربية وأمكنهم توسعة نفوذهم. ويتضح من مقابلات خاصة، أن قادة القاعدة، بمن فيهم أسامة بن لادن، دعوا بجلاء أتباعهم لدعم الانتفاضات العربية الشعبية الواسعة ولملء الفراغ في الأفكار الذي سينشأ بعد توقف الانتفاضات.

---

(٧٥) إذا كان داعش مجرد محطة على الطريق، لماذا نجح التنظيم في ما فشلت فيه القاعدة؟

وبشكل عام، فهذان المتغيران ـ الفراغ الأمني والفراغ في الأفكار، إلى انهيار العقد الاجتماعي بين الأنظمة وشعوبها ـ هما ما يساعد على تفسير الصعود الأخير للسلفيين الجهاديين في العالم العربي. وفي الحقيقة فالفراغ في الأفكار هو في مثل أهمية الفراغ الأمني في تزويد السلفيين الجهاديين بعنصر قوة يسمح لهم بالبناء عليه. ففي الوقت الذي تتعرّض فيه تيارات الإسلام التقليدي مثل الإخوان المسلمين في مصر للقمع، ومع عودة الجيش إلى السياسة، يقدّم السلفيون الجهاديون نموذجاً بديلاً قائماً على الهوية وعلى القراء المتشددة للنصوص الدينية؛ هو بديل لا ينى يلقى آذاناً مصغية لدى الكثير من المسلمين. وحتى لو أمكن للأنظمة إنهاء الفراغ الأمني، فسيترك الفراغ في الأفكار للسلفيين الجهاديين سوقاً مفتوحة وجمهوراً مستعداً لشراء بضاعتهم. وعليه، فالحاجة ملحّة جداً لملء فراغ الأفكار ذاك، ولمواجهة تفسيرات السلفيين الجهاديين المتشددة للنصوص الدينية التي يستخدمونها لتبرير «تكفير» الآخر. ومن أجل الهدف ذاك، فالفصل بين المسجد والدولة أمر ضروري لإنهاء الاستخدام الأداتي للدين لأهداف سياسية من كلا الناشطين الدينيين والسياسيين العلمانيين في آن. والهدف من ذاك حماية المقدّس من المناورات السياسية، وحماية الدولة من المناورات الدينية.

ورغم إدراكي صعوبة فصل المسجد عن الدولة في مجتمعات ذات أغلبية إسلامية، إلا أنه يبقى أن ذلك هو عملية تاريخية، وصراع حيوي يلقي بدور حاسم على المرشّحين لمثل هذا الدور. فقد دعا المفكرون العرب في العقود القليلة الأخيرة إلى قطع حبل الصرة الذي لا يزال يربط السياسة إلى الدين. وعلى سبيل المثال فالمفكران الجزائريان طاهر جاعوط ويوسف سبتي اللذان قتلا بسبب أفكارهما سنة ١٩٩٣، أدانا في أعمالهما مع مثقفين جزائريين آخرين الشمولية، أكانت عسكرية أو دينية، وباعتبارها الشرّ المطلق[٧٦]. وقاعدة العضوية في الدولة ـ الأمة يجب أن تكون المواطنة وحكم القانون، لا الانتماء الديني أو الإثني أو القبلي. وإلى ذلك، يجب أن يدخل التسامح في صلب المناهج الدينية والتربوية[٧٧].

ويتطلب هذا الإصلاح ثورة فكرية، وقطيعة معرفية وإبيستيمولوجية مع السرديات والنصوص المتصلة بالماضي، وفق ما دأب مفكرون عرب مثل عبد الله العروي وجورج طرابيشي وآخرون على الدعوة إليه، ثورة ثقافية تغيّر في الدولة والمجتمع. والمفكرون العرب يعرفون من قرب الجهود التفصيلية لرواد النهضة والنهضويين الآخرين ممن دعوا أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين إلى «إصلاح» كهذا. ومع أنه ما من ضمان أكيد للنجاح، إلا أنه لا مفر من خوض هذا الكفاح الصعب وكسبه بمعزل عن الوقت الذي يتطلبه ذلك[٧٨]. يجب حرمان «داعش»، والتنظيمات

(٧٦) Pierre Joris and Habib Tengour, *Poems for the Millennium, vol. 4, The University of California Book of North African Literature* (Berkeley, CA: University of California Press, 2012).

(٧٧) Emile Nakhleh, «Islamic Reformation: The Antidote to Terrorism,» LobeLog, 13 January 2015, <http://lobelog.com/islamic-reformation-the-antidote-to-terrorism>.

(٧٨) انظر على سبيل المثال: أحمد حسو [وآخرون]، الخلاص أم الخراب؟: سوريا على مفترق الطرق، تقديم وتحرير ياسين الحاج صالح (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠١٤)؛ محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، =

الشبيهة له، من الأوكسجين العقائدي والفقهي الذي يمنحها الحياة. والأفكار هي الخط الأول في الدفاع ضد الأيديولوجيا السلفية ـ الجهادية ـ العدمية، كما أنها المسمار الأخير في نعشها. أما من دون هذه الثورة في الأفكار، فستبقى السردية السلفية الجهادية، و«داعش» واحد من أحدث أطيافها، هي المهيمنة في العالمين العربي والإسلامي.

= نقد العقل العربي؛ ١ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤)؛ بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، نقد العقل العربي؛ ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦)، والعقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته، نقد العقل العربي؛ ٣ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠)، وجورج طرابيشي، نقد نقد العقل العربي، ٤ ج (بيروت: دار الساقي، ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٤)، و Abdallah Laroui, *The Crisis of the Arab Intellectual: Traditionalism or Historicism?*, translated from the French by Diarmid Cammell (Berkeley, CA: University of California Press, 1976).

المراجع

١ ـ العربية

كتب

إبراهيم، ناجح وهشام النجار. داعش السكين التي تذبح الإسلام. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٤.

ابن قاسم، عبد الرحمن بن محمد. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد الثامن والعشرون: الجهاد. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد للطباعة، ٢٠٠٤.

أبو بكر ناجي. إدارة التوحش: أخطر مرحلة ستمر بها الأمة. [د. م.]: مركز الدراسات والبحوث الإسلامية، [د. ت.].

باروت، محمد جمال. العقد الأخير في تاريخ سورية: جدليّة الجمود والإصلاح. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢.

الجابري، محمد عابد. بنية العقل العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٦. (نقد العقل العربي؛ ٢)

ــــــــ. تكوين العقل العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤. (نقد العقل العربي؛ ١)

ــــــــ. العقل السياسي العربي: محدداته وتجلياته. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠. (نقد العقل العربي؛ ٣)

جرجس، فواز. أوباما والشرق الأوسط: نهاية العصر الأمريكي؟. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٤.

ــــــــ. القاعدة: الصعود والأفول: تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب. ترجمة محمد شيّا. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٥.

الجنابي، ميثم. فلسفة الهوية الوطنية (العراقية). بغداد: دار ميزوبوتاميا، ٢٠١١.
حسو، أحمد [وآخرون]. الخلاص أم الخراب؟: سوريا على مفترق الطرق. تقديم وتحرير ياسين الحاج صالح. القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠١٤.
الزيات، منتصر (محرر). أيمن الظواهري كما عرفته. القاهرة: دار مصر المحروسة للنشر، ٢٠٠٢.
طرابيشي، جورج. نقد نقد العقل العربي. بيروت: دار الساقي، ١٩٩٠ ـ ٢٠٠٤. ٤ ج.
عطوان، عبد الباري. الدولة الإسلامية: الجذور، التوحش، المستقبل. لندن: دار الساقي، ٢٠١٥.
العيساوي، أبو عبد الله محمد المنصور. الدولة الإسلامية: بين الحقيقة والوهم. [د. م.: د. ن.]، ٢٠١٤.
قطب، سيد. معالم في الطريق. ط ٦. القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٩.
المناع، هيثم. خلافة داعش. باريس: المعهد الإسكندنافي لحقوق الإنسان؛ المؤسسة العربية الأوروبية للنشر، ٢٠١٤.
المودودي، أبو الأعلى. نظرية الإسلام السياسي. دمشق: دار الفكر، ١٩٦٧.
نعيم، نبيل. معركة داعش: الإرهاب المقدّس. القاهرة: دار مصر المحروسة، ٢٠١٥.
الهاشمي، هشام. عالم داعش: من النشأة إلى إعلان الخلافة. لندن: دار الحكمة؛ بغداد: دار بابل، ٢٠١٥.

دوريات

«أدونيس: لا تتحقق الديموقراطية ما دام الدين هو مرجع القيم.» السفير: ٢٠١٥/٦/١٥.
«"إف. بي. آي" يحقق في تفجير السفارة الأردنية ببغداد.» الشرق الأوسط: ٢٠٠٣/٨/١٠.
الأمين، حازم. «إعلان "النصرة" انفصالها عن "القاعدة" سيعني انتحاراً... والظواهري ما كان ليعترض.» الحياة: ٢٠١٥/٦/٢٣.
ـــــــــــ. «تركيا ضغطت على "النصرة" للانفصال عن "القاعدة".» الحياة: ٢٠١٥/٦/٢٣.
ـــــــــــ. «رغبة تركية في اندماج "النصرة" و"أحرار الشام" أفشلها رفض "أمراء" أردنيين.» الحياة: ٢٠١٥/٦/٢٤.
الأنصاري، عبد الواحد. «مبادئ الجماعات الإسلامية المسلحة تسقط في "تجربة الدولة".. "داء التفسخ" يصيبها.» الحياة: ٢٠١٤/١١/١٩.
أيوب، نور. «"القاعدة": فلنكن كمشايخ آل سعود.» الأخبار: ٢٠١٥/٤/٢١.
البدارين، بسام. «"نكتة" المقدسي و"البعثيين" والداعشي عندما "الولح" برأس إمراة كردية مقطوع.» القدس العربي: ٢٠١٥/٢/٨.

«البغدادي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة لإدارة الرقة.. ويستعين بموظفي النظام ومهاجرين.» الشرق الأوسط: ٢٠١٤/٩/٥.

«بيعة العامة للبغدادي من كبار القبائل العراقية في الموصل.» العربي ٢١: ٢٠١٥/٤/١.

تقي، جمال محمد. «ظاهرة الدولة الميليشياوية في العراق بين التحجيم والتعميم!.» القدس العربي: ٢٠١٥/٤/٢٢.

«تنظيم موالٍ لـ«الدولة الإسلامية» في مصر ينتقد «الإخوان»: انتهجوا الديمقراطية بدل الجهاد فأذلهم الله.» القدس العربي: ٢٠١٥/٤/٢٣.

«تنظيم الدولة يخرج ٦٠ طفلاً من دورات شرعية في الفلوجة.» القدس العربي: ٢٠١٥/٦/١٣.

«تنظيم الدولة يخفض إلى النصف رواتب مقاتليه في سوريا والعراق.» القدس العربي: ٢٠١٦/١/٢٠.

««تنظيم الدولة» يُنشئ مستشفى تعليمي ضخم وعدة معامل أدوية في الموصل.» القدس العربي: ٢٠١٥/٩/١.

«تنظيم الدولة يهاجم «سلمية» الإخوان بعد حبس مرسي.» القدس العربي: ٢٠١٥/٤/٢٣.

الحامد، رائد. «التحولات في موازين القوى العسكرية في العراق وسوريا.» القدس العربي: ٢٠١٦/١/٢.

ــــــــ. «عام على إعلان دولة الخلافة: هجمات التحالف على تنظيم الدولة في سوريا رفعت من شعبيته.» القدس العربي: ٢٠١٥/٧/٤.

حتيتة، عبد الستار. «شهادات منشقين عن «داعش» المتطرف.» الشرق الأوسط: ٢٠١٥/٥/١٦.

حسين، فؤاد. «الزرقاوي... «الجيل الثاني من القاعدة ـ شهادة سيف العدل.» ج ١، القدس العربي: ٢٠٠٥/٥/١٣؛ ج ٣، القدس العربي، ٢٠٠٥/٥/١٦؛ ج ٥، القدس العربي، ٢٠٠٥/٥/١٨؛ ج ٦ و٧، القدس العربي، ٢٠٠٥/٥/١٩، و٢٠٠٥/٥/٢٠، وج ٩، القدس العربي: ٢٠٠٥/٥/٢٣.

حسين، مجدي أحمد. «تزايد المد الديني في العراق مع صمود فريد في مواجهة الحصار.» العرب نيوز: ٢٠٠١/٧/٢٠.

«حوارات حماس مع «المجاهدين» الذين دعموا الدولة الإسلامية.» القدس العربي: ٢٠١٥/٦/٢١.

الحياة: ٢٠١٥/٥/٢٨.

الجبوري، عمر. «تنظيم «الدولة» يقيم دورات لتحفيظ القرآن للأطفال في مدينة الموصل.» القدس العربي: ٢٠١٥/٤/٢١.

ــــــــ. «والي الموصل: نعد بإطلاق سراح من أعتقلتهم الشرطة.» القدس العربي: ٢٠١٥/٤/٣.

««جبهة النصرة» تستولي على قاعدة الشيخ سليمان غرب حلب.» الخليج: ٢٠١٢/١٢/١١.

«الجولاني يشيد بـ«داعش ـ العراق»: الإخوان المسلمون انحرفوا.» الأخبار: ٢٠١٥/٦/٤.

الخزرجي، حمد جاسم محمد. «"البعث" والنقشبندية و"داعش" بعد الدوري.» الحياة: ٢٠١٥/٤/٢٨.

«داعش سيطرت على تلعفر ومصفاة بيجي وتصدر "بطاقات توبة" في الموصل... والسعودية تحذر من "حرب أهلية".» القدس العربي: ٢٠١٤/٦/١٨.

«داعش العراق والسنة.» الحياة: ٢٠١٤/١١/٢٠.

«داعش... المولود اللاشرعي للقاعدة ترتكب الانتحار السريع.» القدس العربي: ٢٠١٤/٨/١٨.

«داعش يعلن طبع مناهج دراسية جديدة في الموصل ويوعز بتوزيعها قبل بداية العام الدراسي الجديد.» القدس العربي: ٢٠١٥/٩/١.

«داعش يفتتح أول مؤسسة للدراسات الإسلامية في الموصل.» القدس العربي: ٢٠١٥/٥/٧.

درويش، صبر. «"داعش" السوري البطالة، اليأس، عدوى العنف.» بدايات: العدد ١٠، شتاء ٢٠١٥.

الدليمي، عبيدة. «دعم سكان الفلوجة لتنظيم الدولة مكنه من التصدي للقوات الحكومية.» القدس العربي: ٢٠١٥/٧/٢٥.

______ وعبد الله العمري. «بعد عام على سقوط الموصل: العشائر ترفض عودة الشيعة والأكراد.» القدس العربي: ٢٠١٥/٧/٤.

الدوري، معتصم. «لماذا تزايدت بيعات عشائر الأنبار لتنظيم الدولة؟.» القدس العربي: ٢٠١٥/٦/١٥.

الذايدي، مشاري. «أبو محمد المقدسي: المرشد الروحي للزرقاوي.» الشرق الأوسط: ٢٠٠٥/٧/٢٦.

الربيعي، سلام. «العراق: تناحر عشائر الأنبار يؤخر هزيمة "داعش".» الأخبار: ٢٠١٥/٧/١.

سيد أحمد، رفعت. «داعش الأمريكية .. وقادتها: إلى أين من هنا؟.» البديل: ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤.

الشافعي، محمد. «أوراق الظواهري السرية.» ج ١، الشرق الأوسط: ٢٠٠٢/١٢/١٣.

______. «الظواهري يطرد قائدين جهاديين.» الشرق الأوسط: ٢٠٠٢/٦/٦.

شحادة، مروان. «خلاف الزرقاوي والمقدسي ... بين أولوية "الجهاد" أو تقديم "الاجتهاد".» الحياة: ٢٠٠٥/٧/٢٦.

«شخصيات إسلامية وعلماء يدينون "الجرائم الأمريكية الصهيونية" في العراق وفلسطين.» القدس العربي: ٢٠٠٣/٨/٢٣.

شفيق، محمد. «الدوري قتل "مصادفة"...» الأخبار: ٢٠١٥/٤/١٨.

«شيخ المؤرخين عاصم الدسوقي لـ"الوفد": الربيع العربي مؤامرة أمريكية لخدمة إسرائيل.» حوار صابر رمضان، الوفد: ٢٠١٤/٥/١٢.

الطويل كميل. «بن لادن يفشل في أفغانستان... لكنه يدخل العراق من بوابة الزرقاوي.» الحياة: ٢٠٠٤/١٠/١٩.

ــــــــــ. «الزرقاوي: الحكومة الإسلامية في العراق ممر لقلب الأنظمة المجاورة.» الحياة: ٢٠٠٤/٩/١٩.

ــــــــــ. «الزرقاوي موجود وأنصاره في كل مكان.» الحياة، ٢٠٠٤/٩/٥.

ــــــــــ. «الظواهري يتجه إلى حل «القاعدة».» الحياة: ٢٠١٥/٤/٣.

الظواهري، أيمن. «فرسان تحت راية النبي.» الشرق الوسط: كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١.

عبد الرزاق، محمد. «أمير مقاتلي الفلوجة (أبو أسامة) إلى «الوسط»: كل مجاهد في العراق هو عضو في القاعدة.» الوسط: ٢٠٠٤/٥/٣.

العبيدي، مصطفى. «عشائر «تكريت» تعلن البراءة من جريمة قتل جنود «سبايكر».» القدس العربي: ٢٠١٥/٢/٢٠.

«عزة الدوري يعلن تأييد «عاصفة الحزم» ويدعو لمحاربة تنظيم «الدولة».» القدس العربي: ٢٠١٥/٤/٥.

عصام، وائل. «أبرز قياديي «جبهة النصرة» أبو مارية القحطاني كان من «فدائيي صدّام».» القدس العربي: ٢٠١٤/١١/٨.

ــــــــــ. ««البغدادي» خرج من سجن بوكا أكثر تطرفاً وكفر بـ «الإخوان».» القدس العربي: ٢٠١٤/١٠/١٩.

ــــــــــ. «ضباط بعثيون سابقون يتعاونون مع الحكومة العراقية والأمريكيين لتشكيل «صحوات» في الموصل.» القدس العربي: ٢٠١٥/٥/٢٠.

ــــــــــ. «كيف ستنجح أمريكا في القضاء على «تنظيم الدولة» الذي فشلت قوات المارينز في مواجهته قبل عشر سنوات؟.» القدس العربي: ٢٠١٥/٥/٢٢.

ــــــــــ. «لماذا تراجع تنظيم «الدولة الإسلامية» في كوباني وتل أبيض؟.» القدس العربي: ٢٠١٥/٦/١٩.

ــــــــــ. «هل تنظيم «الدولة الإسلامية» في سوريا امتداد لفصائل الثورة السورية؟.» القدس العربي: ٢٠١٥/٥/٨.

ــــــــــ ورائد الحامد. «بعد عام على سقوط الموصل: التنظيم يتفوق على منافسيه بالصراع على العقول قبل الميادين.» القدس العربي: ٢٠١٥/٧/٤.

علي، عبد الله سليمان. «الجولاني يتوحّش بين العزلة والعزل والاغتيال.» السفير: ٢٠١٥/١٢/١٤.

ــــــــــ. «الظواهري يهدّد آل سعود ويغمز «أحرار الشام».» السفير: ٢٠١٦/١/١٥.

ــــــــــ. «عام «الخلافة» الثاني: دول جديدة في دائرة الاستهداف.» السفير: ٢٠١٥/٦/٢٩.

ــــــــــ. «النصرة، تهاجم «داعش الخوارج» في القلمون.» السفير: ٢٠١٥/٥/١٢.

عنجريني، صهيب. «فك الارتباط عن «القاعدة»: اليوم «عبد الله عزام» وغداً «النصرة».» الأخبار: ٢٠١٥/٤/٧.

______. ««معسكرات الأشبال»: جيل من «الأنصار والمهاجرين» يستعد لـ «غزو العالم».» الأخبار: ٢٠١٥/٨/٢٢.

العودات، حسين. «دفاعاً عن «الربيع العربي».» السفير: ٢٠١٥/٦/١٣.

فرحات، الياس. «التكتيك العسكري لـ «داعش».» النهار: ٢٠١٤/١١/٢٥.

«الفيلسوف والمفكر والشاعر التونسي فتحي المسكيني لـ «القدس العربي»: وعد الدولة القومية بالحداثة لم يعد كافياً وثمة حاجة إلى انتماء جديد.» أجرى الحوار روعة قاسم، القدس العربي، ٢٠١٥/٨/٢٢.

القدس العربي: ٢٠١٥/٢/٦، و٢٠١٥/٢/٨.

«قناة «البعث» تبث تسجيلاً صوتياً منسوباً لعزة الدوري.» السفير: ٢٠١٥/٥/١٥.

«المالكي يسعى لإعطاء دور أكبر لمقاتلي العشائر لمحاربة القاعدة في العراق.» الزمان: ٢٠١٤/١/١٣.

«مجلس عشائري بالأنبار يعلن مبايعته لـ «الدولة».» القدس العربي: ٢٠١٥/٦/٤.

المختار، عثمان. «عزة الدوري يحيي «عاصفة الحزم» ويهاجم «داعش».» العربي الجديد: ٢٠١٥/٥/١٥.

مرتضى، رضوان. «أبو علي الشيشاني: من معلّم معجنات إلى أمير في «الدولة».» الأخبار: ٢٠١٤/١٠/١٠.

«مستجدات أقطاب التيار الجهادي السلفي الأردني: أبو قتادة يتوقع تفكك «خلافة» البغدادي... والمقدسي يخشى اغتيالها له... والطحاوي في السجن بسبب تأييدها.» القدس العربي: ٢٠١٥/١٢/٢٩.

«المعارضة السورية: ٨٠٪ من حقول النفط والغاز بيد تنظيم الدولة وأقل من ٨٪ بيد النظام.» القدس العربي: ٢٠١٥/٥/٣١.

«معارك عنيفة بين قوات الأمن و«جيش المهدي» في البصرة.. واستنفار أمني في الجنوب.» الشرق الأوسط: ٢٠٠٨/٣/٢٦.

ملتون، موريس. «عام على احتلال «داعش» للموصل: ماذا تغير وكيف؟.» السفير: ٢٠١٥/٦/٢٥.

______. «عام على احتلال الموصل: نظاما القضاء والحسبة.» السفير: ٢٠١٥/٧/٢.

«الملكة رانيا تقود مسيرة تهدد «داعش» بالموت... ودور كبير للمقدسي في مكافحة التنظيم.» القدس العربي: ٢٠١٥/٢/٦.

«منظمة حقوق الإنسان: داعش جند ما بين ٥٠٠ إلى ٨٠٠ طفل عراقي.» القدس العربي: ٢٠١٥/٦/٢١.

هاشم، علي. «هكذا سقط العراق!.» السفير: ٢٠١٥/٥/١٢.
الهكار، فراس. «داعش يبيع الكهرباء.» الأخبار: ٢٠١٥/٤/٢٤.
ـــــــــ. «كليّتا طب ومصنع أطراف صناعية: «داعش» للمتفوقين!.» الأخبار: ٢٠١٥/٨/٢٩.
هويدي، فهمي. «إذ تصبح سيناء عنواناً للإرهاب في مصر.» السفير: ٢٠١٥/٧/٧.

دراسات وتقارير على الإنترنت

أبو بكر البغدادي. «إصدارات الخلافة: فتربصوا إنا معكم لمتربصون.» مدونة دولة الخلافة الإسلامية، ٢٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، <https://goo.gl/kbS0N0>.

«أبو بكر البغدادي.» الجزيرة نت، ٢ نيسان/أبريل ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons/2014/12/2/%D8%A3%D8%A8%D9%88-%D8%A8%D9%83%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%BA%D8%AF%D8%A7%D8%AF%D9%8A>.

«أبو قتادة: تنظيم الدولة إلى زوال.» حاوره محمد النجار، الجزيرة نت، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/11/12>.

أتاسي، بسمة. «الظواهري يلغي دمج «جهاديي» سوريا والعراق.» الجزيرة نت، ٩ حزيران/يونيو ٢٠١٣، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2013/6/9>.

الأثري، أبو همام بكر بن عبد العزيز. «مد الأيادي لبيعة البغدادي.» منبر التوحيد والجهاد، تموز/يوليو ٢٠١٣، <https://archive.org/details/baghdadi-001>.

«أخبار وتقارير: كيف تحوّلت العامرية إلى منطقة آمنة؟.» الاتحاد، <http://www.alitthad.com/paper.php?name=News&file=article&sid=32667>.

«إلامَ يقود الانفصال بين النصرة والقاعدة.» السورية نت، ٨ تموز/يوليو ٢٠١٥.

«أمير جبهة النصرة أبو محمد الجولاني: حزب الله اللبناني زائل لا محالة بزوال نظام بشار الأسد في سوريا.» الجزيرة نت، ٢٧ أيار/مايو ٢٠١٥.

«أيمن الظواهري: آل سعود قتلة المجاهدين.» موقع الرحمة، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٦، <http://www.arrahmah.com/news/2016/01/15/tfrygh-aal-swd-qtlt-al-mjahdyn-llshykh-aymn-az-zwahry.html>.

«بين الفقراء والمسلمين: المغالطات الأربع الشائعة حول ظاهرة الإرهاب في العالم.» مركز الروابط للبحوث والدراسات الاستراتيجية، ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥.

جبهة النصرة. «البيان رقم ١: تبني عملية فرع الأمن الجوّي وإدارة الأمن الجنائي بدمشق.» الشبكة الوطنية الكويتية، آذار/مارس ٢٠١٢، <http://www.nationalkuwait.com/forum/index.php?threads/229910>.

«جبهة النصرة لأهل الشام.» الجزيرة نت، ٨ أيار/مايو ٢٠١٢، <http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-122741d17432/24579ea8-bbf0-41d0-9ae5-5060f828db76>.

«الجولاني: إخوان مصر انحرفوا.. وتنظيم الدولة «خوارج».» الجزيرة نت، ٣ حزيران/يونيو ٢٠١٥، <http://goo.gl/N8mY2u>.

«الجولاني: روسيا لن تجرؤ على التدخل البري،» الجزيرة نت، ١٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2015/12/12>.

حقي، أحمد. «تكتيكات الدولة الإسلامية تسرع من الصراع بين العشائر السنية.» الجزيرة.نت، ٢٦ تموز/يوليو ٢٠١٤.

««المقاومة العراقية» ترفض عرض المالكي للحوار.» أخبار البوابة، ١٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٠، <http://www.albawaba.com/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%AE%D8%A8%D8%A7%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%A9/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%88%D9%85%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B1%D8%A7%D9%82%D9%8A%D8%A9-%D8%AA%D8%B1%D9%81%D8%B6-%D8%B9%D8%B1%D8%B6-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%8A-%D9%84%D9%84%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%B1>.

«المقدسي يتهم تنظيم الدولة بـ«تشويه الإسلام».» الجزيرة نت، ١٦ آب/أغسطس ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2014/8/16>.

«تنظيم «الدولة الإسلامية»: أسباب الصعود والأيديولوجيا، (٢/١) و(٢/٢).» مركز صناعة الفكر للدراسات والأبحاث، ١٨ تموز/يوليو ٢٠١٥ و٢٢ تموز/يوليو ٢٠١٥.

الراوي، وليد عبد الملك. «حقيقة العلاقة بين تنظيم القاعدة ونظام الرئيس صدام حسين.» كتابات (٢٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٣)، <http://kitabat.com/ar/page/23/12/2013/20917/%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D8%A7%D9%82%D8%A9-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%A7%D8%B9%D8%AF%D8%A9-%D9%88%D9%86%D8%B8%D8%A7%D9%85-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3-%D8%B5%D8%AF%D8%A7%D9%85-%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86.html>.

«رجل مخابرات عراقي سابق يكشف لـ «روسيا اليوم» أسرار اختراق جهازه لوزارة الدفاع الأمريكية.» روسيا اليوم، ٢٠ آذار/مارس ٢٠١٣، <https://arabic.rt.com>.

«الرئيس الأسد في كلمة بمناسبة عيد الجيش: معركتنا مع الإرهاب معركة مصير ووجود لا مجال فيها للتهاون أو المهادنة.» سانا ـ دمشق، ٣١ تموز/يوليو ٢٠١٤، <http://www.sana.sy/?p=31515>.

الزعاترة، ياسر. «الدولة الإسلامية في العراق والشام.» الجزيرة نت، ١١ نيسان/أبريل ٢٠١٣.

ـــــــــــ. «من «العدو البعيد» إلى العدو القريب».» الجزيرة.نت، ٢٢ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤.

«زعيم «جبهة النصرة» يصف أعضاء تنظيم «الدولة الإسلامية» بأنهم «خوارج».» فرنس ٢٤، ٤ حزيران/يونيو ٢٠١٥، <http://goo.gl/IiJ0VT>.

السباعي، أحمد. « إعدامات تنظيم الدولة.. الأطفال يتصدرون المشهد.» الجزيرة، ٤ آب/أغسطس ٢٠١٥.

العراق، وزارة التخطيط. «مسح اجتماعي واقتصادي للمساكن في العراق.» تقرير ٢٠١٢، الجهاز المركزي للإحصاء، <http://osit.gov.iq/documents/statistics_ar/living%20conditions/%20survey/Full%20Report/pdf>.

العربي، أحمد. «تنظيم الدولة يفرض مناهج دراسية جديدة في الرقة.» الجزيرة نت، ٣١ آب/أغسطس ٢٠١٤، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2014/8/31>.

العيسى، ياسر. «بيع الكهرباء.. نشاط جديد لتنظيم الدولة بدير الزور.» الجزيرة، ١٢ نيسان/أبريل ٢٠١٥.

«القاعدة في العراق: تقرير حالة.» <http://www.ctc.usma.edu/v2/wp-content/uploads/2013/09/Al-Qaida-in-Iraq-Situation-Report-Original.pdf>.

«مجلس شورى المجاهدين» يعلن تأسيس إمارة إسلامية في العراق،» العربية نت. ١٥ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦، <http://www.alarabiya.net/articles/2006/10/15/28296.html>.

«مصدر معارض لعربي برس: «النصرة» تتوعد بتصفية «داعش» شرق سوريا.. الرقة «إمارتنا الإسلامية».» عربي برس: ٢٠١٥/١٠/٢٢، <http://arabi-press.com/article.php?id=841552>.

«معتقل سابق يفضح أسرار وخفايا جماعة دولة العراق والشام «داعش».» الإسلاميون، ٣ حزيران/يونيو ٢٠١٤، <http://islamion.com/news/show/15034>.

«مقتدى الصدر يدعو لوقف «صولة الفرسان» والائتلاف يؤيدها.» الجزيرة.نت، ٢٧ آذار/مارس ٢٠٠٨، <http://www.aljazeera.net/news/arabic/2008/3/27/%D9%85%D9%82%D8%AA%D8%AF%D9%89-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D8%AF%D8%B1-%D9%8A%D8%AF%D8%B9%D9%88-%D9%84%D9%88%D9%82%D9%81-%D8%B5%D9%88%D9%84%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%86-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%A6%D8%AA%D9%84%D8%A7%D9%81-%D9%8A%D8%A4%D9%8A%D8%AF%D9%87%D8%A7>.

الهاشمي، هشام. «تنظيم الدولة (داعش) بين أحتمالية البقاء والتفكك.» مركز الجزيرة للدراسات، ١٠ آب/أغسطس ٢٠١٥، <http://studies.aljazeera.net/ar/issues/2015/08/201581085853684278.html>

««ويكيليكس البغدادي» تكشف «داعش» على حقيقتها... تغريدات «مؤلمة».» زمان الوصل (٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)، <https://zamanalwsl.net/news/45122.html>.

يوسف، علاء. «ضباط «بعث العراق» يقودون تنظيم الدولة.» الجزيرة نت، ٨ نيسان/أبريل ٢٠١٥، <http://www.aljazeera.net>.

تسجيلات وأشرطة فيديو على الإنترنت

أبو حسن الأزدي. «موجبات الانضمام للدولة الإسلامية في العراق والشام.» مؤسسة المأسدة الإعلامية، آب/أغسطس ٢٠١٣، <https://ia601904.us.archive.org/35/items/daolh1/daolh1.pdf>.

أبو عبد الله المهاجر. مسائل من فقه الجهاد. <https://archive.org/details/msael-mn>.

أبو محمد العدناني الشامي. «إن ربك لبالمرصاد.» ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠١٥، <https://archive.org/details/bilmirssad>.

ــــــــــ. «عذراً أمير القاعدة.» موقع اليوتيوب بتاريخ ١٧ أيلول/سبتمبر ٢٠١٤، <http://www.youtube.com/watch?v=CAB>.

ــــــــــ. «هذا وعد الله.» مؤسسة الفرقان، ٢٩ حزيران/يونيو ٢٠١٤، <http://jihadology.net/2014/06/29/al-furqan-media-presents-a-new-audio-message-from-the-islamic-states-shaykh-abu-mu%E1%B8%A5ammad-al-adnani-al-shami-this-is-the-promise-of-god>.

«إعلان الحرب على أردوغان والتهديد بمهاجمة تركيا.» موقع اليوتيوب، ١٧ آب/أغسطس ٢٠١٥، <https://www.youtube.com/watvh?v=mhHqz_QAUdA>.

إمام عبد القادر بن عبد العزيز الملقب بـ[الدكتور فضل]. «الأمة في إعداد العدة.» <http://www.m5zn.com/newuploads/2015/02/18/pdf/4f2fb076fd7d595.pdf>.

«تقرير عن خدمات المياه والصرف الصحي في درعا.» ج ٢ اليوتيوب، <https://www.youtube.com/watch?v=D-3roUVIAMk>.

تلفزيون الرافدين. «البيان الأول للمجلس العسكري العام لثوار العراق.» يوتيوب، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، <https://www.youtube.com/watch?v=bV-y5B_Vbl0>.

«بيان إعلان السيطرة على قاعدة الشيخ سليمان.» اليوتيوب، ١٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، <http://www.youtube.com/watch?v=362OUioPVA&spfreload=10>.

«بالفيديو..الظواهري: لا أعترف بـ «داعش» ولا نرى البغدادي أهلاً للخلافة.» شبكة الإعلام العربية (محيط)، ٢٩ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٥، <http://goo.gl/LldEjH>.

التميمي، عثمان بن عبد الرحمن. «إعلام الأنام بميلاد دولة الإسلام.» مؤسسة الفرقان، تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، <http://www.slideshare.net/yaken0/ss-5927504>.

«جبهة النصرة ـ لجنة الإغاثة ـ توزيع الخبز ـ الميادين.» اليوتيوب، ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٢، <https://www.youtube.com/watch?v=lA1BKRyJLPI&feature=youtu.be>.

«خطبة الجمعة في الجامع الكبير في الموصل لأبو بكر البغدادي.» قناة الجزيرة على اليوتيوب، ٥ تموز/يوليو ٢٠١٥، <http://www.youtube.com/watch?v=dIRf0EJuPak>.

الظواهري، أيمن. «إرشادات إلى الجهاديين.» <http://www.arrahmah.com/arabic/as-shab-tqdm-twjyhat-aamt-llml-al-jhady-llshykh-al-amyr-aymn-az-zwahry.html>.

«عطش الناس في سوريا للدعوة والمنشورات الدعوية ـ الدولة الإسلامية في العراق والشام.» اليوتيوب، ٢٧ تموز/يوليو ٢٠١٣، <http://www.youtube.com/watch?v=E3dRIu5qVBM&spfreload=10>.

العيسى، ياسر. «في سوريا.. الوظيفة مقابل البيعة.» الجزيرة، ١١ حزيران/يونيو ٢٠١٥، <http://www.aljazeera.net/news/reportsandinterviews/2015/6/11/%D9%81%D9%8A-%D8%B3%D9%88%D8%B1%D9%8A%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B8%D9%8A%D9%81%D8%A9-%D9%85%D9%82%D8%A7%D8%A8%D9%84-%D8%A7%D9%84%D8%A8%D9%8A%D8%B9%D8%A9>.

«اللقاء المفتوح مع الشيخ أيمن الظواهري ـ الجزء ٤.» <https://www.youtube.com/watch?v=2f2XLkCG3Ls>.

«نزوح الآلاف من سكان الفلوجة وسط تفاقم الاشتباكات والقصف.» شبكة الإعلام العربية (محيط)، ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، <http://www.moheet.com/2014/01/06/1863786/%D9%86%D8%B2%D9%88%D8%AD-%D8%A7%D9%84%D8%A2%D9%84%D8%A7%D9%81-%D9%85%D9%86-%D8%B3%D9%83%D8%A7%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D9%88%D8%AC%D8%A9-%D9%88%D8%B3%D8%B7-%D8%AA%D9%81%D8%A7%D9%82.html#.VwyMYdR97cs>.

٢ ـ الأجنبية

Books

Agathangelou, Anna M. and Nevzat Soguk (eds.). *Arab Revolutions and World Transformations*. London: Routledge, 2013.

Ahmad, Muhammad Idrees. *The Road to Iraq: The Making of a Neoconservative War*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2014.

Al-Ali, Zaid. *The Struggle for Iraq's Future: How Corruption, Incompetence, and Sectarianism Undermined Democracy*. New Haven, CT: Yale University Press, 2014.

Allawi, Ali A. *The Occupation of Iraq: Winning the War, Losing the Peace*. New Haven, CT: Yale University Press, 2007.

Amnesty International. *Escape from Hell: Torture and Sexual Slavery in Islamic State Captivity in Iraq*. London: Amnesty International, 2014.

Ayubi, Nizih N. *Over-Stating the Arab States: Politics and Society in the Middle East*. London: I. B. Tauris, 1995.

Elbadawi, Ibrahim and Samir A. Makdisi (eds.). *Democracy and Development in the Arab World*. International Development Research Centre, Canada. London: Routledge, 2011.

Benslama, Fethi. *La Guerre des subjectivities en Islam.* Paris: Nouvelles Editions Lignes, 2014.

Brisard, Jean-Charles and Damien Martinez. *Zarqawi: The New Face of al-Qaeda*. Cambridge, UK: Polity Press, 2005.

Cronin, Audrey Kurth. *How Terrorism Ends: Understanding the Decline and Demise of Terrorist Campaigns*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2010.

Gerges, Fawaz. *The Far Enemy: Why Jihad Went Global.* 2nd ed. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2010.

———. *Obama and the Middle East: The End of America's Moment?*. New York: Palgrave Macmillan, 2012.

——— (ed.). *Contentious Politics in the Middle East: Popular Resistance and Marginalised Activism beyond the Arab Spring Uprisings*. New York: Palgrave Macmillan, 2015.

——— (ed.). *The New Middle East: Protest and Revolution in the Arab World.* Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2014.

Haddad, Fanar. *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity*. London: C. Hurst and Company, 2011.

Isakhan, Benjamin (ed.). *The Legacy of Iraq: From the 2003 War to the Islamic State*. Edinburgh: Edinburgh University Press, 2015.

Joris, Pierre and Habib Tengour. *Poems for the Millennium, vol. 4, The University of California Book of North African Literature*. Berkeley, CA: University of California Press, 2012.

Khoury, Dina Rizk. *Iraq in War Time: Soldiering, Martyrdom, and Remembrance*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2013.

Krohley, Nicholas. *The Death of the Mehdi Army: The Rise, Fall, and Revival of Iraq's Most Powerful Militia*. London: C. Hurst and Company, 2015.

Laroui, Abdallah. *The Crisis of the Arab Intellectual: Traditionalism or Historicism?*. Translated from the French by Diarmid Cammell. Berkeley, CA: University of California Press, 1976

Lesch, David. *Syria: The Fall of the House of Assad.* New Haven, CT: Yale University Press, 2014.

Morell, Michael. *The Great War of Our Time: The CIA's Fight against Terrorism-From Al Qa'ida to ISIS*. New York: Grand Central Publishing, 2015.

Mufti, Malik. *Sovereign Creations: Pan-Arabism and Political Order in Syria and Iraq*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1996.

Napoleoni, Loretta. *Insurgent Iraq: Al-Zarqawi and the New Generation*. London: Constable, 2005.

Osman, Khalil F. *Sectarianism in Iraq: The Making of State and Nation since 1920*. Abingdon, UK: Routledge, 2015.

Ramadan, Tariq. *Islam and the Arab Awakening.* New York: Oxford University Press, 2012.

Rand, Dafna Hochman. *Roots of the Arab Spring: Contested Authority and Political Change in the Middle East*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2013.

Rayburn, Joel. *Iraq after America: Strongmen, Sectarians, Resistance*. Stanford, CA: Hoover Institute Press, 2014.

Sasson, Joseph. *Saddam Hussein's Ba'th Party: Inside an Authoritarian Regime*. Cambridge, UK: Cambridge University Press, 2012.

Schwartz, Michael. *War without End: The Iraq War in Context*. Chicago, IL: Haymarket Books, 2008.

Stephan, Maria J. (ed.). *Civilian Jihad: Nonviolent Struggle, Democratization, and Governance in the Middle East*. New York: Palgrave Macmillan, 2010.

Stern, Jessica and J. M. Berger. *ISIS: The State of Terror*. London: HarperCollins, 2015.

United Nation Development Programme [UNDP]. *Arab Human Development Report, 2009: Challenges to Human Security in the Arab*. New York: UNDP, 2009.

Weiss, Michael and Hassan Hassan. *ISIS: Inside the Army of Terror*. New York: Regan Arts, 2015.

Zarqaoui: La Question terroriste [documentary]. Directed by Patrice Barrat, Najat Rizk, and Ranwa Stephan. France: HR Prod., 2007.

Periodicals

Abdul-Ahad, Ghaith. «Meet Abu Abed: The US's New Ally against al-Qaida.» *Guardian*: 10/11/2007.

________. «Syria's al-Nusra Front-Ruthless, Organised and Taking Control.» *Guardian*: 10/7/2013.

Abouzeid, Rania. «Interview with Official of Jabhat al-Nusra, Syria's Islamist Militia Group.» *Time*: 25 December 2012.

Adnan, Sinan and Aaron Reese. «Beyond the Islamic State: Iraq's Sunni Insurgency.» *Middle East Security Report* (Institute for the Study of War): no. 24, October 2014.

Ali, Abdullah Suleiman. «Internal Divisions Lead to «Hemorrhaging» of Jabhat al-Nusra Leaders.» *Assafir*: 21/7/2015.

Allawi, Ayyad. «Iraq's Slide toward Renewed Violence.» *Washington Times*: 9/4/2012.

Amir, Taheri. «Iraq: Will Al-Maliki's Peace Plan Work?.» *Asharq al-Awsat*: 30/6/2006.

Arango, Tim. «ISIS Transforming into Functioning State That Uses Terror as Tool.» *New York Times*: 21/7/2015.

________. «Top Qaeda Leaders in Iraq Reported Killed in Raid.» *New York Times*: 20/4/2010.

________. «With the Fall of Ramadi, Plight of Iraq Sunnis Worsens.» *New York Times*: 19/5/2015.

________ and Eric Schmitt. «U.S. Actions in Iraq Fueled Rise of a Rebel.» *New York Times*: 10/8/2014.

Aregawi, Hermela. «Operation Inherent Resolve: A Year of Fighting ISIL.» *Al Jazeera America*: 14 August 2015.

Al-Awlaki, Anwar. «Tsunami of Change.» *Inspire*: no. 5, May 2011.

Bakri, Nada. «Iraq's Ex-Trade Minister, Abdul Falah al-Sudani, Detained in Graft Investigation.» *Washington Post*: 31/5/2009.

Banco, Erin. «Iraqi Sunni Sheikhs in Anbar Pledge Allegiance to ISIS, Aid Militant Group.» *International Business Times*: 4/6/2015.

Bar'el, Zvi. «How the Islamic State Buys Power.» *Haaretz*: 1/9/2014.

Baram, Amatzia. «Neo- Tribalism in Iraq: Saddam Hussein's Tribal Policies, 1991-96.» *International Journal of Middle East Studies*: vol. 29, no. 1, February 1997.

Barnard, Anne. «ISIS Conquest of Palmyra Expands Militants' Hold on Syria.» *New York Times*: 21/5/2015.

——— and Hwaida Saad. «ISIS Fighters Seize Control of Syrian City of Palmyra, and Ancient Ruins.» *New York Times*: 20/5/2015.

——— and Tim Arango. «Using Violence and Persuasion, ISIS Makes Political Gains.» *New York Times*: 3/6/2015.

Begum, Rothna and Samer Muscati. «Interview: These Yezidi Girls Escaped ISIS. Now What?.» *Human Rights Watch*: 15 April 2015.

«Bin Laden Bent on Spectacular US Attack until the End: Files.» Agence France Presse, 20 May 2015.

Blair, David. «Oil Middleman between Syria and ISIL Is New Target for EU Sanctions.» *Telegraph*: 7/3/2015.

Bokhari, Kamran. «Sectarian Spill.» *Tribune* (New York): 12/10/2013.

Burns, John F. and Alissa Rubin. «U.S. Arming Sunnis in Iraq to Battle Old Qaeda Allies.» *New York Times*: 11/6/2007.

——— and Dexter Filkins. «A Jihadist Web Site Says Zarqawi's Group in Iraq Has a New Leader in Place.» *New York Times*: 13/6/2006.

Cafarella, Jennifer. «Jabhat al-Nusra in Syria.» *Middle East Security Report* (Institute for the Study of War): no. 25, December 2014.

Callimachi, Rukmini. «ISIS Enshrines a Theology of Rape.» *New York Times*: 13/8/2015.

———. «ISIS Releases Recording Said to Be by Its Reclusive Leader.» *New York Times*: 14/5/2015.

———. «U.S. Seeks to Avoid Ground War Welcomed by Islamic State.» *New York Times*: 7/12/2015.

———, Katrin Benhold, and Laure Fourquet. «How the Paris Attackers Honed Their Assault through Trial and Error.» *New York Times*: 30/11/2015.

Caris, Charles C. and Samuel Reynolds. «ISIS Governance in Syria.» *Middle East Security Report* (Institute for the Study of War): no. 22, July 2014.

Cave, Damien. «Baghdad Violence Declines in Security Push, Iraq Says.» *New York Times*: 15/3/2007.

Chatel, Francesca de. «The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution.» *Middle East Studies*: 27 January 2014.

Chulov, Martin. «ISIS: The Inside Story.» *Guardian*: 11/12/2014.

Cockburn, Patrick. «Iraq Regime Tries to Silence Whistleblowers.» *Independent*: 29/9/2011.

________. «War with ISIS: Islamic Militants Have Army of 200,000, Claims Senior Kurdish Leader.» *Independent*: 6/11/2014.

Condon, Scott. «FBI Director Reveals Hidden Threat of ISIS at Aspen Security Forum.» *Aspen Times*: 22 July 2015.

Cooper, Helene. «Pentagon Officials Say They'll Bolster Special Operations Force in Iraq.» *New York Times*: 1/12/2015.

Cruickshank, Paul. «United Nations Warns of ISIS Expansion in Libya.» CNN.com, 2 December 2015.

Cunningham, Erin. «The Flow of Jihadists into Syria Dries Up as Turkey Cracks Down on the Border.» *Washington Post*: 1/8/2015.

Danner, Chas. «How ISIS Abducts, Recruits, and Trains Children to Become Jihadists.» *New York Magazine*: 19 July 2015.

Daragahi, Borzou. «The Front-Line Fight against ISIS.» *Financial Times*: 6/3/2015.

«David Cameron: ISIS Presents Existential Threat to UK- Audio.» *Guardian*: 29/6/2015.

Daweesha, Adeed. ««Identity» and Political Survival in Saddam's Iraq.» *Middle East Journal*: vol. 53, no. 4, 1999.

DeYoung, Karen. «Despite the Critics, the White House Insists It Has a Plan to Fight the Islamic State.» *Washington Post*: 6/12/2015.

Di Giovanni, Janine. «Who Is ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi?.» *Newsweek*: 8 December 2014.

«Bin Laden Urged to Disown Iraq's Qaeda Chief-TV.» *Asharq al-Awsat*: 13/10/2006.

Eisenstadt, Michael and Jeffrey White. «Assessing Iraq's Sunni Arab Insurgency.» *Policy Focus* (Washington Institute for Near East Policy): no. 50, December 2005.

England, Andrew. «Al-Qaeda's Military Leaders in Iraq Killed.» *Financial Times*: 20/4/2010.

Ensor, Josie. «Islamic State Leader Baghdadi Goads West in Rare Audio Statement.» *Telegraph*: 26/12/2015.

Fattah, Hassan S. and Michael Slackman. «Three Hotels Bombed in Jordan; at Least 57 Die.» *New York Times*: 10/11/2005.

Fayad, Ma'ad. «Mosul: One Month On.» *Asharq al-Awsat*: 14/7/2014.

Filkins, Dexter. «At Least 11 Die in Car Bombing at Jordan's Embassy in Baghdad.» *New York Times*: 7/8/2003.

——— and John F. Burns. «U.S. Portrayal Helps Flesh Out Zarqawi's Heir.» *New York Times*: 16/6/2006.

Fisher, Max. «Al-Qaeda Faction in Syria Hands Out Teletubbies and Spiderman Dolls.» *Washington Post*: 13/8/2013.

Fitzgerald, Cormac. «ISIS Executes 19 Female Prisoners for Refusing to Practice «Sexual Jihad»- Kurdish Official.» *Irish Independent*: 6/8/2015.

Furtig, Henner. «Iran and the Arab Spring: Between Expectations and Disillusion.» *GIGA Research Programme: Violence and Security*: no. 241, 2013.

Gerges, Fawaz. «Buried in Amman's Rubble: Zarqawi's Support.» *Washington Post*: 4/12/2005.

———. «How the Arab Spring Beat Al Qaeda.» *Daily Beast*: 13/5/2012.

Ghazi, Yasir and Christine Hauser. «Moktada al-Sadr Encourages Demonstrations in Iraq.» *New York Times*: 1/1/2013.

Gordon, Michael R. «Leader of Al Qaeda Group in Iraq Was Fictional, U.S. Military Says.» *New York Times*: 18/7/2007.

Haddad, Bassam. «Business Networks in Syria: The Political Economy of Authoritarian Resilience.» *Stanford Studies in Jewish History and Culture*: December 2011.

———. «The Syrian Regime's Business Backbone.» *Middle East Research and Information Project*: vol. 42, Spring 2012.

Haddad, Fanar. «Sectarian Relations in Arab Iraq: Contextualizing the Civil War of 2006-2007.» *British Journal of Middle Eastern Studies:* vol. 40, no. 2, 2013.

Al-Hakkar, Firas «The Mysterious Fall of Raqqa, Syria's Kandahar.» *Al-Akhbar*: 8/11/2013.

Harris, Gardiner. «Deeper Mideast Aspirations Seen in Nuclear Deal with Iran.» *New York Times*: 31/7/2015.

Hassan, Falih and Sewell Chan. «Iraqi Victory over ISIS in Ramadi Could Prove Pivotal.» *New York Times*: 28/12/2015.

Hennion, Cécile. «Irak: Des tribus sunnites se lèvent contre Al-Qaida, sans renoncer à la guerilla.» *Le Monde*: 12/6/2007.

Herbert, Bob. «Iraq Then and Now.» *New York Times*: 21/2/2005.

Hersh, Seymour. «The Killing of Osama bin Laden.» *London Review of Books*: vol. 37, no. 10, 21 May 2015.

Hinnebusch, Raymond. «Syria: From «Authoritarian Upgrading» to Revolution?.» *International Affairs*: vol. 88, no. 1, 2012.

«Homegrown Terrorists and the West.» with Ghaffar Hussein, Jocelyn Cesari, Raffaello Pantucci, Jamie Bartlett, and Patrick M. Skinner. *New York Times*: 29/8/2014.

«Houla Massacre: UN Blames Syria and Militia.» *Guardian*: 15/8/2012.

Hubbard, Ben. «Offering Services, ISIS Digs in Deeper in Seized Territories.» *New York Times*: 16/6/2015.

________. «Al Qaeda's Branch in Syria Denies Planning Attacks Abroad.» *New York Times*: 27/5/2015.

IISS. «Iraq: Maliki Power Grab Risks Fresh Civil War.» *IIS Strategic Comments*: vol. 18, no. 3, 2012.

International Crisis Group. «Tentative Jihad: Syria's Fundamentalist Opposition.» *Middle Eastern Report*: no. 131, 12 October 2012.

«Iraqi Leader Outlines Plan for Reconciliation.» *Washington Post*: 25/6/2006.

«Iraqi PM Says Ready to Tackle Militias.» *Asharq al-Awsat*: 25/10/2006.

«Iraqi Tribal Leader Says Not «Scared» by Abu-Hamzah's Message.» *BBC Monitoring International Reports*: 28 September 2006.

ISIS. «The Revival of Slavery before the Hour.» *Dabiq*: no. 4, October 2014.

«Islamic State Unfriended.» *The Economist*: 12 December 2015.

Al-Jawoshy, Omar and Tim Arango. «Iraqi Offensive to Retake Tikrit from ISIS Begins.» *New York Times*: 2/3/2015.

Jehl, Douglas. «Iraq May Be Prime Place for Training of Militants, C.I.A Report Concludes.» *New York Times*: 22/6/2005.

Jones, Sam and Borzou Daragahi. «Iraq's Security Forces Ill-Equipped to Face Militants.» *Financial Times*: 10/7/2014.

________, Piotr Zalewski, and Erika Solomon. «ISIS Sells Smuggled Oil to Turkey and Iraqi Kurds, Says US Treasury.» *Financial Times*: 23/10/2014.

Joscelyn, Thomas. «Al-Nusra Front Leader Renews Allegiance to al-Qaeda, Rejects New Name.» *Long War Journal*: 10 April 2013.

Joumah, Khales. «Mosul Is «Safe, Clean» … and Run by ISIS.» *Daily Beast*: 15/6/2015.

Kheel, Rebecca. «ISIS Finance Minister, Other Leaders Killed in Airstrikes.» *The Hill*: 10/12/2015.

Kinnvall, Catarina. «Globalization and Religious Nationalism: Self, Identity, and the Search for Ontological Security.» *Political Psychology*: vol. 25, no. 5, October 2004.

Kirkpatrick, David D., Ben Hubbard, and Eric Schmitt. «ISIS' Grip on a Libyan City Gives It a Fallback Option.» *New York Times*: 28/11/2015.

Kuki, Mark. «Turning Iraq's Tribes against Al-Qaeda.» *Time*: 26 December 2006.

Laurence, Joffe. «Abu Musab al- Zarqawi.» *Guardian*: 6/6/2006.

Luizard, Jean- Pierre. «Islam as a Point of Reference for Political and Social Groups in Iraq,» *International Review of the Red Cross*: vol. 89, no. 868, 2007.

Lynch, Colum and David Francis. «The Islamic State Has Gotten Rich from Extortion, Heists, and Smuggling: But How Long Can the Extremist Group Continue to Bankroll Jihad?.» *Foreign Policy*: 15 December 2015.

MacAskill, Ewan. «Sunni Insurgents form Alliance against US.» *Guardian*: 12/10/2007.

MacFarquharov, Neil. «Russia Allies with France against ISIS Saying Jet that Crashed in Sinai Was Bombed.» *New York Times*: 17/11/2015.

Mahmood, Mona [et al.]. «Revealed: Pentagon Link to Iraqi Torture.» *Guardian*: 6/3/2013.

———— and Ian Black. «Free Syrian Army Rebels Defect to Islamist Group Jabhat al-Nusra.» *Guardian*: 8/5/2014.

Malas, Nour and Ghassan Adnan. «Sunni Tribes in Iraq Divided over Battle against Islamic State.» *Wall Street Journal*: 22/5/2015.

Malik, Shiv. «The ISIS Papers: Behind «Death Cult» Image Lies a Methodical Bureaucracy.» *The Guardian*: 7/12/2015.

———— [et al.]. «How ISIS Crippled al-Qaeda: The Inside Story of the Coup that Has Brought the World's Most Feared Terrorist Network to the Brink of Collapse.» *Guardian*: 10/6/2015.

Marquis, Christopher. «Powell Admits No Hard Proof Linking Iraq to Al- Qaeda.» *New York Times*: 9/1/2004.

Mashal, Mujib. «Taliban Are Talking Peace, Though Not with Afghan Government.» *New York Times*: 21/6/2015.

Masi, Alessandria. «Life for Residents of ISIS Caliphate Is So Expensive It Could Be Its Downfall.» *International Business Times*: 20/5/2015.

Almosawa, Shuaib, Kareem Fahim, and Eric Schmitt. «Islamic State Gains Strength in Yemen, Challenging Al Qaeda.» *New York Times*: 14/12/2015.

McCrummen, Stephanie. «23 Killed in Iraq's «Day of Rage» Protests.» *Washington Post*: 25/2/2011.

————. «After Iraq's Day of Rage, a Crackdown on Intellectuals.» *Washington Post*: 27/2/2011.

————. «Iraq Protests: A Younger Generation Finds Its Voice.» *Washington Post*: 21/3/2011.

Miller, Greg. «U.S. Launches Secret Drone Campaign to Hunt Islamic State Leaders in Syria.» *Washington Post*: 1/9/2015.

«Most of Islamic State's Leaders Were Officers in Saddam Hussein's Iraq.» *Washington Post*: 4/4/2015.

Mortada, Mohammed Mahmoud. «The Mysterious Link between the US Military Prison Camp Bucca and ISIS Leaders.» *Al-Akhbar*: 13/9/2014.

«Most of Islamic State's Leaders Were Officers in Saddam Hussein's Iraq.» *Washington Post*: 4/4/2015.

Moubayed, Sami. «Abu al-Ghadia to Build on al- Zarqawi's Legacy in Iraq.» *Terrorism Focus*: vol. 3, no. 26, July 2006.

Almukhtar, Sarah. «ISIS Finances Are Strong.» *New York Times*: 19/5/2015.

Murphy, Dan. «In Iraq, a Clear- Cut Bin Laden- Zarqawi Alliance.» *Christian Science Monitor*: 31/12/2004.

______. «Most Senior Baathist General to Evade US in Iraq Reported Killed: Does It Matter?.» *Christian Science Monitor*: 17/4/2015.

Muscati, Samer. «Raped by ISIS and Trying to Face the Future.» *Human Rights Watch*: 14 April 2015.

Myers, Steven Lee and Anthony Shadid. «Leader Faulted on Using Army in Iraqi Politics.» *New York Times*:10/2/2010.

Napoleoni, Loretta. «Profile of a Killer, Foreign Policy.» *Foreign Policy*: November-December 2005.

«The Nature of the Enemy.» *U.S. Department of Defense*: vol. 1, no. 3, 24 October 2006.

Naylor, Hugh. «Islamic State Money-Making Streams Take a Hit as It Loses Territory.» *Washington Post*: 4/12/2015.

______. «Reclaiming the Title «King of Jihad» Means Al-Qaeda Will Target the West.» *Washington Post*: 27/12/2015.

Neurink, Judit. «The ISIS Leader Abu Bakr al-Baghdadi Viewed Women Held Captive at a Syrian House as His Private Property, and Raped a Number of Them, Including the US Hostage Kayla Mueller.» *Independent*: 14/8/2015.

Nickmeyer, Ellen and Jonathan Finer. «Insurgents Assert Control over Town Near Syrian Border.» *Washington Post*: 6/9/2005.

Norland, Rod. «Maliki Contest Results of Iraq Vote.» *New York Times*: 27/3/2010.

______. «U.S. Soldiers, Back in Iraq, Find Security Forces in Disrepair.» *New York Times*: 14/4/2015.

«Al-Nusra and Al-Qaeda: Repercussions of Revoking Pledge of Allegiance.» *Policy Brief* (Omran for Strategic Studies): 14 August 2005.

O'Kane, Maggie and Ian Black. «Sunni Militia Strike Could Derail U.S. Strategy against al-Qaida.» *Guardian*: 21/3/2008.

«Osama bin Laden's Growing Anxiety.» *Christian Science Monitor*: 26/10/2007.

Paley, Amit R. «Shift in Tactics Aims to Revive Struggling Insurgency.» *Washington Post*: 8/2/2008.

Paraszczuk, Joanna. «The ISIS Economy: Crushing Taxes and High Unemployment.» *Atlantic*: 2 September 2015.

Parker, Ned. «Sunni Leader Hero to U.S., Outlaw in Iraq.» *Chicago Tribune*: 5/7/2008.

«Le Premier ministre irakien a présenté son plan de réconciliation nationale.» *Le Monde*: 25/6/2006.

Priest, Dana. «Iraq a New Terror Breeding Ground.» *Washington Post*: 13/1/2005.

______ and Josh White. «War Helps Recruit Terrorists, Hill Told.» *Washington Post*: 17/2/2005.

The Prospect Team. «Does Mullah Omar's Death Spell the End for the Taliban?.» *Prospect Magazine*: 31 July 2015.

«Al-Qaida in Iraq Claims Responsibility for Baghdad Blasts.» *Guardian*: 27/12/2011.

«Al-Qa'ida of Waziristan: A Testimony from Within.» *Dabiq*: no. 6, December 2014.

Rago, Joseph. «Inside the War against Islamic State.» *Wall Street Journal*: 26/12/2014.

Record, Jeffrey. «Threat, Confusion and Its Penalties.» *Survival: Global Politics and Strategy*: vol. 46, no. 2, 2001.

Remnick, David. «Going the Distance: On and Off the Road with Barack Obama.» *New Yorker*: 27 January 2014.

Reuter, Christoph. «The Terror Strategist: Secret Files Reveal the Structure of Islamic State.» *Der Spiegel*: 18/4/2015.

Reuters. «Confrontation with the Gulf; Excerpts from Hussein's Statement Declaring a Holy War.» *New York Times*: 11/8/1990.

Roggio, Bill. «Divisions in al Qaeda in Iraq.» *Long War Journal*: 13 October 2006.

Rogin, Josh. «Kurdish Leader: No to Arming the Syrian Opposition.» *Foreign Policy*: 5 April 2012.

Rosen, Nir. «Iraq's Jordanian Jihadis.» *New York Times*: 19/2/2006.

Rosenberg, Matthew. «Mullah Muhammad Omar's Life Ends with Little Clarity.» *New York Times*: 30/7/2015.

Royle, Trevor. «The Mystery Man.» *Sunday Herald*: 28/12/2014.

Ryan, Missy. «Al-Qaida Says ISIS Is Poaching Militants.» *Washington Post*: 10/9/2015.

———— and Greg Jaffe. «With Fight against the Islamic State in Iraq Stalled, U.S. Looks to Syria for Gains.» *Washington Post*: 21/9/2015.

Al Salhy, Suad. «Dancing with Daesh.» *Newsweek*: 23 December 2015.

Sands, Phil, Justin Vela, and Suha Maayeh. «Assad Regime Set Free Extremists from Prison to Fire Up Trouble during Peaceful Uprising.» *National*: January 2014.

Saul, Heather. «ISIS Opens 262-Room Luxury Hotel in Mosul.» *Independent*: 6/5/2015.

Schmitt, Eric. «ISIS or Al Qaeda?: American Officials Split over Biggest Threat.» *New York Times*: 4/8/2015.

———— and Ben Hubbard. «Islamic State Leader Delegates His Powers in Case He Is Killed,» *New York Times*: 21/7/2015.

———— and David D. Kirkpatrick. «Islamic State Sprouting Limbs beyond Its Base.» *New York Times*: 14/2/2015.

———— and Michael R. Gordon. «Iraqi Army Was Crumbling Long before Collapse, U.S. Officials Say.» *New York Times*: 12/6/2014.

———— and Somini Sengupta. «Thousands Enter Syria to Join ISIS Despite Global Efforts.» *New York Times*: 26/9/2015.

Schmidt, Michael C. «Al Qaeda Affiliate Is Blamed in Iraq Suicide Bombing.» *New York Times*: 5/5/2011.

Semple, Kirk and Omar al-Neam. «Amnesty Plan for Insurgents Shows Divide in the Shiite Bloc.» *New York Times*: 4/7/2006.

«Sept. 11 Panel Deals Bush a Blow on Iraq: In Dismissing al Qaeda Link, Commission Undercuts President's Credibility on Going to War.» *Wall Street Journal*: 18/6/2004.

Shenon, Philip. «Final 9/11 Report Is Said to Dismiss Iraq- Qaeda Alliance.» *New York Times*: 12/7/2004.

Sherlock, Ruth. «How a Talented Footballer Became World's Most Wanted Man, Abu Bakr al-Baghdadi.» *Daily Telegraph*: 11/11/2014.

Sieff, Kevin. «2,000 Miles from Syria, ISIS Is Trying to Lure Recruits in Somalia.» *Washington Post*: 24/12/2015.

Slackman, Michael. «Bullets Stall Youthful Push for Arab Spring.» *New York Times*: 17/3/2011.

Sly, Liz. «The Hidden Hand behind the Islamic State Militants?: Saddam Hussein's.» *Washington Post*: 4/4/2015.

________. «How Saddam Hussein's Former Military Officers and Spies Are Controlling ISIS.» *Independent*: 5/4/2015.

________. «Islamic State Appears to Be Fraying from Within.» *Washington Post*: 8/3/2015.

________. «Russia's Move into Syria Upends U.S. Plans.» *Washington Post*: 26/9/2015.

Solomon, Erika. «Fighters Flock Back to Resurgent Jabhat al-Nusra.» *Financial Times*: 30/3/2014.

________. «The ISIS Economy: Meet the New Boss.» *Financial Times*: 5/1/2015.

________ and Sam Jones. «ISIS Inc: How Oil Fuels the Jihadi Terrorists.» *Financial Times*: 14/10/2015.

Spencer, Richard. «What We Have Learned about Islamic State after Its Victories in Ramadi and Palmyra.» *Telegraph*: 21/5/2015.

________ and Carol Malouf. «We Will Stand by ISIS until Maliki Steps Down, Says Leader of Iraq's Biggest Tribe.» *Telegraph*: 29/6/2014.

«Split Emerged over Successor, as Son Disclosed Mullah Omar's Death.» *Daily Times*: 1/8/2015.

Stack, Liam. «Qaeda Affiliate Uses Video of Donald Trump for Recruiting.» *New York Times:* 1/1/2016.

Stern, Jessica and J. M. Berger. «Thugs Wanted- Bring Your Own Boots: How Isis Attracts Foreign Fighters to Its Twisted Utopia.» *Guardian*: 9/3/2015.

«Syria: Islamist Infighting Sweeps Raqqa.» *Asharq al-Awsat*: 15/8/2013.

«Taliban Publish Mullah Omar's Biography.» *Pakistan Today*: April 2015.

«Theories of Terrorism: A Symposium (special issue).» *Sociological Theory*: vol. 22, no. 1, March 2004.

Trofimov, Yaroslav and Philip Shishkin. «Regional Discord Fuels Islamic State's Rise in Mideast.» *Wall Street Journal*: 16/10/2015.

«Le Trouble des sunnites irakiens ralliés au pouvoir.» *Le Monde:* 1/4/2009.

«U.S Cross-Border Raid Highlights Syria's Role in Islamist Militancy.» *CTC Sentinel*:15 November 2008.

«VP Arrest Warrant Plunges Iraq into Crisis.» *Daily Star*: 29/12/2010.

Weaver, Marie Anne. «The Short, Violent Life of Abu Musab al-Zarqawi.» *Atlantic*: 1/7/2006.

Wellman, James K. (Jr.) and Kyoko Tokuno. «Is Religious Violence Inevitable?.» *Journal for the Scientific Study of Religion*: vol. 43, no. 3, September 2004.

«What It Will Take to Bankrupt ISIS.» *New York Times* [editorial]: 3/12/2015.

Wilbanks, Mark and Efraim Karsh. «How the «Sons of Iraq» Stabilized Iraq.» *Middle East Quarterly:* vol. 17, no. 4, Fall 2010.

Williams, Lauren. «Islamist Militants Drive Free Syrian Army Out of Raqqa.» *Daily Star*: 15/8/2013.

Williams, Martin. «Dozens of Fighters Are Defecting from the Islamic State: Here's Why.» *Washington Post*: 21/9/2015.

Withnall, Adam. «Isis Video Urges People of Turkey to Rise Up and Overthrow «Satan» President Recep Erdogan,» *Independent*: 18/8/2015

Wood, Graeme. «What ISIS Really Wants.» *Atlantic*: March 2015.

Woods, Chris. «First Year of Coalition Airstrikes Helped Stall Islamic State-but at a Cost.» *Airwars*: 10 August 2015.

Yaphe, Judith S. «Maliki's Maneuvering in Iraq.» *Foreign Policy*: 6 June 2012.

Youssef, Adham. ««Sinai Province» Denounces Brotherhood's «Peaceful Methods» of Applying Islamic Sharia.» *Daily News* (Egypt): 26/1/2015.

Ysseldyk, Renate, Kimberly Matheson, and Hymie Anisman. «Religiosity as Identity: Toward an Understanding of Religion from a Social Identity Perspective.» *Personality and Social Psychology Review:* vol. 14, no. 1, February 2010.

Thesis

Alaaldin, Ranj. «The Rise of the Shi'a: Mobilisation and Disconnect in Iraq, 1958-1980.» (PhD Dissertation, London School of Economics and Political Science, 2016).

Papers and Studies on the Internet

Abbruzzese, Jason. «Here's How ISIS Makes-and Spends-Its Money.» *Mashable*: 8 December 2015, <http://mashable.com/2015/12/08/isis-makes-its-money-like/#HvksJ1koXEq6>.

Abu Bakr Al-Baghdadi. «Even If the Disbelievers Despise Such.» Pietervanostaeyen (blog) (14 November 2014) [audio transcript], <https://pietervanostaeyen.wordpress.

com/2014/11/14/audio-message-by-abu-bakr-al-baghdadi-even-if- the-disbelievers-despise-such>.

_______. «March Forth Whether Light or Heavy.» Carol Ann Grayson (Radical Sister) Blog (14 May 2015), <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-Baghdadi>.

Abu Mohmmed al-Adnani. «This Is the Promise of Allah.» 19 June 2014, <http://triceratops.brynmawr.edu/dspace/bitstream/handle/10066/14242/ADN20140629.pdf?sequence=1>.

_______. «O Our People Respond to the Caller of Allah.» Pietervanostaeyen (blog), 23 June 2015, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2015/06/23/o-our-people-respond-to-the-caller-of-allah-audio-statement-by-shaykh-abu-muhammad-al-adnani-as-shami/>.

Abu Musab al-Zarqawi. «Leader of Al-Qaeda in Iraq Al-Zarqawi Declares «Total War» on Shi'ites.» Middle East Media Research Institute (2005), <http://hdl.handle.net/10066/4810>.

_______. «Musab al-Zarqawi Letter Obtained by United States Government in Iraq.» US Department of State Archive (2004), <http://2001-2009.state.gov/p/nea/rls/31694.htm>.

«Activists Say ISIS Top Commander Killed in Syria.» Al-Arabiya, 8 February 2014, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/02/08/Activists-say-ISIS-top-commander-killed-in-Syria-.html>.

«After Liberation Came Destruction: Iraqi Militias and the Aftermath of Amerli.» Human Rights Watch, 18 March 2015, <http://www.hrw.org/report/2015/03/18/after-liberation-came-destruction/iraqi-militias-and-aftermath-amerli>.

Ali, Hashem. «The Many Names of Abu Bakr al-Baghdadi.» Al-Monitor, 23 March 2015, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2015/03/isis-baghdadi-islamic-state-caliph-many-names-al-qaeda.html>.

Al-Ali, R. «ISIS Applies Its Own Laws in Raqqa,» Al-Monitor: 10 February 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/02/isis-islamic-rule-raqqa-syria.html>.

Arar, Sabah. «Shadow of Saddam Lives on in Iraq.» Agence France Presse, 3 May 2015.

Associated Press. «ISIS Militants Seize Another Oil Field in Syria's Deir el-Zour.» Al-Arabiya, 4 July 2014, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2014/07/04/Islamic-militants-seize-Syria-oil-field.html>.

«At Debate, UN and Security Council Renew Pledge to Counter Foreign Terrorist Fighters.» UN News Centre, 29 May 2015, <http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=51005#.VciNb2MzI60>.

«Amru al-Absi: Executive Summary.» Counter Extremism Project (2015), <http://www.counterextremism.com/extremists/amru-al-absi>.

Al-Ansary, Khalid. «Iraqis Say Qaeda Deaths Will Not Improve Their Lives.» Reuters, 20 April 2010, <http://www.reuters.com/article/2010/04/19/us-iraq-violence-alqaeda-idUSTRE63I3CL20100419>.

«Anti-IS Coalition Has Killed 22,000 Jihadists since mid-2014: France.» Agence France Presse: January 2014.

Al-Badrani, Jamal. «Iraqis Rally against US Troops Presence.» Reuters, 24 April 2011, <http://www.reuters.com/article/2011/04/24/us-iraq-protests-idUSTRE73N21C20110424>.

Ballout, Mohammad. «Details Emerge on Kidnapped Syrian Bishops.» Al-Monitor: 15 August 2013, <http://www.al-monitor.com/pulse/tr/security/2013/08/bishops-kidnapped-syria-aleppo-details.html#ixzz3Z07MuRNL>.

Baram, Amatzia. «From Militant Secularism to Islamism: The Iraqi Ba'th Regime, 1968-2003.» Woodrow Wilson International Center for Scholars: History and Public Policy Program, October 2011.

«Behead the Doll, Children Told in ISIS Training Camp.» *Syrian Observatory for Human Rights*: 20 July 2015, <http://www.syriahr.com/en/2015/07/behead-the-doll-children-told-in-isis-training-camp>.

Bin Laden documents in Office of the Director of National Intelligence, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/arabic2/Message%20for%20general%20Islamic%20nation%20-%20Arabic.pdf>.

Bin Laden, Osama. «To the Muslims in Iraq in Particular and the [Islamic] Nation [Umma] in General.» Al-Sahab (Institute for Media Production): 27 May 2004.

Brisard, Jean-Charles and Damien Martinez. «Islamic State: The Economy-Based Terrorist Funding,» *Thomson Reuters Report* (October 2014), <https://risk.thomsonreuters.com/sites/default/files/GRC01815.pdf>.

Brunnstrom, David. «U.S., Turkey Working to Finish Shutting Northern Syria Border: Kerry.» Reuters, 17 November 2015.

Burke, Sarah. «How ISIS Rules.» nybooks.com, 5 February 2015, <http://www.nybooks.com/articles/archives/2015/feb/05/how-isis-rules/> .

«Close Aide to Saddam Praises ISIS Extremists and Calls for the Fall of Baghdad.» Reuters, 13 July 2014, <http://www.businessinsider.com/close-aide-to-saddam-praises-isis-extremists-and-calls-for-the-fall-of-baghdad-2014-7#ixzz3aUEJougf>.

Cass, Connie and Robert Burns. «US Releases 100+ Bin Laden Documents.» Associated Press, 20 May 2015.

Cocker, Ryan C. «Maliki Reshapes the National Security System.» WikiLeaks, 15 May 2007, <http://www.wikileaks.org/plusd/cables/07BAGHDAD1593_a.html>.

«Collin L. Powell's Remarks to the United Nations Security Council.» US Department of State Archive, 5 February 2003, <http://2002-2009.state.gov/secretary/former/powell/remarks/2003/17300.htm>.

Cordesman, Anthony H. «New Year's Resolutions on Terrorism: Panic, Politics, and the Prospects for Honesty in 2016.» Center for Strategic and International Studies (CSIS), 28 December 2015, <http://csis.org/publication/new-years-resolutions-terrorism-panic-politics-and-prospects-honesty-2016>.

«Crop and Food Security Assessment Mission to the Syrian Arab Republic.» FAO/WFP, 5 July 2013, <http://www.fao.org/docrep/018/aq113e/aq113e.pdf>.

«Daesh Lost 30 Percent of Its Territory.» Associated Press: 6 January 2016.

Dairieh, Medyan. «My Journey inside the Islamic State.» *Vice News*: 1 July 2015, <https://news.vice.com/article/my-journey-inside-the-islamic-state>.

«Deadly Anti-government Violence Grips Iraq.» Al Jazaeera, 27 April 2013, <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/04/201342610411101447.html>.

Dilanian, Ken. «US Intel: IS Militants Drawing Steady Stream of Recruits.» Associated Press, 11 February 2015, <http://midco.net/news/read/category/Politics/article/the associated press-ap exclusive is_militants_drawing_steady_stream_of-ap>.

Diamond, Jeremy. «Congressional Report: U.S. Has «Failed» to Stop Flow of Foreign Fighters to ISIS.» CNN.com, 30 September 2015, <http://edition.com.com/2015/09/29/politics/foreign-fighters-isis-congressional-task-force-report/index.html>.

«Dozens Killed in Co-ordinated Baghdad Attacks.» BBC, 22 December 2011, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-16297707>.

Fahmi, Omar. «Al Qaeda Calls Islamic State Illegitimate but Suggests Cooperation.» Reuters, 9 September 2015, <http://www.reuters.com/article/2015/09/09/us-mideast-zawahri-idUSKCN0R91LY20150909>.

«Foreign Fighters Still Flowing to Syria, U.S. Intelligence Says.» Reuters, 10 February 2015, <http://www.reuters.com/article/2015/02/11/us-mideast-crisis-fighters-idUSKBN0LE2YX20150211>.

«French-Speaking Militant Executes «Apostates» in ISIS Video.» Al Arabiya English, 31 January 2016, <http://english.alarabiya.net/en/News/middle-east/2016/01/31/French-speaking-militant-executes-apostates-in-ISIS-video.html>.

«FSA Brigade «Joins al-Qaeda Group» in Syria.» Al Jazeera, 21 September 2013, <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/09/2013920164342453621.html>.

«Al Furqaan Media Presents Messages from the Land of Epic Battles #5.» uploaded 6 November 2011, <https://archive.org/details/AlFurqaanMediaPresentsMessagesFromTheLandOfEpicBattles5FromQuraanMemorisationLes201311>.

Haddad, Bassam. «As Syria Free- Falls ... A Return to the Basics: Some Structural Causes (Part 2).» Jadaliyya, 30 October 2012, <http://www.jadaliyya.com/pages/index/8095/as-syria-free-falls-.-.-.-a-return-to-the-basicss>.

Hallaj, Omar Abdulaziz. «The Balance- Sheet of Conflict: Criminal Revenues and Warlords in Syria.» *NOREF* (Norwegian Peacebuilding Resource Centre): May 2015, <http://www.clingendael.nl/sites/default/files/Hallaj_NOREF_Clingendael_The%20balance-sheet%20of%20conflict_criminal%20revenues%20and%20warlords%20in%20Syria Apr%20 2015 FINAL.pdf>.

Hashem, Ali. «The Many Names of Abu Bakr al-Baghdadi.» Al Monitor: 23 March 2015, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2015/03/isis-baghdadi-islamic-state-caliph-many-names-al-qaeda.html#>.

IHS Jane's Terrorism and Insurgency Center. «Analysis: Syria's Insurgent Landscape.» September 2013, <http://www.ihs.com/pdfs/Syrias-Insurgent-Landscape-oct-2013.pdf>.

«Internal Dispute over Taliban Succession Hints at Rifts.» Associated Press, 2 August 2015.

«Iraq: Abusive Commander Linked to Mosul Killings.» Human Rights Watch, 11 June 2013, <http://www.hrw.org/news/2013/06/11/iraq-abusive-commander-linked-mosul-killings>.

«Iraq MP Ahmed al-Alwani Arrested in Deadly Ramadi Raid.» BBC, 23 December 2013, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-25534541>.

«Iraq Now an Al-Qaeda Battleground, British Report Says.»Agence France Presse: 29 July 2004.

«Iraq: Security Forces Abusing Women in Detention.» Human Rights Watch, 6 February 2014, <http://www.hrw.org/news/2014/02/06/iraq-security-forces-abusing-women-detention>.

«Iraq's Qaeda Pledges Support to Zawahri, Vows Attacks.» Reuters, 9 May 2011, <http://www.reuters.com/article/2011/05/09/us-iraq-qaeda-zawahri-idUSTRE74835A20110509>.

«Iraq Struggles with Sectarian Politics after Ramadi Fall.» Associated Press, 19 May 2015.

«Iraqi Officials Say Saddam Deputy Believed Killed.» Associated Press, 17 April 2015.

«Iraq Warns Neighbors of Terror Threat.» Agence France Presse: 10 July 2005.

«Iraqi al-Qaeda Leaders «Killed».» BBC News, 19 April 2010, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle east/8630213.stm>.

«Iraqi Death Squads «Not Police».» BBC News, 12 April 2006, <http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/4901786.stm>.

«IS-Claimed Bombing Kills Yemeni Governor, 6 Guards in Aden.» Associated Press, 6 December 2015.

«IS Offers a Mix of Brutality, Charity during Ramadan.» Associated Press, 10 July 2015.

«Islamic State Expels Rivals from Syria's Deir al-Zor-Activists.» Reuters, 14 July 2014, <http://uk.reuters.com/article/2014/07/14/uk-syria-crisis-east-idUKKBN0FJ1I020140714>.

««Islamic State» Expels Rivals from Syria City.» Al Jazeera, 15 July 2014, <http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2014/07/state-expels-rivals-from-syria-city-201471413 4248239815.html>.

«Islamic State: Al-Furqan Media Releases New Audio and Transcript Allegedly of Baghdadi.» Carol Ann Grayson (Radical Sister) Blog, 14 May 2015, <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-baghdadi>.

««Islamist Posturing» Is a Strategy to Raise Funds, Says Syrian Rebel.» France24, 21 November 2013, <http://observers.france24.com/content/20131121-islamist-posturing-funds-syrian-rebel>.

«Jabhat al-Nusra Losing Support among Rebels, Tribes in South Syria.» Al-Monitor: 6 May 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2014/05/syria-isis-jabhat-nusra-south-deir-ez-zour.html>.

Jordan, Laura and Katherine Shrader. «Bin Laden Enlisting Al-Zarqawi for Attacks.» Associated Press, 1 April 2005.

Jemmo, Hussein. «Jabhat al-Nusra's Goals Extend beyond Syria.» Al-Monitor: 11 January 2013, <http://www.al-monitor.com/pulse/security/2013/01/jabhat-al-nusras-goals-extend-beyond-syria.html>.

Karam, Zenia [et al.]. «Inside Islamic State Group's Rule: Creating a Nation of Fear.» Associated Press,18 June 2015.

Karouni, Mariam. «Apocalyptic Prophecies Drive Both Sides to Syrian Battle for End of Time.» Reuters, 1 April 2014.

________. «Insight-In Northeast Syria, Islamic State Builds a Government.» Reuters, 4 September 2014, <http://uk.reuters.com/article/2014/09/04/uk-syria-crisis-raqqa-insight-idUKKBN0GZ0DD20140904>.

Keating, Joshua. «The Fall of Mosul.» *Slate*: 10 June 2014, <http://www.slate.com/blogs/the_world_/2014/06/10/the_fall_of_mosul_the_u_s_spent_20_billion_on_iraqi_security_forces_who.html>.

«Al-Khansaa Brigade.» Terrorism Research and Analysis Consortium (2015), <http://www.trackingterrorism.org/group/al-khansaa-brigade>.

Al-Khatib, Moatez. «Daesh's Intellectual Origins: From Jurisprudence to Reality.» Aljazeera Center for Studies, January 2015, <http://studies.aljazeera.net/en/dossiers/decipheringdaeshoriginsimpactandfuture/2014/12/2014123981882756.htm#a20>.

Lahoud, Nelly with Muhammad al-'Ubaydi. «Jihadi Discourse in the Wake of the Arab Spring.» Harmony Program Combatting Terrorism Center at West Point, December 2013, <http://www.ciaonet.org/attachments/24119/uploads>.

Landay, Jonathan, Warren Strobel, and Phil Stewart. «Exclusive: Seized Documents Reveal Islamic State's Department of «War Spoils».» Reuters, 28 December 2015.

Office of the Director of National Intelligence, Bin Ladin's Bookshelf, 20 May 2015, <http://1.usa.gov/1ScFGXh>.

________. «Message for General Islamic Nation (Arabic).» Bin Ladin's Bookshelf, 20 May 2015, <http://www.dni.gov/files/documents/ubl/arabic2/Message%20for%20general%20Islamic%20nation%20-%20Arabic.pdf>.

Maher, Shiraz. «The Roots of Radicalisation? It's Identity, Stupid.» ICSR, 23 June 2015, <http://icsr.info/2015/06/icsr-insight-roots-radicalisation-identity-stupid/>.

Mamouri, Ali. «IS Imposes New Rules on Education in Syria, Iraq.» Al-Monitor: 21 October 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/10/islamic-state-impose-education-program-iraq-syria.html#>.

«March Forth Whether Light or Heavy.» *Carol Anne Grayson (Radical Sister) Blog*, 14 May 2015, <https://activist1.wordpress.com/2015/05/14/Islamic-state-al-furqan-media-releases-new-audio-and-transcript-allegedly-of-baghdadi>.

«Measuring Stability and Security in Iraq.» US Department of Defense, March 2008, <http://www.defense.gov/pubs/pdfs/Master%20%20Mar08%20-%20final%20signed.pdf>.

Messi, Leo. «Nabil al-Awadi, International Conspiracy against Syria.» YouTube, uploaded on 21 August 2011, <http://www.youtube.com/watch?v=um6eCDFpHIM>.

Middle East Media Research Institute. «Abu Mus'ab Al-Zarqawi: Collateral Killing of Muslims Is Legitimate.» <http://www.memri.org/bin/opener.latest.cgi?ID=SD91705>.

More than Shi'ites and Sunnis, Report by Iraqi Academics and Professionals and the Norwegian Institute of International Affairs (NUPI), 2009, <http://www.historiae.org/documents/Post-sectarian.pdf>.

Morgan, David. «Iraq Conflict Feeds International Threat-CIA.» Reuters, 16 February 2005.

Nakhleh, Emile. «Islamic Reformation: The Antidote to Terrorism.» LobeLog, 13 January 2015, <http://lobelog.com/islamic-reformation-the-antidote-to-terrorism>.

———. «The Islamic State's Ideology Is Grounded in Saudi Education.» Inter Press Service News, 27 October 2014, <http://www.ipsnews.net/2014/10/opinion-the-islamic-states-ideology-is-grounded-in-saudi-education/>.

———. «Why Is the Islamic State So Resilient?.» LobeLog, 5 June 2015, <http://www.lobelog.com/why-is-the-islamic-state-so-resilient>.

«Nasrallah: Hezbollah to Increase Presence in Syria.» Al Jazeera, 25 May 2015, <http://www.aljazeera.com/news/2015/05/nasrallah-hezbollah-increase-presence-syria-150524233716453.html>.

Nelson, Shellie. «State Department Report: ISIS Breaking New Ground as New Ground as New Leader in Terror Groups.» CNN.com 20 June 2015, <http://edition.cnn.com/2015/06/19/politics/isis-report-state-department-terrors>.

«Al-Nusra Front Opened «Modesty Charity» Offers Free Islamic Clothing to the Women in Hama.» SITE Intelligence Group, <https://ent.siteintelgroup.com/Jihadist-News/al-nusra-front-opened-modesty-charity-offers-free-islamic-clothing-to-women- in-hama.html>.

«Nusra Leader: Our Mission Is to Defeat Syrian Regime.» Al Jazeera, 28 May 2015, <http://www.aljazeera.com/news/2015/05/nusra-front-golani-assad-syria-hezbollah-isil-150528044857528.html>.

Parker, Ned, Isabel Coles, and Salman Raheem. «Special Report: How Mosul Fell-An Iraqi General Disputes Baghdad's Story.» Reuters, 14 October 2014, <http://www.reuters.com/article/2014/10/14/us-mideast-crisis-gharawi-special-report-idUSKCN0I30Z820141014>.

«Pillay Condemns Execution of 34 Individuals in One Day in Iraq.» Geneva Centre for Justice, 24 January 2012, <http://www.gicj.org/index.php?option=com_content&task=view&id=124&Itemid=52>.

«PM Says Saddam Loyalists Infiltrated Iraq's Sahwa Militia.» Agence France Presse, 4 April 2009, <http://lebanonwire.com/0904MLN/09040417AF.asp>.

«President Obama Speaks with Vice News.» (video), 15 March 2015, <https://news.vice.com/video/president-obama-speaks-with- vice-news>.

«Profile: Syria's al-Nusra Front.» BBC, 10 April 2013, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-18048033>.

«Protesters Take to Iraq's Streets Despite Vehicle Ban.» Radio Free Europe Radio Liberty, 4 March 2011, <http://www.rferl.org/content/protesters_iraq_streets_vehicle_ban/2327895.html>.

«Al-Qa'ida Holds Family Fun Day in War Torn Aleppo.» Liveleak, 24 July 2013, <http://www.liveleak.com/view?i=588_1374686964&comments=1>.

«Al Qaeda in 2007: The Continuing Devolution.» Stratfor, 28 December 2006, <https://www.stratfor.com/sample/analysis/al-qaeda-2007-continuing-devolution>.

Raheem, Salman. «Fugitive Saddam Deputy Lends Support to Iraq Sunni Protests.» Reuters, 5 January 2013, <http://www.reuters.com/article/2013/01/05/us-iraq-protests-douri-idUSBRE9040BV20130105>.

Rahim, Fazul and F. Brinley Bruton. «Taliban Warns ISIS to Stay Out of Afghanistan.» NBC News, 16 June 2015, <http://www.nbcnews.com/news/world/taliban-warns-isis-stay-out-afghanistan-n376311>.

________, Mujeeb Ahmed, and Mushtaq Yusufzai. «Taliban Splinters as ISIS Makes Inroads in Afghanistan.» NBC News, 21 June 2015, <http://www.nbcnews.com/news/world/afghan-taliban-splits-isis-makes-inroads-n378456>.

«The ar-Raqqa Executions-Confirmation of the Islamic State in Iraq and as-Sham.» *Pietervanostayen* (blog), 15 May 2013, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2013/05/15/the-ar-raqqa-executions-confirmation-of-the-islamic-state-in-iraq-and-as-sham>.

«The Report by the Parliamentary Committee Regarding the Fall of Mosul.» <http://integrityuk.org/wp-content/uploads/2015/08/Arabic-Mosul-Report.pdf>.

«A Review of Events: As-Sahab's Fourth Interview with Shaykh Ayman al-Zawwhiri.» November-December 2007, <https://archive.org/details/A-Review-of-Events2>.

«Ruinous Aftermath: Militias Abuses Following Iraq's Recapture of Tikrit.» Human Rights Watch, 20 September 2015, <http://www.hrw.org/report/2015/09/20/ruinous-aftermath/militias-abuses-following-iraqs-recapture-tikrit>.

Roberts, David. «Is Qatar Bringing the Nusra Front in from the Cold?.» BBC, 6 March 2015, <http://www.bbc.com/news/world-middle-east-31764114>.

«Rumsfeld Questions Terror War Progress.» Associated Press: 22 October 2005; 1 November 2005; 25 February 2005; 26 April 2005, and 25 May 2004.

Al-Sahly, Suadad. «Iraq Mosque Bomb Targeted Moderate Sunnis, Say Officials.» Reuters, 29 August 2011, <http://www.alarabiya.net/articles/2011/8/29/164654.html>.

Saleeby, Suzanne. «Sowing the Seeds of Dissent: Economic Grievances and the Syrian Social Contract's Unraveling.» Jadaliyya, 16 February 2012, <http://www.jadaliyya.com/pages/index/4383/sowing-the-seeds-of-dissent economic-grievances-an>.

Sayigh, Yezid. «Are the Sykes- Picot Borders Being Redrawn?.» Carnegies-mec.org, 26 June 2014, <http://carnegie-mec.org/2014/06/26/are-sykes-picot-borders-being-redrawn>.

Schrek, Adam. «Iraqi Shiite Cleric Lends Support to Sunni Protest.» Yahoo News, 1 January 2013, <http://news.yahoo.com/iraqi-shiite-cleric-lends-support-sunni-protest-112135871.html>.

«Sheikh Abu Yahya al-Libi Calling for Support for the Syrian Revolution with Money and Weapons.» 13 June 2012, <http://www.muslm.org/vb/showthread.php?483215>.

«Sheikh Abu Yahya al-Libi Praising the Egyptian and Tunisian Revolution.» YouTube, 12 June 2011, <http://www.youtube.com/watch?v=aqXoizHpOvs>.

Shubert, Atika. «How ISIS Controls Life, from Birth to Football.» CNN.com, 21 April 2015.

Solomon, Erika. «Hundreds of Syria Rebels Pledge Loyalty to Qaeda Groups: Activists.» Reuters, 20 September 2013, <http://www.reuters.com/article/2013/09/20/us-syria-crisis-qaeda-idUSBRE98J0DK20130920>.

Strack, Columb. «Islamic State Territory Shrinks by 9.4% in First Six Months of 2015.» IHS Janes, 27 July 2015, <http://www.janes.com/article/53239/islamic-state-territory-shrinks-by-9-4-in-first-six-months-of-2015#.VbeipB_weRs.twitter>.

«Syria: Fresh Evidence of Armed Forces' Ongoing Crimes against Humanity.» Amnesty International, June 2012, <http://www.amnesty.org/en/latest/news/2012/06/syria-fresh-evidence-armed-forces-ongoing-crimes-against-humanity>.

«Syria: Harrowing Torture, Summary Killings in Secret ISIS Detention Centres.» Amnesty International, 19 December 2013, <http://www.amnesty.org/en/articles/news/2013/12/syria-harrowing-torture-summary-killings-secret-isis-detention-centres>.

«Syria: ISIS Tortured Kobani Child Hostages.» Human Rights Watch, 4 November 2014, <http://www.hrw.org/news/2014/11/04/syria-isis-tortured-kobani-child-hostages>.

«Syria: Al-Qaeda Arm «Stages Fun Day».» BBC, 23 July 2013, <http://www.bbc.co.uk/news/blogs-news-from-elsewhere-23420018>.

«Syria Rebels Overrun Aleppo Military Base.» BBC, 10 December 2012, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-20666047>.

«Syria in Civil War, Red Cross Says.» BBC, 15 July 2012, <http://www.bbc.com/news/world-middle-east-18849362>.

Syrian Observatory for Human Rights. «More than 6000 Fighters Have Joined the Islamic State since Last July/2014.» Facebook Post: 20 August 2014, <http://www.facebook.com/syriahroe/posts/571680432940299>.

«Syrian Government and Opposition Forces Responsible for War Crimes.» UN News Centre, 15 August 2012, <http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=42687#.VcdJPzBViko>.

Al-Tamini, Aymen Jawad. «Announcement from Islamic State of Iraq and ash-Sham's Tel Abyad Islamic Court.» aymennjawaad.org, 9 March 2014, <http://www.aymennjawad.org/2014/02/announcement-from-islamic-state-of-iraq-and-ash>.

Tastekin, Fehim. ««Sunni Project» Needed to Fight ISIS, Says Mosul Governor.» *Al-Monitor*: 16 June 2014, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2014/06/tastekin-isis-sunnis-mosul-iraq-turkey-syria-erbil-kirkuk.html#>.

Tattersall, Nick. «Fugitive VP Says Iraq Violence Part of a Sunni Arab Revolt.» Reuters, 16 June 2014, <http://www.reuters.com/article/2014/06/16/us-iraq-security-hashemi-idUSKBN0ER28620140616>.

«Terror Tape Says 4,000 Foreign Fighters Killed in Iraq.» CNN, 28 September 2006, <http://edition.cnn.com/2006/WORLD/meast/09/28/iraq.main>.

Turkmani, Rim. «ISIL, JAN and the War Economy in Syria.» *Security in Transition* (London School of Economics): 30 July 2015, <http://www.securityintransition.org/wp-content/uploads/2015/08/ISIL- JAN-and-the-war-economy-in-Syria1.pdf>.

________ [et al.]. «Countering the Logic of the War Economy in Syria; Evidence from Three Local Areas.» *Security in Transition*: July 2015, <http://bit.ly/1NcvHgH>.

«UN Emergency Fund Provides over $9 Million to Boost Aid to Syrian Refugees.» UN News Centre, 13 June 2012, <http://www.un.org/apps/news/story.asp?NewsID=42224#.VYHfP2RViko>.

«The Unfulfilled Promised of Oil and Growth-Poverty, Inclusion and Welfare in Iraq, 2007-2012.» World Bank Group (2014), <https://openknowledge.worldbank.org/bitstream/handle/10986/21364/938580v20WP0RE021B0102601500PUBLIC0.pdf?sequence=1>.

US Department of State. «Terrorist Designations of the al-Nusrah Front as an Alias for al-Qa'ida in Iraq.» Press Statement, 11 December 2012, <http://www.state.gov/r/pa/prs/ps/2012/12/201759.htm>.

________, Bureau of Counterterrorism. «Country Reports on Terrorism 2014.» June 2015, <http://www.state.gov/documents/organization/239631.pdf>.

Vice News Documentary. «The Islamic State.» ViceNews.com, 26 December 2014, <https://news.vice.com/video/the-islamic-state-full-length>.

«What Is «Islamic State»?.» BBC, 8 October 2015, <http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-29052144>.

Williams, Sara Elizabeth. «A Rebel Rift Is Brewing on Syria's Southern Front.» ViceNews.com, 25 May 2014, <https://news.vice.com/article/a-rebel-rift-is-brewing-on-syrias-southern-front>.

Youssef, Maamoun. «Al-Qaida Announces Iraqi Suicide Squad.» Associated Press: 21 June 2005.

Yusufzai, Mushtaq. «ISIS in Pakistan and Afghanistan: Taliban Fighters Sign Up, Commanders Say.» NBC News, 31 January 2015, <http://www.nbcnews.com/news/world/isis-pakistan-afghanistan-taliban-fighters-sign-commanders-say-n296707>.

«Al Zarqawi Group Vows Allegiance to Bin Laden.» Associated Press: 17 October 2004.

Al-Zawahiri, Ayman. «Letter from al-Zawahiri to al-Zarqawi.» Combating Terrorism Centre, 2005, <http://www.ctc.usma.edu/v2/wp-content/uploads/2013/10/Zawahiris-Letter-to-Zarqawi-Translation.pdf>.

———. «Testimonial to Preserve the Blood of Mujahideen in al-Sham [Greater Syria].» *Pietervanostaeyen* (blog), 3 May 2014, <https://pietervanostaeyen.wordpress.com/2014/05/03/dr-ayman-az-zawahiri-testimonial-to-preserve-the-blood-of-mujahideen-in-as-sham/>.

«Al-Zawahiri Says that the Grandson of al-Khawarij and His Gang Who Killed Abu Khaled Al-Surri God Bless Him Would Be Doomed.» YouTube, 11 May 2015, <http://www.youtube.com/watch?v=VWdc-aZMCKU>.

فهرس

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

ـ هـ ـ

- و -

- ي -

هذا الكتاب

من رحم تنظيم القاعدة في العراق وُلد داعش، وفي غضون سنوات قليلة بات لهذا التنظيم دولته الممتدة على مساحات واسعة من الأراضي العراقية والسورية، وبات يمتلك من القوة البشرية والعتاد العسكري والاقتصاد ما يهدد بإسقاط الدولة في هذين البلدين وبالتمدد نحو بلدان أخرى. ورغم صورته الدموية والوحشية، التي لم يتردد هو بالترويج لها عبر شبكات التواصل العالمية، استطاع أن يمتلك قوة جذب واستقطاب. وإذا كانت القاعدة الأم قد بنت شعبيتها انطلاقاً من مقارعتها العدو البعيد المتمثل بالغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة، فإن صراع الهويات وقتال العدو القريب المتمثل بالشيعة والحكومات العلمانية في المنطقة، مثّل عامل الاستقطاب الأساسي لدى داعش.

يؤرخ هذا الكتاب لتجربة داعش، ويحلل ظروف نشأة هذا التنظيم والخلفيات الاجتماعية والعقيدية لقادته وعناصره، والعوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي دفعت الناس نحو خياراته، وبخاصة تصاعد الموجة الطائفية في المنطقة وتعمّق مظاهر الفقر والبطالة والتهميش مقابل تحطّم مؤسسات الدولة الوطنية في العراق وسورية تحديداً. كما يتناول الكتاب تجربة هذا التنظيم في إدارة دولته واختلافه مع التنظيمات السلفية الجهادية الأخرى والتباين بينه وبين تنظيم «القاعدة»، وينتهي الكتاب إلى قراءة تحليلية لمستقبل داعش.

د. فوّاز جرجس

- أستاذ العلاقات الدولية وأستاذ غير متفرغ في دراسات الشرق الأوسط المعاصر في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية.
- أصدر عدداً من الكتب، منها: **الشرق الأوسط الجديد: الاحتجاج والثورة والفوضى في الوطن العربي** (٢٠١٦)، **أوباما والشرق الأوسط: نهاية العصر الأمريكي** (٢٠١٤) **القاعدة: الصعود والأفول: تفكيك نظرية الحرب على الإرهاب** (٢٠١٢)، **العدو البعيد: لماذا أصبح الجهاد كونياً** (٢٠٠٥)، **والسياسة الأمريكية تجاه العرب: كيف تُصنع ومن يصنعها** (٢٠٠٠)، كما نشر عدداً من الأبحاث والمقالات في عدة دوريات عربية وأجنبية.

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ١٥ دولاراً
أو ما يعادلها

ISBN: 978-9953-82-762-9

